مِن
وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم

شرح وتعليق

طه عبد الله العفيفي

المجلد الثالث

دار الاعتصام



دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازى ـ ت٣٥٤٦٠٣١/٣٥٥١٧٤٨ ص ب
٤٧٠ القاهرة الرمز البريدى ١١٥١١ فاكسيميلى ٣٥٤٦٠٣١

للطبع والنشر والتوزيع



شرح وتعليق

طه عبد الله العفيفي

الجزء الثالث

٢١ - ٣٠



تقديم

وأخيراً : أخا الإسلام ، وأنت أيتُها الأختُ المسلمة - في مشارق الأرض ومغاربها - : إليكما المجلد الثالث : « من : وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم » الذي شرحت فيه - بتوفيق من الله تبارك وتعالى - أربعين وصية .. بعد أن شرحت قبل ذلك ستين وصية في المجلد الأول والمجلد الثاني .. وبهذا أكون قد شرحت « المائة وصية » التي كنت قد وعدت بشرحها قبل هذا .

ولسوف تريان إن شاء الله تعالى من خلال قراءتكما للمجلد الثالث من الوصايا .. أنكما كنتما في أشد الحاجة إلى بقية الوصايا حتى تُضم إلى أخواتها في المجلدين الأول والثانى وحتى تكون كذلك زاداً ومرجعاً لكما - بل ولنا جميعاً - نستعين به في ظلمات الحياة الأولى التي تحتاج دائماً وأبداً إلى هذا النوع من الضياء المحمدي الذي به إن شاء الله تعالى سنشق طريقنا إلى الله تبارك وتعالى .. دون تخبط في ظلمات الجهل .. أو انقياد إلى الخرافات والأوهام .

ولسوف تريان كذلك أنه من الخير لكما أن تعملا على نشر هذا العلم النافع الذي هو من مشكاة النبوة .. حتى تكونا بهذا إن شاء الله قد قدمتما لنفسيكما خيراً :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً علَّمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورَّثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهرا اجراه ، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موته » . رواه ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه بنحوه .

فنفعنا الله جميعاً بهذا العلم النافع ، وجزى الله خيراً عنا وعن الإسلام والمسلمين ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ كل من ساهم وسيساهم في نشر « وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم » ولو بكلمة طيبة .. إلى يوم الدين .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً للعمل بما علمنا .. حتى يكون هذا العلم النافع إن شاء الله تعالى حجة لنا لا علينا .

والله ولي التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

خادم القرآن والسنة

طه عبد الله العفيفي

الوصية التاسعة والخمسون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

المؤمن القوي خير وأحب
إلى الله من المؤمن الضعيف وفي
كل خير. احرص على
ما ينفعك ، واستعن بالله
ولا تعجز[1]، وإن أصابك شيء
فلا تقل : لو أني فعلت
كان كذا وكذا ، ولكن قل :
قدر الله وما شاء فعل ، فإن

"لَوْ تفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ.

رواه مسلم

---

(١) وَلا تعجِز، أى لا تكن عاجزًا عن الأخذ بالأسباب طلبًا للرزق ..

- هذا وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصانا بهذا، فهذا معناه أنه صلى الله عليه وسلم يدفعنا دفعًا إلى العزة والكرامة ... وذلك لن يكون إلا بالعمل الجاد وعدم التواكل وهو ترك العمل بدعوى الزهد المرفوض شرعًا. لأنه كما قال العلماء: (ليس الزاهد من لا مال عنده بل الزاهد من لم يشغل المال قلبه وإن أوتى مثل ما أوتى قارون).

فكن أخا الإسلام :

من المنتفعين بهذه الوصية العظيمة التى يرغبنا فيها الرسول ﷺ — كمؤمنين — فى أن نكون من الأقوياء فى مظهرنا ومخبرنا وفى جميع شئون حياتنا الدنيوية والأخروية .

وذلك لأن الدين الاسلامى هو دين القوة .. وقد أمر الله المسلمين بأن يأخذوا بأسباب القوة حتى تتحقق لهم عوامل النصر ، والبقاء فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة .

كما أمر الله تعالى الأمة الاسلامية أن تكون قوية فى إيمانها وصلتها بالله ورسوله ، حيث أن الايمان هو الدعامة الأولى فى خلق الحياة الطيبة ، يربى فى النفوس الفضائل ويغرس فيها الاخلاص فى العمل ، وجعل من الإنسان رقيبا عليه يحاسبه إذا قصر ، ويحرسه أذا أهمل ويشعر العامل بأن قطرات العرق التى تتساقط من جبينه فى العمل المنتج لأمته إنما هى فى سبيل . وقوة الإيمان هى التى تبعث فى العامل حرارة العمل وتشد فيه قوة العزم ، وتدفعه فى صلابة إلى مضاعفة الجهد ، أوإلى حسن الإنتاج وزيادته لسعادة أمته ورفاهيتها ، وتذكرة بقول النبى ﷺ : « ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه إنسان أو دابة أو طير إلا كان له به صدقة » .

وقوله ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

والأمة التى تخوض معركة البناء تحتاج الى الأيدى المخلصة والسواعد الفتية التى تعمل على زيادة الانتاج فى كل ميدان من ميادين العمل حتى توفر للشعب سبل نهضته وأسباب رقيه ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾(١) .

والحياة الدنيا حياة العمل لعز الدنيا وشرف الآخرة .. قال تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾(٢) .

والعمل يحتاج إلى قوة الروح وقوة البدن ، ولا تقوى الروح إلا بعبادة الله

---

(١) الكهف : ٣٠ .

(٢) التوبة : ١٠٥ .

عز وجل حيث يستيقظ الضمير ويحيا القلب ويعيش الإنسان مع ربه يخافه ويخشاه ، قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾[1] .

وقوة الأبدان لاتكون إلا حين تتوافر مطالبها من الإنتاج الزراعي الذي هو ثمرة جهد الفلاح وكدحه وكفاحه من أجل وطنه فهو أحد أبنائه ولبنة في صرح بنائه ، ومن الإنتاج الصناعي الذي تعمل الأمة جاهدة على توفيره الأمر الذي يحتم على العمال الإخلاص لعملهم والسعى الدائب لإتقانه وزيادته حتى تحصل الأمة على ثروة تعمر بها وتبني وتوفر لأبنائها وسائل الحياة الكريمة العزيزة ، كما تجد من بينهم من يمكن أن يكون عدتها في الشدائد وسنادها في الخطوب والملمات وقوتها التي تدفع بها كل عدوان وترد كيد كل باغ عن حماها الكريم وبذلك تعيش مرهوبة الجانب موفورة القوة لها ما تستحق في الدنيا من إجلال وإعظام وإكبار .

والقرآن الكريم يدعونا إلى أن نأخذ بأسباب القوة ، قال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ..** ﴾[2] ، ولفظ القوة عام في كل ما يتقوى به المسلم في الداخل وأمام أعدائه في الخارج ..

* * *

وتحت عنوان :

القـــوة

أعجبني كذلك ما كتبه فضيلة الشيخ محمد الغزالي ــ أكرمه الله ــ في كتاب « خلق المسلم » حيث يقول[3] .

العقيدة المكينة ، معين لا ينضب للنشاط الموصول ، والحماسة

---

(١) الذاريات : ٥٦ ــ ٥٨ .
(٢) الأنفال : ٦٠ .
(٣) بتصرف وإيجاز .

المذخورة ، واحتمال الصعاب ، ومواجهة الأخطار ، بل هي سائق حثيث يدفع إلى لقاء الموت دون تهيب ، إن لم يكن لقاء محب مشتاق !!

تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمكن ، إنه يضفي على صاحبه قوة تنطبع في سلوكه كله ، فإذا تكلم كان واثقاً من قوله ، وإذا اشتغل كان راسخاً في عمله ، وإذا اتجه كان واضحاً في هدفه ، وما دام مطمئناً إلى الفكرة التي تملأ عقله ، وإلى العاطفة التي تعمر قلبه ، فقلما يعرف التردد سبيلاً إلى نفسه ، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه ، بل لا عليه أن يقول لمن حوله :

﴿ اعملوا على مكانتكم إني عامل ، فسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾[1] .

هذه اللهجة المقرونة بالتحدي . وهذه الروح المستقلة في العمل ، وتلك الثقة فيما يرى أنه الحق .. ذلك كله يجعله في الحياة رجل مبدأ متميزاً، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره . إن رآهم على الصواب تعاون معهم ، وإن وجدهم مخطئين : نأى بنفسه ، واستوحى ضميره وحده ..

قال رسول الله ﷺ : « لا يكن أحدكم إمعة . يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت !! ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم »[2] .

والرجل الضعيف ، هو الذي يستعبده العرف الغالب ، وتتحكم في أعماله التقاليد السائدة ، ولو كانت خطأ يجر معه متاعب الدنيا والآخرة .. إلى أن يقول : -

أجل .. يجب أن يكون المسلم شاعراً بقوة اليقين في شخصه ، وروعة الإيمان في نفسه . فإن لم يستطع فرض ذلك على ما حوله بقي كالطود الأشم ، لم تجرفه الغمار السائدة ، ولم تطوه اللجج الصاخبة . وماذا يفعل الناس لامرىء اعتز بإيمانه ، واستشعر القوة لصلته بربه واستقامته في دينه ؟ إنهم لو تألبوا عليه جميعاً ما نالوا منه قليلاً ولا كثيراً ..

---

(١) الزمر : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) رواه الترمذي .

عن ابن عباس ، قال : كنت رديف رسول الله ﷺ ، فقال : « يا غلام .. احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك . ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك ، جفت الأقلام وطويت الصحف » .

والحق أن فضيلة القوة ترتكز في نفس المسلم على عقيدة التوحيد ، كغيرها من الفضائل التي تجعله يرفض الهوان فى الأرض ، لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء ، ولأنه يستطيع في نطاق إيمانه أن يكون أمة وحده ، وفي فمه قول لله عز وجل : ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين ﴾[1] .

ومن فضائل القوة التي يوجبها الإسلام : أن تكون وثيق العزم ، مجتمع النية على إدراك هدفك بالوسائل الصحيحة التي تقربك منه ، باذلاً قصارى جهدك في بلوغ مأربك ، غير تارك للحظوظ أن تصنع لك شيئاً ، أو للأقدار أن تدبر لك ما قصرت في تدبيره لنفسك !! فإن هناك أقواماً يجعلون من اللجوء إلى الله ستاراً يواري تفريطهم المعيب وتخاذلهم الذميم ، وهذا التواء كرهه الإسلام .

فعن عوف بن مالك ، قال : قضى رسول الله ﷺ بين رجلين . فلما أدبرا قال المقضى عليه : حسبي الله ونعم الوكيل ! فقال ﷺ : « إن الله يلوم على العجز !! ولكن عليك بالكيس . فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » .

أى أن المرء مكلف بتعبئة قواه لمغالبة مشاكله حتى تنزاح من طريقه ، فإن ذللها حتى استكانت له فقد أدى واجبه .

---

(١) الأنعام : ١٤ ، يطعم ولايطعم : الأولى بضم الياء وتسكين الطاء وكسر العين ، والثانية بفتح العين .

وإن غلب على أمره أمامها بعد استفراغ جهده كان ركونه إلى الله عندئذ معاذاً يعتصم به من غوائل الإنكسار ، فهو على الحالين قوى ، بعلمه أولاً وبتوكله آخراً .. إلى أن يقول :

وقد جاء في الحديث : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

والتوكل الذي يقوي الإنسان به ضرب من الثقة بالله ، ينعش الإنسان عندما تكتنفه ظروف محرجة ، ويلتفت حوله فلا يرى عوناً ولا أملاً .

فالمكافح عدواً قوى الشكيمة ، شديد البأس ، على ضعف العدة وقلة الناصر يحس عندما يتوكل على الله أنه آوي إلى ركن شديد ، ويستمد من هذا التوكل ثباتاً ورباطاً ، ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال جو مكفهر ، وقد بين الله تبارك وتعالى أن هذا التوكل كان غذاء الكفاح الطويل الذي قاوم به النبيون وأتباعهم مظالم الطغاة وبغى المستبدين .

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾(١) .

وقد كان الحكام الفجرة وأشياعهم يسمون تشبث المؤمنين بما لديهم وتأميلهم الخير في المستقبل ، وطمأنينتهم إلى أن ضعفهم الحاضر سيتحول قوة غالبة .. كانوا يسمون ذلك غروراً ! :

﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾(٢) .

فالتوكل الحق قرين الجد المضني والإرادة المصممة ، ولم ينفرد التوكل عن هذه المعاني إلا في العصور التي مسخ فيها الإسلام ، وأصبح بين أتباعه لهواً ولعباً .

ومما يجعل المسلم قوياً أن يبتعد عن حياة الخلاعة والفجور ، وأن يألف مسالك النزاهة والاستقامة ، فإن الرجل الخرب الذمة أو الساقط المروءة لا قوة له ولو لبس جلود السباع ، ومشى في ركاب الملوك .

---

(١) إبراهيم : ١٢ . (٢) الأنفال : ٤٩ .

وقد نصح الله قوم هود فأرشدهم إلى أسباب القوة الصحيحة ، وكانوا عمالقة جبارين، فقال :

﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾(١) .

وأراد رسول الله ﷺ أن يزين الطاعات للناس، وأن يغريهم بأدائها، وأن يشرح لهم عظمة الإنسان عندما يفعل الخير ويراغم الشيطان ويسمو إلى الملأ الأعلى ، فضرب لهم المثل في سياق حديث له ، قال :

« لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ فأرساها بالجبال فاستقرت . فتعجب الملائكة من شدة الجبال ، فقالوا : يا ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الجبال ؟ قال : نعم : الحديد ، قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار ، قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء ، قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح ، قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم إذا تصدق صدقة بيمينه فأخفاها عن شماله »(٢) .

إن الإنسان ، هذا الكائن العجيب ، يعتبر سيداً لعناصر الكون كلها ، يوازن أعتاها وأقساها فيرجحه ويربو عليه ، يوم يكون شخصاً فاضلاً ! ولكنه يلعن في الأرض والسماء ويرجحه الذر والهباء يوم يكون شخصاً ساقطاً .

والمثل الذى ذكره الحديث ليس إلا إبرازاً لقيمة الرجل المحسن وتصويراً لرسوخه وشموخه عندما يسبق في ميدان الخير ..

ومن عناصر القوة أن يكون المسلم صريحاً ، يواجه الناس بقلب مفتوح ومبادىء معروفة ، لا يصانع على حساب الحق بما يغض من كرامته وكرامة أنصاره . بل يجعل قوته من قوة العقيدة التي يمثلها ويعيش لها . ولا يحيد عن هذه الصراحة أبداً في تقرير حقيقة ما .

حدث أن كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم !! فقام رسول الله ﷺ

---

(١) هود : ٥٢ .

(٢) رواه الترمذي .

يخطب الناس ، فقال :

« إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته . ولكنهما آيتان من آيات الله تعالى يريهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة »(١) .

ذلك أن الشخص الذي يحيا في الحقائق لا يتاجر بالأباطيل ، فهو غنى عنها . وصراحته دليل على ثروة عريضة من الشرف ، تغنى صاحبها عن الدجل والاستغلال ، وتقيم سيرته على ركائز ثابتة من الفضيلة والكمال .

وقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنبثق من هذا السمو النفسي ، لأنها تعتمد على مصارحة المخلصين بما فرط منهم ابتغاء محوه لتثبت مكانه الصواب والخير .

إلى أن يقول الشيخ الغزالي :

والذي نريد توكيده هنا أن المسلم يجب أن يكون نقادة للعيوب الفاشية ، جريئاً في الحملة عليها ، لا يتهيب كبيراً ولا يستحي من قريب ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ..

وقد كره الإسلام أن يضعف الرجل أمام العصاة من الكبراء ، وأن يناديهم بألفاظ التكريم :

قال رسول الله ﷺ : « إذا قال الرجل للمنافق : يا سيد ، فقد أغضب ربه »(٢) .. أ هـ .

* * *

ولقد كان حبيبنا صلوات الله وسلامه عليه مثلاً أعلى في كل عناصر القوة — التي وقفنا عليها — :

فقد جاء في كتب السيرة أنه ﷺ كان ذا شجاعة ونجدة ، وبسالة وشدة ، طالما ثبت في الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الحاكم .

وحسبنا أن نذكر « يوم حنين » وقد التقي جيشه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بجيوش قريش ، وخالف جيشه تعاليمه وانصرفوا عن أماكنهم ، قبل أن يتم له النصر . فاحتلها العدو وحمل عليهم ففروا وبقى هو في الميدان وحيداً يمتطى بغلته ، وهو يقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ..

ولعمر الله إن ذلك لفوق ما نعهد من شجاعة البشر ، فإن الإنسان مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعدما فر عنه أصحابه ، وخصوصاً إذا كان على بغلته بين تلك الخيول المطهمة ، والفرسان المدربة .

يقول سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه : « لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد ، قلت : أذود عن نفسي ، فإما أن أستشهد ، وإما أن ألحق حتى ألقى رسولِ الله ﷺ ، فبينما أنا كذلك إذا برجل مخمر وجـــهه ــ ملثمه ــ ما أدري من هو ؟ فأقبل عليه المشركون حتى قلت : قد ركبوه ، فملأ يده من الحصا ثم رمى به وجوههم ، فتنكبوا على أعقابهم القهقرى ، حتى أتوا الجبل . ففعل ذلك مراراً ولا أدري من هو ؟وبيني وبينه المقداد بن الأسود ، فبينما أنا أريد أن أسأل المقداد عنه ، إذ قال المقداد : يا سعد .. هذا رسول الله ﷺ يدعوك ، فقلت : وأين هو ؟ فأشار إليه ، فقمت وكأنه لم يصبني شيء من الأذى ، وأجلسني أمامه ، فجعلت أرمي وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ، ورسول الله ﷺ يقول : اللهم استجب لسعد ، وسدد رميته ، وأجب دعوته » .

ويقول على رضى الله عنه وكرم الله وجهه : « كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقرب إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً » .

* * *

ومن مظاهر قوته وتحديه لقوى الباطل : ما حدث يوم أن ذهب رجال من أشراف قريش إلى عمه أبي طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب . إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وأنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا، وإنا والله

لا نصبر على هذا .. من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

فلما انصرفوا .. أرسل عمه إليه فجاءه ، فقص عليه نبأ قومه ، ثم قال له : يا ابن أخي ، أبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله ﷺ ، أنه قد بدا لعمه رأى جديد ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه .. فأعلن في قوة إيمانية تؤكد ثقته الكاملة بالله تعالى القوى العزيز .. قائلاً : « والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ..

ثم قام واثقاً بالله تعالى ثقة لا تزعزعها الأعاصير ، ثقة تميد دونها الجبال ولا تميد ، فلما ولى ناداه أبو طالب : أقبل يا ابن أخى ، فأقبل رسول الله ﷺ .. فقال له عمه : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك إليهم أبدا .

وذلك لأنه لمس منه الرجولة الكاملة ، والقوة الإيمانية الخارقة التى لا تقهر .

* * *

وهكذا كان أغلب أصحابه الفضلاء عليهم جميعاً رضوان الله .. نذكر منهم على سبيل المثال :

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلقد ورد أنه كان قوياً جداً ، لدرجة أنه ــ كما سمعت ــ كان ذات يوم يقص شعره فعطس فأغمى على وكان عملاقاً لدرجة أنه كان إذا أراد أن يركب جواداً رفع ساقه وهو على الأرض ووضعه في الناحية الأخرى .

ولهذا فقد تمنى الرسول ﷺ أن يعز الله به الإسلام ، فقال كما ورد : « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين عمرو بن هشام ، أو عمر بن الخطاب » .. فكانت هذه الدعوة ــ أن صحت ــ من نصيب عمر بن الخطاب .. في يوم يعتبر من أحلك الأيام بالنسبة له في أوله ، ومن أعظم الأيام بالنسبة له في آخره

أو في أوسطه .. لأنه في هذا اليوم المشار إليه ، كان قد خرج من بيته متجهاً إلى دار الأرقم بن الأرقم[1] ــ حاملاً سيفه ــ ليقتل رسول الله ﷺ .. فرآه أحد أصدقائه .. فقال له : إلى أين يا ابن الخطاب ؟ فقال : إني ذاهب إلى هذا الرجل الذي يسب آلهتنا ويسفه أحلامنا لأريح الناس منه . فقال له صاحبه هذا : أرى أن تذهب أولاً إلى أختك[2] وزوجها ــ سعيد بن زيد ــ لأنهما قد آمنا به .. وفعلاً بعد أن كان متجهاً إلى دار الأرقم بن الأرقم.. اتجه إلى دار أخته ، وهناك طرق الباب طرقة قوية عرف طارقها .. ولهذا حدث في داخل الدار أن اختبأ الخباب بن الأرت وهو صحابي جليل كان يعلمهما القرآن ــ لأنه لا يستطيع مواجهة عمر ــ ثم ذهبت أخته إلى الباب ففتحته .. فلطمها عمر على وجهها فشج وجهها ، ثم ذهب بعد ذلك إلى زوجها وأخذ يضربه حتى كاد أن يقتله .. لولا أن نظر إلى وجه أخته فلما رأى الدماء تسيل حن قلبه ، فقام من على صدر زوجها ، ثم قال لها : أين الصحيفة التي كنتما تقرآن فيها[3] ؟ فقالت له : اذهب أولاً واغتسل .. فقال لها : لم ؟ قالت : لأنه قرآن ، والقرآن ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾[4] .. وفعلاً ــ لأن الله تعالى أراد له الهداية ــ ذهب فاغتسل ثم عاد .. فناولته الصحيفة .. فبدأ يقرأ بتدبر : ﴿ **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو ، له الأسماء الحسنى** ﴾[5] .

ثم توقف قليلاً .. وقال للثلاثة الذين يجلسون حوله ــ أخته وزوجها والخباب ــ : من هذا فرّت قريش ؟! ثم مضى يقرأ :

﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾[6] .

---

(١) التي كان النبي ﷺ يدعو فيها إلى الله سراً .

(٢) فاطمة بنت الخطاب رضى الله عنها وعن زوجها .

(٣) لأنه سمع التلاوة أثناء طرقه للباب .

(٤) الواقعة : ٧٩ .

(٥) طه : ١ ــ ٨ .

(٦) طه : ١٥ ، ١٦ .

وهنا توقف مرة أخرىٰ عن القراءة ثم وقف في حزم حازم وهو يقول : ينبغي لمن يقول هذا ألا يعبد معه غيره .. دلوني على محمد .. ففرح الثلاثة فرحاً شديداً .. ثم قال له الخباب :

أبشر يا عمر .. فإني أرجو أن تكون قد سبقت فيك دعوة رسول الله يوم الإثنين : اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك ، بأبي جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب .

٧٩٤
ثم يذهب الخباب به مع زوج أخته إلى دار الأرقم بن الأرقم .. وهناك طرق عمر الباب — كذلك — طرقة قوية عرف طارقها .. فلم يجرؤ أحد من الأصحاب على فتح الباب — لأنهم يعرفون من هو عمر — فقام رسول الله ﷺ إلى الباب ففتحه ثم جذب عمر جذبة هاشمية وهو يقول له : أما آن لك يا ابن الخطاب أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ؟ .. فيقول عمر : ما جئت إلا من أجل هذا .. أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .. فكبر الأصحاب تكبيرة ارتجت لها أرجاء مكة .. ثم جلس عمر بعد ذلك بين يدى الرسول ﷺ واستمع إلى القرآن من فمه الطاهر .. ثم بعد أن امتلأ قلبه بشحنة كبيرة من الإيمان أراد بعد ذلك أن يكون مسلماً لا متمسلماً .. فقال : يا رسول الله .. ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟! فيقول الرسول ﷺ : نعم . فيقول عمر متعجباً : فعلام إذن نختبىء ؟! هلم بنا يا رسول الله لنعلن كلمة الحق على الملأ .. ففرح الرسول ﷺ وفرح أصحابه فرحاً شديداً ثم خرج الرسول ﷺ وخرج الأصحاب على رأسهم عمر رضى الله عنه .. فكان نصراً مبيناً ، وكان عيداً كما يقول ابن مسعود رضى الله عنه : كان إسلام عمر فتحاً وهجرته نصراً وإمارته رحمة .

وعندما أراد عمر رضى الله عنه أن يهاجر لم يهاجر متخفياً كما فعل جميع الأصحاب وإلى هذا يشير على كرم الله وجهه : ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً ما عدا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة ، تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهماً . واحتضن عنزته — عصا لها زج لرمح صغير — ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف في البيت سبعاً متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ..

فقال لهم : شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، أو يؤتم ولده ، أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي .. قال علي : فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم ثم مضى لوجهه .

ولهذا ، لما ولي الخلافة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أيها الناس .. إني داع فأمنوا : اللهم إني غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق ، من غير ظلم مني لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم إني شحيح فسخني في نوائب المعروف ، قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك على كل حال ، وذكر الموت في كل حين .

اللهم إني ضعيف العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني والمحاسبة لنفسي وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شيء قدير » .

* * *

ولقد كان عليّ كرم الله وجهه بطلاً عظيماً من أبطال الإسلام الأقوياء الذين أعز الله تعالى الإسلام بهم .

بل هو الفدائي الشجاع الذي افتدى النبي ﷺ بنفسه ليلة الهجرة .. فلقد بات علي في فراش الرسول ﷺ وتغطى بغطائه .. ولما أصبح فتيان قريش ورأوا علياً ازدادوا غيظاً ، وكادوا يفتكون به .. ولكنهم تبعوا محمداً ، فأنجاه الله منهم .. وإلى هذا يشير الشيخ محمد عبدالمطلب رحمه الله حيث يقول في قصيدة له :

ولن ينسى النبي له صنيعاً عشية ودع البيت الحراما

عشية سامه[1] في الله نفسا لغير الله تكبر أن تساما
فأرخصها فدى لأخيه لما تسجى[2] في حظيرته وناما
وأقبلت الصوارم[3] والمنايا لحرب الله تنتحم[4] انتحاما
فلم يأبه لها أنفاً[5] علىٌ ولم تقلق بجفنيه مناما
وأغشى الله أعينهم فراحت ولم تر ذلك البدر التماما
عموا عن أحمد ومضى نجيا[6] مع الصديق يدرع[7] الظلاما
وغادرت البطاح به[8] ركاب إلى الزوراء[9] تعتزم اعتزاما
وفي أم القرى[10] خلى أخاه على وجد به يشكو الأواما[11]

وفي موقعة بدر .. كان على كرم الله وجهه هو الفارس الأول الذي حصد رؤوس المشركين بسيفه ، وهزمهم شر هزيمة ! .

قال حكيم بن حزام ، وهو أحد المشركين الذين قاتلوا المسلمين في موقعة بدر : كان على يلبس فوق رأسه بيضة ــ خوذة ــ لامعةوفيها ريشة ظاهرة ! وكان يصول بسيفه فيحصد الرؤوس ، ويقطع الرقاب !! وكانت فرسه تصهل فتبعث الرعب في قلوب المحاربين ، وكان سيفه يلمع في سماء المعركة كأنه شعلة من اللهب ! ما أكثر من قتل !! كان يهوى بسيفه في صفوفنا كأنه الصاعقة تنقض من السماء !!

لقد قتل على وحده في معركة بدر ثمانية عشر من زعماء قريش وفرسانها، وأسر كثيراً من المحاربين بينهم أخوه عقيل بن أبي طالب !!..

وفي معركة « أحد » .. كان على هو البطل الشجاع الذي دافع عن النبى ﷺ وحماه من سيوف الأعداء ! فقد خرجت قريش تريد الانتقام لقتلاها في موقعة بدر .. والتقى الجيشان : جيش المسلمين يقوده النبي الكريم ﷺ .. وجيش الكفار يقوده أبو سفيان زعيم قريش ورأس المشركين !.

---

(1) أى طلب منه . (2) أى تغطى .
(3) أى السيوف . (4) أى ترسل أصواتاً وجلبة في غضب .
(5) أى إباء وشجاعة .(6) أى سرا .
(7) أى يجعل الظلام كالدرع يستتر به (8) أى بمكة .
(9) يقصد بها المدينة . (10) أى مكة .
(11) أى حرارة الشوق .

وصال علي بسيفه وجال ، وقتل عدداً كبيراً من فرسان المشركين .. وانتصر المسلمون في بدء المعركة ، ولكن المحاربين في مؤخرة جيش المسلمين تركوا أماكنهم وراحوا يجمعون الغنائم .. فانتهز جيش المشركين هذه الفرصة ، وهجموا على المسلمين ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً . ثم تكاثر المشركون على رسول الله فكسروا رباعيته اليمنى ! وأصابه جرح في شفته ووجنتيه ! ورأى علي أن النبي محاصر من المشركين فقفز كالنمر الهائج ومعه الزبير بن العوام الذي دافع عن النبي بسيفه دفاعاً مجيداً ، وراح علي يتلقى الضربات ، ويدافع عن النبي حتى امتلأ جسده بالطعنات ، ونجا رسول الله ﷺ من كيد المشركين .. وانتهت الموقعة بهزيمة المسلمين ! ـــ التي كانت درساً لهم حتى لا يخالفوا أمر الرسول ﷺ بعد ذلك كما فعل الذين تركوا أماكنهم وراحوا يجمعون الغنائم ـــ ولما انتهت المعركة تقدمت النساء المسلمات تضمدن الجرحى !

وسألهن النبي ﷺ عن علي فقلن له : يا رسول الله .. إن به عشرين طعنة ! وكلما ضمدنا جرحاً .. انفتق جرح آخر !

وتقدم إليه الرسول ﷺ ومس بيده الكريمة جسده المثخن بالجراح وقال :

إن رجلاً لاقى كل هذه الطعنات في سبيل الله لهو حبيب الله في الجنة !..

* * *

وهو كذلك بطل الأبطال في موقعة الخندق :

وكانت المدينة قد هوجمت بأربعة وعشرين ألف مقاتل تحت قيادة أبي سفيان ، وعيينة بن حصن ..

٧٩٧

فلما علم الرسول ﷺ بخروجهم وتحركهم صوب المدينة .. استجاب لرأى « سلمان الفارسي » الذي كان قد أشار بحفر خندق حولها ..

وفعلاً حفر الخندق الذي فوجيء به جيش المشركين .. فكان صدمة بالنسبة لهم لأنهم لم يعهدوا مثل هذا في حروبهم .. وحاول بعضهم اقتحام الخندق ولكنهم لم ينجحوا .. فتسلل نفر من صناديد قريش بقيادة فارس **معروف وهو « عمرو بن عبد ود » من ثغرة في الخندق استطاعوا عن طريقها الوقوف في مواجهة صفوف المسلمين .. وهناك وقف « عمرو بن عبد ود » هو**

ومن معه من الفرسان أمام المسلمين ، وصاح : من يبارز ؟ .. .

فما كان من على كرم الله وجهه إلا أن وقف أمامه في ومض البرق وجهاً لوجه وقال له بكل شجاعة واستبسال : يا عمرو .. إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .. فأجابه عمرو : أجل . فقال على :

فإنى أدعوك إلى الله ، وإلى رسوله ، وإلى الإسلام .. فقال عمرو : لا حاجة بى إلى ذلك .

فقال على : إذن .. فأنا أدعوك إلى النزال .
قال عمرو : لم يا ابن أخى ؟ فواللات ما أحب أن أقتلك .
قال على : لكنى والله أحب أن أقتلك !!..

فغضب عمرو ، وأخذته حمية الجاهلية ، واقتحم عن فرسه وعقره ، ثم هجم على « على » الذى تلقاه بعنفوان أشد .. ثم بارزه بقوة إيمانية .. كانت سبباً في أن جعلت « عمرة بن عبد ود » مجندلاً على الأرض صريعاً ..

وكل هذا ببركة القوة الإيمانية والعزيمة القويمة القوية على نصرة الإسلام والمسلمين .

كما يشير إلى هذا الشاعر العربي المسلم الذى استقبل علياً بعد أن عاد إلى صفوف المسلمين بقوله :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرت رب محمد بصواب
لا تحسبن الله خاذل دينه ورسوله ، يا معشر الأحزاب

وصدق الله العظيم فهو القائل في كتابه العزيز : ﴿ ولينصرن الله من ينصره .. ﴾[1] .

وهو القائل : ﴿ .. إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[2] .

* * *

---

(١) الحج : ٤٠ . (٢) محمد : ٧ .

وهو أيضاً ــ كرم الله وجهه ــ بطل موقعة خيبر ..

وكانت خيبر هذه مواطن اليهود .. كما كانت حصوناً منيعة .. بالإضافة إلى أنها ضواحي خصبة تفيض بالخيرات والثمار ..

فلما أراد النبى ﷺ فتحها أرسل أول يوم كتيبة قوية بقيادة أبي بكر الصديق رضى الله عنه ــ فارتدت أمام حصنها المنيع ، ثم في اليوم الثاني أرسل كتيبة أخرى بقيادة عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فارتدت كذلك لنفس السبب السابق وهو مناعة حصنها أو حصونها ..

فقال النبى ﷺ ، وكله تصميم على ضرورة فتح خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » .

فلما قال الرسول ﷺ هذا تمنى كل صحابي أن يكون هو هذا الرجل .. لدرجة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : « ما تمنيت الإمارة قط إلا اليوم ، رجاء أن أكون من يحبه الله ورسوله » .

ثم حدث بعد ذلك ، وبعد أن أصبح الصباح ، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم .. وكلهم شوق إلى معرفة الرجل البطل الذي سيعطيه الرسول ﷺ الراية ، والذي سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب ..

أن فاجأ الرسول ﷺ أصحابه بقوله : « أين علي بن أبي طالب » ؟ فيقول علي ملبياً نداء الرسول من فوره : هـأنذا يا رسول الله .. ثم يتقدم إلى رسول الله ﷺ عندما أشار إليه بيمينه .. فلما رأى الرسول ما بعينه من وجع ، بلل أنامله بريقه الطهور ، ومس بها عين على .. فذهب ما بها من وجع واهتياج .. ثم دعا الرسول بالراية .. وبعد أن أمسكها ورفعها إلى أعلى ، ثم هزها ثلاثاً .. غرسها في يمين على وقال له : « خذ هذه الراية ، فامض بها حتى يفتح الله عليك » .

فكان « على » بعد ذلك أهلاً لهذا الشرف العظيم .. الذي كان دائماً وأبداً أهلاً له .. لأنه ربيب الرسول ، بل وربيب الوحي الذي يقول عنه علي وهو صادق: « سلوني ، وسلوني ، وسلوني عن كتاب الله ما شئتم .. فوالله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلت في ليل ، أم في نهار » .

حتى كان كما وصفه « الحسن البصري » رضي الله عنه : « أعطي القرآن عزائمه ، وعلمه ، وعمله .. فكان منه في رياض موقنة وأعلام بينة » .

ولهذا كان بسبب هذه التربية المحمدية .. والانتفاع بوحي السماء من المقربين إلى الله ورسوله .. وكان كذلك أهلاً لأن يزوجه الرسول ﷺ ابنته الزهراء رضى الله عنها ، تلك التي كان الرسول ﷺ يحبها حباً جماً .. لدرجة أنه كان يقول : « إن فاطمة قطعة مني .. فمن أغضبها أغضبني » ..

نعم كان علي كرم الله وجهه أهلاً لهذا الشرف .. فحمل الراية وتقدم كتيبته التي كان يقودها إلى الحصن مهرولاً حتى وقف أمامه ونادى قائلاً : « أنا علي بن أبي طالب » .. فتلقى ضربة قوية لم تصبه بسوء ، لكنها أطارت ترسه من يده .. فماذا فعل علي كرم الله وجهه بعد ذلك عندما رأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن ؟.. لقد صاح قائلاً : « والذي نفسي بيده ، لأذوقن ما ذاق حمزة أو ليفتحن الله لي » .. ثم اندفع نحو باب من أبواب الحصن فرفعه بين يديه .. ثم التفت نحوهم بهذا الباب وهو يصيح : « الله أكبر » ..

يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، وقد كان ضمن كتيبة علي : « لقد هممت أنا وسبعة معي أن نحرك هذا الباب من مكانه على الأرض فما استطعنا » .

ثم بعد أن هجمت الكتيبة المسلمة بقيادة البطل المبارك « على » كرم الله وجهه .. وبعد فترة وجيزة : أن كانت هتافات النصر تدوي من أفواه الجنود المنتصرين : « الله أكبر خربت خيبر » .

* * *

وهكذا ، كما رأينا وباختصار استطاعت القوة الجسدية المتوجة بالقوة الإيمانية بالله ورسوله .. أن تصنع المعجزات مع قلة العدد والعُدد ..

ولهذا .. فقد قال الرسول ﷺ كما قرأنا ــ في نص الوصية ــ « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

ولهذا كان من الخير أن يحافظ المؤمن على قوته هذه ، وذلك بالمحافظة على صحته بالبعد عن كل مسكر ومفتر[1] ، وعن كل شيء يضر بصحته ولا سيما كثرة الطعام والشراب :

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقد ورد التحذير من هذا على لسان الرسول ﷺ في حديث شريف قال فيه :

« ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم[2] أكلات[3] يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

« إن من السرف أن تأكل كلما اشتهيت » رواه ابن ماجه .

* * *

ومن أجمل ما قرأت في هذا ، ما جاء في دائرة المعارف (ج ٧) « لمحمد فريد وجدي » تحت عنوان :

تقوية الجسم

وهو : من الناس من يكون قوياً كامل الصحة فيعثر به ضعف لا يزال به حتى يلحقه بالمرضى . فأول ما يتبادر إلى ذهنه أن يرحل إلى الأطباء طلباً للعلاج فلا يزال يتردد على هذا وذاك مدة حتى يتأصل فيه الضعف وتكون سمية العلاجات قد فعلت بمعدته وأعصابه الأفاعيل .

لو كان اتبع هذا الرجل القانون الطبيعي لعادت إليه قوته من غير أن يصرف درهماً واحداً للأطباء والصيدليات وبدون أن يعرض نفسه لخطر السموم العلاجية فيكتسب منها أمراضاً عضالاً ..

---

(١) فقد ورد أن النبي ﷺ نهى عن كل مسكر ومفتر .

(٢) بحسب ابن آدم : أي كافيه ذلك سد الرمق .

(٣) أكلات : أي لقم .

والقانون الصحي الطبيعي أمر غير شاق إلا على أسرى العادات أو التقاليد فهو يقضي بأن يسكن المصاب في الخلاء وينقطع عن عمله لمدة شهرين أو ثلاثة معرضاً نفسه في أثنائها للهواء الطلق ومتبعاً نظاماً في الاستحمام والغذاء لا يتعداه ، فيستيقظ في الساعة الخامسة فيذهب تواً إلى الحمام فيدلك جسده بفوطة خشنة مبتلة بالماء ثم يخرج من الحمام إلى الخلاء يرتاض نحو نصف ساعة ثم يعود فيأكل أكلة الصباح ثم يعود إلى الخلاء فيشتغل أشغالاً عضلية معتدلة أو يجلس على شواطيء النيل أو بين المزارع ، ثم يعود وقت الظهيرة فيتناول الغداء ثم يضطجع في سريره ساعتين بدون نوم ، ثم يقوم فيرتاض في الخلاء في جهات يأنس بها ويرتاح إليها ، ثم يعود في المساء فيتناول عشاء خفيفاً في الساعة السابعة وينام في العاشرة تماماً في حجرة نوافذها مفتوحة ..

هذا .. مع مراعاة الحمية التامة في الأكل فلا يأكل المنبهات الشديدة كاللحم ولا التوابل ولا يتناول من البقول إلا ما قل ويجعل عمدة طعامة الخضر والفواكه الناضجة وخصوصاً العنب والتين والبطيخ محترزاً من الإفراط في كل شيء مع المداومة على التدلك بالماء يومياً والاستحمام بسكب الماء ثلاث مرات في الأسبوع ، والاجتهاد في ترك هموم المعيشة والخلافات البيتية فلا يمضي على صاحبنا في هذه الحياة أسبوع حتى يحس بالفارق العظيم في جسده وعقله ، فإذا استمر شهرين انقلب إلى ضد ما كان عليه فعادت إليه قوته وحيويته ورجع إلى عمله كأحسن ما كان عليه .

هذا هو الطريق الطبيعي المعقول للتقوية ، أما الاعتماد على العقاقير فلا ينتج غير الأمراض العضالة عادة ، لأن أكثر العلاجات سموم قتالة ولا يصح أن يعتمد الإنسان عليها إلا عند عدم وجود وسيلة سواها لتسكين ألم شديد وإسعاف مغمى عليه . أما فيما عدا هذا فالشافيات التي جعلها الله رحمة للناس هي الماء والهواء والضوء وهي حق شائع بين الكافة على السواء .

هذا هو الأسلوب الطبيعي الحكيم لتقوية الجسم تقوية ثابتة من طريقها الصحيح ولكن السواد الأعظم لا يعقلون ذلك ويرون أن العقاقير هي الوسيلة الوحيدة لإعادة القوة ويغيب عنهم أن فعل تلك العقاقير ينحصر في تهييج الجسم وإكسابه ظاهراً من القوة ، وإن أفادت الدم أضرت بأعضاء أخرى ،

فيكون المصاب كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فهل يطول بقاء بعض الناس في هذا الضلال ؟ .

* * *

ولا تنس كذلك أخا الإسلام ما ذكره ابن قيم الجوزية في كتابه : « الطب النبوى » ، تحت عنوان :

فصل في هديه ﷺ في حفظ الصحة

حيث يقول : لما كان اعتدال البدن وصحته وبقاؤه ، إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة : فالرطوبة مادته ، والحرارة تنضجها وتدفع فضلاتها ، وتصلحها وتلطفها ، وإلا أفسدت البدن ولم يمكن قيامه . وكذلك الرطوبة : هى غذاء الحرارة ، فلولا الرطوبة : لأحرقت البدن وأيبسته وأفسدته ، فقوام كل واحدة منهما بصاحبتها ، وقوام البدن بهما جميعاً . وكل منهما مادة للأخرى ، فالحرارة مادة للرطوبة : تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة ، والرطوبة مادة للحرارة : تغذوها وتحملها. ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى : حصل لمزاج البدن الانحراف ، بحسب ذلك . فالحرارة دائماً تحلل الرطوبة ، فيحتاج البدن إلى ما به يخلف عليه ما حللته الحرارة ــ ضرورة بقائه ــ وهو : الطعام والشراب ، ومتى زاد على مقدار التحلل : ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته ، فاستحالت مواد رديئة : فعاثت في البدن وأفسدت ، فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوع موادها ، وقبول الأعضاء واستعدادها ..

وهذا كله مستفاد من قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا .. ﴾[1] ، فأرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن : من الطعام والشراب ، عوض ما تحلل منه ، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن : في الكمية والكيفية ، فمتى جاوز ذلك : كان إسرافاً ، وكلاهما مانع من الصحة ، جالب للمرض . أعنى : عدم الأكل والشرب ، أو الإسراف فيه . فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين . ولا ريب أن البدن

---

(١) الأعراف : ٣١ .

دائماً : في التحلل والاستخلاف ، وكلما كثر التحلل : ضعفت الحرارة لفناء مادتها ، فإن كثرة التحلل تفني الرطوبة ، وهي مادة الحرارة ، وتنطفيء الحرارة جملة ، فيستكمل العبد الأجل الذي كتب الله له أن يصل إليه .

فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره : حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة ، لأنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما ، فإن هذا مما لم يحصل لبشر في هذه الدار . وإنما غاية الطبيب : أن يحمى الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها ، ويحمى الحرارة عن مضعفاتها ، ويعدل بينهما بالعدل والتدبير الذي قام به بدن الإنسان ، كما أن به قامت السموات والأرض ، وسائر المخلوقات إنما قوامها بالعدل .

ومن تأمل هدي النبي ﷺ ، وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به ، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب والملبس والمسكن والهواء ، والنوم واليقظة ، والحركة والسكون ، والمنكح ، والاستفراغ والاحتباس . فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة : كان أقرب إلى دوام الصحة والعافية أو غلبتها إلى انقضاء الأجل .

ولما كانت الصحة من أجل نعم الله على عبده ، وأجزل عطاياه وأوفر منحه ــ بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق ــ : فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق ، مراعاتها وحفظها ، وحمايتها عما يضادها .

وقد روى البخارى في صحيحه ــ من حديث ابن عباس ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون[1] فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

وفي الترمذي وغيره ــ من حديث عبد الله بن محصن الأنصاري ــ قال : قال رسول الله ﷺ :

« من أصبح معافى في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه : فكأنما حيزت له الدنيا » .

---

(١) قال في مختار الصحاح : « غبنه » في البيع خدعه وبابه ضرب وقد « أغبن فهو مغبون » .

وفي الترمذي أيضاً — من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ — أنه قال :

« أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة : من النعيم ، أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ، ونروك من الماء البارد » ؟!

ومن ههنا ، قال من قال من السلف — في قوله تعالى : ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾[1] — قال : عن الصحة .

وفي مسند الإمام أحمد : أن النبى ﷺ ، قال للعباس :

« يا عباس يا عم رسول الله .. سل الله العافية في الدنيا والآخرة » .

وفيه[2] عن أبي بكر الصديق ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول :

سلوا الله اليقين والمعافاة ، فما أوتى أحد — بعد اليقين — خيراً من العافية » : فجمع بين عافيتي الدين والدنيا . ولا يتم صلاح العبد في الدارين ، إلا باليقين والعافية . فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة ، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا : في قلبه وبدنه .

وفي سنن النسائى — من حديث أبي هريرة يرفعه : « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة ، فما أوتي أحد — بعد يقين — خيراً من معافاة » :

وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية : بالعفو ، والحاضرة : بالعافية ، والمستقبلة : بالمعافاة . فإنها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية .

وفي الترمذي مرفوعاً : « ما سئل الله شيئاً أحب إليه من العافية » .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلي : عن أبي الدرداء : « قلت : يا رسول الله .. لأن أعافى فأشكر ، أحب إلى من أن أبتلي فأصبر . فقال رسول الله ﷺ : « ورسول الله يحب معك العافية » .

ويذكر عن ابن عباس : « أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : ما أسأل الله بعد الصلوات الخمس ؟ فقال : سل الله العافية ، في الدنيا والآخرة » .

---

(١) التكاثر : ٨ .　　　(٢) أي في مسند الإمام أحمد .

وإذا كان هذا شأن العافية والصحة : فتذكر من هديه ﷺ ، في مراعاة هذه الأمور ، ما يتبين لمن نظر فيه أنه أكمل الهدي على الإطلاق : ما ينال به حفظ صحة البدن والقلب ، وحياة الدنيا والآخرة ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

ثم يستأنف ابن قيم الجوزية بعد ذلك كلامه ، في فصل آخر ، بقوله عن هدى الرسول ﷺ في المطعم والمشرب .

فأما المطعم والمشرب ، فلم يكن من عادته ﷺ ، حبس النفس على نوع واحد من الأغذية ، لا يتعداه إلى ما سواه . فإن ذلك يضر بالطبيعة جداً ، وقد يتعذر عليها أحياناً : فإن لم يتناول غيره ضعف أو هلك ، وإن تناول غيره لم تقبله الطبيعة : فاستضر به .

بل كان يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله : من اللحم والفاكهة والخبز والتمر ، وغيره .. من المأكول .

وإذا كان في أحد الطعامين كيفية تحتاج إلى كسر وتعديل : كسرها وعدلها بضدها إن أمكن ، كتعديله حرارة الرطب بالبطيخ . وإن لم يجد ذلك : تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف ، فلا تتضرر به الطبيعة .

وكان إذا عافت نفسه الطعام : لم يأكله ، ولم يحملها إياه على كره ، وهذا أصل عظيم في حفظ الصحة . فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه ولا تشتهيه : كان تضرره به أكثر من انتفاعه .

قال أنس : « ما عاف رسول الله ﷺ طعاماً قط ، إن اشتهاه : أكله ، وإلا : تركه ولم يأكل منه » .

ولما قدم إليه — صلوات الله وسلامه عليه — الضب المشوي : لم يأكل منه ، فقيل له : أهو حرام ؟ قال : « لا .. ولكن لم يكن بأرض قومي ، فأجدني أعافه » . فراعى عادته وشهوته ، فلما لم يكن يعتاد أكله بأرضه ، وكانت نفسه لا تشتهيه : أمسك عنه ، ولم يمنع من أكله من يشتهيه ، ومن عادته أكله .

وكان يحب اللحم ، وأحبه إليه الذراع ومقدم الشاة . ولذلك سم فيه[1] :

وفي الصحيحين : « أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه » .

وذكر أبو عبيدة وغيره ، عن ضباعة بنت الزبير : « أنها ذبحت في بيتها شاة ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ : أن أطعمينا من شاتكم . فقالت للرسول[2] : ما بقي عندنا إلا الرقبة ، وإني لأستحي أن أرسل بها إلى رسول الله ﷺ . فرجع الرسول فأخبره ، فقال : ارجع إليها ، فقل لها : أرسلي بها ، فإنها هادية الشاة وأقرب إلى الخير وأبعدها عن الأذى » .

ولا ريب أن أخف لحم الشاة : لحم الرقبة ، ولحم الذراع والعضد . وهو أخف على المعدة ، وأسرع انهضاماً . وفي هذا مراعاة الأغذية التي تجمع ثلاثة أوصاف .

الأول : كثرة نفعها وتأثيرها في القوى .

الثاني : خفتها على المعدة ، وعدم ثقلها عليها .

الثالث : سرعة هضمها . وهذا أفضل ما يكون من الغذاء . والتغذي باليسير من هذا ، أنفع من الكثير من غيره .

وكان يحب الحلواء والعسل . وهذه الثلاثة ـــ أعني : اللحم ، والعسل ، والحلواء ـــ من أفضل الأغذية ، وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء . وللاغتذاء بها نفع عظيم في حفظ الصحة والقوة ، ولا ينضر منها إلا من به علة أو آفة .

وكان يأكل الخبز مأدوماً[3] ما وجد له إداماً ، فتارة يأدمه باللحم ، ويقول : « هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة » رواه ابن ماجه وغيره . وتارة بالبطيخ ، وتارة بالتمر . فإنه وضع تمرة على كسرة ، وقال : « هذا إدام هذه » . وفي هذا ـــ من تدبير الغذاء ـــ أن خبز الشعير بارد يابس ، والتمر

---

(1) أي وضع له في السم .
(2) أي لرسول رسول الله إليها .
(3) أي كان يأكله بطعام .. أو بلحم .. أو بعسل .

حار رطب على أصح القولين ، فأدم خبز الشعير به من أحسن التدبير ، لا سيما لمن تلك عادتهم : كأهل المدينة. وتارة بالخل ، ويقول : « نعم الإدام الخل » . وهذا ثناء عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر ، لا تفضيل له على غيره : كما يظن الجهال . وسبب الحديث : « أنه دخل على أهله يوماً ، فقدموا له خبزاً ، فقال : هل عندكم من إدام ؟ قالوا : ما عندنا إلا خل . فقال : نعم الإدام الخل » .

والمقصود : أن أكل الخبز مأدوماً من أسباب حفظ الصحة ، بخلاف الاقتصار على أحدهما وحده . وسمى الأدم أدماً : لإصلاحه الخبز وجعله ملائماً لحفظ الصحة . ومنه قوله في إباحته للخاطب النظر : « إنه أحرى أن يؤدم بينهما » أي : أقرب إلى الإلتئام والموافقة ، فإن الزوج يدخل على بصيرة ، فلا يندم .

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ، ولا يحتمي عنها .

وهذا أيضاً من أكبر أسباب حفظ الصحة : فإن الله سبحانه ـــ بحكمته ـــ جعل في كل بلد من الفاكهة ، ما ينتفع به أهلها في وقته ، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم ، ويغني عن كثير من الأدوية . وقل من احتمى عن فاكهة بلده : خشية السقم ، ألا وهو من أسقم الناس جسماً ، وأبعدهم من الصحة والقوة .

وما في تلك الفاكهة : ـــ من الرطوبات ـــ فحرارة الفصل والأرض . وحرارة المعدة تنضجها ، وتدفع شرها : إذا لم يسرف في تناولها ، ولم يحمل منها الطبيعة فوق ما تحتمله ، ولم يفسد بها الغذاء قبل هضمه ، ولا أفسدها بشرب الماء عليها ، وتناول الغذاء بعد التحلي منها . فإن القولنج كثيراً ما يحدث عند ذلك، فمن أكل منها ما ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي ـــ : كانت له دواء نافعاً .

ثم ينتقل ابن قيم الجوزية بعد ذلك إلى فصل اخر حول :

هديه ﷺ في هيئة الجلوس للأكل

فيقول : صح عنه أن قال : « لا آكل متكئاً » .

وقال : « إنما أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد » .

وروى ابن ماجه في سننه : « أنه نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه » ..

وقد فسر الاتكاء : بالتربع . وفسر : بالاتكاء على الشيء ، وهو الاعتماد عليه . وفسر بالاتكاء على الجنب . والأنواع الثلاثة من الاتكاء ، فنوع منها يضر بالأكل ، وهو : الاتكاء على الجنب ، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئته ، ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة ، ويضغط المعدة : فلا يستحكم فتحها للغذاء . وأيضاً فإنها تميل ولا تبقى منتصبة ، فلا يصل الغذاء إليها بسهولة .

وأما النوعان الآخران ، فمن جلوس الجبابرة المنافي للعبودية . ولهذا قال : « آكل كما يأكل العبد » ، وكان يأكل وهو مقع .

ويذكر عنه : « أنه كان يجلس للأكل متوركاً على ركبتيه ، ويضع بطن قدمه اليسرى ، على ظهر قدمه اليمنى » ، تواضعاً لربه عز وجل ، وأدباً بين يديه ، واحتراماً للطعام وللمؤاكل ، فهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها : لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي ، الذي خلقها الله سبحانه وتعالى عليه ، مع ما فيها من الهيئة الأدبية . وأجود ما اغتذى الإنسان : إذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعي : ولا يكون كذلك إلا إذا كان الإنسان منتصباً الانتصاب الطبيعي . وأردأ الجلسات للأكل الاتكاء على الجنب ، لما تقدم : من أن المريء وأعضاء الازدراد تضيق عند هذه الهيئة ، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعي . لأنها تنعصر مما يلي البطن بالأرض ، ومما يلي الظهر بالحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات النفس .

وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاء الذي تحت الجالس . فيكون المعنى : أني إذا أكلت لم أقعد متكئاً على الأوطية والوسائد ، كفعل الجبابرة ومن يريد الإكثار من الطعام ، لكني آكل بلغة كما يأكل العبد .

فصل : وكان يأكل بأصابعه الثلاثة . وهذا أنفع ما يكون من الأكلات : فإن الأكل بأصبع أو إصبعين لا يستلذ به الآكل ولا يمريه ، ولا يشبع إلا بعد طول ، ولا تفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها في كل

أكلة . فتأخذها على أغماض ، كما يأخذ الرجل حقه حبة أو حبتين أو نحو ذلك . فلا يلتذ بأخذه ولا يسر به . والأكل بالخمسة ــ أصابع ــ والراحة يوجب ازدحام الطعام على آلاته وعلى المعدة ــ وربما استدت الآلات فمات ــ وتغصب الآلات على دفعه ، والمعدة على احتماله ، ولا يجد له لذة ولا استمراء . فأنفع الأكل : أكله ﷺ ، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاثة .

فصل : ومن تدبر أغذيته ﷺ ، وما كان يأكله : وجده لم يجمع قط بين لبن وسمك ، ولا بين لبن وحامض ، ولا بين غذاءين حارين ، ولا باردين ، ولا لزجين ، ولا قابضين ، ولا مسهلين ، ولا غليظين ، ولا مرخيين ، ولا مستحلبين إلى خلط واحد ، ولا بين مختلفين : كقابض ومسهل ، وسريع الهضم وبطيئه ، ولا بين شوى وطبيخ ، ولا بين طرى وقديد ، ولا بين لبن وبيض ، ولا بين لحم ولبن ، ولم يأكل طعاماً في وقت شدة حرارته ، ولا طبيخاً بائتاً يسخن له بالغد ، ولا شيئاً من الأطعمة العفنة والمالحة : كالكوامخ والمخللات والملوحات . وكل هذه الأنواع ضار مولد لأنواع من الخروج عن الصحة والاعتدال .

وكان يصلح ضرر بعض الأغذية ببعض : إذا وجد إليه سبيلاً : فيكسر حرارة هذا ببرودة هذا . كما فعل في القثاء والرطب ، وكما كان يأكل التمر بالسمن ــ وهو : الحبس ــ ويشرب نقيع التمر يلطف به كيموسات الأغذية الشديدة .

وكان يأمر بالعشاء ولو بكف من تمر ، ويقول : « ترك العشاء مهرمة » ذكره الترمذي في جامعه ، وابن ماجه في سننه .

وذكر أبو نعيم عنه : « أنه كان ينهى عن النوم على الأكل ، ويذكر : أنه يقسي القلب » . ولهذا ، في وصايا الأطباء لمن أراد حفظ الصحة : أن يمشي بعد العشاء خطوات ولو مائة خطوة ، ولا ينام عقبه ، فإنه مضر جداً . وقال مسلموهم : أو يصلي عقبه ، ليستقر الغذاء بقعر المعدة ، فيسهل هضمه ويجود بذلك .

ولم يكن من هديه : أن يشرب على طعامه فيفسده ، ولا سيما إن كان الماء حاراً أو بارداً ، فإنه رديء جداً . قال الشاعر :

لا تكن عند أكل سخن وبرد ودخول الحمام : تشرب ماء
فإذا ما اجتنبت ذلك حقاً : لم تخف ما حييت ، في الجوف داء

ويكره شرب الماء عقيب الرياضة والتعب ، وعقيب الجماع ، وعقيب الطعام وقبله ، وعقيب أكل الفاكهة ـــ وإن كان الشرب عقيب بعضها ، أسهل من بعض ـــ وعقب الحمام ، وعندالانتهاء من النوم . فهذا كله مناف لحفظ الصحة .

وأما عن :

هديه ﷺ في الشراب

فيقول ابن قيم الجوزية بعد ذلك :

وأما هديه في الشراب ، فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة : فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد . وفي هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدى إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء ، فإن شربه ولعقه على الريق : يذيب البلغم ، ويغسل حمل المعدة ، ويجلو لزوجتها ، ويدفع عنها الفضلات ، ويسخنها باعتدال ، يدفع سددها ، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلى والمثانة . وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها. وإنما يضر بالمرض لصاحب الصفراء : لحدته وحدة الصفراء ، فربما هيجها . ودفع مضرته لهم بالخلل ، فيعود حينئذ لهم نافعاً جداً . وشربه أنفع من كثير من الأشربة ، المتخذة من السكر ـــ أو أكثرها ـــ ولا سيما لمن لم يعتد هذه الأشربة ، ولا ألفها طبعه . فإنه إذا شربها : لا يلائمه ملاءمة العسل ، ولا قريباً منه . والحكم في ذلك العادة : فإنها تهدم أصولاً ، وتبني أصولا .

وأما الشراب إذا جمع وصفى الحلاوة والبرودة : فمن أنفع شيء للبدن ، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة ، وللأرواح والقوى والكبدوالقلب عشق شديد له ، واستمداد منه . وإذا كان فيه الوصفان : حصلت به التغذية ، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء وإيصاله إليها ، أتم تنفيذ .

والماء البارد رطب : يقمع الحرارة ، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية ، ويرد عليه بدل ما تحلل منها ، ويرقق الغذاء ، وينفذه في العروق .

واختلف الأطباء : هل يغذي البدن ؟ .. على قولين :

فأثبت طائفة التغذية به : بناء على ما يشاهدونه : من النمو والزيادة والقوة في البدن به ، ولا سيما عند شدة الحاجة إليه .

قالوا : وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة ، منها : النمو والاغتذاء والاعتدال . وفي النبات قوة حس وحركة تناسبه . ولهذا كان غذاء النبات بالماء . فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء ، وأن يكون جزءاً من غذائه التام .

قالوا: ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه في الطعام ، وإنما أنكرنا أن لا يكون للماء تغذية البتة . قالوا : وأيضاً الطعام إنما يغذي بما فيه : من المائية ، ولولاها لما حصلت به التغذية .

قالوا : ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات ، ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشيء حصلت به التغذية ، فكيف إذا كانت مادته الأصلية ؟! قال الله تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾[1] فكيف ينكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق ؟! .

قالوا : وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرى بالماء البارد : رجعت إليه قواه ونشاطه وحركته ، وصبر عن الطعام ، وانتفع بالقدر اليسير منه . ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام ، ولا يجد به القوة والاغتذاء ، ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء إلى أجزاء البدن ، وإلى جميع الأعضاء ، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به . وإنما ننكر على من سلبه قوة التغذية عنه البتة ، ويكاد قوله عندنا يدخل في إنكار الأمور الوجدانية .

وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به . واحتجت بأمور : يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به ، وأنه لا يقوم مقام الطعام ، وأنه لا يزيد في نمو الأعضاء ، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة ، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية ، فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته ، وتغذية كل شيء بحسبه . وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ : يغذي بحسبه . والرائحة الطيبة : تغذي نوعاً من الغذاء . فتغذية الماء أظهر وأظهر .

---

(١) الأنبياء : ٣٠ ج

والمقصود : أنه إذا كان بارداً ، وخالطه ما يحليه : — كالعسل أو الزبيب أو التمر أو السكر — كان أنفع ما يدخل البدن ، وحفظ عليه صحته . فلهذا كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ ، البارد والحلو . والماء الفاتر ينفع ويفعل ضد هذه الأشياء .

ولما كان الماء البائت أنفع من الذي يشرب وقت استقائه ، قال النبى ﷺ وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التيهان : « هل من ماء بات في شنه » ؟ ، فشرب منه . رواه البخاري . ولفظه : « إن كان عندكم ماء بات في شنه، وإلا كرعنا » .

والماء البائت بمنزلة العجين الخمير ، والذي شرب لوقته بمنزلة الفطير . وأيضاً : فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه إذا بات ، وقد ذكر : أن النبى ﷺ كان يستعذب له الماء ، ويختار البائت منه. وقالت عائشة : « كان رسول الله ﷺ ، يستقي له الماء العذب من بئر السقيا » .

والماء الذي في القرب والشنان ، ألذ من الذي يكون في آنية الفخار والأحجار وغيرهما ، ولا سيما أسقية الأدم[1] . ولهذا التمس النبي ﷺ ماء بات في شنه ، دون غيرها من الأواني . وفي الماء — إذا وضع في الشنان وقرب الأدم — خاصة لطيفة ، لما فيها : من المسام المنفتحة يرشح منها الماء . ولهذا : الماء الذى في الفخار الذي يرشح ، ألذ منه ، وأبرد في الذي لا يرشح ، فصلوات الله وسلامه علي على أكمل الخلق ، وأشرفهم نفساً ، وأفضلهم هدياً في كل شيء ، لقد دل أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم : في القلوب والأبدان ، في الدنيا والآخرة .. إلخ .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تكون قوي الجسم وسليم الصحة ، وحتى تكون أيضاً في نفس الوقت سليم العقل .. لأنه كما نعلم ونحفظ : « العقل السليم في الجسم السليم » ، أى : من الأمراض ، والعلل .

مع ملاحظة : أن العقل هو الأساس في إدراك كل شيء ، وهو الفيصل

---

(١) أي القرب .

بين الإنسان والحيوان الناهق .

ومن أجمل ما قرأت في هذا : أن العقل والعلم اختلفا .. فقال العقل : أنا أفضل لأن الله عرف بي ، وقال العلم : أنا أفضل لأن الله اتصف بي في الكتاب ، فوافقه العقل واعترف له بالفضل .

وقد نظم بعضهم هذا ، فقال :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا ... من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال : أنا أحرزت غايته ... والعقل قال : أنا الرحمن بي عرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له : ... بأينا الله في فرقانه اتصفا
فبان للعقل أن العلم سيده ... فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

ومعلوم أن العقل ــ بصرف النظر عن المقارنة بينه وبين العلم ــ هو الأساس في طلب العلم ، وأنه لولاه لما كان هناك تحصيل للعلم ، أو مجرد التفكير السليم في أمر من الأمور الدنيوية أو الأخروية .

ولهذا ، كما أشرت لكي يكون التفكير سليماً لا بد أن يكون العقل سليماً .. ولن يكون العقل سليماً كما عرفت إلا إذا كان الجسم سليماً .

فاذكر كل هذا .. ولاحظه في جميع مراحل حياتك على هذا الأساس الذي وقفت على أهمه في « الطب النبوي » وذلك حتى تكون ــ إن شاء الله ــ من الذين يحبهم الله تعالى كما أشار النص الذي ندور حوله في أول الوصية ، وهو : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. » .

ثم إذا كان الرسول ﷺ قد قال بعد ذلك : « وفي كل خير » : فهذا معناه أن المؤمن سواء أكان قوي الجسد أو ضعيفه : فإنه لا شك لن يكون محروماً من الخير لأنه قد توج أساساً بتاج الإيمان الذي هو الأساس في خيري الدنيا والآخرة ، والذي لولاه لما كان هناك أمان في الدنيا والآخرة .. بل ولما كان هناك أمان بين المواطنين .. كما يشير إلى هذا قول الشاعر :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان

بل كما يؤكد هذا قول الله تبارك وتعالى في قرآنه :

﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[١] .

وكما يشير أيضاً إلى هذا قول الله تبارك وتعالى في قرآنه :

﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة[٢] ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[٣] .

هذا بالإضافة كذلك إلى أن المؤمن بطبيعته : « خيره بادر وشره نادر » ، وقد ورد أن النبى ﷺ قال في وصفه : « المؤمن كله منفعة : إن شاورته نفعك ، وإن شاركته نفعك ، وإن ماشيته نفعك : فأمره كله منفعة » ، وهو أيضـــا كذلك كما ورد في حديث شريف : « .. من أمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم » .

وليس هذا معناه ــ كذلك ــ أن المؤمن لا بد أن يكون قوي الجسد .. فكم هناك من المؤمنين من حرموا من تلك النعمة ولكن إيمانهم كان أقوى وأرسخ من رسوخ الجبال .

* * *

فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ــ أول صادح بالقرآن ــ كما يقول الزبير رضي الله عنه : « كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، إذ اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ .. فقال عبد الله بن مسعود : أنا .. قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه .. قال : دعوني ، فإن الله سيمنعني .. فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها ، فقام عند المقام ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ــ رافعاً بها صوته : ﴿ **الرحمن .. علم القرآن** ﴾ ، ثم استقبلهم يقرؤها .. فتأملوه قائلين : ماذا يقول ابن أم عبد ؟ .. إنه ليتلو بعضَ ما جاء به محمد .. فقاموا إليه وجعلوا

---

(١) الأنعام : ٨٢ . (٢) أى في الدنيا .

(٣) أى في الآخرة والآية من سورة النحل : ٩٧ .

يضربون وجهه ، وهو ماض في قراءته حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .. ثم عاد إلى أصحابه مصاباً في وجهه وجسده ، فقالوا له : هذا الذي خشيناه عيك .. فقال : ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً .. قالوا له : حسبك ، فقد أسمعتهم ما يكرهون » .

وكان مع هذه القوة الإيمانية نحيفاً ، قصيراً ، يكاد الجالس يوازيه طولاً وهو قائم .

وكان له ساقان ناحلتان دقيقتان .. صعد بهما يوماً أعلى شجرة يجتني منها أراكاً(١) لرسول الله ﷺ .. فرأى أصحاب النبي ﷺ دقتهما فضحكوا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تضحكون من ساقي ابن مسعود ؟.. لهما أثقل في الميزان عند الله من جبل أحد » !!..

فالعبرة إذن كما رأيت ليست بقوة الأجساد وضخامتها ، وإنما هي بقوة الأرواح وصفائها يقول الشاعر :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

* * *

ثم إذا كان الرسول ﷺ قد أوصاك بعد ذلك ــ في نص الوصية ــ بقوله : « احرص علي ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » ..

فإنه بهذا يوصيك ، أولاً : بأن تكون حريصاً على اغتنام كل لحظة في حياتك لصالح دنياك وآخرتك كما يشير إلى هذا قول الله تعالى :

﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لايحب المفسدين ﴾(٢) .

وكما يشير إلى هذا أيضاً الحديث الشريف الذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك

---

(١) أي سواكا .. لأن شجر الأراك هو الشجر الذي يجتني منه السواك .
(٢) القصص : ٧٧ .

قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ، وقال شارح الجامع إسناده حسن .

وذلك لأنك هنا في هذه الحياة الأولى لأجل معلوم لا بد أن تثبت وجودك فيه : بمعنى أن تكون بعد موتك تاركاً لبصماتك الصالحة في هذه الحياة بتلك الصورة الإيجابية التي ستكون امتداداً لذكرك الحسن في هذا الوجود بين أهل الخير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. كما يشير إلى هذا قول القائل :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان
فاعمل لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

ولتكن هذه البصمات : صدقة جارية ، أو علماً ينتفع به ، أو ولداً صالحاً يدعو لك .. كما يشير الحديث الشريف الذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي .

والمعنى أن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث خصال :

أ ــ **الصدقة الجارية** : أي المتصلة كوقف أو بناء مسجد أو مستشفى أو منزل للضيف ونحو ذلك .. من الأمور الخيرية التي تسبب فيها الإنسان هذا ما دامت قائمة ، وهي عشر خصال نظمها الحافظ السيوطي في قوله :

إذا مات ابن آدم ليس يجري عليه من خصال غير عشر
علوم بثها ودعاء نجل وغرس النخل والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي إليه أو بناء محل ذكر
وتعليم لقرآن كريم فخذها من أحاديث بحصر

ب ــ **وعلم ينتفع به** : كتعليم وتصنيف ، وهذا أكثر ثواباً لطول بقائه على مر الزمان .

جـ ــ وولد صالح يدعو له : لأنه السبب في وجوده .. بل رُبما كان قدوة صالحة له في حياته .. فنشأ الابن معتاداً على هذا الصلاح الذي عوده عليه أبوه الصالح .

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وقد ورد في الأثر : « لا يستقيم الظل والعود أعوج » .

وكذلك ينفع الميت دعاء غير الولد .. والتقييد بالولد الصالح لحثه على الدعاء لأصله .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إن الله تعالى ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة ، فيقول : يا رب أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » أخرجه أحمد بسند رجاله رجال الصحيح .

فاحرص على ما ينفعك أخا الإسلام واحذر أن تكون ظالماً لنفسك وعاقاً ليومك كما يشير إلى هذا على كرم الله وجهه في قوله :

« من أمضى يومه : في غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو علم اقتبسه : فقد عق يومه وظلم نفسه » .

* * *

« واستعن بالله » على كل هذا ، لأنه كما يقول الشاعر الحكيم :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

ولأنه : « لا حوله ولاقوة إلا بالله » .

ولهذا فقد أوصى النبي ﷺ معاذاً بن جبل بقوله : « يا معاذ .. والله إني لأحبك ثم أوصيك ، يا معاذ : لا تدعن في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » رواه أبو داوود والنسائي بإسناد صحيح .

كما قال له أيضاً في حديث آخر رواه الترمذي وقال عنه أنه حديث حسن صحيح ، وكان معاذ قد قال له : يا رسول الله .. أخبرني بعمل يدخلني الجنة

ويباعدني عن النار .. فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه .. » .

واعلم أخا الإسلام أنك عندما ستستعين بالله تعالى بصدق سيعينك الله تبارك وتعالى ، فهو القائل: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴾[1] .

والقائل : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[2] .

والاستعانة بالله تعالى لكي تكون على أساس عقائدي سليم : لا بد أن تكون مصحوبة بحسن التوكل علي الله تبارك وتعالى ، كما يشير إلى هذا الحديث الشريف الذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

فالطير كما يشير الحديث تغدو وتروح .. وتلك هى الحركة التي أمرنا بها في قوله تبارك وتعالى :

﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾[3] .

وقد أعجبني كلام جامع كتبه الدكتور محمد البهي رحمه الله ، في كتابه : « الإسلام في حياة المسلم » ، تحت عنوان :

التوكل هو اتباع الطريق المستقيم

حيث يقول : ونعرض للتوكل كما جاء في القرآن الكريم وعلى نحو ما فهمه المسلمون الأول فكان دافعاً قوياً لهم نحو العمل في الحياة ، ونعرض كذلك لفهم المتأخرين إياه علي نحو كان سبباً لتقاعدهم وتراخيهم وإهمالهم .

ويقول الله تعالى : ﴿ .. ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[4] . فالتوكل على الله هو الاعتماد عليه . والاعتماد على الله ليس بكلمة ينطق بها من يطلب معونة الله ، وإنما باتباع الطريق المستقيم الذي خطته رسالة الوحي ، وهي ما في القرآن الكريم من وصايا ومباديء وأوامر ونواه . التوكل على الله والاعتماد عليه يبتديء من الأخذ في السبل بعد الأخذ في تنفيذ مشورة القرآن

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .
(٢) النحل : ١٢٨ .
(٣) الملك : ١٥ .
(٤) الطلاق : ٣ .

ونصحه . ويقول الله لرسوله الكريم : ﴿ **فتوكل علي الله ، إنك على الحق المبين** ﴾[1] .

ويطلب منه التوكل وهو بالفعل قد سلك طريق الحق وهو طريق القرآن . وعندئذ ، أي عندما يأخذ الإنسان في تنفيذ نصح القرآن يكون الله في عونه . وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ .. **فهو حسبه** ﴾ : أى كافيه العون والتأييد . فعون الله وتأييده للإنسان مقرون بالأخذ في تنفيذه مشورته ونصحه ، وهو ما جاء به القرآن الكريم : هذا ما تعطيه هذه الآية القرآنية وآيات أخرى مثلها جاء فيها طلب التوكل . وهذا ما فهمه المسلمون الأول . ولذا كانوا غير متقاعدين عن السعي والعمل ، وكانوا غير متراخين ، كما كانوا غير سلبيين في الحياة .

ولكن كثيراً من المسلمين المتأخرين فهموا أن التوكل هو إلقاء بمسئولية الإنسان في السعي والعمل في الحياة كلية على الله . وعندئذ يقعد الإنسان المتوكل عن العمل ، والله حسبه وكافيه في العون . عندئذ يعينه الله على ماذا ؟ يعينه على القعود عن العمل ؟ يعينه على الركود وعدم الحركة ، يعينه على تجميد طبيعته ؟ ..

إن التوكل على الله بهذا المعنى ليس توكل القرآن ولا المسلم الأول . والقرآن إذا فهمت مبادئه على هذا النحو لا يصلح لتوجيه الإنسان . وحاش لقرآن الله عن ذلك .. فهو : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾[2] .

ثم يقول بعد ذلك : والإنسان خلق ليعمل وليسعى ، خلق ليتحرك ذات اليمين وذات الشمال ، خلق ليغالب ويقاوم ، خلق ليحيا ، وما حياته إلا سلسلة من السعى والحركة والعمل والمغالبة والمقاومة .

والإسلام جاء فحسب هداية لطبيعة الإنسان ، التي من شأنها أن تسعى وتعمل وتتحرك . جاء ليوجه سعي الإنسان ويوجه حركته . والتوكل الذي أوصى به المسلمين هو دافع مؤكد للإنسان على السعي والحركة والعمل ،

---

(١) النمل : ٧٩ .　　(٢) إبراهيم : ١ .

دافع آخر على ذلك . لأن المسلم الذي سلك طريق الحق سلك الطريق المأمون الموصل ، وأخذ في سبيل تنفيذ مشورة القرآن وسار في هدايته . ومشورة القرآن وهدايته من وحي الله العليم الخبير ، والرؤوف الرحيم . ولذلك لا يضل السالك لهذا الطريق ولا يتعثر من شيء في ضوء هدايته . وذلك رشد الله وعونه لمن توكل عليه أ . هـ .

* * *

ولهذا أخا الإسلام يوصيك الرسول ﷺ بعد ذلك في نص الوصية التي ندور حولها ، بقوله : « ولا تعجز » ، أي لا تكن عاجزاً عن الأخذ بالأسباب طلباً للرزق .

وذلك حتى تكون متوكلاً على الله ــ بهذا المعنى الذي وقفت عليه ــ لا متواكلاً بتلك الصورة المسيئة إلى الإسلام والتي نراها متمثلة في هؤلاء الذين يجلسون في المساجد أو بجوار الأضرحة ــ مثلاً ــ بدون عمل دنيوي بدعوى أنهم من الزاهدين في الدنيا .

وقد كان من الواجب عليهم كمسلمين أولاً ، وكعقلاء ثانياً : أن يعلموا أن الزاهد في الدنيا ليس هو الذي يترك العمل الدنيوي ، وإنما هو الذي يخرج حب الدنيا من قلبه حتى لا تشغله عن الله تبارك وتعالى ، وحتى لا تكون سبباً في حرمانه من ثواب الآخرة ونعيمها الدائم .. كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾[1] .

ولهذا ، فقد قال العلماء : « ليس الزاهد من لا مال عنده ، بل الزاهد من لم يشغل المال قلبه وإن أوتي مثل ما أوتي قارون » ..

فلا مانع إذن ــ إسلامياً ــ أن تكون مالكاً لمثل مال قارون ، ولكن على شريطة أن يكون المال في يدك لا في قلبك : حتى لا تكون عبداً للدنيا ..

---

(١) المنافقون : ٩ .

أو عبداً لتلك الشهوات الدنيوية المشار إليها في قول الله تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب** ﴾(١) ثم يقول سبحانه :

﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد** ﴾(٢) .

فلا بد إذن من الحركة في طلب الرزق ، ولا بد كذلك من الأخذ بالأسباب طلباً لهذا الرزق حتى لا نكون عالة على غيرنا وحتى لا نكون كذلك من هؤلاء المتواكلين السلبيين الذين لا عزة لهم ولا كرامة ..

وحتى يتضح لنا هذا .. فإنني أحب كذلك أن أضيف ــ إلى ما وقفنا عليه قبل ذلك ــ ما كتبه أيضاً الدكتور محمد البهي رحمه الله .. حول أخطاء المسلمين في فهم الإسلام .. تحت عنوان :

الرزق

فيقول : يقول الله تعالى في سورة هود : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين** ﴾(٣) . وسورة هود تهتم أولاً وبالذات بالعدل الإلهي في جزاء الله لأولئكم الذين أنكروا نعمه وكفروا برسالته في العصور المختلفة . وهي لذلك تقص أخبار الرسل السابقين ، وما تحملوه في سبيل أداء رسالتهم ، كما تصور موقف المعاندين المنكرين وما حل بهم من جزاء ، يتمثل فيه العدل الإلهي تمثلاً واضحاً .

وإذا كان جو هذه السورة هو هذا الجو فما ذكر مما يتعلق بصفات الخالق ونعمه على خلقه من شأنه أن يوصل إلى تفرده بالعبادة وإقناع البشر بما بدأت به السورة في قوله تعالى : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير** ﴾(٤) . ومن شأنه أيضاً أن يوضح أن موقف المشرك في العبادة عندئذ

---

(١) آل عمران : ١٤ (٢) آل عمران : ١٥ (٣) هود : ٦ (٤) هود : ٢

موقف المتعنت المتثبت في عناده . وقوله تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** .. ﴾[1] آية من آيات هذ السورة التي تعدد خصائص الله سبحانه وتعالى ونعمه بالنسبة لخلقه . ومفادها أن كل كائن يتحرك على وجه هذه الأرض مرتبط رزقه بإرادة الله ارتباطاً وثيقاً . والله من جانبه يؤكد أنه سيتكفل بهذا الرزق على نحو ما جاء في قوله : ﴿ **على الله رزقها** ﴾ . هو قد تكفل بالرزق لكل دابة على الأرض ، أى لكل كائن متحرك على الأرض . ولكنه يتكفل لهذا الكائن المتحرك بالرزق إن استخدم خصيصته التي اختصه بها الخالق ، وهي الحركة . وهذا ما يعبر عنه قوله : ﴿ **دابة** ﴾ .

وكأن هناك تقابلاً ، أو كأن هناك مقدمة ونتيجة . وهما : عندما يتحرك الكائن الذي أعده الله بقوة الحركة ، يتكفل الله له بالرزق . وغير الإنسان من الكائنات المتحركة بالغريزة وبدفعهاالقوي . ودفع الغريزة هو الأصل في الحركة في اتجاه واحد وهو اتجاه تحصيل الرزق . والإنسان أيضاً من الكائنات المتحركة التي تدب على الأرض وتتحرك فوقها ، ولكنه كائن له اختيار وإرادة يستطيع أن يجمد في حركته ويستطيع أن يميل وينحرف فيها . ولذا رزقه في سعته وضيقه وفي اطمئنانه في الحياة بهذا الرزق أو عدم اطمئنانه به ، وفي تمتعه به كثيراً أو قليلاً : مرتبط بنوع حركته واتجاهه فيها . وحركته في الحياة لا تكون مثمرة ثمرة نافعة ويسعد بها إلا إذا كان متبعاً فيها خطوط الرسالة الإلهية .

وقد كانت سورة يونس قبل سورة هود : تحكي من قبل الله تعالى ذلك الاطمئنان النفسي والسعادة والبهجة التي يسعد بها الإنسان المتحرك حركة نافعة مثمرة . وهو ذلك الإنسان المؤمن العامل . ثم جاءت سورة هود تحكى الشقاء الذي يصيب الإنسان الآخر صاحب الحركة غير المثمرة ، وهو الإنسان الجاحد بنعم الخالق . فالحركة المثمرة إذن ، والسعي المجدي أساسان في الحصول على الرزق وأساسان في قيمة التمتع به .

ولم يكتف الإسلام بذلك من المؤمن . بل طلب منه العمل مع الإيمان .. وهنا نجد آيات القرآن التي وردت في وصف المؤمنين تقرن الإيمان بالعمل

---

(١) هود : ٦ .

كشرط يترتب عليه الثواب أو كتمهيد تعقبه حالة الإطمئنان النفسي . يقول الله تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله** ﴾[1] .

ويقول : ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾[2] .

ويقول : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً** ﴾[3] .

وعمل الصالحات هو كل عمل في الحياة لا انحراف فيه عن النهج القويم . ومن بين الصالحات تحصيل الرزق ، من طريقه المشروع .

هذا هو فهم المسلم الأول في تكفل الله برزق الكائنات الحية ، حسبما ورد في هذه الآية . فهم ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وفهمه صحابته رضوان الله عليهم . وكم من أحاديث تروى في الحث على العمل في سبيل تحصيل الرزق . وقد فضل الرسول حال الذي يؤدي العبادة في غير تزايد ومبالغة على حال ذلك الذي يقوم آناء الليل وأطراف النهار تاركاً شأن نفسه على غيره أومهملاً أمر من يعوله . وأصبح شعار هذا الوقت : العمل . إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

ثم يقول بعد ذك ، تحت عنوان « فهم خاطيء » .

ولكن بعض المتأخرين من المسلمين وقف بنظره عندما ورد في قوله تعالى : ﴿ **على الله رزقها** ﴾ وأخذ من الآية كلها كفالة الله الرزق لعباده ، وترك أنه في سبيل الحصول على الرزق : عليه أن يسعى ، وأن سعيه يكون سعياً مستقيماً ، طبقاً لتعاليم الله ووصاياه . ترك أنه كائن يتحرك ويدب على الأرض وأن واجبه أن يترك ذاته تتحرك وأن يتدخل بإرادته في توجيه حركته فحسب .

فهم بعض المسلمين المتأخرين أنه ينبغي للمسلم كي يحصل عل الرزق أن

---

(١) النساء : ١٧٣ (٢) الرعد : ٢٩ (٣) طه : ١١٢

يتردد على المسجد ، أو يكرر دعاءه لله ويستنجد به رافعاً بغيته نحو السماء ، وأنه يكفي أن ينتمي إلى المسلمين بالإسم وينطق معهم الشهادة ، وأغفل أنه يجب عليه أن يعمل وأن يكون في عمله مخلصاً لله فلا يؤذي غيره . أغفل أنه يجب عليه أن يعمل عملاً صالحاً .

إن الله يتكفل بالرزق لمن يسعى وأعلن هذا التكفل في صيغة الإلزام فقال : ﴿ **على الله رزقها** ﴾ ليحفز الناس على الانتفاع بطبيعتهم البشرية في الحركة والسعى ، وليس ليحول بينهم وبين خصائص طبيعتهم التي خلق البشر عليها . إن الإسلام لا يرتد بالطبائع عما لها . وإنما ينميها فحسب بالهداية في التوجيه أ . هـ .

* * *

أقول : وفي القرآن الكريم يأمرنا تبارك وتعالى بأن نطلب الرزق حتى في يوم الجمعة ، فيقول : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾(١) .

كما قرن الله تعالى التجار بالمجاهدين في سبيله سبحانه وتعالى ، فقال : ﴿ .. **وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله** ﴾(٢) .

وهذا شرف عظيم للعاملين .

كما ورد في السنة الشريفة الترغيب في السعي على الرزق في مناكب الأرض :

فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داوود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده » رواه البخاري وغيره ، وابن ماجه ولفظه ، قال : « ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده ، وما أنفق الرجل علي نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة » .

قال الحافظ في الفتح : « وفي الحديث فضل العمل باليد وتقديم ما يباشره

---

(١) الجمعة : ١٠ .　　(٢) المزمل : ٣٠ .

بغيره ، والحكمة في تخصيص داوود بالذكر : أن اقتصاره في أكله على ما يعمله لم يكن من الحاجة لأنه كان خليفة في الأرض كما قال الله تعالى .. وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل ، ولهذا أورد النبي ﷺ قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد ، وهذا بعد تقرير أن شرع من قبلنا شرع لنا ولا سيما إذا ورد في شرعنا مدحه وتحسينه مع عموم قوله تعالى : ﴿ .. **فبهداهم اقتده** ﴾[1] وفي الحديث أن التكسب لا يقدح في التوكل ، وأن ذكر الشيء بدليله أوقع في نفس سامعه » أ هـ .

وقد قرأت ــ والشيء بالشيء يذكر ــ أن داوود عليه السلام خرج من قصره ذات يوم متنكراً ليسأل عن نفسه من يصادفه من الناس ــ وهو لا يعرفه ــ فتعرض له سيدنا جبريل عليه السلام في صورة آدمي ، فقال له سيدنا داوود : يا فتى .. ما قولك في داوود ؟ فقال له : نعم العبد هو .. غير أن فيه خصلة . فقال له سيدنا داوود : ما هي ؟ قال : يأكل من بيت مال المسلمين وما في العباد أحب إلى الله تعالى من عبد يأكل من كسب يده .. فلما سمع سيدنا داوود هذا عاد بعد ذلك باكياً إلى قصره .. وهناك تضرع إلى الله تعالى أن يعلمه صنعة يعملها بيده .. فأتاه جبريل وعلمه صنعة الدروع وآلات الحرب .. وألان الله له الحديد حتى كان في يده بمنزلة العجين ﴿ .. **وألنا له الحديد** ﴾[1] فكان إذا تفرغ من قضاء حوائجه وحوائج أهله عمل درعاً فباعها وأكل منها هو أولاده ..

وهكذا كان ولده سيدنا سليمان عليه السلام :

فقد قرأت كذلك : أنه في يوم من الأيام ناجى ربه فقال : يا رب قد أعطيتني ملكاً لم تعطه أحداً قبلي وسألتك أن لا تعطيه أحداً بعدي فأعطيته .. فإن قصرت في شكرك فدلني على أحد هو أشكر لك مني ؟.. فقال الله تعالى : يا سليمان .. عبد يكسب بيديه يسد جوعه ، ويستر عورته ، ويعبدني : هو أشكر لي منك .. فعند ذلك بكى سيدنا سليمان عليه السلام ــ كما بكى والده من قبل ــ وتضرع إلى الله تعالى أن يعلمه صنعة ليعملها بيده .. فأتاه جبريل عليه السلام وعلمه صنعة القفاف .. التي كان بعد ذلك يأكل من عائدها .. وأول من عمل الخوص سليمان عليه السلام .

---

(١) سبأ : ١٠ .

وقد قال الماوردي : « أصول المكاسب : الزراعة والتجارة والصناعة .. وأيها أطيب ؟ فيه ثلاثة مذاهب للناس وأشهرها مذهب الشافعي : أن التجارة أطيب ، والأشبه عندي أن الزراعة أطيب . لأنها أقرب إلى التوكل » :

قال النووي : « وحديث البخاري صريح في ترجيح الزراعة والصنعة لكونهما عمل يده : لكن الراعة أفضلهما لعموم النفع بها للآدمي وغيره وعموم الحاجة إليها » أ . هـ . (العيني) .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى تنفذ وصية الرسول ﷺ ، وهي : « ولا تعجز » حتى لا تكون عالة على غيرك ، وحتى لا تكون كذلك رخيصاً بين إخوانك .. فقد ورد في الأثر : «أحب الناس إلى الناس : من استغنى عن الناس .. وأبغض الناس إليهم : من احتاج إليهم . وأحب الناس إلى الله : من احتاج إلى الله .. وأبغض الناس إليه : من استغنى عنه واحتاج إلى غيره » .

كما ورد كذلك على لسان سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال : « استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره » .

ولله در القائل :

إن الغنى إذا تكلم بالخطا قالوا : صدقت وما نطقت محالا
أما الفقير إذا تكلم صادقا قالـــوا : كذبت وأبطلوا ما قالا
إن الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

وقد سئل أحد الحكماء : لماذا تجمع المال وأنت حكيم ؟ فقال : لأؤدي به الفرض ، وأصون به العرض ، وأستغني به عن القرض .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، مع ملاحظة :

أنه من تعاليم الإسلام : تحريم موارد الكسب الخبيثة .. وقد حدد الخبث بأنه ما كان بغير مقابل من عمل : كالربا والقمار واليانصيب ونحوها — أو كان

بغير حق : كالنصب والسرقة والغش ونحوها ـــ أو كان لما يضر : كثمن الخمر، والخنزير ، والمخدر ونحوها .. فكل هذه موارد للكسب لا يبيحها الإسلام ولا يعترف بها .

وأن الإسلام قد عمل على التقريب بين الطبقات بتحريم الكنز ، ومظاهر الترف على الأغنياء ، والحث على رفع مستوى المعيشة بين الفقراء ، وتقرير حقهم في مال الدولة ومال الأغنياء ووصف الطريق العملي لذلك .

وأكثر من الحث على الإنفاق في وجوه الخير ، والترغيب في ذلك ، وذم البخل والرياء والمن والأذى ، وتقرير طريق التعاون والقرض الحسن ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى ورجاء ما عنده : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾(١) .

وأن الإسلام : قد قرر حرمة المال ، واحترام الملكية الخاصة ، ما دامت لا تتعارض مع المصلحة العامة : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » .

و « لا ضرر ولا ضرار » ..

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، حتى لاتعتدي على حقوق غيرك ، وحتى تأكل حلالاً وتشرب حلالاً وتلبس حلالاً .. إلخ .

مع ملاحظة كذلك : أن الحلال هو الأساس في ديننا .. بل وفي جميع الرسالات السماوية :

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿ **يأأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾(٣) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام : فأنى يستجاب له » رواه مسلم .

---

(١) المائدة : ٢ (٢) المؤمنون : ٥١ (٣) البقرة : ١٧٢

وأخرج الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ : **﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً .. ﴾**(١) ، فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله .. ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة . فقال له : يا سعد .. أطب مطعمك تستجب دعوتك ، والذي نفسي بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت(٢) والربا فالنار أولى به » .

ولهذا فقد ثبت — على سبيل المثال — أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان لا يأكل طعاماً ، ولا يشرب شراباً ، ولا يلبس لباساً ، ولا يقتني متاعاً : إلا إذا عرف أنه قد أتاه عن طريق حلال ، حتى يبارك الله فيه ، وكان من عادته أن يسأل خادمه عن مصدر ما يحضره له من طعام أو شراب .. وفي يوم من الأيام اشتد الجوع بأبي بكر ، وأكل من الطعام الذي أحضره له خادمه دون أن يسأله عن مصدره .. فتعجب الخادم ، وسأله : يا سيدي ، لقد كنت تسألني كل يوم عن مصدر الطعام ، فما بالك اليوم لم تسألني كعادتك ؟ .. فتوقف أبو بكر عن تناول الطعام خائفاً مضطرباً ، وقال لخادمه : لقد أنساني الجوع ذلك ، فمن أين جئت به ؟ فقال الخادم : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية فأعطاني هذا الطعام .

فأدخل الصديق أصابعه في فمه وجعل يتقيأ ما أكل وهو يصيح : لقد كدت تهلكني يا غلام .. ثم أخذ يدعو الله ويقول : اللهم اغفر لي ما شربت العروق واختلط بالدماء ، لأنه لا يستطيع إخراجه . فقيل له : أتفعل كل ذلك من أجل هذه اللقيمات ؟ فقال : والله لو لم تخرج إلا مع روحي لأخرجتها ، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » ولقد خشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقيمات فأصير بسببها إلى النار !! ..

فلنأخذ أخا الإسلام درساً من هذا الدرس العملي العظيم : حتى نتقى الله

---

(١) البقرة : ١٦٨ .   (٢) أى الحرام .

تعالى في جميع أعمالنا .. وحتى نبتعد عن الحرام بجميع صوره وألوانه لأن الحرام كما عرفت هو الهلاك بعينه .. ومن عرف الحرام معرفته حرام ..

واعلم أن الحرام إذا اختلط بالحلال كان سبباً في ضياعه .. كما يشير أحدهم إلى هذا في قوله :

جمع الحرام على الحلال ليكثره   دخل الحرام على الحلال فبعثره

* * *

هذا .. وإذا كان الرسول ﷺ بعد ذلك في نص الوصية قد أوصاك بقوله : « وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

فإن الرسول ﷺ بهذا التوجيه النبوي يحذرك من أمر خطير لا بد أن تلاحظه حتى لا يلعب الشيطان بك ، أو حتى لا تكون كالكرة بين قدميه في ميادين الحياة الفانية .. وحسبك إذا أردت أن تقف على خطورة هذا الشيطان عليك :

أن تعلم أن الشيطان الرجيم هذا ، قد قال لرب العزة سبحانه وتعالى بعد أن حكم عليه بالإغواء :

﴿ .. فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾(١) .

ولهذا قال الله تعالى له بعد ذلك : **﴿ .. أخرج منها مذءوماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾**(٢) : ثم يواصل سبحانه وتعالى حديثه بعد ذلك عن بقية ما ترتب على هذا فيقول : **﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من**

---

(١) الأعراف : ١٦ ، ١٧ .   (٢) الأعراف : ١٨ .

الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾[1] : إلى أن يقول الله تبارك وتعالى بعد ذلك محذراً بني آدم من فتن الشيطان : ﴿يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[2] .

فالشيطان إذن كما تشير الآيات هو عدونا المبين الذي حذرنا تعالى من مكائده وشروره ..

ولهذا كان لا بد أن ننفذ ما حذرنا الله تعالى منه .. بمعنى ألا نستجيب لوساوس الشيطان ونداءاته الخفية التي كثيراً ما تكون ، ولا سيما عندما تكون هناك مصيبة من المصائب ، أو مشكلة من المشاكل :

إن الشيطان يحاول تبرير كل هذا بصورة شيطانية كثيراً ما تؤدي إلى عكس ما كان من الواجب عليه ــ كمؤمن ــ أن يفعله .. وهو أن يستسلم لقضاء الله تعالى ويرضى بقدره .. لأنه لا يحدث شيء في هذا الوجود إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى الذي يقول :

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .. ﴾[3] ، كما أخبرنا الله تعالى في قرآنه ــ نحن المؤمنين ــ بأنه سيبتلينا ، وذلك حتى نهيىء أنفسنا لاستقبال ما قضى الله تعالى به ، ونكون من الراضين بهذا القضاء .

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[4] :

ولهذا كان لا بد كما تشير الآيات القرآنية : أن نكون من هؤلاء المؤمنين الصابرين .. ما دمنا آمنا أساساً بأن : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » ،

---

(١) الأعراف : ١٩ ــ ٢٢ (٢) الأعراف : ٢٧ (٣) التوبة : ٥١ (٤) البقرة : ١٥٥ ــ ١٥٧

وكما يقول الشافعي رضي الله عنه :

ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن إذا نزل القضا ضاق الفضاء

ومن هنا كان لا بد أن نلاحظ هذا إذا ما أصابنا شيء من تلك الأمور الدنيوية التي قد تكون مصيبة من المصائب التى لا بد أن يتوقعها المؤمن ــ بالذات ــ .. فقد ورد في الحديث : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » .

إذا ما حدث شيء من هذا .. فحذار أن يوسوس لك الشيطان قائلاً : لو لم تفعل كذا لكان كذا .. ولو فعلت كذا لما كان كذا .. إلخ ، فإن « لو » كما جاء في تحذير الرسول ﷺ : « تفتح عمل الشيطان » ولكن قل كما أوصاك الرسول ﷺ بعد ذلك في مثل ــ كل هذه الأمثلة ــ : « قدر الله وما شاء فعل » ..

إنك إن فعلت ذلك لن تكون مهموماً ولا محزوناً .. ولن تكون من هؤلاء الذين انتصر الشيطان عليهم فكانوا من المفتونين بوسوسته والمقتنعين بها .. وهؤلاء لن يكونوا أبداً في هذه الدنيا في أمان أو استقرار لأن الشيطان قد استطاع أن ينزع الإيمان بقدر الله من قلوبهم .

* * *

ومن أجل ذلك ، فإنني أرى بعد هذا التقديم ــ وحتى لا تكون من المشار إليهم ــ أن أذكرك ونفسي باختصار بأهم ما جاء في كتاب « الدين الخالص ــ ج ١ » تحت عنوان :

القضاء والقدر

حيث يقول : القضاء في الأصل الخلق والأمر والحكم . قال تعالى : **﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ﴾**[١] ، أى خلقهن . وقال تعالى : **﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه .. ﴾**[٢] ، أى أمر . وعرفا هو الحكم الكلى الإجمالي في الأزل ، أى وجود الأشياء في أم

---

(١) فصلت : ١٢ (٢) الإسراء : ٢٣ .

الكتاب مجملة « والقدر » لغة : التقدير وهو جعل كل شيء بمقدار يناسبه بلا تفاوت ، وعرفا : جزئيات حكم القضاء وتفاصيله التي تقع فيما لا يزال . قال تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾[1] .

وقال النووي : معناه ، أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة . فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه ، وهو بهذا المعنى يعم القضاء بالمعنى السابق .

وقال الخطابي : قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى للعبد على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونه ، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من اكتسابات العبد وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلقه لها خيرهاوشرها. والقدر : اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر . ويجب الإيمان والرضا بهما لقوله تعالى : ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[3] . ولقول النبي ﷺ في حديث جبريل : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » .

ولحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » أخرجه أحمد ومسلم وابن ماجه .

ثم يقول بعد ذلك : « هذا ما عليه أهل السنة والجماعة ، فيجب على المكلف أن يعتقد أن جميع أفعال العباد بقضاء الله وقدره ، وأن الله تعالى يريد الكفر من العبد ويشاؤه ، ولا يرضاه ولا يحبه له . فيشاؤه كوناً ولا يرضاه ديناً ، وأن كل إنسان ميسر لما خلق له ، وأن الأعمال بالخواتيم . فالسعيد من سعد بقضاء الله وقدره ، فيوفقه تعالى للعمل بالشريعة الغراء إلى أن يموت على ذلك . والشقي من شقي بقضاء الله وقدره ، فيموت على الكفر والعياذ بالله تعالى ..

---

(١) الحجر : ٢١ (٢) الفرقان : ٢ (٣) القمر : ٤٩

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كنا في جنازة ببقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة[1] فجعل ينكث بها الأرض ثم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة . فقالوا : يا رسول الله .. أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل الشقاء . ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى .. ﴾[2] الآية . أخرجه البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي .

وعن جابر رضي الله عنه ، قال : جاء سراقة بن مالك بن جشعم رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله .. بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم ؟.. فيما جفت الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال : « فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » . قال : ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له وكل عامل بعمله » أخرجه مسلم .

وعن سهد بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وأن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » أخرجه الشيخان ، وزاد البخاري : وإنما الأعمال بالخواتيم .

ثم يقول في الدين الخالص : والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة . وفيها رد على القدرية الذين يزعمون أن أفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم استقلالاً بواسطة الإقدار والتمكين . وقد اتفق لشخص منهم أنه رفع رجله بحضرة رجل من أهل السنة وقال : إني رفعت رجلي عن الأرض بقدرتي . فقال له السني : إذن فارفع رجلك الأخرى ، فلم يرد له جواباً . وفيها رد عليهم أيضاً في زعمهم أن العبد يخلق الشر كالمعاصي والكفر . وهو زعم باطل . إذ لو كان العبد يخلق الشر والمخالفات وهي أكثر وقوعاً من الطاعات لكان أكثر ما يجري في الوجود من أفعال العباد لا يكون بخلق الله وإيجاده ، بل بخلقهم وإيجادهم وذلك جلي البطلان ، لأن الله تعالى هو المنفرد بالخلق والتأثير على

---

(1) المراد عصا كانت في يده .. (2) الليل : ٥ ــ ٧ .

وفق علمه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « القدرية مجوس هذه الأمة » أخرجه أبو داوود والحاكم من حديث أبي حازم عن ابن عمر . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم عن ابن عمر .

وشبههم ﷺ بالمجوس حيث فرقوا بين أفعال الله عز وجل فجعلوا بعضها له وبعضها لغيره ، قال الخطابي : إنما جعلهم ﷺ مجوساً ، لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة : يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة .

وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره . والله خالق الخير والشر جميعاً ، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته ، فهما مضافان إليه خلقاً وإيجاداً ، وإلى الفاعلين لهما من عبادة فعلاً واكتساباً .. إلخ(١) .

* * *

أقول : وقد روى النيسابورى في تفسيره بإسناده :

أن علي بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه ــ سأله سائل عن القدر ؟ فقال : طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ؟ فقال : سر خفي لا تفشه ، فقال : يا أمير المؤمين أخبرني عن القدر ؟ فقال علي رضي الله عنه : يا سائل ، إن الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء . فقال : إن الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء ؟ فقال : كما يشاء . فقال : ياسائل ، لك مشيئة مع الله ؟ أو فوق مشيئته ؟ أو دون مشيئته ؟ فإن قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وإن قلت : دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت : فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته . ثم قال : ألست تسأل الله العافية ؟ قال : نعم . قال : فمن ماذا تسأله العافية ؟ أمن بلاء ابتلاك به ؟ أو من بلاء غيرك ابتلاك به ؟ قال : من بلاء ابتلاني به . قال : ألست تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؟ قال : بلى . قال . نعرف تفسيرها ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين علمني مما علمك الله . فقال : تفسيرها أن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته إلا بالله عز وجل . يا سائل ، إن الله يسقم ويداوي ، منه

---

(١) ارجع إلى هذا الموضوع في الجزء الأول من الدين الخالص .. لتقرأ بعد ذلك آراء المعتزلة كذلك .

الداء ، ومنه الدواء ، اعقل عن الله . فقال السائل : عقلت . فقال له : الآن صرت مسلماً ، قوموا إلى أخيكم المسلم فخذوا بيده . ثم قال علي ـــ كرم الله وجهه ـــ لو وجدت رجلاً من أهل القدر لأخذت بعنقه ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه فإنهم يهود هذه الأمة .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، وكن ملاحظاً لكل أبعاده وما فيه من إشارات وتوجيهات : حتى لا تكون قدرياً .. وحتى تقول ما أوصاك به الرسول ﷺ في نهاية الوصية .. إن أصابك شيء وهو : « قدر الله وما شاء فعل » ، واحذر أن تكون « لو » سبباً في سيطرة الشيطان عليك .. « فإن لو تفتح عمل الشيطان » : أعاذنا الله جميعاً منه ومن أعماله .. آمين ..

* * *

الوَصِيَّةُ السِّتُّونَ

عَن أبي هُرَيرَة رَضيَ اللّه عَنه
عَن النَّبيِّ صَلَّى اللّه عَلَيهِ وَسَلَّم قَال :

إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا[1] وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ[2] وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ.

رواه البخاري

(١) فسددوا وقاربوا : أي اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة.

(٢) الغدوة : سير أول النهار، وَالروحة : آخر النهار، وَالدُّلْجَة : آخر الليل. وَهذا استعارة وتمثيل، ومعناه استعينوا على طاعة الله بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم. بحيث تستلذون العبادة وَلا تسأمون.

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي تعتبر من أهم الوصايا : لأنها تدعو إلى الوسطية في الدين كما تحذر في نفس الوقت من التغالي فيه .. وهذا أساس لا بد وأن نقف عليه جميعاً حتى نعمل على تنفيذه وعدم مخالفته وإلا كانت النتيجة عكس ما نريد في دنيانا وأخرانا .

وحسبنا إذا أردنا تأكيداً لهذا أن نقرأ ـــ أولاً ـــ قول الله تعالى لنبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾[1] :

وكان النبي ﷺ وأصحابه ـــ كما يقول مجاهد في القرطبي ـــ يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام ، ثم نسخ ذلك بالفرض ، فنزلت هذه الآية .

وحكى ابن الأنباري : أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ، ويحتاج إلى الترويح بين قدميه ، فقيل له : طأ الأرض ، أى لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح .

وذكر القاضي عياض في « الشفاء » أن الربيع بن أنس قال : كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى ﴿ **طه** ﴾ يعني : طأ الأرض يا محمد ﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ .

والخلاصة ـــ كما يقول القرطبي في نهاية تفسير هذه الآية ـــ هي : وعلى الأقوال المتقدمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه ، فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً ، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك في العبادة ، وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة .

ويوضح هذا أيضاً ويؤكده قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ :

وقد قال تعالى هذا بعد قوله سبحانه : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر**

فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾[1] .

فهذه الآية بتمامها وما تتضمنه من أحكام فقهية تؤكد سماحة الإسلام ورحمته بالعباد الذين لا يتحملون الصيام بسبب المرض أو بسبب السفر الذي هو قطعة من العذاب .

ولهذا كانت الرخصة لهما بالفطر على أن يصوما بعد ذلك في أيام أخر بعد أن تعود الصحة أو بعد أن يصل المسافر إلى وطنه أو إلى المكان الذي يريد السفر إليه .

وقد قال القرطبي في المسألة الرابعة حول هذا : واختلف العلماء في الأفضل من الفطر أو الصوم في السفر ، فقال مالك والشافعي في بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قوي عليه . وجعل مذهب مالك التخيير ، وكذلك مذهب الشافعي . قال الشافعي ومن اتبعه : هو مخير ، ولم يفضل . وكذلك ابن عطية ، لحديث أنس ، قال : سافرنا مع النبي ﷺ في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم . أخرجه مالك والبخاري ومسلم . وروى عن عثمان بن أبي العاص وأنس بن مالك صاحبي رسول الله ﷺ أنهما قالا : الصوم في السفر أفضل ، لمن قدر عليه . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

وروى عن ابن عمر وابن عباس : الرخصة أفضل ، وقال به سعيد بن المسيب والشعبي وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والأوزاعي وأحمد وإسحاق . فكل هؤلاء يقولون : الفطر أفضل ، لقول الله تعالى : **﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾** .

وإتماماً للفائدة ، فإنني أرى أن ألخص لك ما ذكره الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى في الجزء الثامن من الدين الخالص ، تحت عنوان :

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

الأعذار المبيحة للفطر

قال : وهي تسعة :

١ ــ المرض : لمن دخل عليه وخاف ــ بغلبة ظن أو تجربة أو إخبار طبيب مسلم حاذق غير ظاهر الفسق ــ من الصوم المرض إذا كان صحيحاً ، أو زيادته أو بطؤه إذا كان مريضاً لقوله تعالى : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ ، وفي حديث معاذ بن جبل في أحوال الصيام ، قال ثم إن الله تعالى أنزل الآية الأخرى : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح . ورخص فيه للمريض والمسافر . وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام » أخرجه أحمد وأبو داوود والبيهقي بسند صحيح .

ثم يقول : وعلى هذا أجمعت الأمة ، فإن تحمل المريض وصام مع هذا فقد فعل مكروهاً لما يتضمنه من الإضرار بنفسه وتركه تخفيف الله وقبول رخصته . ويصح صومه ويجزئه لأنه عزيمة أبيح تركها رخصة فإذا تحمله أجزأه كالمريض الذي يباح له ترك الجمعة إذا حضرها . والصحيح الذي يخشى المرض بالصيام كالمريض الذي يخاف زيادة المرض في إباحة الفطر لأن المريض إنما أبيح له الفطر خوفاً مما يتجدد بصيامه من زيادة المرض وتطاوله والخوف من تجدد المرض في معناه .

٢ ــ السفر : فيباح الفطر للمسافر سفر قصر وإن لم يضره الصوم ، لأن السفر الطويل لا يعري عن المشقة وهي لا تنضبط فاعتبر مظنتها لقوله تعالى : ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾(١) . ولحديث عائشة رضي الله عنها أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال للنبي ﷺ : « أأصوم في السفر ؟ ــ وكان كثير الصيام ــ فقال : إن شئت فصم وإن شئت فافطر » أخرجه الجماعة(٢) والبيهقي وقال الترمذي : حسن صحيح .

---

(١) البقرة : ١٨٤ .

(٢) وهم : مالك ، وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

ثم يقول : وهو نص في إثبات الخيار للمسافر بين الصوم والإفطار وأنه يصح صوم الفرض للمسافر وأن صومه في السفر ليس واجباً . وظاهره أن سأل عن مطلق الصوم فرضاً أو غيره فلا يكون فيه حجة على من منع صوم رمضان في السفر . لكن صرح برمضان في أحاديث ، منها حديث أبي الدرداء رضى الله عنه ، قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده علي رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة » أخرجه مسلم .

وقد قال عامة العلماء : بجواز صيام رمضان وفطره للمسافر .. واختلفوا في الأفضل منهما :

فقال الحنفيون ومالك والشافعي والثوري : الصوم في السفر أفضل لمن قوي عليه ، والفطر أفضل لمن لم يقو علي الصيام ، لقوله تعالى : ﴿ **وأن تصوموا خير لكم** ﴾[1] .

ولحديث أبي الدرداء السابق ففيه فطر من اشتد عليهم الحر من الصحابة ولم يقو علي الصيام وصيام النبي ﷺ وعبد الله بن رواحة لأنه لم يجهدهما ، وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : « كنا نغزو مع رسول الله ﷺ في رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر فلا يجد الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم يرون أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر فإن ذلك حسن » أخرجه أحمد ومسلم والبيهقي .

وقال أحمد وإسحاق : الفطر في السفر أفضل لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما « أن النبي ﷺ كان في سفر فرأى رجلاً قد اجتمع الناس عليه وقد ظلل عليه ، فقال : ما له ؟ قالوا : هذا رجل صائم . فقال رسول الله ﷺ : ليس البر أن تصوموا في السفر » أخرجه أحمد ومسلم .

٣ ، ٤ ــ الحامل والمرضع : فالحامل هي التي في بطنها جنين ، والمرضع التي شأنها الإرضاع وإن لم تباشره ، والمرضعة هي المباشرة له بإلقام ثديها الصبي . فيباح للحامل والمرضع الفطر إذا خافتا على أنفسهما أو ولدهما ولو رضاعاً ــ بغلبة الظن بنحو تجربة أو إخبار طبيب ثقة ــ من حصول ضرر بالصوم كضرر المريض ، وللمرضع الفطر بشرب دواء أخبر الطبيب الثقة أنه

---

(١) البقرة : ١٨٤ .

يمنع استطلاق بطن الرضيع ، مثلاً ، لحديث أنس بن مالك الكعبي أن النبي ﷺ ، قال : « إن الله تعالى وضع عن المسافر شطر الصلاة وعن المسافر والحامل والمرضع الصوم ــ أو الصيام » أخرجه أحمد والأربعة(١) والبيهقي وحسنه الترمذي .

فقد دل الحديث : على أنه يباح للحامل والمرضع الافطار إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما وبه يقول العلماء . واختلفوا فى لزوم القضاء والفدية عليهما ، فقال ابن عباس وابن عمر : عليهما الفدية بلا قضاء إذا خافتا على ولدهما ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : إذا خافت الحامل على نفسها والمرضع على ولدها فى رمضان يفطران ويطعمان مكان كل يوم مسكينا ولا يقضيان صوما . أخرجه ابن جرير الطبرى .

وعن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها ، فقال : تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من حنطة . أخرجه مالك والبيهقى .

وقال الحنفيون : يباح الفطر للحامل والمرضع إذا خافتا عل أنفسهما أو ولدهما وعليهما القضاء عند القدرة ولا فدية عليهما لعدم النص عليها في الحديث :

وبهذا قال مالك في الحامل ، وقال فى المرضع : إذا خافت على ولدها أو نفسها ولم تجد أجرة ترضعه بها عليها الفطر والقضاء والفدية لكل يوم مد ، وقال الشافعي وأحمد : يباح لهما الفطر وعليهما القضاء فقط إن خافتا على أنفسهما فقط أو مع ولدهما . أما إن خافتا على الولد فقط فعليهما القضاء لأن حالهما لا ينقص عن حال المريض وعليهما الفدية أيضاً لكل يوم مد من غالب قوت البلد عند الشافعي لأنهما يطيقان الصوم وقد قال الله تعال : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾(٢) وقال أحمد : الواجب مدّ بُرٍ أو نصف صاع شعير والخلاف فيه كالخلاف في إطعام المساكين في كفارة الجماع . فإن سقطت عنهما بالعجز ككفارة الوطء بل أولى لوجود العذر . وقيل : لا يسقط .

---

(١) وهم : أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه (١) البقرة : ١٨٤ .

٥ ــ الكبر : ــ بكسر ففتح ــ الطعن في السن .. فإنه يطلب من الشيخ الهرم والمرأة العجوز إذا لحقهما بالصوم مشقة أن يفطرا ويطعما لكل يوم مسكيناً مدا من بر عند الشافعي وأحمد ، ونصف صاع من بر أو دقيقه أو سويقه أو صاعاً من تمر أو شعير أو زبيب أو قيمة ذلك عند الحنفيين إن قدر وإلا استغفر الله تعالى وطلب منه العفو والإقالة ، قال ابن عباس : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً ولا قضاء عليه . أخرجه الدارقطني والحاكم وصححاه .

٦ ــ يباح الفطر لمن أكره عليه بملجىء كالقتل أو قطع عضو .

٧ ــ ويباح الفطر للمجاهد لإعلاء كلمة الدين ولو مقيماً إذا خاف الضعف عن الجهاد إذا استمر صائماً .

٨ ، ٩ ــ ويباح الفطر لمن خاف الهلاك أو نقصان العقل أو الضرر من جوع أو عطش شديدين إن لم يفطر لقوله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾(٢) .

ولحديث ابن عباس : أن النبي ﷺ قال : « لا ضرر ولا ضرار » أخرجه أحمد وابن ماجه بسند حسن .

* * *

فتلك يا أخي المسلم هي سماحة الإسلام الذي كله يسر ورحمة .. أو إن شئت فقل : ﴿ .. ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾(٣) .

فاشكر الله تعالى على نعمة التيسير واستعن بالله تعالى على تحقيقه .. كما يشير إلى هذا الحديث الشريف الذي جاء في نصه :

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « قلت يا رسول الله .. أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ، قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ،

---

(١) البقرة: ١٩٥ (٢) الحج : ٧٨ (٣) البقرة : ١٧٨

وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل » .. ثم تلا : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾[1] ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه[2] الجهاد . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك[3] ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه وقال : كف عليك هذا . قلت : يا نبي الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك[4] أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ــ أو قال على مناخرهم ــ إلا حصائد ألسنتهم » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وذلك لأنه كما يقول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى　　فأول ما يجني عليه اجتهاده

وإذا كان الرسول ﷺ قد قال بعد قوله : « إن الدين يسر » : « ولن يشاد الدين » بالرفع على ما لم يسم فاعله ، وروى منصوباً : « ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » : فإن المراد أي غلبه الدين وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه .. فافهم ذلك أخا الإسلام ونفذ ما بعده وهو :

« فسددوا وقاربوا » ، أي القصد في طاعة الله تعالى كما قال النبي ﷺ في نهاية حديث شريف صحيح يقول فيه : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة ، القصد القصد تبلغوا » .

* * *

وحسبي حتى يتضح لك هذا وتنفذه إن شاء الله تعالى : أن أذكرك

---

(١) السجدة : ١٦ ، ١٧　　(٢) ذروة سنامه : أي أعلاه .

(٣) ملاك الشيء بكسر الميم : أي مقصوده .

(٤) ثكلتك أمك : أي فقدتك ، ولم يقصد الرسول ﷺ حقيقة الدعاء بل جرى ذلك على عادة العرب في المخاطبات .

ببعض الأحاديث الشريفة الصحيحة التي ذكرها الإمام النووي في كتابه « رياض الصالحين » تحت عنوان :

باب في الاقتصاد في الطاعة

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة ، قال : من هذه ؟ قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها ، قال : « مه(١) عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا » وكان أحب الدين إليه ماداوم صاحبه عليه . متفق عليه .

ومعنى « لا يمل الله حتى تملوا » : أى لا يقطع عنكم جزاء أعمالكم ويعاملكم معاملة الملل حتى تملوا فتتركوا .. فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه .

وعن أنس رضي الله عنه ، قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها(٢) ، وقالوا : أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبداً ، ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ﷺ إليهم ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ .. أما والله إني لأخشاكم لله(٣) وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثاً . رواه مسلم .

والمتنطعون : أى المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد .

وعن أنس رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين(٤) فقال : « ما هذا الحبل » ؟ قالوا : هذا حبل لزينب فإذا فترت(٥) تعلقت به . فقال النبي ﷺ : « حلوه .. ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد » متفق عليه .

---

(١) مه : كلمة نهي وزجر (٢) أى عدوها قليلة .

(٣) أى أخافه خوفاً شديداً مقروناً بالشعور بعظمته سبحانه وتعالى .

(٤) عمودان من سواري المسجد . (٥) أى كسلت عن القيام في الصلاة .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإنه إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » متفق عليه .

وعن أبي عبد الله جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال : « كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات فكانت صلاته قصداً(١) وخطبته قصداً »(٢) رواه مسلم .

وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال : « آخى(٣) النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة(٤) فقال : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا . فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً(٥) فقال له : كل فإني صائم ، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل.. فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له : نم فنام . ثم ذهب يقوم فقال له : نم . فلما كان آخر الليل(٦) قال سلمان : قم الآن فصليا جميعاً . فقال له سلمان : إن لربك عليك(٧) حقاً ، وإن لنفسك عليك(٨) حقاً ، ولأهلك عليك(٩) حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ : « صدق سلمان » رواه البخاري .

وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أخبر النبي ﷺ أني أقول : والله لأصومن النهار ، ولأقومن الليل ما عشت . فقال رسول الله ﷺ : « أنت الذي تقول ذلك » ؟ فقلت له : قد قلته بأبي أنت وأمي(١٠) يا رسول الله . قال : « فإنك لا تستطيع ذلك ، فصم وأفطر ، ونم

---

(١) قصداً : أي بين الطول والقصر .

(٢) أي يأتي بمكملات الخطبة ومسنوناتها من غير طول ولا قصر .

(٣) من المؤاخاة والمعاهدة على التناصر والقيام بحقوق الوالدين .

(٤) أي لابسة ثوب الممتهنة البذلة تاركة ثياب الزينة والجمال .

(٥) إكراماً له (٦) أي عند السحر (٧) أي من العبادة

(٨) أي من الطعام الذي تقوم به بنيتها والمنام الذي يحصل به صحتها .

(٩) إتيانها وقضاء وطرها . (١٠) أي أفديك بهما .

وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر » ، قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك . قال : « فصم يوماً وأفطر يومين » . قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك . قال : « فصم يوماً وأفطر يوماً فذلك صيام داوود ﷺ وهو أعدل الصيام » — وفي رواية : « هو أفضل الصيام » — فقلت : فإني أطيق أفضل من ذلك : فقال رسول الله ﷺ : « لا أفضل من ذلك » .

ولأن أكون قبلت الثلاثة أيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلى من أهلي ومالي أ . هـ .

وفي رواية : «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل » ؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال : « فلا تفعل .. صم وأفطر ، ونم وقم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً ، وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإذن ذلك صيام الدهر » فشددت فشدد على ، قلت : يا رسول الله .. إنى أجد قوة ، قال : « صم صيام نبي الله داوود ولا تزد عليه » قلت : وما كان صيام داوود ؟ قال : « نصف الدهر » فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ .

وفي رواية : « ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل » ؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال : « فلاتفعل .. صم وأفطر ، ونم وقم ، فإن لجسدك عليك الله داوود ، فإنه كان أعبد الناس ، واقرأ القرآن في كل شهر »(١) قلت : يانبي الله .. إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال : « فاقرأه في كل عشر » قلت : يانبي الله .. إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال : « فاقرأه في كل سبع ولاتزد علي ذلك » ، فشددت فشدد على وقال لي النبي ﷺ : « إنك لا تدري لعلك يطول بك عمرك » قال : فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ . فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ .

وفي رواية : « وإن لولدك عليك حقاً » .

وفي رواية : « لا صام من صام الأبد » ثلاثاً .

وفي رواية « أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داوود ، وأحب الصلاة إلى

---

(١) أى اختمه متهجداً تلاوته .

الله تعالى صلاة داوود : كان ينام نصف الليل[١] ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى »[٢] .

وفي رواية قال : أنكحني أبي امرأة ذات حسب[٣] وكان يتعاهد كنته ــ أي امرأة ولده ــ فيسألها عن بعلها[٤] فتقول له : نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً[٥] ولم يفتش لنا كنفاً[٦] منذ أتيناه . فلما طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبي ﷺ . فقال : « ألقني به » فلقيته بعد ، فقال : « كيف تصوم » ؟ قلت : كل يوم ، قال : « وكيف تختم » ؟ قلت : كل ليلة ــ وذكر نحو ما سبق ــ وكان يقرأ على بعض أهله السبع الذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصي وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ .

كل هذه الروايات صحيحة معظمها في الصحيحين وقليل منها في أحدهما .

وعن أبي ربعي حنظلة بن الربيع الأسيدي الكاتب أحد كتاب رسول الله ﷺ ، قال : « لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق[٧] حنظلة ! قال : سبحان الله[٨] ما تقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى العين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا[٩] الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً . قال أبو بكر رضي الله عنه : فوالله إنا لنلقي مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ . فقلت : نافق حنظلة يارسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : « وما ذاك » ؟ قلت : يا رسول الله .. نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد

---

(١) ليستريح البدن من تعب أعمال النهار . (٢) أي إذا لاقى العدو في الميدان .
(٣) أي ذات شرف . (٤) أي زوجها .
(٥) كناية عن المضاجعة والنوم معها على الفراش .
(٦) أي لم يكشف لنا ستراً .. تريد بهذا امتناعه عن الجماع .
(٧) خاف على نفسه النفاق لما كان يحصل له من الخوف في مجلس النبي ﷺ .
(٨) تنزيهاً لله وحده . (٩) أي مارسنا .

والضيعات(١) نسينا كثيراً . فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده أنكم لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة(٢) وساعة »(٣) ثلاث مرات . رواه مسلم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه ، فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم . فقال النبي ﷺ : « مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » رواه البخاري .

* * *

وهكذا ــ كما رأيت أخا الإسلام ــ كان النبي ﷺ يخطط لأصحابه بل لكل فرد من أفراد أمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها « برنامجاً » بكل تيسير لا تعقيد فيه ولا تعجيز حتى يستطيعوا أن يواصلوا العمل لدنياهم وأخراهم لأن الله تعالى كما يقول عن نفسه في قرآنه : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾(٤) .

مع ملاحظة أن العبرة ليست بكثرة العمل ولكن بالمداومة عليه وإن قل ــ كما قال النبي ﷺ في حديث شريف .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » رواه مسلم .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال لي رسول الله ﷺ : « يا عبد الله .. لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » متفق عليه .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا فاتته

---

(١) الضيعات : أى المعايش . (٢) أى زمنا لأداء العبادة .

(٣) أى ووقتاً للقيام بما يحتاجه الإنسان .

(٤) البقرة : ٢٨٦ .

الصلاة من الليل[1] من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة » رواه مسلم .

وهذا أيضاً أخا الإسلام يشير إلى ملاحظة هامة أرجو أن تنتفع بها ، وهي : أنك إذا كنت متعباً أو مشغولاً بأمر من الأمور الدينية أو الدنيوية أو المعيشية ولم تستطع فعل ما اعتدت فعله في وقت محدد فإنك تستطيع تدارك هذا بفعل ما أشار إليه الرسول ﷺ في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـــ السابق ـــ بل وبالنية الصادقة لن تحرم إن شاء الله تعالى من الثواب :

فعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال : كنا مع النبي ﷺ في غزاة[2] فقال : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم [3] حبسهم[4] المرض » .

وفي رواية : «إلاشاركوكم في الأجر» رواه مسلم. ورواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ ، فقال : « إن أقواماً خلفنا[5] بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا ، حبسهم العذر » .

* * *

وهناك ملاحظة أخرى أرجو كذلك أخا الإسلام أن تنتفع بها ، وهى أن العبرة ليست ـــ فقط ـــ بكثرة الأعمال وإنما هي بالإضافة إلى الأساسيات التي فرضها الله عليك وعلينا : سلامة الصدر وحسن الخلق :

فعن أنس بن مالك ، قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ ، فقال : « يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار ، تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه بيده الشمال .. فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى . فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو ـــ تبع الرجل ـــ فقال إني لاحيت أبي ، فأقسمت

---

(١) أى تهجد الليل . (٢) أى غزوة تبوك .
(٣) أى في الأجر وإدراك الثواب (٤) أى منعهم (٥) أى وراءنا .

ألا أدخل عليه ثلاثا . فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت ! قال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعار ــ أى تقلب في فراشه ــ ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر .. قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا .

فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله .. لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ــ ثلاث مرات ــ يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك ، فأنظر ما عملك فأقتدي بك . فلم أرك عملت كبير عمل !! فما الذي بلغ لك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . قال عبد الله : فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك »[١] .

وفي رواية : « ما هو إلا ما رأيت يا ابن أخي ، إلا أني لم أبت ضاغناً على مسلم »[٢] .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى لا تكون من هؤلاء الذين يتكلمون على كثرة أعمالهم أو الذين يظنون أن الأعمال هى كل شيء .. مع أنه من المفروض ألا يتكل الإنسان على أعماله .. بل مع الأعمال الصالحة لا بد أن يعتبر نفسه مقصراً في طاعة الله تعالى .. وأنه ليس بفرض على الله تعالى ــ إن كان مؤدياً للأعمال الصالحة ــ أن يدخله الجنة .. فإن أدخله الجنة فبفضله ، وإن أدخله النار فبعدله .. وقد ورد أن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه :

« لا يدخل أحدكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[٣] .

---

(١) رواه أحمد . (٢) أخرجه البزار .
(٣) كما قال صلوات الله وسلامه عليه في حديث صحيح .

ورحمة الله تعالى .. ليست إلا لهؤلاء الذين تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله .. ﴾(١) .

وهم أيضاً المشار إليهم في قول الله تعالى :

﴿ .. ورحمتي وسعت كل شيء ﴾(٢) : وهذه الآية لم تنته عند هذا الحد .. لأنها لو انتهت عند هذا لجاز لإبليس عليه لعنة الله أن يطالب بدخول الجنة لأنه شيء من الأشياء .. وإذا كان كلام الملوك لا يرد ، فمابالك بكلام ملك الملوك سبحانه وتعالى .. ولهذا فقد قال الله تعالى بعد ذلك ــ وفي نفس الآية(٣) ــ : **﴿ فسأكتبها ﴾** أي الرحمة : **﴿ للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾**(٤) .

وفي الحديث القدسي يقول تبارك وتعالى : « ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل.. كيف أجود برحمتي علي من بخل بطاعتي » :

فمع العمل الصالح كما علمت تستطيع أن ترجو رحمة الله تعالى .. مع عدم الاتكال على هذا العمل حتى لا يكون مدخلاً للشيطان إلى قلبك وسبباً في تقصيرك بعد ذلك .

وليكن هدفك الأسمى هو أن يرضى الله تعالى عنك وأن يختم لك بالإيمان ، حتى تكون من الذين أراد الله تعالى بهم خيراً .. فقد ورد في الحديث الشريف :

---

(١) التوبة : ٧١ .
(٢) الأعراف : ١٥٦ .
(٣) الأعراف : ١٥٦ .
(٤) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .

« إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله .. قيل : وكيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه » .

وإذا كان الرسول ﷺ قد قال بعد ذلك في نص الوصية ـــ التي ندور حولها ـــ « وأبشروا » : فإنه يريد من كل مؤمن مخلص صادق أن يكون مستبشراً وألا ييأس أبداً من رحمة الله تعالى ، لأنه : ﴿ .. **لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾(١) ، وحسبه أن يعلم أنه ما دام سليم العقيدة .. فإن الله تعالى سيغفر له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر .. وما دام قد صدق في توبته على أساس من الشروط التي ذكرها الإمام النووي في كتابه « رياض الصالحين » حيث يقول(٢) .

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط : أحدها : أن يقلع عن المعصية ، والثاني : أن يندم على فعلها ، والثالث : أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً ، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة . هذه الثلاثة . وأن يبرأ من حق صاحبها . فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحله منها . ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي . ثم يقول : وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

قال الله تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ .. **فاستغفروه ثم توبوا إليه** ﴾(٤) .
وقال تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾(٥) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »(٦) .

---

(١) يوسف : ٨٧ (٢) في باب التوبة (٣) النور : ٣١
(٤) هود : ٦١ (٥) التحريم : ٨ (٦) رواه البخاري

وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس .. توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة »(١) .

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »(٢) .

وإذا كانت التوبة واجبة ــ كما قال العلماء ــ فإنني أحب أن أذكرك ــ والشي بالشيء يذكر ــ بأن هناك ما هو أوجب منها .. كما أشار إلى هذا الشافعي رضي الله عنه عندما سئل عن ثمانية أمور : عن الواجب والأوجب ، والعجيب والأعجب ، والصعب والأصعب ، والقريب والأقرب ؟ فأجاب بقوله :

من واجب الناس أن يتوبوا	لكن ترك الذنوب أوجب
والدهر في صرفه عجيب	وغفلة الناس عنه أعجب
والصبر في النائبات صعب	لكن فوات الثواب أصعب
وكل ما ترتجى قريب	والموت من دون ذاك أقرب

فلا بد إذن لكي تكون صادقاً في توبتك أن تحقق الواجب والأوجب : وذلك بترك المعاصي والمخالفات .. والتقرب إلى الله تعالى بفعل الصالحات التي تؤكد صدق توبتك وصدق رجوعك إلى الله تبارك وتعالى الذي يقول : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً** ﴾(٣) .

ثم إليك بعد ذلك الحديث القدسي الذي أردت أن أذكرك به في أول حديثي عن التوبة ، وهو :

عن أنس رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : « قال الله تعالى :يا ابن آدم .. إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك . يا ابن آدم .. إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذي وقال :

---

(١) رواه مسلم (٢) رواه مسلم (٣) الفرقان : ٧١

حديث حسن صحيح .

وقد كان أحد الصالحين يشير إلى هذا المعنى الكبير في قوله :

يا رب إن ذنوبي في الورى كثرت وليس لي عمل في الحشر ينجيني
وقد أتيتك بالتوحيد يصحبه حب النبي وهذا القدر يكفيني

فلتكن مستبشراً على هذا الأساس الذي وقفت عليه: ما دمت موحداً ، ومادمت محباً للحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي يقول : « من أحيا سنتي أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة »(١) . وحسبك هذا ..

* * *

واعلم أن جميع البشائر الواردة في القرآن الكريم وفي السنة المحمدية ما كانت إلا على هذا الأساس الذي أشرت إليه ..

ففي القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون** ﴾(٢) .

ويقول : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين** ﴾(٣) .

ويقول : ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم** ﴾(٤) ..

ويقول : ﴿ .. **وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم** .. ﴾(٥) .

ويقول : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين**

---

(١) كما ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه . (٢) البقرة : ٢٥ .
(٣) البقرة : ٢٢٣ (٤) التوبة : ٢٠ ــ ٢٢ (٥) يونس : ٢

آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .. ﴾[1] .

ويقول : ﴿ .. وبشر المحسنين ﴾[2] .

ويقول : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيرا ﴾[3] .

مع ملاحظة أنه إذا كان الله تعالى قد قال في قرآنه :

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾[4] .

﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾[5] .

﴿ .. والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾[6] .

فإن المراد كما يقول الطبري : أصل البشارة الخبر السار الذي يسر به المخبر ، أقول : ولهذا لا تكون البشارة إلا في الخير ، فإذا استعملت في الشر كان ذلك من باب التهكم والسخرية كقوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

وفي السنة المطهرة ورد عن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « بشروا المشائين في الظلم[7] إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »[8] رواه أبو داوود ، والترمذي .

فلتذكر كل هذا أخا الإسلام واعمل على أن تكون من المؤمنين المتقين المبشرين ﴿ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾[9] .

ففي القرطبي حول قوله تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا ﴾[10] ، ذكر ما يلي : عن أبي الدرداء ، قال : سألت رسول الله ﷺ عنها ، فقال : « ما سألني أحد عنها غيرك منذ أنزلت : هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له » أخرجه الترمذي في جامعه .

وقال الزهري وعطاء وقتادة : هي البشارة التي تبشر بها الملائكة المؤمن في الدنيا عند الموت .

---

(1) يونس : ٦٢ ــ ٦٤ (2) الحج : ٣٧ (3) الأحزاب : ٤٧

(4) النساء : ١٣٨ (5) التوبة : ٣ (6) التوبة : ٣٤

(7) أى ظلمة العشاء والفجر (8) أى على الصراط (9) يونس : ٦٤

(10) يونس : ٦ .

وعن محمد بن كعب القرطبي قال : إذا استنقعت(1) نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت ، فقال : « السلام عليك ولي الله ، الله يقرئك السلام » ثم ينزع بهذه الآية : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ..** ﴾(2) ذكره ابن المبارك .

وقال قتادة والضحاك : هي أن يعلم أين هو من قبل أن يموت .

وقال الحسن : هي ما يبشرهم الله تعالى في كتابه من جنته وكريم ثوابه ، لقوله : ﴿ **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان** ﴾(3) .

وقوله : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ..** ﴾(4) .

وقوله : ﴿ **وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾(5) .

ولهذا قال : ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾(6) . أي لا خلف لمواعيده ، وذلك لأن مواعيده بكلماته . ثم يقول القرطبي : ﴿ **في الآخرة** ﴾ : قيل : بالجنة إذا خرجوا من قبورهم . وقيل : إذا خرجت الروح بشرت برضوان الله . وذكر أبو إسحاق الثعلبي : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجوزقي يقول : رأيت أبا عبد الله الحافظ في المنام راكباً برذوناً عليه طيلسان وعمامة ، فسلمت عليه وقلت له : أهلاً بك ، إنا لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ، فقال : ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ، قال الله تعالى : ﴿ **لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾(7) الثناء الحسن ، وأشار بيده ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾(8) أي : لا خلف لوعده . وقيل : لا تبديل لأخباره ، أي لا ينسخها بشيء ، ولا تكون إلا كما قال : ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾(9) أي : ما يصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم .

حعلني الله تعالى وإياك بكل تلك البشريات العظيمة من أهل الفوز العظيم

---

(1) إي إذا احتمعت فيه تريد الحروج كما يستنقع الماء في قراره ، وأراد بالنفس الروح (ابن كثير) .

(2) النحل : 32 — (3) التوبة : 21 — (4) البقرة : 25

(5) فصلت : 30 — (6) يونس : 64 — (7) يونس : 64

(8) يونس : 64 — (9) يونس : 64 .

ثم إذا كان النبي ﷺ يقول بعد قوله : « وأبشروا » ، «واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » :

فإن المراد من هذا التوجيه المحمدي أن ينظم الإنسان وقته وبالصورة التي يستطيع من خلالها أن يعطي للجسد حقه :

ففي « فتح الباري » يقول شارحاً هذا : أى استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة . والغدوة بالفتح سير أول النهار ، وقال الجوهري : ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس . والروحة بالفتح السير بعد الزوال . والدلجة بضم الأول وفتحه وإسكان اللام سير آخر الليل ، وقيل سير الليل كله ، ولهذا عبر فيه بالتبعيض ، ولأن عمل الليل أشق من عمل النهار . وهذه الأوقات أطيب أوقات المسافر ، وكأنه ﷺ خاطب مسافراً إلى مقصد فنبهه علي أوقات نشاطه ، لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعاً عجز وانقطع ، وإذا تحري السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة . وحسن هذه الاستعارة أن الدنيا في الحقيقة دار نقلة إلى الآخرة ، وأن هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة . وقوله في رواية ابن أبي ذئب « القصد القصد » بالنصب فيهما على الإغراء ، والقصد الأخذ بالأمر الأوسط .. فأراد أن يبين أن الأولي للعامل بذلك ألا يجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع ، بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم عمله ولا ينقطع .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الأمور أوساطها » ذكره الحافظ عبد العظيم المنذري في الترهيب من ترك السنة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وفيه : « من كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » وقال : رواه ابن أبي عاصم وابن حبان في صحيحه ، ورواه ابن حبان أيضاً من حديث أبي هريرة .

وفي « جامع الأصول »[٤] لابن الأثير (ج ١) قال شارح هذا الحديث فى الهامش :

معناه : أن كل خصلة محمودة ، فإن لها طرفين مذمومين ، مثل السخاء وسط بين البخل والتبذير . والشجاعة ، وسط بين الجبن والتهور ، والإنسان

(١) البقرة : ٦٨ (٢) الإسراء : ٢٩ (٣) الإسراء : ١١٠

(٤) طبعة دار إحياء التراث العربي — بيروت .

مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم ، وتجنبه بالتعرى منه ، والتباعد عنه ، فكلما ازداد منه ، فقد ازداد منه تقرباً ، وأبعد الجهات والأماكن والمقادير من كل طرفين ، فإنما هو وسطها ، لأن الوسط أبعد الجهات من الأطراف ، وهو غاية البعد عنها ، فإذا كان الوسط فقد تعدى عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان ، فلهذا كان خير الأمور أوساطها منه .

ولهذا ، فقد جعل الله تعالى أمتنا ــ المحمدية ــ أمة وسطاً .. قال تعالى : **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾**[1] :

قال القرطبي ــ في المسألة الأولى ــ قوله تعالى : **﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾** ، المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً ، أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم . والوسط العدل . وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها .

وقال ــ في المسألة الثانية ــ : قوله تعالى : **﴿لتكونوا شهداء على الناس ﴾** ، أى في الحشر للأنبياء على أممهم ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب . فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك . فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيداً ، فذلك قوله عز وجل : **﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾**[2] .

وقال ــ في المسألة الثالثة ــ : قال علماؤنا : أنبأنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتولية خطير الشهادة علي جميع خلقه ، فجعلنا أولا مكاناً وإن كنا آخراً زمانا ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « نحن الآخرون الأولون » . وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول ، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلاً ..

فلتكن أخا الإسلام مدركاً لأبعاد هذا حتى تكون عدلاً مع نفسك فلا تكلفها ما لا تطيق .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .　　(٢) البقرة : ١٤٣ .

جعلني الله تعالى وإياك من المنفذين لوصية الرسول ﷺ الذي صدق فيه قول الله عز وجل : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾[1] :

آمين .. آمين .. آمين .

* * *

(١) التوبة : ١٢٨ .

الوصية الواحدة والستون

عن جابر رضي الله عنه.
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ(1) فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ.

رواه مسلم

---

(1) الشح: هو البخل بالمال والزاد.

فكن أخا الإسلام :

مجتنباً لما حذرنا منه الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في هذه الوصية الجامعة ، وهو :

أولاً : الظلم ، الذي قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه عنه : — في نص الوصية — معللاً تحذيرنا منه : « .. فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة .. » ، أي : أنه يحيط بالظالمين من ظلمهم ظلمات — يوم القيامة — تجعلهم في حيرة حينما يسعى المؤمنون في أنوارهم فرحين مستبشرين . قال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾(١) ، أي : أن الله تعالى يرجيء عقابهم إلى يوم تتفتح فيه الأبصار بدون إغماض لعِظَمِ هوله :

ولهذا كان من الخير لنا جميعاً أن ننفذ ما أوصانا به الحبيب صلوات الله وسلامه عليه حتى نكون من أهل العدل لا من أهل الظلم ، لأن العدل إن دام عمَّرَ ، والظلمَ إن دام دمَّر ... هذا بالإضافة إلى ما أَعَدَّهُ الله تعالى للظالمين من عذاب أليم في الدنيا والآخرة كما يشير إلى هذا قوله تعالى عن عذاب الدنيا :

● ﴿ **فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون** ﴾(٢) ، أي أن — بني إسرائيل — غيروا وبدَّلوا كلاماً آخر غير ما أُمِروا أن يقولوه ، قال ابن عباس : « دخلوا الباب الذي أُمروا أن يدخلوا منه سُجَّداً يزحفون على أستاههم — يعني مقاعدهم — يقولون : حنطة في شعيرة » ، وكان الله تعالى قد أمرهم بأن يدخلوا الباب سجداً ، وهو باب بيت المقدس ويقولوا (حِطَّة)(٣) ، أي : يقولوا : حُطَّ عنا يا ربنا ذنوبنا ... فغيروا وبدلوا .. فأنزل الله تعالى على الذين خالفوا أمره عذاباً من السماء — طاعوناً أو غيره ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ : أي : بمعصيتهم وخروجهم عن طاعة الله .

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٤٢ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٥٩ .
(٣) كما أشارت الآية ٥٨ من سورة البقرة .

● ﴿ **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[1] ، أي : لن تدفع عنهم أموالهم التي جمعوها ولا أولادهم شيئاً من عقوبة الله ، وهم أهل النار لا يخرجون منها أبداً : ﴿ **مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا** ﴾ ، أي : مثل ما يتصدقون به في الدنيا على وجه القربة : ﴿ **كمثلِ ريحٍ فيها صِرٌّ** ﴾ أي كمثل ريح فيها برد شديد : ﴿ **أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته** ﴾ أي : أصابت هذه الريح زرع قوم عصوا ربهم فأهلكت زرعهم ، فكذلك يبطل الله ثوابهم ، ويخيب رجاءهم ﴿ **وما ظلمهم الله** ﴾ بإحباط ثواب أعمالهم ﴿ **ولكن أنفسهم يظلمون** ﴾ حيث أوردوها نار جهنم .

● ﴿**ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك**﴾ رسلاً فكذبوهم ﴿**فأخذناهم بالبأساء والضراء**﴾ أي فامتحناهم بالبأساء وهي شدة الفقر في العيش ، والضراء وهي الأمراض والأسقام ﴿ **لعلهم يتضرعون** ﴾ إلى الله ويخلصون له العباده بالذلة والإستكانة ﴿ **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا** ﴾ ، أي : فهلّا حين جاءهم العذاب تضرعوا لربهم ، وخضعوا له بالطاعة حتى يصرف عنهم العذاب ؟ ﴿ **ولكن قست قلوبهم** ﴾ فأصروا على تكذيبهم للرسل ، استهانة بعقاب الله واستخفافاً بعذابه لقساوة قلوبهم ﴿ **وزَيَّنَ لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾ أي : وحسن لهم الشيطان سوء أعمالهم ، التي يكرهها ويسخطها الله منهم ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أي : فلما تركوا العمل الذي أمرناهم به على ألسن رسلنا ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شيء** ﴾ أي : فتحنا عليهم أبواب السعة في المعيشة ، والصحة في الأجسام ، وبدلناهم مكان البأساء والضراء السعة والرخاء استدراجاً مِنَّا لهم ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** ﴾ أي : حتى إذا فرحوا بذلك النعيم ﴿ **أخذناهم بغتة فإذا هم مُبلسون** ﴾ ، أي : أخذناهم بالعذاب فجأة من حيث لا يشعرون ، فإذا هم هالكون ، نادمون على ما سلف منهم ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ أي : استؤصلوا فلم يفلت أحد منهم من العذاب ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾[2] والثناء الكامل لله رب العالمين على انتقامه من أعداء رسله .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) جميع ما بين القوسين من الآية ٤٢ ــ ٤٥ في سورة الأنعام والشرح من مختصر (تفسير الطبري) .

● ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين** ﴾(١) .

● ﴿ **وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرقون** ﴾(٢) .

● ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين** ﴾(٣) ، أي أصاب من عَقر ـــ ناقة صالح ـــ صيحة العذاب فأصبحوا هالكين بأفنيتهم .

●﴿**وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال** ﴾(٤) المراد كما قال قتادة : سكنتم في مساكن قوم نوح وعاد وثمود من الأمم الطاغية ، فلم تعتبرُوا ولم تَتَّعِظوا .. وهذا تقريع وتوبيخ من الله تعالى للكفار ..

● ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾(٥) ، أي : تلك القرى من عاد وثمود أهلكناهم لما ظلموا ، وكفروا بالله وآياته .

● ﴿ **فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون** ﴾(٦) . وهم ثمود .

وأما عن عذاب الظالمين في الآخرة .. فإلى هذا يشير الله تعالى في قوله :

● ﴿ **ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به** ﴾ أي : ولو أن لكل نفسٍ عدت غير الله ، وتركت طاعته ، ما في الأرض من قليل وكثير ، لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذاعاينته﴿ **وأسَرُّوا الندامة لما رأوا**

---

(١) سورة يونس : الآية ١٣ .
(٢) سورة هود : الآية ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) سورة هود : الآية ٦٧ .
(٤) سورة إبراهيم : الآية ٤٥ .
(٥) سورة الكهف : ٥٩ .
(٦) سورة النمل : الآية ٥٢ .

العذاب ﴾ أي : وأخفى رؤساؤهم الندامة ، حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم . ﴿ **وقضي بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون** ﴾[1] أي : وحكم الله بين الأتباع والرؤساء بالعدل ، ولا يُظلم أحد فيعاقب بذنب غيره ، ولا يُعذَّبُ إلا بعد الإعذار والإنذار .

● ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون** ﴾[2] ، أي وسيعلم الذين ظلموا بإشراكهم ، أيَّ معاد وأيَّ مرجع يرجعون إليه بعد مماتهم ، فإنهم يصيرون إلى نار لا يُطفأ سعيرها ولا يَسكُن لَهبُها .

وهذا وعيد عام في كل ظالم ، تتفتت له الأكباد وتتصدع له القلوب ..

● ﴿ .. **ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً** ﴾[3] أي : ومن يُشرك بالله ، نُذقه عذاباً شديداً في جهنم .

● ﴿ .. **وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً** ﴾[4] ، أي : وأعددنا للكافرين في الآخرة عذاباً مُؤلماً لهم ، سوى العذاب في الدنيا .

●● فلتكن أخا الإسلام متعظاً بتلك الآيات القرآنية الواضحة التي أرجو أن تكون سَبَباً في بعدك عن الظلم وأهله : حتى لا تكون معهم من أهل النار .. كما يشير إلى هذا قول الله تعالى :

● ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ..** ﴾[5] ، أي ولا تميلوا إلى قول هؤلاء الكفار ، فترضوا أعمالهم وتقبلوا منهم فتمسكم النار .

وحسبك تحذيراً لك ــ كذلك ــ من الظلم والظالمين أن تفهم وتنفذ المراد من هذه الأحاديث الشريفة الآتية :

---

(١) سورة يونس : ما بين الأقواس : الآية ٥٤ . والشرح من مختصر تفسير الطبري .
(٢) سورة الشعراء : ٢٢٧ .
(٣) سورة الفرقان : ١٩ .
(٤) سورة الفرقان : ٣٧ .
(٥) سورة هود : ١١٣ .

● عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من أخذ من الأرض شيئاً بغير حق خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين » وفي رواية : « من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يُطَوَّقُه يوم القيامة من سبع أرضين »(١) ، أي : فمن ظلم أحداً في شيء من الأرض فإنه يوضع كالطوق في عنقه من سبع أرضين يوم القيامة فضيحة وعذاباً له .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « من كانت له مظلمة لأحد من عِرضه أو شيء فليتحلَّلْهُ منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أُخِذَ من سيئاتِ صاحبه فحُمِل عليه » رواه البخاري ، وفي رواية : « من كانت عنده مظلمة لأحد في عرض أو مال فليتحلَّله منه في الدنيا » ، أي يسأله أن يجعله في حِلٍّ منه ويبرئه منه ويرد له حقه قبل أن يأتي يومٌ لا شيء فيه إلا صالح العمل فيأخذ منه بقدر حقه وإلا حُط عليه من سيئات المظلوم .. وقد ورد توضيح هذا في حديث آخر رواه مسلم والترمذي :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً في حديث رواه مسلم والترمذي : عن النبي ﷺ قال : « لتؤدَّنَّ الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة حتى يقادَ للشاة الجلحاء(٢) من الشاة القرناء » .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى لا تكون ظالماً أو مظلوماً .. وأعني بهذا أنه ينبغي عليك ألا تستولي على حقوق غيرك ظلماً وعدواناً ، وألا تفرط

---

(١) رواه الشيخان وأحمد . (٢) أي التي لا قرن لها .

أيضاً في نفس الوقت في حق من حقوقك .. بل إن الرسول ﷺ يأمرك بأن تقاتل من يريد الإستيلاء على حقك ظلماً وعدواناً ... فقد ورد في حديث شريف صحيح رواه مسلم في باب الإيمان .

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : « أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : فلا تُعطه مالك . قال : أرأيت إن قاتلني ؟ قال : قاتله . قال : أرأيت إن قتلني ؟ قال : فأنت شهيد . قال : أرأيت إن قتلتُه ؟ قال : هو في النار » .

● كما يوصيك النبي ﷺ بأمر واجب التنفيذ على جميع المستويات والمسئوليات ، فيقول في حديث صحيح رواه البخاري :

● عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقال رجل يا رسول الله : أنصره إذا كان مظلوماً أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره » .

وقد ورد كذلك في حديث شريف متفق عليه :

● عن أبي عمارة البَراء بن عازب رضي الله عنهما قال : أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : « أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وتشميت العاطس ، وإبرارِ المُقْسِم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعي ، وإفشاء السلام .... » الحديث .

فلتكن أخا الإسلام من أهل الحق الذين لا يخشَون غير الله حتى تكون من المنفذين لهذا الحق الذى إن نُفِّذ على جميع المستويات لما رأينا ظالماً ولا مظلوماً

وحسبك تحذيراً لك من عدم تنفيذ هذا الأمر ، قول الرسول ﷺ :

● « من مشي مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام » رواه أحمد والطبراني .

● يقول الله عز وجل : « وعزتي وجلالي لأنتقمنَّ من الظالم في عاجله وآجله. ولأنتقمنَّ ممن رأى مظلوماً فقَدَرَ أنْ ينصره فلم ينصره». رواه أحمد.

● « لعن الله من رأى مظلوماً فلم ينصره » رواه الديلمي .

● « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » رواه أبو داود .

● « إذا رأيتَ أمتي لا يقولون للظالم منهم: أنت ظالم، فقد تُوُدِّعَ منهم» رواه الترمذي .

وليكن مثلك الأعلى في رد المظالم إلى أهلها هو الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : فقد قرأت ما خلاصته :

● أن أبا جهل ـــ عليه لعنة الله ـــ ابتاع[1] جمالاً من رجل يقال له : « الأراشيُّ » ثم مطله بأثمانها ، فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم العون على « أبي جهل » ليأخذ ما له عنده ، فأحبوا أن يسخروا من الرجل ، وأن يسخروا من « محمد » رسول الله ـــ سَخِر الله منهم ـــ فقالوا : دونك « محمد ابن عبد الله » فهو وحده ينصفك من « أبي جهل » وينصرك ، وما أرادوا بهذا غير الإغراء والإيذاء .

جلس القوم يشهدون المعركة بين الفضيلة والرذيلة ، ويتعجلون السرور بظفر الرذيلة ، ثم ذهب الرجل إلى سيدنا « رسول الله » عليه الصلاة والسلام ، وشكا إليه « أبا جهل » فبادر[2] ، واصطحب الرجل إلى دار «أبي جهل» غير مبال بلدد الخصومة وشدة العداء . دق « عليه الصلاة والسلام » الباب ، فصاح « أبو جهل » في رعونة وإرهاب : من الطارق ؟ فأجاب الطارق : « محمد » فما انبعثت تلك الأحرف حتى كانت شُواظاً من سعير ، يسفع ناصية « أبي جهل » أو صواعق أخرست لسانه ، واحتبست أنفاسه . فخرج متخاذلاً ممتقعاً لونه ، فقال له « عليه الصلاة والسلام » : أعطِ هذا حقه . وقد كانت تلك الكلمات من أمر الله الذي يقول للشيء كن فيكون . فما عاد « أبو جهل » المماطل المخلاف ، بل خاطب الرجل في لغة ليِّنة ، وقال : ابق هنا في مكانك حتى تأخذ دَيْنَكَ ! عجبت قريش لِمَا كَان .

---

(١) إبتاع أي اشترى .

(٢) أي سارع النبي ﷺ مع الرجل إلى دار أبي جهل .

وقالت : « لأبي جهل »(١) : ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت . قال : ويلكم . والله ما هو إلا أن ضرب على بابي حتى سمعتُ صوتاً ملئتُ منه رُعباً ، وكأن فوق رأسي لَغُولاً لا أريم معه .

●● إنك إن فعلتَ مثل هذا أخا الإسلام ستكون إن شاء الله تعالى من الذين سيثبتهم الله تعالى على الصراط يوم تَزِلّ الأقدام .

● فقد ورد أن : داود عليه السلام ناجى ربه في يوم من الأيام ، فقال : يا رب : أي العباد أحب إليك ؟ فقال الله تعالى : « يا داود : أحب عبادي إليَّ تقي القلب ، نقي الكفين ، لا يأتي لأحد بسوء ، ولا يمشي بين الناس بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول ، أحبني وأحبَّ من يُحبني وحببني إلى عبادي .

قال داود : يا رب وكيف : يحببك إلى عبادك ؟ قال : يذكرهم بنعمي وآلائي . يا داود : ما من عبد يعين مظلوماً أو يمشي معه في مظلمته : إلا ثَبَّتُّ قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

وقد ورد في حديث شريف رواه أبو داود ما يدل على وجوب مناصرة المسلم والذب عن عرضه ، ما نصه :

● عن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما من مسلم يخذل امرءاً مسلماً(٢) في موضع تنتهك فيه حرمته(٣) وينتقصُ فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يُحب فيه نصرته » .

وإذا كان النبي ﷺ قد قال — كما قرأتَ قبل ذلك — في رواية البخاري : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ... » الحديث .

فقد رواه مسلم كذلك في حديث :

● عن جابر عن النبي ﷺ قال : « ولينصرن الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نُصرة ، وإن كان مظلوماً فلينصره » .

(١) أي بعد ذلك متعجبين .

(٢) أي يتخلى عنه ويتركه ولا يعينه على خصمه . (٣) أي تضيع وتستباح .

وفي رواية للبخاري : « قالوا : يا رسول الله هذا نصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ فقال : تأخذ فوق يديه » .

قال في الفتح : « كني به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكن بالقول ، وعبر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة » .

وقال ابن بطال : « النصر عند العرب الإعانة ، وتفسيره لنصر الظالم بمنعه من الظلم من تسمية الشيء بما يئول إليه وهو من وجيز البلاغة » .

وقال ابن المنير : « فيه إشارة إلى أن الترك كالفعل في باب الضمان » .

وقال الحافظ في الفتح في باب نصر المظلوم : « هو فرض كفاية وهو عام في المظلومين وكذلك في الناصرين بناء على أن فرض الكفاية يخاطب به الجميع ، وشرط الناصر أن يكون عالماً بكون الفعل ظلماً ويقع النصر مع وقوع الظلم ، وهو حينئذ حقيقة ، وقد يقع قبل وقوعه كمن أنقذ إنساناً من يد إنسان طالبه ظلماً وهدَّدَهُ إن لم يبذله ، وقد يقع بعد » .

●● فافهم المراد من كل هذا حتى تنفذه على أساس من العلم .. وإياك إياك أن تكون ظالماً ، أو معيناً للظالم على ظلمه :

لأن الظلم كما قال ابن الجوزي : « .. يشتمل على معصيتين : أخذ مال الغير بغير حق ، ومبارزة الرب بالمخالفة ، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار ، وإنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب ، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر ، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتشفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً » .

وهذا ما يشير إليه الحديث الآخر[1] الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي :

● عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الظلم ظلماتٌ يوم القيامة » .

---

(١) بالإضافة إلى نص الوصية التي ندور حولها والتي رواها مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه .

فاتق الظلم ، حتى لا تكون كالظالم المشار إليه في الحديث الذي رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي :

● عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يملي للظالم(١) فإذا أخذه لم يُفلِتْه(٢) ، ثم قرأ : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾(٣) .

وحتى لا تُحرم من الاستجابة ، والسُّقيا ، ونصر الله تبارك وتعالى ، فقد رُوِيَ :

● عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « لا تظلموا فتدعوا فلا يُستجاب لكم ، وتَستَسْقُوا فلا تُسقَوا ، وتَستنصروا فلا تُنصَرُوا » رواه الطبراني .

واتق دعوة المظلوم ، فقد ورد :

● عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال : « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي في حديث ، والترمذي مختصراً هكذا واللفظ له ، ومطولاً كالجماعة .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم(٤) : الصائم حتى يُفطر(٥) ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الربُّ : وعزَّتي لأنصرنَّك ولو بعد حين » رواه أحمد في حديث ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجة ، وابن خزيمةُ ، وابن حبان في صحيحيهما والبزار مختصراً :

« ثلاث حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع » .

---

(١) أي يمهله ويؤخر عقابه .
(٢) يعني : فإذا غاقبه على ظلمه لم يستطع أن يتخلص من بأسه وعذابه.
(٣) هود : الآية ١٠٢ .
(٤) أي لا يرد الله دعوة واحد منهم بشرط ألا يدعو بإثم أو قطيعة .
(٥) أي طيلة نهار صيامه إلى أن يدحل في الفطر .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجراً ، فجوره على نفسه » رواه أحمد بإسناد حسن .

● فـ :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً — فالظلم مصدره يفضي إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه — يدعو عليك وعين الله لم تَنَمِ

● وقد حبس الحجاج رجلاً ظُلماً فكتب إليه ما يأتي :

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا — غداً عند الإله من الظَّلُوم
أما والله إن الظلم لُؤمٌ — وما زال الظلوم هو الملوم
سينقطع التلذذ عن أناس — أداموه وينقطع النعيم
إلى دَيَّان يوم الدين نمضي — وعند الله تجتمع الخصوم

●● وأما عن إعانة الظالم ، فقد ورد الترهيب منه في حديث شريف جاء فيه :

● عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبي ﷺ ، قال : لكعب بن عُجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء[1] ، قال : وما إمارة السفاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدي لا يهتدون ، ولا يستنون بسنتي[2] ، فمن صدقهم بكذِبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا مني ولستُ منهم[3] ، ولا يَرِدُونَ على حوضي ، ومن لم يُصدقهم بكذبهم ، ولم يُعنِهم على ظلمهم ، فأولئك مني ، وأنا منهم ، وسيرِدُون على حوضي . يا كعب بن عجرة : الصيام جُنَّة[4] ، والصدقة تطفيء الخطيئة ، والصلاة قربان ، أو قال : برهان .

---

(١) جمع سفيه وهو الطائش الخفيف .
(٢) أي لا يسيرون على طريقتي .
(٣) بل أنا منهم بريء .
(٤) أي وقاية للصائم من المعاصي .

يا كعب بن عجرة : الناس غاديان[1] فمبتاع نفسه فمعتقها[2] ، وبائع نفسه فموبقها[3] » رواه أحمد واللفظ له والبزار ، ورواتهما محتج بهم في الصحيح ، ورواه ابن حبان في صحيحه إلا أنه قال : « سيكون أمراءٌ مَن دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم ، فليس مني ، ولستُ منه ، ولن يَرِدَ على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، ولم يصدقهم بكذبهم ، فهو مني ، وأنا منه ، وسيرد على الحوض » الحديث . ورواه الترمذي والنسائي من حديث كعب بن عجرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعيذُك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي ، فمن غَشِيَ أبوابهم[4] ، فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ، ولستُ منه ، ولا يَرِدُ على الحوض، ومَن غَشِيَ أبوابهم أو لم يَغْشَ ، فلم يصدقهم في كذبهم ، ولم يُعنهم على ظلمهم ، فهو مِنِّي ، وأنا منه ، وسيرد علي الحوض » الحديث . واللفظ للترمذي .

●● وكن عكسَ هذا معيناً له على العدل .. وذلك بنصحه وإرشاده بالحكمة والموعظة الحسنة إلى ما فيه صلاحه وصلاح رعيته إن كان حاكماً أو مسئولاً دون خوف أو حذر .

وليكن مثلك في هذا كله كمثل هؤلاء العلماء العاملين الأوائل الذين منهم[5] :

● طاوس اليماني : فقد حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجًّا إلى بيت الله الحرام، فلما دخل الحرم قال :ائتوني برجل من الصحابة فقيل : يا أمير المؤمنين ، ماتُوا . قال : فمن التابعين . فأُتِي بطاوس اليماني ، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بيا أمير المؤمنين ولم يكنه ، وجلس إلى جانبه

---

(1) أي ساعيان وعاملان .
(2) أي من النار .
(3) أي فمهلكها .
(4) يعني دخلها وصار بحضرتهم .
(5) على سبيل المثال لا الحصر .

بغير إذنه وقال : كيف أنت يا هشام . فغضب من ذلك غضباً شديداً حتى هَمَّ بقتله ، فقيل له : أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسوله ﷺ .. لا يكون ذلك . فقال : ياطاووس ما حملك على ما صنعتَ ؟ قال : وما صنعتُ ؟ قال : خلعتِ نعليك بحاشية بساطي ، ولم تُسلم بيا أمير المؤمنين ، ولم تكنني ، وجلست بإزائي[1] بغير إذن ، وقلت : يا هشامُ كيف أنت .

فقال طاووس : أماخلع نعلي بحاشية بساطك ، فإني أخلعها بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب عليَّ ، وأما قولك : لم تُسلم عليَّ بإمرة المؤمنين ، فليس كل المؤمنين راضياً بإمرتك فخفت أن أكون كاذباً ، وأما قولك : لم تكنني ، فإن الله عز وجل سمى أنبياءه فقال : يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى ، وكنى أعداءه فقال : ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ . وأما قولك : جلست بإزائي ، فإني سمعت علي بن أبي طالب يقول : إذا أردتَ أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال له عظني . فقال : سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : إن في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لم يعدل في رعيته .

● وقرأت أنه لما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يبكون حوله ، فقال : جادَ لكم[2] هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء ، وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما حمل ، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر له الله .

● والأوزاعي : فقد قرأت أنه قال للمنصور : يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيًّا من غير تعمد . يا أمير المؤمنين لو أن ذَنُوباً[3] من النار صُبَّ ووضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتجرعه ؟! ولو أن ثوباً من النار وُضِعَ على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتقمصه ؟! ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضِعَت على جبل لذاب فكيف بمن تسلسل بها ؟ .

---

(١) أي بجواري .
(٢) حاد لكم بالدنيا أي لم يبخل عليكم بها .
(٣) أي دلواً .

● وعن زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وكان والياً على المدينة : إحذر أن يأتي رجل غداً ليس له في الإسلام نسب ولا أب ولا جد فيكون أولى برسول الله ﷺ منك كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى ، وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون ، « ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمله لم يبطيء به نسبه » .

● وعن عمر رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : يا كعب خَوِّفْنَا . قال كعب : أوليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ؟! قال : بلى ، ولكن خَوِّفْنَا . فقال : يا أمير المؤمنين اعمل فإنك لو وافيتَ يوم القيامة بعمل سبعين نَبيًّا لازدريتَ عملهم مما ترى . فنكس عمر رأسه وأطرق مَليًّا ثم رفع رأسه وقال : يا كعب خَوِّفنا .. فقال : يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منحر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلي دماغه حتى يسيل من حرها . فنكس عمر رأسه ثم أفاق فقال : يا كعبُ زدنا . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى مَلَكٌ مقرب ولا نبيٌّ مرسل إلا جَثَى على رُكبتيه يقول : يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي .

● وقال أبو بكر الطرطُوشي رحمه الله : دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش وهو أمير على مصر فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. فرد عليَّ السلام رَدًّا جميلاً وَ أكرمني إكراماً جزيلاً ، وأمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس ، فقلت : أيها الأمير ، إن الله قد أحلك محلاً شَامخاً وأنزلك منزلاً شريفاً بازخاً ، وملَّكَك طائفة من ملكه ، وأشركَكَ في حكمه ، ولم يرضَ أن يكون أحد فوق أمرك ، فلا ترضى أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وليس الشكر باللسان وإنما هو بالفعال والإحسان ، قال الله تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾(١) واعلم أن هذا الذي أصبحتَ فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارِجٌ عنك بمثل ما صار إليك فاتق الله فيما خَوَّلَكَ من هذه الأمة ، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ **وإن كان مثقال**

(١) سبأ : الآية ١٣ .
(٢) الحجر : الآية ٩٣ .

حبة من خردل أتينا بِها وكفى بنا حاسبين﴾[1] .

واعلم أيها الأمير أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام ، فسخر له الإنس ، والجن ، والشياطين ، والطير ، والوحش ، والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب . ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له : **﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾**[2] ، فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى ومكراً به ، فقال : **﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾**[3] . فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وأغث الملهوف ، ثم أنشد يقول :

والناس أكيسُ من أن يحمدوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

●● فليكن هذا هو أسلوبك في وعظ من تريد من الأمراء الذين تريد وعظهم وإرشادهم إذا مَكّنك الله تعالى من هذا ... وذكرهم كذلك بأن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما تولى الخلافة خطب في الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على النبي ﷺ :

● أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف ، واعملوا لآخرتكم فإن من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه وآخرته ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هازم اللذات ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقًّا ، أيها الناس : من أطاع الله وجبت إطاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم .

ثم نزل ودخل دار الخلافة ، وأمر الستور فهتكت ، وبالبسط فرفعت ، وأمر ببيع ذلك وإدخال ثمنه في بيت مال المسلمين .

---

(١) الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٢) ص : الآية ٣٩ .

(٣) النمل : الآية ٤٠ .

ثم ذهب يتبوأ مَقيلاً[١] . فأتاه ابنه عبد الملك فقال : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أقيل . قال : تقيل ولاترد المظالم إلى أهلها ؟ قال : إني سهرت البارحة في أمر عمك سليمان فإذا صليت الظهر رددت المظالم . فقال : يا أمير المؤمنين من أين لك أن تعيش إلى الظهر ؟ فقال : ادن مني يا بني . فدنا منه فقبله بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من ظهري مَن يُعينني على ديني .

فخرج ولم يُقِل[٢] وأمر مناديه أن ينادي : ألا كل من كانت له مظلمة فليرفعها فتقدم إليه ذمي ، فقال : يا أمير المؤمنين : أسألك كتاب الله تعالى : عباس بن الوليد اغتصبني أرضي . والعباس جالس ، فقال : ما تقول يا عباس ؟ قال : يا أمير المؤمنين الوليد أقطعني إياها وهذا كتابه . فقال عمر : ما تقول يا ذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله . فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد . اردد إليه أرضه يا عباس ، فردها .. ثم جعل لا يدع شيئاً مما كان في يد أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة ...

● وذكّرهم كذلك بما رواه الشيباني عن عدل الخليفة المأمون رحمه الله ، وهو : أن المأمون جلس يوماً للمظالم .. وكان آخر من تقدم إليه امرأة مغلوبة على أمرها .. فوقفت بين يديه وأقرأته السلام فرد عليها ، ثم سألها عن حاجتها ، فقالت تخاطب أمير المؤمنين :

يا خير منتصف يهدي له الرشد	ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميدَ القوم أرملة	عدا عليها فلم يترك لها سند
وابتز مني ضياعي بعد منعتها	ظلماً وفرق مني الأهل والولد

ولما كان المؤمون ليس لديه وقت إذ أن صلاة العصر كانت قد وجبت .. فقد أجابها بقوله :

في دون ما قلت زال الصبر والجلد	عني وقرح مني القلب والكبد
هذا أوان صلاة العصر فانصرفي	وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت إن يُقضى الجلوس لنا	ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

---

(١) أي يريد النوم ليستريح قليلاً .
(٢) أي لم ينم ليستريح قليلاً .

فلما كان يوم الأحد جلس – وقد وقف على رأسه ابنه العباس وتقدمت إليه تلك المرأة .. فسألها : أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين . وأومأت إلى ابنه العباس .. فنادى المأمون أحمد بن أبي خالد وأمره بأن يأخذ بيد العباس ويجلسه مع المرأة مجلس الخصوم ، فأطمع عدل المأمون المرأة .. فأخذت تدلي بحجتها بصوت عال حجب صوت العباس .. فطلب منها أحمد بن أبي خالد ..أن تخفض من صوتها وهي تخاطب الأمير . فصاح المأمون : دعها فإن الحق أنطقها وأخرسه .

ثم قضى لها برد ضيعتها وعاقب العباس على ظلمه لها .. واستغلاله لنفوذ والده .. وهكذا كانوا : يحكمون .

● وفي النهاية : ذكرهم بضرورة أن يحكموا بما أنزل الله .. حتى لا يكونوا من الظالمين .. لأن الله تعالى يقول :

● ﴿ ... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾(١) .

وادع الله تعالى معي أن يوفقهم لتحقيق هذا .. لأنه كما يقول الفضيل بن عياض رحمه الله : لو كانت لي دعوة مستجابة لما جعلتها إلا في الإمام ، لأنه إذا صلح الإمام أمن العباد والبلاد .

وادع الله معي كذلك : أن يجعلنا جميعاً من أهل العدل لا من أهل الظلم .. وذلك حتى نكون بهذا من المنفذين لأمر الله تعالى في قوله :

● ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾(٢) .

وحتى نكون بهذا إن شاء الله عل منابر من نور يوم القيامة ، فقد ورد في حديث صحيح رواه مسلم :

● « عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٠ .

الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا » .

وأخيراً وفي نهاية هذا العنصر الهام ، إليك ما أشار به « صاحب المنظومة الشكرية » إلى وصية الله تعالى بالعدل والإحسان .. والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي بقوله :

بالعدل والإحسان أوصى ربنا ونهى عن الظلم الشنيع لحرمته
فالله يرزقنا التوكل دائماً والعدل في كل الأمور بمنته
ثم الصلاة علي النبي محمد بالعدل والإحسان جاء لأمته
بالآل والأصحاب من قد شيدوا ركن السلام بحكمهم وعدالته

* * *

●● وأما عن : الثانية التي يحذرنا النبي ﷺ منها — في نص الوصية — وهي الشح .. : فإنها لا تقل خطورة عن الأولى — وهي الظلم — :

وذلك لأن الشح — كما وضَّحَ النبي ﷺ — كان ولا يزال أهم سبب من أسباب الهلاك والدمار على جميع المستويات العامة والخاصة — في الماضي والحاضر — .

والسر في هذا — كما سيتضح لنا من خلال شرحنا لهذا العنصر الحيوي — : هو أن الشح(١) أو البخل من أهم أسباب القطيعة ، والفجور وسفك الدماء ، واستباحة الحرمات :

● فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والفحش والتفحش(٢) ، فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش ، وإياكم والظلم ، فإنه هو الظلمات يوم القيامة ، وإياكم والشح ، فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ، ودعا من كان قبلكم ، فقطعوا أرحامهم ، ودعا من

---

(١) الشح : هو البخل والحرص . وقيل : الشح : الحرص على ما ليس عندك والبخل : هو الحرص على ما عندك .

(٢) قال في النهاية : « الفاحش : ذو الفحش في كلامه وأفعاله ، والمتفحش : الذي يتكلف ذلك ويتعمده .

كان قبلكم فاستحلوا حرماتهم » رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم واللفظ له ،وقال : صحيح الإسناد .

● وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : « إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، وإياكم والفحش والتفحش ، وإياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالقطيعة ، فقطعوا ، وأمرهم بالبخل ، فبخلوا ، وأمرهم بالفجور[١] ، ففجروا ، فقام رجل فقال : يا رسول الله أي الإسلام أفضل[٢] ؟ قال : أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ، فقال ذلك الرجل أو غيره : يا رسول الله أي الهجرة أفضل ؟ قال : أن تهجر ما كره ربك[٣] ، والهجرة هجرتان : هجرة الحاضر[٤] ، وهجرة البادي[٥] . فهجرة البادي أن يجيب إذا دُعِيَ[٦] ، ويُطيع إذا أُمِرَ[٧] ، وهجرة الحاضر أعظمها بلية[٨] ، وأفضلها أجراً » . رواه أبو داود مختصراً والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « شر ما في الرجل[٩] شح هالع[١٠] ، وجبن خالع[١١] » رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ، ورواه البخاري في التاريخ ، وقال العزيزي : « قال الشيخ حديث صحيح » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في جوف عبد أبداً[١٢] ، ولا يجتمع شح وإيمان في قلب عبداً أبداً[١٣] » رواه النسائي وابن حبان في

---

(١) يعني الفسوق وارتكاب المعاصي . (٢) يعني أي خصال الإسلام أفضل من غيرها .
(٣) أي من الذنوب والفواحش وخصال السوء كلها .
(٤) أي المقيم في الحاضرة . (٥) أي المقيم في البادية .
(٦) أي الجهاد ونحوه .
(٧) أي إذا أمره الحاكم أو الأمير بما ليس فيه معصية لله جل شأنه .
(٨) أي ابتلاء واختباراً وذلك لمخالطته الناس .
(٩) أي أقبح ما فيه من الخصال . (١٠) أي محزن ، والهلع : أشد الفزع .
(١١) وهو شدة الخوف .
(١٢) المراد : من شهد غبار المعركة مع الكفار لا يدخل النار .
(١٣) وذلك لأن الشح إيثار للمال وعبادة له وليس ذلك من شأن المؤمن .

صحيحه ، والحاكم واللفظ له ، ورواه أطول منه بإسناد على شرط مسلم .

●● فمن كل هذه الأحاديث الشريفة أخا الإسلام يتأكد لنا : أنه ليس من الإيمان أن يكون الإنسان بخيلاً ، أو شحيحاً ــ لأن الشح أشد من البخل لأنه ليس إمساك الموجود من المال فحسب ، بل هو الطمع فيما ليس بموجود ــ وإنما الأفضل والأكمل أن يكون الإنسان العاقل عكس هذا ، حتى يكون مؤمناً ، أي متخلقاً بأهم أخلاق المؤمنين التي من أهمها السخاء ، الذي كان ولا يزال هو السبيل إلى تأليف القلوب وإزالة الكروب .

وحسبي أن أشير من خلال هذا إلى حديث متفق عليه ، جاء في نصه :

● عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : « أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ومعنى « إطعام الطعام » ، أي : على سبيل الصدقة ، والضيافة ، والهدية وقد ورد الترغيب في كل هذا :

● فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « على كل مسلم صدقة » قال : أرأيتَ إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه[١] ويتصدق » قال : أرأيتَ إن لم يستطع ؟ قال : « يُعين ذا الحاجة الملهوف » قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف أو الخير » قال : أرأيتَ إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر[٢] فإنها صدقة » متفق عليه .

● وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه ، قال : سمعت النبي ﷺ ، يقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » متفق عليه . وفي رواية لهما عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

● « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم[٣] منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين

---

(١) أي بعمله ، بثمنه أو بأجره أو بثمره .
(٢) أي الأذى ليسلم من الهلاك .
(٣) أي : ناحية يساره .

يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة .

● فلتكن أخا الإسلام من المتصدقين ، مع ملاحظة ، قول الله تبارك وتعالى :

● **﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى .. ﴾**[١] .

المن بالصدقة : أي ذكرها وتعدادها على المعطي .

والأذى : أى التعيير بالسؤال والحاجة والضعف .

● **﴿ والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى ﴾**[٢] .

وفي سبيل الله : أي في الجهاد والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى .

وفي حديث صحيح رواه مسلم ، ورد :

● عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله[٣] يوم القيامة ولا ينظر إليهم[٤] ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قال : فقرأ رسول الله ﷺ ثلاثَ مرار . قال أبو ذر : خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال : المسبل[٥] ، والمنان[٦] ، والمنفق سلعته[٧] بالحلف الكاذب » ، وفي رواية له : « المسبل إزاره » يعني : المسبل إزاره وثوبه أسفل من الكعبين للخيلاء .

* * *

وأما عن إكرام الضيف ، فقد ورد كذلك الترغيب فيه :

---

(١) البقرة : الآية ٢٦٤ . (٢) البقرة : ٢٦٢ .
(٣) كلام رحمة ، كناية عن غضب الله مالك الملك سبحانه وتعالى .
(٤) أي نظر رأفة وعطف . (٥) أي المرخي ثوبه خيلاء .
(٦) أي من أنعم على عبد ثم منّ عليه بعد ذلك .
(٧) أي بضاعته ومتاعه .

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه .

وإكرام الضيف : يكون بطلاقة الوجه وتعجيل قِراه(١) ، والقيام بخدمته بنفسه .

● وعن أبي شريحٍ خُويلدِ بن عمرو والخزاعِيِّ رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته » قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : « يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة » متفق عليه . وفي رواية لمسلم : « لا يحل(٢) لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه »(٣) قالوا : يا رسول الله كيف يؤثمه ؟ قالَ : « يقيم عنده ولا شيء له يقريه به » .

والسؤال الذي أريد أن أجيب عليه بعد هذا الحديث الأخير بالذات : وما هو الضيف الذي رغبنا النبي ﷺ في أكرامه ؟ وهل هو هذا الطفيلي الذي يتردد على بيوت الناس دون دعوة توجه إليه ، أو دون مراعاة لحرمة البيت ؟ أو شئون أهله ؟ : فإني أجيب على هذا ، بأن الضيف الذي يستحق الإكرام ، هو أولاً وأخيراً : التقي الذي أوصانا الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بأن نطعمه من طعامنا ــ في بيوتنا ــ فقال : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي »(٤) ، وهو الغريب أو القريب أو البعيد المحتاج فعلاً إلى الإطعام .. وليس هو هذا الطفيلي الذي لا كرامة له .

ولهذا ، فقد رأيت أن أسوق إلى هذا الطفيلي وغيره من الثقلاء .. هذ القصيدة التي يقول فيها الشاعر المصري « محمد الهراوي » رحمه الله :

---

(١) أي إطعامه .
(٢) أي لا يجوز له .
(٣) أي : حتى يوقعه في الحرج وهو الإثم .
(٤) رواه أبو داود والترمذي بإسناد لا بأس به .

لا تكن ضيفاً ثقيلاً يكره الناس لقاءك
ليس من ذنب أناسٍ أن يكونوا أقرباءك
أنت لا تدري إلى كم تُزعجُ الخِلَّ إزاءك
فعساه مستمداً لك من قوم عشاءك
وعساه مستعيراً لك من جارٍ غِطاءك
وتذكّر — أنت — ضيفاً كيف إن جاءك ساءك
إن تزر فَلْيَكُ غِبًّا[1] ثم لا تُكثِر بقاءك
إن في الفندق مأوا ك وفي السوق غذاءك
رُبَّ من يلقاك هشًّا[2] كسر (الزير) وراءك

فهذا نقد بنّاء أرجو أن ينتفع به هؤلاء الثقلاء .. حتى لا يكونوا عالة على غيرهم .

وإذا كان « الهراوي » رحمه الله يخاطب « الزائر » بهذا القول الجميل .. فإن الأستاذ « محمود غنيم » الشاعر المصري — رحمه الله — يخاطب « المزُور » ، بقوله :

قُم إذا ما الضيف جاءك وامنح الضيفَ غَذاءك
واجعل من وجهك مِرْآ ةً ، يرى فيها صفاءك
أي فضل لك إن لم يُبصِرِ الناسُ إناءَك
إن يَهُنْ عندك ضيف يكن الهَونُ جزاءك

فلاحظ هذا — كذلك — أخا الإسلام حتى لا تكون بخيلاً :

وحسبك إذا أكرمت ضيفك — بالإضافة إلى أنك بهذا ستؤكد إيمانك — : أنك ستفوز بدعاء ضيفك المؤمن أو ضيوفك المؤمنين الذين أوصاهم النبي ﷺ بأن يدعوا لك ، كما جاء في سنن أبي داود عن رجل عن جابر رضي الله عنه قال : صنع أبو الهيثم بن التيهان للنبي ﷺ طعاماً ، فدعا النبي ﷺ وأصحابه ، فلما فرغوا — من تناول الطعام — قال : « أثيبوا

(١) أي زيارة متفرقة ..
(٢) أي مبتسماً .

أخاكم » قالوا : يا رسول الله وما إثابته ؟ قال : « إن الرجل إذا دخل بيته فأكل طعامه وشرب شرابه فدعوا له فذلك إثابته » .

وأما عن صيغة الدعاء ، فقد ورد في صحيح مسلم :

● عن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه ، قال : نزل رسول الله ﷺ على أبي ، فَقَربنَا إليه طعاماً وَوَطْبَةً[1] فأكل منها ثم أتى بثمر فكان يأكله ويلقي النوى بين أصبعيه ويجمع السبابة والوسطى، قال شعبة: هي ظني وهو فيه إن شاء الله تعالى إلقاء النوى بين الأصبعين ، ثم أُتِي بشراب فشربه ثم ناوله الذي عن يمينه فقال أبي : ادع الله لنا . فقال : « اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم » .

● وورد في سنن أبي داود وغيره بالإسناد الصحيح : عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه فجاء . بخبز وزيت فأكل ـــ النبي ﷺ ـــ ثم قال : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » .

وأما عن تحديد مدة الضيافة بثلاثة أيام كما جاء في نص رواية أبي شريح فقد قال في الفتح شارحاً وموضحاً هذا الموضوع : « قال ابن بطال : سئل عنه مالك ، فقال : يكرمه ويتحفه يوماً وليلة وثلاثة أيام ضيافة ، وقال أبو عبيد : يتكلف له في اليوم الأول بالبر والإلطاف ، وفي الثاني والثالث يقدم له ما حضره ولا يزيده على عادته ، ثم يعطيه ما يجوز به مسافة يوم وليلة ، وتسمى الجيزة ، وهي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل ، ومنه الحديث الآخر : « أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » وقال الخطابي : معناه ، إذا نزل به الضيف أن يتحفه ويزيده في البر على ما بحضرته يوماً وليلة ، وفي اليومين الأخيرين يقدم له ما يحضره ، فإذا مضى الثلاث فقد قضى حقه ، فما زاد عليه مما يقدمه له يكون صدقة » أ هـ .

فلاحظ أخا الإسلام كل هذا حتى تؤدي للزائر المؤمن حقه على أكمل

---

(١) الوطبة بفتح الواو وإسكان الطاء المهملة بعدها موحدة : هي قربة لطيفة يكون فيها اللبن .

وجه وفي حدود استطاعتك دون أن تحتقر ما تقدمه إلى ضيفك :

● فعن عبد الله بن عميرة قال : دخل على جابر رضي الله عنه نفر من أصحاب النبي ﷺ : فقدم إليهم خبزاً وخلاً[١] ، فقال : كُلوا فإني سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « نعم الإدام الخل ، إنه هلاك بالرجل[٢] أن يدخل إليه النفر من إخوانه[٣] ، فيحتقر ما في بيته أن يقدمه إليهم[٤] ، وهلاكٌ بالقوم أن يحتقروا ما قُدم إليهم » رواه أحمد والطبراني وأبو يعلي إلا أنه قال :

وكفى بالمرء شرًّا أن يحتقر ما قُرِّبَ إليه » وبعض أسانيدهم حسن ، ونعم الإدام الخَلُّ . في الصحيح ، ولعل قوله : إنه هلاك بالرجل إلى آخره من كلام جابر مدرج غير مرفوع ، والله أعلم .

واحذر أخا الإسلام أن تكون من الذين لا يؤدون للضيف حقه — حسب استطاعتهم — وإلا كنت مديناً له بهذا الحق .. فقد ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أيُّما ضيفٍ نزل بقوم ، فأصبح الضيف محروماً[٥] ، فله أن يأخذ بقدر قِراه[٦] ، ولا حرج عليه[٧] » رواه أحمد ، ورواته ثقات ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

● وعن أبي كريمة وهو المقدام بن معد يكرب الكِنديُّ رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رَجُلٍ أضاف قوماً[٨] ، فأصبح الضيف محروماً[٩] ، فإن نصره حق على كل مسلم حتى يأخذ بِقرى ليلته[١٠] . من زرعه وماله[١١] » رواه أبو داود ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

---

(١) لأن ذلك هو الذي كان موجوداً عنده في ذلك الوقت .
(٢) وقد روى لهم جابر هذا الحديث لكيلا يزدروا ما قدم إليهم أو يحتقروه
(٣) أي : يجيئون إليه زائرين .
(٤) فإن احتقاره لذلك : يمنعه من أداء واجب الضيافة وفيه ازدراء للنعمة .
(٥) أي لم يجد منهم من يضيفه ويقدم له قراه .
(٦) يعني فمن حقه أن يأخذ من أموالهم ما يساوي قيمة قراه ، والقِرى بكسر القاف ما يقدم للضيف .
(٧) أي لا إثم عليه في ذلك ولا عقوبة .
(٨) أي أنزلهم ضيوفاً عليه .
(٩) يعني لم يقدم إليه ما يجب من القرى .
(١٠) أي بقدر قِرى ليلته .
(١١) أي من زرع من أضافه وماله .

وكن على عكس هذا أخا الإسلام من الذين قال الله تعالى في شأنهم :

● ﴿ ... **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾(١) .

وكان النبي ﷺ قد قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة منهم ، فطابت أنفسهم بتلك القسمة .. كما أشار الله تعالى إلى هذا في صدر الآية بقوله : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون مَن هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ أي ولا يجد الأنصار في صدورهم حسداً مما أوتي المهاجرون من الفيء ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ أي ويعطون المهاجرين أموالهم إيثاراً لهم بها على أنفسهم ، ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى أموالهم ﴿ **ومن يوق شح نفسه** ﴾ أي ومن وقاه الله البخل ومنع فضل ماله ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ أي الفائزون المخلدون في الجنة .

واعلم أخا الإسلام أنك إن كنت من الأسخياء الذين ﴿ **يؤثرون على أنفسهم** .. ﴾ : بارك الله تعالى لك في مالك ، وأعطاكَ أضعاف أضعاف ما أنفقت في الدنيا وفي الآخرة إن شاء الله :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « بينما رجل يمشي بفلاة(٢) من الأرض فسمع صوتاً في سحابة : اسق حديقة فلان ، فتنحى(٣) ذلك السحاب فأفرغ(٤) ماءه في حرة(٥) فإذا شرجَةٌ(٦) من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يُحوِّلُ الماء بمسحاته فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان للإسم الذي سمع في السحابة فقال له : يا عبد الله لم تسألني عن اسمي ؟ فقال : إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها؟ فقال : أما إذ قلتَ هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها(٧) فأتصدق بثلثه ، ، وآكل

---

(١) سورة الحشر : الآية ٩ .
(٢) أرض لا ماء فيها .
(٣) أي امتثل للأمر تعظيماً لله وحده .
(٤) أي صب .
(٥) أي في مسيل من تلك المسايل .
(٦) شرجة بفتح الشين المعجمة وإسكان الراء وفتح الجيم : مسيل الماء .
(٧) أي من الأرض من حب أو ثمر .

أنا وعيالي ثلثاً[1] ، وأرد فيه ثلثه » رواه مسلم .

● وعن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ : « ما بقي منها ؟ » قالت : ما بقي منها إلا كتفها . قال : « بقي كلها غير كتفها » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، ومعناه : تصدقوا بها إلا كتفها ، فقال : « بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها » .

وقد قرأت ، ما خلاصته :

● أن سيدنا إبرهيم الخليل عليه السلام ، سئل : لم اختارك الله خليلاً ؟ فقال : الثلاثة : الأول : ما خيرت بين أمرين إلا اخترت الذي لله على غيره .

الثاني : ما اهتممت بشيء ضمنه الله في أمر رزقي .

الثالث : ما تغديت وما تعشيت إلا مع الضيف .

فهو « أبو الضيفان » المشار إليه في قول الله تبارك وتعالى في سورة الذاريات[2] :

● ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ ، أي : هل أتاك يا محمد ، حديث ضيف إبراهيم « خليل الرحمن » الذين أكرمهم إبراهيم وزوجته ﴿ **إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً** ﴾ ، حين دخل ضيف إبراهيم عليه ، فقالوا له : نسلم عليك سلاماً ﴿ **قال سلام قوم منكرون** ﴾ قال إبراهيم لهم : سلام عليكم ، أنتم قوم لا نعرفكم ﴿ **فراغ إلى أهله** ﴾ فرجع إلى أهل بيته ﴿ **فجاء بعجل سمين** ﴾ فجاء ضَيفه بعجل سمين ، قد أنضجه شيًّا ، قال قتادة : كان عامة مال نبى الله إبراهيم عليه السلام البقر ، فلذلك جاءهم بعجل مشوى :

والعجل ولد البقرة ، وقد اختاره سميناً زيادة في أكرامهم ، ولم يعرف أنهم ملائكة ، ولذلك أضمر فى نفسه الخوف منهم ، وقد انتظمت هذه الايات آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعر الضيف بسرعة وخفاء ولم يسألهم أتأكلون ؟ أوهل نأتيكم بطعام ؟ بل جاءهم بدون استئذان ، وأتى بأفضل ما وجد وهو العجل المشوي السمين ، ووضعه بين أيديهم ولم يضعه

---

(١) أي من أعولهم من أهل وولد وزوجة وخادم . (٢) سورة الذاريات من الآية ٢٤ ــ ٣٠ .

بعيداً عنهم ثم يقول لهم : اقتربوا ، ودعاهم إليه على سبيل العرض والتلطف كما تشير الآيات بعد ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فقربه إليهم قال ألا تأكلون** ﴾ أي عندما أمسكوا عن أكله(١) .. قال : ﴿ **ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم** ﴾ وهو إسحق عليه السلام ... إلخ الآيات .

ومن أجمل ما قرأت ، حول كرم إبراهيم الخليل عليه السلام : أنه في يوم من الأيام طلب مجوسي من سيدنا إبراهيم طعاماً .. فقال له سيدنا إبراهيم عليه السلام : إن آمنت بي أعطيتك الطعام الذي تريده .. فتركه المجوسي وانصرف حرصاً على دينه .. فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى إبراهيم : لِم لَمْ تطعمه ؟ ألا تطعمه إلا بتغيير عقيدته ؟ ونحن نطعمه سبعين عاماً على كفره .. ماذا عليك لو أطعمته ليلة؟ فأخذ إبراهيم يعدو خلفه حتى لحق به ودعاه للضيافة، فقال له المجوسي : لن أرجع مَعك لأتناول طعامك إلا إذا أخبرتني عن سبب دعوتك لي بعد أن رفضت إطعامي .. فأخبره سيدنا إبراهيم بوحي الله إليه في شأنه .. فاتعظ المجوسي .. وقال : يا سبحان الله ، أهكذا يُعاملني مولاي ، وأنا أعبد سواه ، ثم تاب وآمن وصدق في إيمانه .

فكن أخا الإسلام متعظاً بهذا حتى تكون سخيًّا لا بخيلاً .

واحذر كما عرفت قبل هذا أن تكون من أهل الظلم .. حتى لا تكون بسبب هذا من الهالكين . ﴿ **يوم يعض الظالم على يديه** .. ﴾(٢) .

جعلني الله تعالى وإياك من الموفقين في تنفيذ هذه الوصية العظيمة الأثر .. آمين .

---

(١) لأن الملائكة : لا يأكلون ولا يشربون .. ولم يكن إبراهيم قد عرف حقيقتهم بعد .
(٢) الفرقان : الآية ٢٧ .

الوصية الثانية والستون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَنَاجَشُوا[1] وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا[2] ، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هَا هُنَا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات .
بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ

يَحقِرَ أَخَاهُ المُسلِمَ، كُلُّ المسلِمِ عَلَى المسلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرضُهُ.

رواه مسلم

---

(١) النجش : أن يزيد فى ثمن سلعة يُنادى عليها فى السوق ونحوه، وَلا رغبة له فى شرائها، بَل يقصد أن يغر غيره، وهذا حَرَام.

(٢) التدابر : أن يعرض عن الإنسان وَيهجُره، وَيجعله كالشئ الذى ورَاء الظهر والدبُر.

● ألا قل لمن بات لى حَاسدًا
أتدرى عَلى من أسأت الأدب
أسأت عَلى الله فى فعلِه
كأنك لم ترض لى مَاوهب
فكان جَزاؤُك أن خصَّنى
وَسد عَليك طريق الطلب

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي حذرنا فيها الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من جملة أمور — مذمومة — إن اجتنبناها إن شاء الله كنا من أهل الخير في الدنيا والآخرة .

وقبل أن أدور حول هذه الوصية العظيمة التي نحن جميعاً في أشد الحاجة إلى نتائج تنفيذها : أحب أولاً أن أسوق إليك رواية أخرى في نفس الموضوع — بعد تقديم هام لكل تلك الصفات الذميمة التي حذرنا منها صلوات الله وسلامه عليه — وردت كذلك :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إياكم والظنَّ ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث ، ولا تحسَّسُوا ، ولا تجسَّسُوا ، ولا تنافسُوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم ، المسلمُ أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقِره . التقوى هٰهنا ، التقوى هٰهنا ، التقوى هٰهنا ، وأشار إلى صدره . بحسب امريءٍ من الشر أن يحقِر أخاه المسلم . كُلُّ المسلِم على المسلم حرامٌ دَمُه وعرضُه وماله » رواه مالك والبخاري ومسلم ، واللفظ له ، وهو أتم الروايات وأبو داود والترمذي .

والإشارة التي أريد أن نقف على أبعادها — بإيجاز — هي تلك الأمور المذمومة الأخرى التي قدم بها الرسول ﷺ الرواية الثانية ، والتي بدأها ، بقوله :

« إياكم والظن » ، فإن المراد ، هو ما قاله القرطبي ، وهو أنه التهمة التي لا سبب لها ، كمن يُتهم بفاحشة من غير ظهور مقتضيها ..

قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ أي لا تقربوا كثيراً من الظن السيىء بالمؤمنين ، فتظنوا بهم سوءاً **﴿ إن بعض الظن إثم ﴾**(١) أي إن ظنكم بالمؤمن الشر إثم ، لأن الله قد نهاكم عنه .

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

ثم يقول النبي ﷺ بعد قوله : « إياكم والظن » : « فإن الظن أكذبُ الحديث »

فقد قيل : أريد من الكذب عدم المطابقة للواقع سواء كان قولاً أم لا ، ويحتمل أن يراد بالظن ما ينشأ من القول فيوصف به الظن مجازاً . قال في الفتح : « ليس المراد به ترك العمل بالظن الذي تناط به الأحكام غالباً ، بل المراد ترك تحقيق الظن الذي يضر بالمظنون وكذا ما يقع في القلب من غير دليل .

كذلك ــ أخا الإسلام ــ ورد الترهيب من سوء الظن بالله تعالى ، فقد ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي ، وأنا معه حيث يذكرني » رواه البخاري ومسلم .

● وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام ، يقول : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » رواه مسلم وأبو داود .

● وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت ، فقال : « كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله يا رسول الله وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنه مِمَّا يخاف » رواه الترمذي وقال حديث غريب ، وابن ماجه وابن أبي الدنيا .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : قال الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني واللهِ للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجدُ ضَالَّتَهُ بالفلاة[1] ومن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإذا أقبلَ إليَّ يمشي أقبلت إليه

---

(١) أي الصحراء ، وقوله : « ومن تقرب إلى شبراً » إلخ كناية عن مسارعته له في مكافأته ، ومضاعفة الثواب له ، والله أعلم فالحديث تمثيل وتقريب .

أهرول » رواه مسلم واللفظ له والبخاري .

فكن أخا الإسلام : حسن الظن بالله تعالى .. حتى لا تحرم إن شاء الله تعالى من رحمته .. وكن أيضاً كذلك حسن الظن بإخوانك المؤمنين .. حتى لا تحدث فجوة شيطانية بينك وبينهم بسبب سوء الظن بهم . وتذكر دائماً وأبداً قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إن بعض الظن إثم** ﴾ وقاني الله وإياك شر سوء الظن ..

وإذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد قال : « ولا تحسَّسُوا » فإن المراد ، هو : لا تتسمعوا الحديث ولا تنصتوا لألفاظ البيوت .

« ولا تجسَّسُوا » ، أي لا تبحثوا عن عورات الناس ولا تتبعوا سوءاتهم ، قال القرطبي بالجيم : تتبعه لأجل غيره ، وبالحاء : تتبعه لأجل نفسه ، وقيل : بالجيم : البحث عن العورات ، وبالحاء : استماع حديث القوم ، ثم يستثني من التجسس المنهي عنه ، ما إذا تعين لإنقاذ نفس من الهلاك ، كأن يخبر باختلاء إنسان بآخر ليقتله ظلماً ، أو بامرأة ليزني بها ونحو ذلك فهذا التجسس مشروع .

« ولا تنافسوا » ، أي لا ينافس بعضكم بعضاً في أمور الدنيا ويزاحمه عليها ، ويريد الانفراد بها .

ثم بعد ذلك وبعد أن وقفنا على المعنى المراد من تلك الإضافات التي جعلها مقدمة لهذا الحديث ـــ في الرواية الأخرى ـــ أريد أن أبدأ الآن في شرح بقية الصفات المذمومة التي حذرنا الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه منها، والتي من أهمها وأخطرها: الحسد المذموم، وهو : أن يتمنى أحدنا زوال النعمة عن أخيه شفاء لحقد نفسه وغيظ قلبه فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « ولا تحاسدوا » .

وهذا نهي صريح ينبغي على كل عاقل أن يكون منفذاً لمفهومه ، وأن يكون مبتعداً عن جميع الأسباب الموصلة إليه ، والتي من أهمها ـــ وأخطرها ـــ عدم الرضا بما قسم الله تعالى ... لأنه عندما سيكون هذا الإنسان ـــ راضياً بما قسم الله تعالى له ـــ لن يكون ناظراً إلى ما في أيدي الناس بتلك الشراهة

المتمثلة في هذا الحسد المذموم الذي أمرنا الله تبارك وتعالى بأن نستعيذ به منه ، فقال تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾[1] .

وحسبي أن أذكر الأخ المسلم ببعض الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تشير إلى هذا المعنى الكبير الذي أشرت إليه وهو ضرورة الرضا بما قسم الله تعالى تحصيناً لنفسه من الطمع والحسد .

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض[2] ولكن الغنى غنى النفس » متفق عليه .

يقول ابن بطال معلقاً وشارحاً لهذا الحديث الصحيح : ليس حقيقة الغنى كثرة المال ، فكثير من الموسَّع عليه في المال لا ينتفع بما أوتي ،ويجاهد في الإزدياد ولا يبالي من أين يأتيه فكأنه فقير من شدة حرصه .

وقال القرطبي : وإنما حقيقة الغنى غنى النفس لأنها تكف عن المطامع فتعز حينئذ وتعظم ويحصل لها من الحظوة والشرف ، والمدح أكثر من الغنى الذي يناله مع فقر النفس الذي يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال ودناءة هيئته وبخله وحرصه فيكثر من يذمه ويصغر قدره عندهم فيصيرُ حقيراً ذليلاً . قال الشاعر :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر

● وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « قد أفلح[3] من أسلم ورُزِقَ كَفافاً وقنَّعه الله بما آتاه » رواه مسلم .

وحول معنى « رزق كَفافاً » ، يقول سعيد بن عبد العزيز : « شبع يوم وجوع يوم » ويقول القرطبيّ : « ما يكف عن الحاجات ، ويدفع الضرورات والفاقات ، ولا يلحق بأهل الترفهات » .

---

(١) سورة الفلق .

(٢) « العرض » بفتح العين والراء : هو المال .

(٣) أي قد فاز وسعد.

● وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « اليد العليا خير من اليد السُّفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غِنىً ، ومن يستعفف يُعِفّه الله ، ومن يستَغنِ يُغنِه الله » متفق عليه . وهذا لفظ البخاري ، ولفظ مسلم مختصر .

فمعنى : « ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله » أي : من يستعفف عن مسألة الناس يرزقه الله العفة ، ومن يظهر الغنى عن الناس يصيره الله غنياً .

● وعن المقداد بن معديكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً قَطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داودَ ﷺ كان يأكل من عمل يده » . رواه البخاري .

وإذا كنتُ قد ذكّرتُ الأخ المسلم بكل هذا فإن السبب في هذا التذكير هو أنني أريده متعففاً أو مستغنياً عن سؤال الناس والنظر إلى ما في أيديهم وذلك لن يكون إلا بالرضا والقناعة .. حتى يكون بهذا من الأغنياء الحقيقيين — فإن الغنى غنى النفس — ولله درالشافعي رضي الله عنه ، فلقد قال مشيراً إلى هذا المعنى الكبير :

أنا إن عشتُ لستُ أُعدم قوتاً ... أو إن مِتُّ لستُ أُحرمُ قَصرَاً
همتي همةُ الكرامِ ونفسي ... نفسُ حُرٍّ ترى المذلة كُفراً

وكان يقول كذلك متحدثاً عن نفسه الأبِيَّة :

غنى بلا مالٍ عن الناس كُلِّهم ... فليس الغنى إلا عن الشيء لا به

وكذلك لن يكون هذا إلا بالاستغناء عن سؤال الناس بالعمل الشريف الذي هو عين التوكل على الله تبارك وتعالى .. كما ورد في نص حديث شريف يوضح فيه الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه المعنى الحقيقي للتوكل ، فيقول : « لو تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بطَاناً » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

فالطير تغدو وتروح .. ولا بد أن تفعل هذا لكي تأكل .. وهذا أمر ضروري لا بد ــ لنا كذلك ــ منه لكي نأكل ونعيش كما أراد الله ولما أراد الله أعزاء أقوياء .. وإلا كان العكس هو الصحيح إذا لم نعمل كما أمرنا الله تعالى في قوله :

● ﴿ .. فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[1] .

ولله در علي رضي الله عنه ــ كذلك ــ فلقد كان يقول متباهياً بالكسب الشريف الذي يغنيه عن المسألة :

لحملي الصَّخرَ من قممِ الجبال أَحَبُّ إلى مِن مِنَنِ الرجَالِ
يقول الناسُ لي في الكسب عار فقلت العار في ذُلّ السؤالِ

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا وينفذه حتى لا يكون متطلعاً إلى ما في أيدي الناس أو حاسداً لهم بهذا المعنى المذموم الذي وقفنا عليه وهو تمني زوال نعمة ــ فلان من الناس ــ حتى تكون من نصيبه هو فقط .. وأولى به أن يفعل ما هو أفضل من هذا وهو أن يسأل الله من فضله ، كما يأمرنا الله تعالى بهذا في قوله :

● ﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم علي بعض** ... ﴾[2] أي ولا تتمنوا الذي فضل الله به بعضكم عل بعض من منازل الفضل ودرجات الخير ، وليرض أحدكم بما قسم الله له : ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** .. ﴾ أي للرجال نصيب من ثواب الله وعقابه ، مما اكتسبوه من خير أو شر ، وللنساء نصيب مما اكتسبن مثل ذلك ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ ، أي واسألوا الله توفيقه ومعونته على ما يرضيه ﴿ **إن الله كان بكل شيء عليما** ﴾[3] ، أي عليماً بما يصلح العباد فيما قسم لهم من خير ، فسلّموا الأمر إليه وارضوا بقضائه .

---

(١) سورة الملك الآية ١٥ .

(٢) النساء : الآية ٣٢ .

(٣) ما بين القوسين الآية ٣٢ من سورة النساء . وكما قال مجاهد : نزلت في شأن أم سلمة عندما قالت : يا رسول الله : يغزو الرجال ولا نغزو ، وإنما لنا نصف الميراث !! فنزلت الآية .

وأولى بالأخ المسلم إذا أراد أن يكون حاسداً حسداً محموداً ، أن ينفذ المراد من هذا الحديث الشريف الصحيح الذي ورد :

● عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله[1] مالاً فسلطه على هلكته في الحق[2] ، ورجل آتاه الله حكمة[3] فهو يقضي[4] بها ويعلمها » متفق عليه .

فمعنى لا حسد ، أي : لا غبطة ، وهي تمني مثل هذه النعمة ، منافسة في الخير .

ومعناه كذلك : أنه ينبغي أن لا يُغبَطَ أحدٌ إلا على إحدى هاتين الخصلتين .

فالحسد المحمود كما قرأنا في نص هذا الحديث المتفق عليه لا يكون إلا في شيئين :

أولهما : أن يحسد الإنسان العاقل إنساناً موفقاً أعطاه الله مالاً حلالاً فسلطه على هلكته في الحق ، أي : في إنفاقه في أبواب الخير المشروعة .

فلا مانع شرعاً أن يغبطه على هذا ، ويتمنى أن يعطيه الله مالاً حلالاً كهذا المال الحلال الذي أعطاه الله تعالى لهذا الرجل الموفق حتى ينفقه مثله في أبواب الخير المشروعة .

وهذا خير عظيم كلنا كعقلاء مسلمين ـــ بصفة خاصة ـــ ينبغي أن ننافس فيه .. قال تعالى :

● ﴿ وما أنفقتم من شيء[5] فهو يخلفه[6] ﴾[7] .

---

(١) أي أعطاه .
(٢) أي إنفاق هذا المال الحلال ، في القرب والطاعات .
(٣) أي علماً .
(٤) أي بين المتنازعين يزيل الخصام ويعلم الناس ليعملوا .
(٥) في رضا الله تعالى .
(٦) أي يعوضه سبحانه وتعالى .
(٧) سبأ : الآية ٣٩ .

● ﴿ وما تنفقوا من خيـر فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون ﴾(١) .

● ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾(٢) .

وقد ورد الترغيب في فعل الخيرات على لسان الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه :

● فعن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « اتقوا النار(٣) ولو بشِقِّ تمرة(٤) » متفق عليه .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ، أيُّ الإسلام خيرٌ ؟ قال : « تطعم الطعام(٥) ، وتقرأ السلام على مَن عرفتَ ومن لم تعرف » متفق عليه .

● وعنه ، قال رسول الله ﷺ : «أربعون خصلةً أعلاها منيحة العَنْزِ(٦) ما من عاملٍ يعمل بخَصلة منها رجاء ثوابها وتصديقَ موعودها إلا أدخله الله تعالى الجنة » رواه البخاري .

● وعن أمامة صديٍّ بن عجلان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يابن آدم إنك إن تبذل الفضل(٧) خير لك ، وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف(٨) ، وابدأ بمن تعول(٩) . واليد العليا خير من اليد السفلى » رواه مسلم .

---

(١) البقرة : الآية ٢٧٢ .
(٢) البقرة : ٢٧٣ .
(٣) أي اتخذوا بينكم وبينها وقاية من صالح الأعمال قل أو كثر .
(٤) أي نصفها .
(٥) أي على وجه الصدقة والضيافة والهدية .
(٦) أي إعطاء الرجل صاحبه شاة أو ناقة ينتفع بحلبها صلة ثم يردها .
(٧) أي مالا يحتاج إليه الإنسان لنفسه ولمن يعوله .
(٨) إمساك ما تكف به الحاجة .
(٩) من زوجة وقريب وعبد ودابة .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما نقصت صدقة من مال(١) ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عِزًا(٢) ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل »(٣) رواه مسلم .

فلاحظ أخا الإسلام كل هذا ونفذه ، و :

قَدم لنـــــــفسك خيراً وأنت مالك مالكْ
من قبـل تُصبـــح(٤) فرداً ولـون حالك حالُكْ(٥)
ولست والله تدري أيَّ المسالك سالك
إمـــــا لجنـــــة عدنٍ أو في المهـــالِكِ هالك

وثانيهما : ــ مما يجوز فيه الحسد ــ أن يرى الإنسان المسلم العاقل عالماً عاملاً موفقاً يعلم الناس العلم النافع فيغبطه على هذا أي يتمنى أن يعلمه الله تعالى العلم النافع مثله حتي يعلم الناس مثله ، وحتى يفوز كذلك بالخير المشار إليه في حديث الرسول ﷺ ، الذي ورد :

● عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير » رواه الترمذي وقال : غريب ، وفي نسخة حسن صحيح .

● وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « الدال على الخير كفاعله » رواه الترمذي وقال غريب ، ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وصححه عن أبي مسعود بلفظ « من دل على الخير فله مثل أجر فاعله » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولدٍ صالح يدعو له » رواه مسلم وغيره .

---

(١) المُخرج من المال تقرباً إلى الله تعالى .
(٢) أي من عرف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب وزاد عزة وكرامة .
(٣) أي بتواضعه . (٤) أي من قبل أن تصبح فرداً .
(٥) أي مظلم .

فليكن كل هذا أخا الإسلام حافزاً لك على أن تكون من أهل الحسد المحمود لا من أهل الحسد المذموم .. وحسبك ترغيباً لك في الأول وترهيباً لك من الأخير أن تقرأ معي هذا الحديث الشريف الذي ورد : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ ، فقال :

● « يطلع الآن عليكم[1] رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وَضُوئه[2] قد عَلَّق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد[3] قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً . فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بنُ عمرو ، فقال : إني لاحيت أبي[4] فأقسمتُ أني لا أدخُل عليه ثلاثاً ، فإن رأيتَ أن تؤويني إليك[5] حتى تمضي فعلت . قال : أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاثَ الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئاً[6] غير أنه إذا تعارَّ[7] تقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث الليالي ، وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلعتَ أنت الثلاث المرات . فأردتُ أن آوي إليك فأنظر ما عملك ، فأقتدي بك ، فلم أرك عملتَ كَبيرَ عملٍ ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وَلَّيتُ دعاني[8] ، فقال : ما هو إلا ما رأيتَ غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشًّا[9] ولا أحسُد أحداً على خير أعطاه الله إيَّاه ، فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك »[10] رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم والنسائي .

---

(1) أي يظهر لكم .
(2) يعني يقطر منها الماء .
(3) يعني اليوم التالي .
(4) أي خاصمته ونازعته .
(5) يعني تضمني إليك وتنزلني عندك .
(6) يعني للتهجد قبل الفجر .
(7) أي استيقظ من الليل .
(8) أي ناداني .
(9) أي لا أضمر لأحد خديعة ولا مكراً .
(10) أي أوصلتك إلى الجنة .

زاد النسائي في رواية له والبيهقي والأصبهاني : فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك ، وهي التي لا تُطيق(١) .

ورواه البيهقي أيضاً عن سالم بن عبدُ الله عن أبيه قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ قال : « فقال ليطلعنَّ عليكم رجل من هذا الباب من أهل الجنة ، فجاء سعد بن مالك(٢) فدخل منه قال البيهقي : فذكر الحديث ، قال : فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : ما أنا بالذي أنتهي(٣) حتى أُبايتَ(٤) هذا الرجل ، فأنظر عمله ، قال : فذكر الحديث في دخوله عليه ، قال : فناولني عباءةً ، فاضطجعتُ عليها قريباً منه ، وجعلتُ أرمقه(٥) بعيني ليله(٦) كلما تعارَّ(٧) سَبَّحَ ، وكَبَّرَ ، وهَلَّلَ ، وحمد الله حتى إذا كان في وجه السَّحَرِ قام فتوضأ ، ثم دخل المسجد فصَلَّى ثِنتي عشرة ركعةً باثنتي عشرة سورةً من المفصَّل(٨) ليس من طواله ، ولا من قصاره ، يدعو في كل ركعتين بعد التشهد بثلاث دعوات ، يقول : اللهم آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرةِ حسنة وقِنا عذاب النار(٩) . اللهم اكفنا ما أَهَمَّنَا من أمر آخرتنا ودنيانا ، اللهم إنا نسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله ، حتى إذا فرغ .. فذكر الحديث في استقلال عمله(١٠) ، وعوده إليه ثلاثاً إلى أن قال : آخذ مضجعي ، وليس في قلبي غِمْرٌ(١١) على أحد .

فعلى الأخ المسلم أن يتشبه بهذا الرجل الصالح ، أو بهذا الصحابي الفاضل حتى يكونِ مثله من أهل الجنة .

---

(١) أي لا تقدر عليها .
(٢) وهو سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة .
(٣) أي أسكت .
(٤) يعني أبيت معه .
(٥) يعني أنظر إليه .
(٦) أي طول ليلة .
(٧) أي استيقظ وانتبه .
(٨) وهي من أول سورة (ق) إلخ المصحف .
(٩) وهي دعوة جامعة لكل خير في الدنيا والآخرة .
(١٠) أي عده إياه قليلاً .
(١١) بكسر فسكون : أي حقد .

وعليه كذلك إذا كان قد أُصيبَ بمن يحسده حسداً مذموماً أن يصبر على حسده كما ينصحه أحدهم بقوله :

إصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتلـــــــــه
النـــــار تأكل بعضهـــــا إن لم تجد ما تأكلـــــه

بل وتستطيع كذلك إن شئت أن توجه إليه الرسالة الآتية التي ستقول فيها لمن سيبلغها عنك :

ألا قل لمن بات لي حاسداً أتدري على مَن أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله كأنك لم ترض لي ما وهب
فكـان جزاءك أن خصَّنِي وَسَدَّ عليك طريـق الطـلب

●● وأما عن التناجش المنهي عنه في قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ــ في نفس الوصية ــ : « ولا تناجشوا » ، فمعناه :

أن النجش ــ كما جاء في كتاب الحلال والحرام في الإسلام[1] ــ وكما قال ابن عمر رضي الله عنهما مفسراً إياه : من أقذر أنواع الخداع للمشترين .. وصورته : أن تعطي في السلعة أكثر من ثمنها ، وليس في نفسك اشتراء ، ليقتدي بك غيرك ، وكثيراً ما يكون عن اتفاق ــ بين البائع والمناجش ــ لخداع الآخرين .

ولكي تكون المعاملة بعيدة عن كل صورة للاستغلال التجاري ، وتلبيس الأسعار : « نهى النبي ﷺ عن تلقي السلع قبل الوصول إلى السوق »[2] ففي ذلك وقف للسلعة من مجالها الحيوي الذي يتمثل في السعر المناسب لها ، حسب العرض والطلب الحقيقيين ،وقد يُغبن صاحب السلعة إذا لم يكن لديه علم بالسعر في السوق ، ولذلك جعل له النبي ﷺ الخيار إذا ورد السوق[3] .

وتحت عنوان : « مَن غشنا فليس منا » يقول في كتاب « الحلال والحرام في الإسلام :

---

(١) للدكتور يوسف القرضاوي ص ٢٧١ . طبعة دار الإعتصام .
(٢) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه .
(٣) أخرجه مسلم .

والإسلام يحرم الغش والخداع بكل صورة من الصور ، في كل بيع وشراء ، وفي سائر أنواع المعاملات الإنسانية . والمسلم مطالب بالتزام الصدق في كل شؤونه ، والنصيحة في الدين أغلى من كل كسب دنيوي .

قال عليه الصلاة والسلام : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وَبَيَّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كَذَبا وكتما مُحِقَت بركة بيعهما »(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يحل لأحد يبيع بيعاً إلا بين ما فيه ، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا بَيَّنه »(٢) .

ومر رسول الله ﷺ برجل يبيع طعاماً (حبوباً) فأعجبه ، فأدخل يده فيه ، فرأى بللاً ، فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء « أي المطر » ، فقال ﷺ : «فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟! من غَشَّنَا فليس منَّا »(٣) .

وفي رواية : أنه مَرَّ بطعام وقد حَسَّنَهُ صاحبه ، فوضع يده فيه ، فإذا طعام رديء ، فقال : « بع هذا على حدة ، وهذا على حدة ، مَن غَشَّنَا فليس منَّا »(٤) .

وكذلك كان سلف المسلمين يفعلون ، يُبيِّنون ما في المبيع من عيب ولا يكتمون ، ويصدقون ولا يكذبون ، وينصحون ولا يغشون .

باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري : أبرأ لك من عيب فيها ، إنها تقلب العلف برجلها .

وباع الحسن بن صالح جارية ، فقال للمشتري : إنها تنخمت مرة عندنا دماً .

مرة واحدة ، ومع هذا يأبى ضميره المؤمن إلا أن يذكرها له ، وإن نقص الثمن .

وتحت عنوان « كثرة الحلف » يقول :

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه الحاكم والبيهقي .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه أحمد .

وتشتد الحرمة إذا أيدَّ غشه بيمين كاذبة . وقد نهى النبي ﷺ التجار عن كثرة الحلف بعامة وعن الحلف الكاذب بخاصة . وقال : « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة »(١) .

وإنما كره إكثار الحلف في البيع ، لأنه مظنة لتغرير المتعاملين أولاً ، وسبب لزوال تعظيم اسم الله من القلب ثانياً .

كما يقول تحت عنوان « تطفيف الكيل والميزان » :

ومن ألوان الغش تطفيف المكيال والميزان . وقد اهتم القرآن بهذا الجانب من المعاملة ، وجعله من وصاياه العشر في آخر سورة الأنعام ، فقال تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وُسعها** ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيل إذا كِلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **ويل للمطففين ۝ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ۝ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ۝ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ۝ ليوم عظيم ۝ يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾(٤) .

وعلى المسلم أن يتحرى العدل في ذلك ما استطاع ، فإن العدل الحقيقي قلما يتصور ، ومن هنا قال القرآن عقب الأمر بالإيفاء : ﴿ **لا نُكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ .

وقد قَصَّ علينا نبأ قوم جاروا في معاملاتهم ، وانحرفوا عن القسط في الكيل والوزن ، وبخسوا الناس أشياءهم ، فأرسل الله إليهم رسولاً يردهم إلى صراط العدل والإصلاح كما يردهم إلى التوحيد .

أولئك هم قوم شعيب الذين صاح فيهم داعياً ومنذراً ، فقال

---

(١) رواه البخاري .
(٢) الأنعام : الآية ١٥٢ .
(٣) الإسراء : الآية ٣٥ .
(٤) سورة المطففين من ١ : ٦ .

مايقوله الله تعالى : ﴿ **أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾(١) .

وهذه المعاملة مثال لما يجب أن يكون عليه المسلم في حياته وعلاقاته ومعاملاته كلها ، فلا يجوز له أن يكيل بكيلين أو يزن بميزانين ، ميزان شخصي ، وميزان عام ، ميزان له ولمن يحب ، وميزان للناس عامة ، ففي حق نفسه ومن يتبعه يستوفي ويتزيد ، وفي الآخرين يُخسر وينتقص .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا ، حتى لا يكون من أهل التناجش المنهي عنه .

●● وأما عن ، التباغض المنهي عنه كذلك في قول الرسول ﷺ بعد ذلك ــ في نص الوصية : « ولا تباغضوا » ، فإن المراد منه عدم الألفة والمحبة المتبادلة بين المؤمن وإخوانه المؤمنين ، لأن المراد تنفيذه هو عكس هذا .. وهو المودة والمحبة التي يشير إليها ويجمعها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾(٢) .

والأُخوة الحقيقية الخالصة لوجه الله تقتضي أن يكون هناك تعاطف وتراحم بين المؤمنين على أساس من الحب الصادق لله وفي الله ... وقد ورد الترغيب في هذا ، في حديث شريف ، ورد :

● عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « **ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة**(٣) **الإيمان : أن يكون الله ورسوله أُحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلالله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار** » متفق عليه .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « **سبعة يظلهم**

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٨١ ــ ١٨٣ .
(٢) سورة الحجرات الآية ١٠ .
(٣) استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في الدين .

الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابَّا في الله(١) اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة(٢) ذات حسن وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفقُ يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ، ففاضت عيناه »(٣) متفق عليه .

● وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أُظِلُّهم في ظلي يوم لا ظلَّ إلا ظلي » رواه مسلم .

وقد كان النبي ﷺ يحرص دائماً وأبداً على أن يربط بي قلوب أصحابه برباط الأخوة الصادقة .. ومن أساليبه في هذا ، ما ورد :

● عن أبي كُرَيْمَةَ المقداد بن معديكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا أحب الرجل أخاه(١) فليخبره أنه يحبه » رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث صحيح .

● وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ ، فمر رجل به ، فقال يا رسول الله إني لأحب هذا . فقال النبي ﷺ : « أأعلمَتهُ ؟ » قال : لا ، قال : « أعلمه » ، فلحقه فقال : إني أُحبك في الله . فقال : أحبك الله الذي أحببتني له » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

وكان النبي ﷺ قدوة لهم في هذا :

● فعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : أخذ بيده(٥) وقال : « يا معاذ والله إني لأحبك ثم أوصيك ، يا معاذ لا تدَعَنَّ(٦) في دُبُر كُلِّ صلاة تقول : اللهم أعِنِّي على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك » حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح .

---

(١) أي أحب كل منهما صاحبه ــ لله ــ ولم يقطعاها لعرض دنيوي .
(٢) أي إلى الفاحشة .
(٣) أي بالدموع من خشية الله تعالى .
(٤) في الله عز شأنه .
(٥) تأنيساً وتلطفاً معه .
(٦) أي لا تتركن عقب كل صلاة مفروضة .

فكن أخا الإسلام منتفعاً بهذا التذكير حتى تكون من أهل المودة والرحمة ، وحتى لا تهجر أخاك المسلم ، فقد ورد الترهيب من هذا :

● عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقاطعوا(١) ، ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » رواه مالك والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي ، ورواه مسلم مختصراً ، والطبراني ، وزاد فيه :

« يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهم(٢) الذي يبدأ بالسلام ، والذي يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة » .

وحول هذا الحديث ، قال العلماء : « في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال وإباحتُها في الثلاث الأُول بنص الحديث والثاني بمفهومه ، قالوا : وإنما عفي عنها في الثلاث لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك ، فعُفِي عن الهجر في الثلاث حتى يذهب ذلك العارض .

وقال بعضهم : إن الحديث لا يقتضي إباحة الهجر في الثلاث ، وهذا على مذهب من يرى أن مفهوم الخطاب ليس حجة .

وقال أبو العباس القرطبي : « المعتبر ثلاث ليال حتى لو بدأ بالهجر فى أثناء النهار ، ألغى البعض النهار وتعتبر ليلة ذلك اليوم وينقضي العفو بانقضاء الليلة الثالثة فالمعتمد أن المرخص فيه ثلاثة أيام بلياليها فحيث أطلقت الليالي أريد بأيامها » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر فوق ثلاث ، فمن هجر أخاه فوقَ ثلاث فمات دخل النار(٣) » رواه أبو داود والنسائي بإسناد على شرط البخاري ومسلم .

---

(١) من القطيعة والهجر ، وأصله تتقاطعوا فحذفت إحدى التاءين للتخفيف .

(٢) وفي رواية (وخيرهما) بالتثنية ولعلها أصح ، أي أفضلهما .

(٣) لأنه مات على معصية فاستحق دخول النار .

وفي رواية لأبي داود ، قال النبي ﷺ : « لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث ، فإن مَرَّتْ به ثلاثٌ فليلقه فليسلم عليه ، فإن رَدَّ عليه السلام ، فقد اشتركا في الأجر ، وإن لم يرد عليه ، فقد باء بالإثم ، وخرج المُسَلِّمُ[1] من الهجرة » .

وقد حُكِي أن رجُلاً هجر أخاه فوق ثلاثة أيام فكتب إليه هذه الأبيات :

يا سيدي عندك لي مظلمة فاستفت فيها ابن أبي خيثمة
فإنه يروي لنا عن جده ما قد روى الضحاك عن عكرمة
عن ابن عباس عن المصطفى نبينا المبعوث بالمرحمة
إن صدود الإلف عن إلفه فوق ثلاثٍ رَبُّنَا حَرَّمه

اللهم إلا إذا كان الهجر هذا شرعياً ، كهجر الزوج لزوجته إذا تحقق نشوزها ، قال تعالى : ﴿ **واهجروهنَّ في المضاجع** ﴾[2] .

وهجرة أهل المعاصي في المكان والكلام وجواب السلام وابتدائه .

وهجرة ما نهى الله عنه وهي أعم الهجرة .

●● وكذلك « التدابر » المنهي عنه في نص الوصية في قوله ﷺ : « ولا تدابروا » ، فإن معناه المعاداة والمقاطعة لأن كل واحد منهما يولي صاحبه دبره .

قال الإمام مالك : ولا أحسب التدابر إلا الإعراض عن المسلم يدبر عنه بوجهه .

فلاحظ هذا أخا الإسلام ، واحذر أن يكون التدابر هذا ، كبراً أو احتقاراً لأخيك المسلم ، فقد ورد :

● عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة[3] من كبر ، فقال رجل : إن

---

(١) أي الذي ألقى السلام .
(٢) وقد ثبت أن النبي ﷺ هجر بعض نسائه أربعين يوماً . « أبو داود » .
(٣) وهي النملة الصغيرة أو الهباءة التي ترى في ضوء الشمس من كوة .

الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنةً[1] ؟ قال : إن الله جميل[2] يحب الجمال . الكبر بَطَر[3] الحق ، وغَمْطُ[4] الناس » رواه مسلم والترمذي .

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « مَن تعَظَّم في نفسه[5] ، أو اختال في مشيته ، لقي الله تبارك وتعالى[6] وهو عليه غضبان » رواه الطبراني في الكبير واللفظ له ، ورواته محتج بهم في الصحيح ، والحاكم بنحوه ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وحسبك ، حتى لا تكون متكبراً أو محتقراً لغيرك ، أن تفهم وتنفذ المراد من قول الله تبارك وتعالى على لسان لقمان الحكيم في وصيته لولده :

● ﴿ **ولا تُصَعِّر خَدَّك للناس** ﴾ أي : ولا تُعرض بوجهك عمن كلمت، تكبراً واستخفافاً له، ﴿ **ولاتمش في الأرض مرحاً** ﴾ أي : ولا تسر في الأرض مُختالاً ﴿ **إن الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ أي : إن ربك لا يحب كل متكبر ذي فخر ، لا يشكر ربه ﴿ **واقصد في مشيك** ﴾ أي : وتواضع واتئد في مشيك إذا مشيت ﴿ **واغضض من صوتك** ﴾ أي : واخفض من صوتك ، فاجعله قصداً إذا تكلمتَ ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ أي : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير .

وحسبك أن تفكر معي في هذا الكلام الذي قاله على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو : مالابن آدم والكبر : أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو ما بين ذاك وذاك يحمل العذِرة[8] .

مالابن آدم والكبر : تقتله شرقة ، وتشينه عرقة ، وتؤلمه بَقَّة .

---

(١) يعني أن يكون حسن المنظر والهيئة .
(٢) قال في النهاية : أي : « حسن الأفعال كامل الأوصاف » .
(٣) أي دفعه ورده .
(٤) أي احتقارهم وازدراؤهم .
(٥) أي تكلف العظمة والكبرياء .
(٦) أي يوم القيامة .
(٧) ما بين القوسين الآية ١٩ من سورة لقمان .
(٨) العذرة : المراد بها ما في بطن الإنسان من براز ، أو خراءة .

وذكر نفسك دائماً وأبداً أخا الإسلام بأنك : مررت بمخرج البول مرتين !! حتى تكون متواضعاً ، وحتى لا تكون من أهل التدابر .

●● وأما عن قول الرسول ﷺ بعد ذلك ـ في نص الوصية : « ولا يبع بعضكم على بيع بعض » ، فإن صورته(١) أن يبيع أخوه شيئاً فيأمر المشتري بالفسخ ليبيعه مثله وأحسن منه بأقل من ثمن ذلك . والشراء ـ كذلك ـ على الشراء حرام بأن يأمر البائع بالفسخ ليشتريه منه بأغلى ثمن . وكذلك يحرم السوم على سوم أخيه .. وكل هذا داخل في الحديث لحصول المعنى وهو التباغض والتدابر .. وتقييد النهي ببيع أخيه يقتضي أنه لا يحرم على بيع الكافر ، وهو وجه لابن خالويه ، والصحيح : لا فرق لأنه من باب الوفاء بالذمة والعهد .

وهذا معناه كما هو واضح من هذا السياق السابق : أن الإسلام يحرص كل الحرص على إبقاء المودة بين المسلم وأخيه المسلم ، كما يحرص كذلك على عدم ـ تعكيرها ـ أو إفسادها بأي سبب من تلك الأسباب التي منها تلك الصورة التي أشار إليها الرسول ﷺ في قوله : « ولا يبع بعضكم على بيع بعض » .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا حتى لا يخسر أخاه المسلم ، وحتى يظل مرتبطاً به ، على أساس أخوي سليم .

وقوله ﷺ بعد ذلك : « وكونوا عباد الله إخواناً » : يؤكد هذا المعنى الذي أشرت إليه ، والذي يشير كذلك إلى ضرورة أن تظل الأخوة الإسلامية قائمة بين المسلمين الذين ينبغي عليهم أن يؤكدوها دائماً وأبداً في معاملاتهم الحسنة ، وفي صدقهم وأمانتهم في جميع شئون حياتهم ، وأن يؤكدوا أخوتهم كذلك عند الشدائد والأزمات ، كما يشير إلى هذا الإمام الشافعي رضي الله عنه ، في قوله :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقي

فالصديق الوفي ، أو الأخ الصادق لا يُعرف إلا عند الحاجة إليه ، بعكس

---

(١) كما في شرح الأربعين النووية .

الآخرين الذين لا يعرفون الناس ولا يلتفُّون حولهم ويسألون عنهم إلا إذا كان هناك جاه دنيوي أو مال كثير يطمعون في الحصول على بعضه .. وإلى هذا يشير أحدهم في قوله :

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضة إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة فعنه الناسُ مُنفضَّة

* * *

كما يقول أحدهم مشيراً إلى الأخوة الصادقة :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شَتَّتَ فيك شمله ليجمعك

وإذا كان النبي ﷺ قد قال بعد ذلك : « المسلم أخو المسلم » : فإنه يريد بذلك أن يؤكد على أهمية تلك الأخوة الإسلامية في الحياة المستقرة الآمنة .

لأنه بدون تلك الأخوة الإسلامية لا يمكن أبداً أن يكون هناك إيمان أو أمان :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يُحيي دينًا

ولهذا ، فقد قال النبي ﷺ بعد ذلك مشيراً إلى أهمية تلك الأخوة الإسلامية ، والمحافظة على هذا الأخ المسلم ، وذلك ، بأن :

« لا يظلمه » ، أي يعتدي عليه في دم ولا عرض ولا مال .

« ولا يخذله » ، أي عند أمره بالمعروف أو نهيه : عن المنكر ، أو عند مطالبته بحق من الحقوق ، بل ينصره ويعينه ويدفع عنه الأذى ما استطاع .

« ولا يكذبه » ، أي لا يكذبه أمام الناس ، بل يصدقه حتى يكون معيناً له ـــ على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ـــ ولا سيما إذا كذبه الناس ، وهو يعلم أنه صادق .

« ولا يحقره » ، أي لا يزدريه ويحط من شأنه ، ولا يحكم على نفسه بأنه خير من غيره ، بل يحكم على غيره بأنه خير منه ، أولا يحكم بشيء فإن العاقبة منطوية ولا يدري العبد بما يختم له ، فإذا رأى صغيراً مسلماً حكم بأنه خير منه باعتبار أنه أخف ذنوباً منه ، وإن رأى من هو أكبر سنًّا منه حكم بالخيرية باعتبار أنه أقدم هجرة منه في الإسلام ، وإن رأى كافراً لم يقطع له بالنار لاحتمال أنَّه يُسلم فيموت مُسلماً .

ثم يشير النبي ﷺ بعد ذلك إلى ملاحظة هامة ، أراد بها أن يلفت قلوبنا إلى ضرورة أن نهتم بإصلاح القلوب والعمل على تعميرها دائماً بالتقوى التي هي رأس الأمر كله ، والتي إن تربعت على القلب ، كان هذا القلب صالحاً لا فاسداً ، وكان صلاحه هذا سبباً في صلاح جميع الأعضاء لا فسادِها لأن القلب كما يقول الحكماء كالملك بالنسبة للرعية ، إذا صلح صلحت الرعية وإذا فسد فسدت الرعية ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « التقوى هٰهنا » ، وأشار إلى صدره ثلاث مرات ، تأكيداً لهذا المعنى ، حتى نحرص ـــ كما أشرت ـــ على أن يكون القلب عامراً بالتقوى ، التي وصفها علي رضي الله عنه بقوله : « التقوى هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل » .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم ، يقول صلوات الله وسلامه عليه : « .. ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

ثم يقول صلوات الله وسلامه عليه : « بحسب امرىء من الشر » أي : يكفيه من الشر « أن يحقر أخاه المسلم » أي يكفيه من الإثم احتقاره له ، وهذا شر عظيم يكفي فاعله عقوبة هذا الذنب .

ثم بعد ذلك : يختم صلوات الله وسلامه عليه هذه الوصية العظيمة بقوله

الذي ينبغي أن يكون دائماً وأبداً نصب أعيننا ، كما ينبغي أن يُذكَّر به كل مسلم أخاه المسلم حتى يحافظ على حرمة الأخوة الإسلامية ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، أي محظور وممنوع من التعدِّي عليه في شيء من هذه الثلاثة ، والمراد منع هذه الأمور بما لم يأذن الشرع فيه من نحو قصاص أو تعذير أو قضاء ما امتنع من أدائه مما هو واجب عليه .

وقد قال النبي ﷺ في حجة الوداع مشيراً إلى هذا : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا .. » ، واستدل الكرابسي بهذا الحديث على أن الغيبة والوقوع في عرض المسلمين كبيرة ، إما لدلالة الاقتران بالدم والمال ، وإمَّا للتشبيه بقوله : « كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » ، وقد توعَّد الله تعالى بالعذاب الأليم الاعتداء فيه ، فقال تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾[1] .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، ونفذه حتى تكون مسلماً لا مُتمسلماً .

والله ولي التوفيق .



---

(١) سورة الحج : الآية ٢٥ .

الوصية الثالثة والستون

عن أنس رضي الله عنه قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، فقال رجل:
يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: تحجزه[1] أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره.

رواه البخاري

---

(١) تحجزه: أن تحول بينه وبين ظلمه لأحد من الناس.

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذه الوصية العظيمة التي لو نفذناها جميعاً نحن المسلمين لما رأينا ظالماً ولا مظلوماً ، ولساد العدل في كل مكان على وجه الأرض التي لن تعمر إلا بالعدل الذي هو أهم دعامة للأمن والاستقرار في كل مكان ، شاء الله تعالى أن يكون فيه خلق من بني الإنسان الذين كان من الواجب عليهم أن يكونوا عكس الجن الذين خلقوا قبلهم بآلاف السنين .. فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بدليل قول الملائكة لرب العزة سبحانه وتعالى عندما قال لهم : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء** ... ﴾ قالوا : هذا لأنهم رأوا هذا من الجن .. الذين خلقوا — كما أشرت — قبل الإنس.. بدليل تقديمهم عليهم في قوله تعالى : ﴿ **وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس..** ﴾[2]، فالتقديم في الآيتين تقديم أسبقية لا تقديم أفضلية ..

وتلك إشارة كذلك إلى أن الإنس أفضل من الجن .. بل أفضل من الملائكة — باستثناء رؤسائهم ، كجبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت .

وقد قرأت توضيحاً لهذا : أن الله تعالى خلق الملائكة من عقل بلا شهوة ، وخلق البهائم من شهوة بلا عقل ، وخلق الآدمي من كليهما :

فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله فالبهائم خير منه .

ولهذا ، فقد قال الله تعالى في شأن المشركين ، الذين لا يسمعون ولا يعقلون : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام** ﴾ أي ما هم إلا كالبهائم التي لاتعقل ما يقال لها — وقد قرأت في هذا ، أن الأنعام قد احتجت وقالت : يا رب وما ذنبنا نحن حتى تشبههم بنا ؟ فقال الله تعالى : ﴿ **بل هم أضل سبيلا** ﴾[3]

---

(١) الداريات : الآية ٥٦ .

(٢) سورة الرحمن : الآية ٣٣ .

(٣) ما بين القوسين الآية ٤٤ من سورة الفرقان .

أي بل هم أضل طريقاً من الأنعام ، لعدم طاعتهم لربهم وشكرهم لمن أنعم عليهم ، أما البهائم فتهتدي لمراعيها ، وتنقاد لراعيها .

فلا تكن أخا الإسلام « أضل سبيلاً » من الأنعام ، وكن على عكس هذا ملائكيًا في تنفيذك لأوامر الله واجتنابك لنواهيه(١) حتى تكون بهذا إن شاء الله تعالى عادلاً في كل خركاتك وسكناتك ، وفي كل موقع كنت فيه .. لأنك إن فعلتَ هذا ستكون من المتخلقين بخلق الإسلام الذي سيؤهِّلُكَ تبعاً لهذا : لنصرة الظالم والمظلوم — لأن فاقد الشيء لا يعطيه — .

وإذا كان لنا أن ندور — مرة أخرى — حول قول الرسول ﷺ : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ... » إلخ الحديث :

فإنني أحب أولاً أن أشير إلى كلمة جامعة قرأتها في كتاب « البيان الفاصل بين الحق والباطل »(٢) ، تحت عنوان : « العدل » ، وذلك حتى تقف معي من خلال هذه الكلمة الجامعة على حقيقة العدل الذي أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلني وإياك والأمة الإسلامية بأكملها رؤساء ومرءوسين ، من أهله ، فإليك نص الكلمة :

أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامة العدل ، وزينه للإنسان ، وصوره له بصورة ملجأ قوي الدعائم ، ما استغاث به ملهوف إلا وأغاثه ، وما استجار به مظلوم إلا وأجاره ، وجعله « جل شأنه » أساس الملك ، وروح العمران ، وأساس المدنية والحضارة .

العدل : هو إيصال الحق إلى مستحقه ، وهو وضع الشيء في محله ، وهو ميزان الله تعالى في الأرض ، يأخذ به الضعيف حقه من القوي ، والمحق من المبطل ، وبه قوام الدنيا والدين ، وسبب صلاح الخلق ، وهدايتهم إلى طريق الحق .

وبه تتآلف القلوب ، وتلتئم الشعوب ، وتزول الخطوب والكروب ،

---

(١) لأن الملائكة كما قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

(٢) للأستاذ علي فكري .. أثابه الله .

ويشمل الناس التناصف ، ويضمهم التواصل والتعارف ، وبه تعمر البلاد ، وتسعد العباد ، وتُؤَمَّنُ السُّبل ، وتنمو التجارات ، وتدر الأرزاق والخيرات ، ويعم الصلاح الخاصة والعامة .

العدل : ما قامت به أمة من الأمم ، وجعلته أصل موارد أفعالها ومصادرها إلا وكانت في مقدمة الأمم عمراناً ، وأكثرها حضارة ومدنية ، وما حادث عنه أمة إلا وكان الخراب رائدها ، والضعف قائدها .

بذلك قضى العقل ، وحكم الله بالحق ، وجرى العمل في الأمم من أول نشأتها للآن ، مهما تغيرت الأحوال والزمان .

وقد حث الله على العدل ، وبالغ في التمسك والأخذ به في جميع الأحوال ، وسائر الأعمال ، فقال جل شأنه :

● **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .. ﴾**[1] ، وقال ﷺ :

● « أعظم الناس قدراً عند الله تعالى : الملك العادل » .

● وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لبعض عماله : « عليكم بالعدل ، وتباعدوا عن الجور ، ولا تغدروا إن عاهدتم ، ولا تنقضوا إن صالحتم » .

والعدل الذي يجب على كل إنسان التمسك به ، يكون بإعطاء كل ذي حق حقه ، لا أكثر ولا أقل .

فالبائع الذي يكيل للمشتري بقدر ما اتفقا عليه فهو عادل ، ويحوز رضا زبائنه ، ويربح حلالاً ، وتتسع تجارته .

والمشتري الذي يدفع ما عليه للتاجر فهو عادل ، ويميل كل التجار لمعاملته ومساعدته ، وإعطائه ما يطلب منهم .

والموظف الذي يقوم بأداء واجبه حق القيام فهو عادل ، ويفوز برضا

---

(١) النحل : الآية ٩٠ .

رئيسه ، ومحبة إخوانه ، ويستحق التقدم والترقي .

والرئيس الذي يُسَوِّي بين مرءوسيه فيما يعهد إليهم من عمل ، ويوزع بينهم بشاشته وعطفه ، ويعطي كل واحد ما يستحق من مكافأة وترقية ، ولا يرقى صنيعة له ، ولا يغض عن معايب ذوي الحظوة عنده ، ثم يحصى على غيرهم أنفاسهم وهفواتهم ، بل يكون الكل لديه سواء ، فيما هو من مقتضيات الوظيفة ، ومستلزمات الأعمال فهو عادل يكتسب حبهم واحترامهم وإخلاصهم ، فضلاً عن أن ذلك يبعث فيهم روح النشاط والدأب والجد ، والخوف من التقصير والتهاون ، فيكثر إنتاجهم ، وينظم سير الأعمال ، ويتوافر الكل على ما يرقى شأن البلاد ، ويسير بها في مدارج الكمال .

والقاضي الذي ينصف المظلوم من الظلمة ، ويرد الحقوق إلى ذويها ، فلا يبريء آثماً ، ولا يدين بريئاً ، ولا يقرب خصماً على خصم ، فهو عادل ، يكتسب رضا الخلق والخالق ، وتحسن سمعته ، وتبقى ذكراه .

فمن استمسك بحبل حب العدل ، ومال إليه ، سَهَّل الله سبحانه وتعالى سلوك سننه إليه ، وأوضح بدليل التوفيق والهداية مناهجه لديه ، وجعل من عدله يوم القيامة نوراً يسعى بين يديه ، وكان عند الله من الفائزين المقربين له يوم الحساب ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم يحكم بينهم بالعدل أحكم الحاكمين .

●● ومن أجمل ما قرأت كذلك حول حقيقة العدل والترغيب فيه ، قصيدة ، من « المنظومة الشكرية »[1] ، يقول فيها تحت عنوان :

« مختصر قصيدة في العدل »

بالعدل يأمر ربنا في آيته   وكذاك بالإحسان وفق شريعته

(١) لصاحب السعادة السيد باشا شكري « رحمه الله » .

العدل وصف الله جل جلاله والمتقون من العباد أحبته
والعدل إنصاف الفتى في صنعه مع ربه والناس أو شخصيته
قد أحسن المولى إلى كل الورى فمن العدالة شكره بعبادته
فاعبده لا تشرك به شيئاً ولا تك غافلاً عن أمره أو طاعته
من قابل الإحسان بالإحسان قد وفّى العدالة حقّها بتَتِمَّتِه
ونهاية الإحسان إحسان إلى مَن قد أساءك فعله بأذيته
واقض الحقوق لأهلها طبقاً لما أمر الإله بشرعه وعدالته
فابدأ بذي القربى وكن متيقظاً لشئون ما ترعى كواجب شرعته
إذ كلنا راع ومسئول لدى مولاه حقّا عن شئون رعيته
معنى حديث المصطفى فافطن له إن كنت تبغي رحمة بوسيلته
والله ينهانا عن البغي الذي هو موجب لشقائنا بطبيعته
لنفوز في الدنيا بطيب حياتنا ونفوز في الأُخرى بنعمة جنته
والعدل أُسُّ الملك يا من يبتغي مُلكاً يدوم بعزه لنهايته
وعليه عُمران الممالك والقُرى والظلم يهدمه بمعول فتنته
وإذا العدالة تُهملت في أمة كرهت بقاء مليكها وحكومته
ولربما اضطربت وثارت طفرة واختل حال الأمن رغم حراسته
من وُلّيَ الأحكام فليعدل كما أمر الإله مخافة من نقمته
في قوله سبحانه « أن تحكموا بالعدل » موعظة لنا من حكمته
هل يستوي عدل وظلم أم يُرى نور النهار كظلمة في ليلته ؟
فإذا حكمتم فاحكموا بالعدل إذ ظلم العباد محرم لإساءته
والعدل أيضاً في الشهادة واجب منعاً لظلم واتقاء مضرته
فإذا شهدتم في القضا فتجنبوا زوراً وقولوا الحق خوف إضاعته
حتى على الآباء والأولاد أو أي امرىء لكم انتمى بقرابته
واخشوا عقاب الله دوماً واعدلوا فالعدل خير للجميع بخطته
فالعدل يرفع من غدا متمسكاً بزمامه يحييه بعد إماتته
والظلم يخفض ظالماً مهما يُرى من حاله ويسوؤه في سمعته

إلى أن قال في ختامها :

بالعدل والإحسان أوصى ربنا ونهى عن الظلم الشنيع لحرمته

فالله يرزقنا التوكل دائماً والعدل في كل الأمور بمنته
ثم الصلاة على النبي محمد بالعدل والإحسان جاء لأمته
بالآل والأصحاب من قد شيَّدوا رُكْن السلام بحكمهم وعدالته

●● كما يقول كذلك[1] ، تحت عنوان :

مختصر قصيدة فى الظلم

الظلم حرمه الإلـه بشرعتـه . ونهى العباد عن ارتكاب جريمته
لم يرضَه وصفاً له سبحانه وهو القوى بقهـره وبعزتـه
أسماؤه الحسنى نفت أضدادها وحوت صفات جماله وجلالته
فهو الرءوف بخلقه والعدل في أحكامه وهو العزيز بحكمته
ما كان ربك للعبيد بظالم لكنهم ظلموا بهجر إطاعتـه
فجزاؤهم منه العقاب وإنـه رب غفور للمنيب بتوبتـه
والظلم من شيم النفوس سوى التي عصم الإلـه بفضلـه وبمنّته
كالأنبيا والصالحين أولي النهى والمؤمنين العاملين بشرعتـــه
والظلم منشؤه القساوة والهوى واللهو عن ذكر الإله وخشيته
ظلم الفتى يوم القيامة ظلمة لا يستطيع خروجه من ظلمته
إذ لا نجاة لظالم حين الجزاء من قهر مولانا وشدة بطشته
والظلم والظلمات أعداء لمن يقضي بنور الله بين خليقته
كالنفس والشيطان مَن يتبعهما ضل الهوى حقاً وباء بخيبته
والظلم يوجب فتنة فتجنبوا ظلم العباد تفادياً من ظلمته
إذا ربما عمت مصيبة كما قال الإله لنا بمحكم آيته[1]
يأيها الناس اتقوا الله الذي أنتم إليه سترجعون بقدرتـه[2]
واخشوا عسير حسابه لا تظلموا وتمسكوا بالعدل حسب شريعته
للظالمين النار مثواهـم كمَـا للعادلين خلودهـم في جنتـه
فالله ليس بغافل عن ظلمهم لكن يؤخرهم لوقت عقوبته

---

(١) في المنظومة الشكرية ج ٣ ـــ في كتاب « البيان الفاصل .. » .

(٢) قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ سورة الأنفال .

في عاجل أو آجل كمراده فهو القدير وكلنا في قبضته
والظلم مرتعه وخيم لامرىء في هذه الدنيا ويوم قيامته
يوم عبوس كريه عَمَّ الورى لم ينج منه سوى القليل بطاعته
وإذا الظلوم رأى شدائد كربه عضَّ الأنامل نادماً مع حسرته
والكل مشغول بحالة نفسه في دهشته من هوله وفظاعته
لا والد يجزي ولا مولوده عن بعضهم شيئاً كما في آيته(١)
إلا الذين بربهم قد آمنوا فأصولهم وفروعهم في جنته
فالأصل تنفعه الفروع الأتقيا والفرع يلحق أصله بديانته
فاقرأ كتاب الله واعلم ما به وافطن لقول المصطفى ولحكمته
يملى الله(٢) لظالم ويمده لزيادة في إثمه وغوايته
حتى إذا حل العقاب فأخذه أخذ أليم زائد في شدته
لا يهمل المولى عقوبة ظالم لكنه يُمهل لوقت عقوبته

ثم يواصل بعد ذلك، حديثه عن الظلم، فيقول — في قصيدة أخرى تحذيراً للظالم :

يا ظالماً للناس عمداً فارتَقِبْ نقم الإله لظالم في أمته
لا تحسبن الله عنك بغافل مهلاً سيأتيك الحساب بِدِقَّتِه
هو عالم بالمعتدين وإنما أجل مسمى عنده لعقوبته
يملى لك المولى إلى يوم الجزا يوم عبوس للعصاة بظلمته
فارجع لربك نادماً ومؤدياً حق العباد كما أمرتَ بشرعته
عدم الوفاء بحق ربك والورى ظلم فأوف الحق قبل إضاعته
وبذاك تنجو من أليم عقابه وتفوز بالحسنى وخير عطيته
من يتقي غضب الإله فقد نجا ياصَاح تب ثم استقم في خدمته
فلعله يرضى ويغفر ما مضى فهو الغفور لصادق في توبته

---

(١) هي قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ .

(٢) إنه يشير إلى حديث الرسول ﷺ : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

●● وإذا كان موضوع الوصية التي ندور حولها ، هو نصر الظالم والمظلوم ، فقد قال كذلك صاحب المنظومة الشكرية(١) في الجزء الثالث : كلاماًعظيماً في قصيدة موضوعها : « النهي عن إعانة الظالم ، وكيف يكون نصر المظلوم » وهو :

لا تركنوا للظالمين تمسكم ... نار اللظى معهم بحكم عدالته
وتعاونوا دوماً على نصح الذي ... هو ظالم مهما يكن من سلطته
منعاً لظلم قد يجر بشره ... سوء العواقب فاحذروا من آفته
من ينصر المظلوم في الدنيا يَرى ... نصر الإله بها ويوم قيامته
لا خير في قوم أضاعوا بينهم ... حقّا لمظلوم ولو لعداوته
ودعاء مظلوم مجاب لا مرا ... ءَ ، مهما يكن من حاله وعقيدته
والظالمون عقابهم إن لم يكن ... حالاً يكن يوم الجزاء وكربته
من عاون الظَّلَّام كان منافقاً ... وأشد ظلماً منهمو في أمته
لا ترج خيراً من معاون ظالمٍ ... فهو لمضيع للحقوق بخطته
أين المروءة والأمانة في امرءٍ ... دوماً يُرى متلوناً في هيئته
وتراه خَدَّاعاً يميل مع الهوى ... حسب الظروف بطبعه وغوايته
ويقول أيضاً غير ما هو فاعل ... مُتبجِّحاً من خبثه ولآمته
حلو اللسان وصدره لك علقم ... ويروغ منك كثعلب في روغته
يسعى لخذل الحق ناصر باطل ... بئس النصير لباطل بخيانته
خان الأمانة والعُهود ولم يخف ... غضب الإله وطرده من رحمته
إن الخيانة والنفاق كلاهما ... وصف لمن هو مارق من ملته
أيظن أن الحق يُطفأ نوره ؟ ... كلا ويدفع باطلاً مع ظلمته
من لم يكن حُرَّ الضمير فلا يرى ... متمسكاً بالصدق بين عشيرته
وبهذه الأوصاف يبلى خائن ... للعهد والميثاق بل وأمانته
يأيها الرجل المعين لظالم ... أبشر بخزي عاجل ومهانته
فضلاً عن النار التي تكوى بها ... مع مَن أعنتَ لدى الجزاء وكربته
نصر الظلوم بنهيه عن ظلمه ... لا بالركون له ولا بإعانته(٢)

---

(١) وهو صاحب السعادة السيد شكري باشا .

(٢) يشير بهذا الحديث الذي ندور حوله : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » .

يا صاحب الحق اصطبر ثم ارتقب   نصراً من المولى كوعد جلالته
هو ناصر المظلوم خاذل ظالم   فعليه كن متوكّلاً مع طاعته
هو قائم بالقسط بين عباده   هو ربنا كل الأمور بقبضته
فيرد حقك كاملاً ولربما   أعطاك خيراً زائداً من مِنَّتِه
فاصبر كصبر المهتدين أولي النهى   فالأجر مضمون كما في آيته

فكن أخا الإسلام ، منتفعاً بهذا الشعر الموضوعي الذي أرجو أن يكون زاداً لك ــ في هذا الموضوع ــ بالإضافة إلى ما وقفت عليه في هذا[1] حتى لا تكون ظالماً أو مظلوماً ، وحتى تكون كذلك ناصراً للظالم أو المظلوم :

وقد قرأت في شرح المعنى المراد من « نصر الظالم والمظلوم » كلاماً واضحاً ، « في الأدب النبوي » ، جاء فيه :

لقد أمرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث : ــ « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ــ بنصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، فالمظلوم في حقه أو ماله نمنع عنه الظلم ، ونرفع عنه الحيف بكل ما نستطيع من الوسائل ، فإن كان الكلام مُجدياً في ارعواء الظالم عن ظلمه آثرناه ، وإن كان القضاء هو السبيل لاسترداد الحق المسلوب ساعدناه بالمال رسماً للقضايا ، وأجراً للمحامين ، ومكافأة للخبراء ، وإن كان لا يرتدع عن بغيه إلا بشكايته على صفحات الجرائد ــ مثلاً ، أرهفنا له القلم ، وسودنا له الصحائف .

وإن كان غَشُوماً لا تردعه إلا القوة سلكنا سبيلها ، والمضطر يركب الصعاب ، والقصد أن تكون يدنا إلى يد المظلوم حتى يأخذ حقه ، ويبرد غضبه ، وتطمئن نفسه .

أما نصر الظالم ، فربما خِلته مساعدته على ظلمه ، أو مجاراته في عدوانه ، كما كان العرب يصنعون في عهد الجاهلية ، كما يقول أحدهم :

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم   على القوم لم أنصر أخي حين يظلم

وكما يصنع أولو العصبية والجهالة ، والمتهالكون في الحزبية ، ينصرون

---

(١) في الوصية « الواحدة والستين » .

شيعتهم بالحق وبالباطل ، وليس نصراً لظالم كذلك ، بل تمنعه من الظلم ، فإن أراد استلاب مال أخذت بيديه ، وإن أراد اغتصاب حق حلْتَ بينه وبينه ، وإن أراد البطش ببريء ضربتَ على يده إن كانت يدك أقوى منه .

وتراعى الحكمة في المنع لئلا ينقلب ظالماً لك ، وقد يكون شديد النكاية وأنت ضعيف الرماية ، فإن كانت النصيحة رادعة سلكتَ سبيلها ، فإن لم تكُ مجديةً فاستعن عليه بمن هو أعلى منه ممن يخشى بأسه ، أو يرهب سلطانه ، أو يرجو مصلحة عنده ، فإن لم يكن في ذلك رادع ، فاستعمل معه القوة ما قدرت عليه ، حتى يعود إلى حظيرة الحق ، ويستقيم على النهج .

وإنما سَمَّى الرسول ﷺ : ذلك نصراً وإعانة مع أنه معاكسة وعداوةً ، لأن ظلمه إضرار بنفسه في حياته الحاضرة ، يعرضها للعقوبات القضائية ، ويشين سمعتها بين البرية ، ويدنسها بالعيش من الحرام واستمراء الحقوق ، ويعرضها لعقوبة الله في الحياة الآخرة ، بل في الحياة الدنيا .

قال تعالى :

● ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾[1] .

فمن أراد قتل نفس عدواناً وظلماً إذا أرخيت له العنان حتى ارتكب هذا الجرم الكبير عَرَّض نفسه للقصاص ، واستلاب الحياة ، فأعقب ذكرى سيئة ، وتاريخاً أسود ، وَرَمَّل زوجه ، ويتَّم ولده ، وأساء إلى أسرته ، وكان مثلاً سيئاً في الباقين .

فإذا منعته من جرمه ، وضربتَ بسيفك على يده ، حفظت له الحياة ، وأبقيت على ذكراه ، وأنجيتَ أهله وولده ، وحفظت الشرفَ على أسرته ، فكان ذلك نصراً مؤزَّراً ، بل كنت له الصديق في ثوب العدو ، والحريص على خيره في لباس الراغب في شره .

فيا أيها المسلم لاتجعل للظلم بين المسلمين وجوداً، ولاتكن فيهم ظالماً

---

(١) السجدة : الآية ٢١ .

أو مظلوماً ، بل اعمل على تمتع كل امرىء بحقوقه وطمأنينته على شئونه ، وآثر الحق والخير ، وإن أغضبت الجهول به ، فإنه لك بعد نعم الشكور .

● « .. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .. »(١) .

وفي النهاية ، إليك أخا الإسلام ، بعض الصور الموضوعية ، التي أرجو كذلك أن تنتفع بها ، كما أرجو كذلك أن تعظ بها غيرك من الظالمين والمظلومين .. بل من الذين حماهم الله تعالى من الظلم والظالمين .. حتى يشكروا الله تعالى على ما هم فيه من الأمن والأمان ، شكراً إيجابيًّا ، وذلك باجتنابهم لظلم أي إنسان أو حيوان :

● فقد جاء في « العقد الفريد للملك السعيد » ، فيما نقل من الآثار الإسرائيلية في زمن موسى عليه السلام : أن رجلاً من ضعفاء بني إسرائيل كانت له عائلة ، وكان صياداً يصطاد السمك ، وتعيش منه أطفاله وزوجته .

فخرج يوماً للصيد ، فوقع في شبكته سمكة كبيرة ، ففرح بها وأخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله ، فلقيه أحد العوانية فرأى السمكة معه فأخذها منه ، فمنعه الصياد ، فرفع خشبة كانت في يده فضرب بها على رأس الصياد ضربة موجعة ، وأخذ السمكة منه غصباً بلا ثمن . فدعا الصياد عليه فقال : إلهي خلقتني ضعيفاً ، وخلقته قويًّا عنيفاً ، فخذ لي حقي منه عاجلاً فقد ظلمني ، ولا صبر لي إلى الآخرة .

ثم انطلق الغاصب بالسمكة إلى زوجته وأمرها أن تشويها ، فلما شوتها ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها فتحت السمكة فاها ، ونكزت أصبعه نكزة أطارت بها قراره ، فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حَلَّ به ، فرآها فقال :

دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسري إلى بقية الكف ، فقطع أصبعه ، فانتقل الوجع الشديد إلى اليد وزاد الألم ، وارتعدت من خوفه فرائصه ، فقال له الطبيب : ينبغي أن تقطع اليد من المعصم لئلا يسري إلى الساعد ، فقطعها ،

---

(١) من حديث صحيح رواه مسلم .

فانتقل الألم إلى الساعد ، فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى الذي يليه . فخرج هائماً على وجهه مستغيثاً إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به ، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم فنام تحتها ، فرأى في منامه قائلاً يقول له :

يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك ؟ إمض إلى خصمك الذي ظلمته وأرضِه ، فانتبه من النوم ، وفكر في أمره فقال : ضربتُ الصياد وأخذت السمكة منه غصباً وظلماً ، وهي التي نكزت يدي فصاحبها خصمي .

فدخل المدينة وسأل عنه فوجده فوقع بين يديه ، والتمس منه الإقالة مما جناه ، ودفع إليه شيئاً من ماله ، وتاب من فعله ، فرضي عنه خصمه الصياد ، فسكن في الحال ألمه ، وبات على فراشه تلك الليلة ، وأقلع عن خطيئته ، ونام على توبة خالصة .

ففي اليوم الثاني تداركه الله بلطفه ورحمته ، فرد يده كما كانت ، ونزل الوحي على موسى عليه السلام :

يا موسى وعزتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته .

● وحكى أن بعض الملوك أغار على قرية فنهبها ، وأخذ أموال أهلها ومواشيهم ودوابهم ، وفتك فيهم بالقتل وغيره ، فخرجت عجوز من بعض الدور ، فنظرت إليه وقالت :

يا ويلك من ديان يوم الدين إذا انشقت السماء وبرز الرب لفصل القضاء ! .

فقال لها : يا عجوز أما سمعتِ في القرآن : ﴿ .. **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة** .. ﴾[1] . ؟ .

فقالت له : يا هذا أنسيتَ الآية الأخرى التي بعدها في السورة : ﴿ **فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا** .. ﴾[2] .

---

(١) النمل : الآية ٣٤ .

(٢) النمل : ٥٢ .

فقال الملك : ردوا عليهم جميع أموالهم فردوها ، ثم قال : يا عجوز كيف الخلاص ؟ قالت : لا تقنط ، ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾ .

● وكان لكسرى مؤدب نال على يديه التقدم والرقي ، فضرب كسرى ذات يوم في غير ذنب ليذوق ألم الظلم فلا يظلم وهو ملك ، فتألم كسرى وبحث عن ذنبٍ فعله فلم يجد .

فلما تولى المُلك أمر بإحضار مؤدبه فجاء ، فقال له كسرى : في يوم كذا ضربتني ولا ذنب لي . فقال : أيها الملك العادل : رأيت أنك ستكون ملكاً ذا قول نافذ ، وحكم مسموع فأردت أن أذيقك ألم الظلم وأنت صغير حتى لا تلجأ إليه وأنت كبير ، فتعيش آمناً مطمئنًّا ، فشكر له عمله ، ورفع منزلته .

● وَحُكِيَ أن امرأة من بني إسرائيل كان لها دار بجوار الملك وقصره ، وكانت تشين القصر ، وكلما رام الملك منها أن تبيع الدار أبت أن تبيع الدار له ، فخرجت المرأة في سفر فأمر الملك بهدم دارها، فلما جاءت المرأة من السفر قالت : من هدم داري ؟ قيل لها : الملك . فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : إلهي وسيدي ومولاي ، غبتُ أنا وأنت حاضر ، للضعيف معين ، وللمظلوم ناصر .

ثم جلست فخرج الملك في موكبه ، فلما نظر إليها قال لها : ما تنتظرين ؟

قالت : أنتظر خراب قصرك ، فهزأ بقولها وضحك منها .

فلما جنَّ عليه الليل خُسِف به وبقصره ، ووجد على بعض حيطان القصر هذه الأبيات :

أتهزأ بالدعـــاء وتزدريـــــه ... وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطى ولكن ... لها أمـد وللأمـد انـــقضاء
وقـد شاء الإلـه بما تراه ... فمـا للمـلك عنـدكم بقـــاء

فتذكر كل هذا أخا الإسلام ، و :

لا تكن ظالماً ولا ترض بالظلم وأنكره بكل ما يستطاع
يوم يأتي الحساب وما لظلوم « من حميم ولا شفيع يطاع »

وتذكر كذلك قول القائل :

ياظالماً كُفَّ المظالم قد كفى ولتتق المظلوم في دعواته
ضجت ملائكة السماء لربها لأنين مظلوم وطول شكاته

* * *

فليصبر المظلوم عما ناله فالله ينصره برغم ظلومه
والظالمون وإن تناهى أمرهم فالحق مصليهم بنار جحيمه

ولعلك في النهاية وبعد كل هذا ، قد فهمت المراد من وصية الرسول ﷺ ، وهي :

« أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .. » .

ولعلك قد عقدت العزم إن شاء الله تعالى على تنفيذ هذه الوصية الجامعة التي إن نفذناها جميعاً بعون الله تعالى وتوفيقه .. كنا إن شاء الله تعالى من أهل العدل والإحسان .. وكنا كذلك من أهل الرحمة والغفران .

فالله أسأل أن يجعلنا جميعاً أهلاً لهذا الفضل العظيم ... آمين .



الوصية الرابعة والستون

عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإحْسَانَ[1] عَلَى كُلِّ شيءٍ، فإذا قتلتُم فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ[2]، وإذا ذبحتُم فأَحْسِنُوا الذَّبحَ، وليُحِدَّ أحدُكُم شَفْرَتَهُ فلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ.

رواه مسلم

(١) الإحسَان : هو إتقان العَمَل وَإجَادته، ومَعنى كتابته أن اللَّه أمَر به أمرًا مؤكدًا في كل مَاتقومون بهِ مِن أعمَال .

(٢) القِتلَة : بكسر فسكون. أي الهَيئة وَالحَالة التي يكون عَليهَا القتل .

● وهذا الذى أوصى به الرسول صَلّى اللّه عَليه وسلم يؤكد أنه صَلّى اللّه عَليه وَسلّم كان رحمة للعالمين. فلننفذ وصيته حتى نكون إن شاء الله أهلاً لرحمة الله. (ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء)

فكن أخا الإسلام :

من الدارسين لكل جوانب وأبعاد هذه الوصية ، أو هذا الحديث الجامع لأهم : ما يجب عليك كمسلم أن تكون محيطاً به .

وذلك حتى تكون بسبب هذا ــ إن شاء الله تعالى ــ من أهل الخير المشار إليه في الحديث الشريف المتفق عليه ، وهو : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »(١) .

ولا سيما إذا كان الفقه ــ هذا ــ أو التفقه هذا متعلقاً بالإحسان على كل شيء أو في كل شيء ، كما قال النبي ﷺ في أول الوصية ــ آمراً به ومؤكداً له ــ بقوله :

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء : » .

وهذا أمر واجب التنفيذ ، لأن كتب معناها : أمر .

وإذا أمر الله تعالى ، فإن أوامره لا بد وأن تنفذ(٢) .. وكذلك إذا أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه ، يبلغ عن الله : ﴿ **وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ..** ﴾(٣) ، وفي القرآن الكريم، يقول تبارك وتعالى : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا ..** ﴾(٤) ويقول : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾(٥) .

وحسب الإنسان الموفق أن يكون بسبب طاعته لله ورسوله من المشار إليهم في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** ﴾(٦) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة وغيرهم .

(٢) لأن فعل الأمر ينصرف إلى الوجوب ، والواجب ما يثاب الإنسان على فعله ويعاقب على تركه .

(٣) سورة النجم الآية ٣ ، ٤ .

(٤) سورة النور : ٥٤ .

(٥) سورة النساء : ٨٠ .

(٦) سورة النساء الآية ٦٩ .

نعم حسبه ، أن يكون بسبب هذا من المتقين الذين سيكون إن شاء الله تعالى معهم في الجنة :

﴿ عند مليك مقتدر ﴾

هذا مع ملاحظة أن الإحسان المقصود في هذه الوصية لن يكون متقناً وبالصورة الشرعية السليمة ، إلا إذا كان على أساس من الإحسان المشار إليه على لسان الرسول ﷺ ، في الحديث الصحيح ، الذي سأله فيه جبريل عليه السلام عن الإحسان ، فقال :

● « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

يقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى ، ــ في كتابه النفيس زبد خلاصة التصوف ــ مشيراً إلى أهمية الإحسان ، بالنسبة للإسلام والإيمان ، أو كركن أساسي فيهما :

الإسلام قيام البدن بوظائف الأحكام ، والإيمان هو قيام القلب بوظائف الاستسلام ، والإحسان قيام الروح بمشاهدة الملك العلام ، ألا تراه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يقول : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » ، فتكون قائماً بوظائف العبودية مع شهودك إياه . « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فتكون قائماً بوظائف العبودية مع شهوده إياك ، فأنت في الأول مراد ، وفي الثاني مريد ، لأنه حين أرادك أشهدك إياه ، وحين أردته كانت الإرادة منك له ، فلذلك حجبك ، فلو كانت الإرادة منه لك لما حجبك ، فإنه لا توصل إليه إلا به . أ . هـ .

وإذا كنت قد قلت في أول كلامي : إنه لا بد أن ندرس كل جوانب وأبعاد هذه الوصية ، فإنني أعني بهذا أن يكون هناك فقه في كل ما يتعلق بها من أحكام تتصل بهذا الموضوع الحيوي الذي أُمِرنا بتنفيذه على أساس شرعي سليم :

وإذا كنت قد أشرت إلى كل هذا ، فإنني أرى أن أقف معك كذلك على :

التعريف بعلم الفقه

التعريف بعلم الفقه الذي خلاصته ، أن : عِلم الفقه(١) ، يُعنى باستنباط

(١) كما جاء في الجزء الأول من « الفقه الواضح » ص ١٥ .

الأحكام الشرعية العملية ، من أدلتها التفصيلية ، فيبين الحلال منها والحرام ، والمفروض والمسنون، والمستحب والمكروه، ويبين الشروط التي يجب توافرها في صحة العبادات والمعاملات ، والأمور التي تؤدي إلى إفسادها ، وغير ذلك . ويكشف من وراء ذلك عن حقيقة الإسلام وسماحته ويسره ، ومرونته ، ويقيم الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان ، وأنه الدين الذي لا تستقر الحياة إلا به ، ولاتستقيم الأمور بدونه مهما حاول المغرضون والملحدون أن يحطوا من شأنه ، ويشككُوا في تعاليمه . فدين الله حق وقوله فصل ، وحكمه عدل ، والحق أحق أن يتبع .

قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾[1] .

فعلم الفقه يرينا كيف يَسمو الإسلام بأتباعه ، بل وبغير أتباعه إن هم طبقوا تعاليمه ، وأفادوا من نظمه وسننه في شتى نواحي الحياة وبالجملة فإن علم الفقه هو علم الحياة .

وإن حاجة الناس إلى علم الفقه كحاجتهم إلى الحياة نفسها .. من هنا ، كان من أوجب الواجبات .أ . هـ .

ولهذا قلت، وأقول: لا بد أن يكون هناك حرص مستمر من جانب كل مسلم ومسلمة على التفقه في الدين .. حتى لا يكون هناك تخبط في ظلمات الجهل .. وفهم خاطيء لأهم أحكام الإسلام وقواعده .

والذي يعنينا الآن ــ بعد هذا التقديم الهام ــ ، هو : أن نعرف المرادمن قول الرسول ﷺ :

● « فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة .. » ، ونحب أولاً أن نطرح سؤالاً :

وهل معنى هذا .. أن النبي ﷺ يأمر بقتل النفس التي حرم الله قتلها ..؟!

كلا والله وألف كلا ، لأن النبي ﷺ لا يأمر بما نهي الله تعالى عنه في

---

(١) المائدة : الآية ٥٠ .

قوله :

● ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومَن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنه كان منصوراً** ﴾[١] .

بل ، نهى النبي ﷺ عما نهى الله تعالى عنه ــ وهو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ــ في كثير من الأحاديث الشريفة التي منها ما ورد :

● عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وللنسائي أيضاً : « أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة[٢] ، وأول ما يُقضَى بين الناس في الدماء »[٣] .

قال في الفتح : « أي أول القضاء يوم القيامة القضاء في الدماء ، أي في الأمر المتعلق بالدماء وفيه عظم أمر القتل لأن الابتداء إنما يقع بالأهم » .

وقال العيني : « أي في القضاء بها لأنها أعظم المظالم فيما يرجع إلى العباد ، ففيه وعيد شديد من حيث يُبتدأ به في الحساب » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : قال : « اجتنبوا السبع الموبقات[٤] : قيل : يا رسول الله : وما هنَّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولّي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي .

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يَزال المؤمن في فُسحةٍ[٥] من دينه[٦] ما لم يُصب دماً حراماً[٧] » .

---

(١) الإسراء : الآية ٣٣ .
(٢) لأنها أعظم حقوق الله بعد التوحيد .
(٣) لأنها أعظم الحقوق بين العباد .
(٤) أي المهلكات .
(٥) أي في سعة .
(٦) أي من أمر دينه .
(٧) ما مصدرية ظرفية ، أي مدة عدم إصابته دماً حراماً أي إقدامه على القتل ..

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : إن من ورَطاتِ[1] الامور التي لا مخرج[2] لمن أوقع نفسه : سف الدم الحرام بغير حِلّة »[3] . رواه البخاري والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما .

● وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « لزَوَال الدنيا[4] أهونُ على الله[5] من قتل مؤمن بغير حق » رواه ابن ماجة بإسناد حسن ، ورواه البيهقي والأصبهاني ، وزاد فيه :

« ولو أن أهلَ سماواته وأهلَ أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله . »

ابن العربي : « ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك صحيف بقتل الآدمي ، فكيف بالمسلم ، فكيف بالتقي الصالح » ، وقال العزيزي في شرح الجامع الصغير : « فهو أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله » وقال الحفني : « فمن قتل مسلماً يُعذب عذاباً أشد ممن أزال الدنيا بأسرها لو فرض ذلك » .

● وعن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ذنب عسى الله أن يغفره[6] إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » رواه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد .

● وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « كلّ ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت مشركاً ، أو يقتل مؤمناً متعمداً » . رواه أبو داوود وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال صحيح الإسناد .

---

(١) جمع ورطة بسكون الراء ، وهي الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه
(٢) أي لا مخلص ولا منجي .
(٣) أي إراقة الدم الحرام بغير حقه .
(٤) أي لخراب الدنيا وفناؤها كلها .
(٥) يعني أيسر وأخف .
(٦) أي يرجى ويتوقع غفرانه من الله .

●● كمَا ورد النهي كذلك عن قتل الإنسان نفسه :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال قال رسول الله ﷺ : « مَن تَرَدَّى(١) من جبلٍ فقتل نفسه فهو في نارِ جهنم يَتَرَدَّى فيها خالداً مخلَّداً فيها أبداً(٢) ، ومن تحَسَّى سُمًّا فقتل نفسه فَسُمُّه في يده يتحسَّاه في نارِ جهنم خالداً مُخلَّداً فيها أبداً(٣) ، ومن قتـل نفسه بحديـدة ، فحديدتـه في يده يتوجَّـأُ(٤) بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » رواه البخاري ومسلم والترمذي بتقديم وتأخير والنسائي .

ولأبي داود : « ومن حَسَا سُمًّا فسُمُّه في يده يتحسَّاه في نار جهنم » .

● وعنه رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الذي يخنق نفسه . يخنقها في النار(٥) ، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار(٦) ، والذي يقتحم يقتحم(٧) في النار » رواه البخاري .

●● وأيضاً ورد الترهيب كذلك من حضور قتل إنسان ظلماً أو ضربه .. دون أن يدافع عنه :

● فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَقِفَنَّ أحدكم موقفاً يُقتَل فيه رجل ظلماً(٨) ، فإن اللعنة(٩) تنزل على كل مَن حضر حين لم يدفعوا عنه(١٠) ، ولا يَقِفَنَّ أحدكم موقفـا يُضربُ فيه رجل

---

(١) يعني ألقى نفسه متعمداً لذلك بدليل قوله « فقتل نفسه » وإلا فمجرد قوله « تردى » لا يدل على التعمد قاله في الفتح .

(٢) يعني أن الله يعذبه في النار بجنس ما قتل به نفسه فلا يزال يتردى من جبل في النار مرة بعد مرة إلى آخر الأبد .

(٣) أي في النار يعطى كأس السم في يده ، وحسا أى شرب شيئاً فشيئاً .

(٤) أي يضرب بها نفسه .

(٥) أي يضغط على عنقه بحبل ونحوه مما يمنع دخول النفس وخروجه حتى يموت .

(٦) أي يكون ذلك الذي قتل نفسه به هو عذابه الدائم في النار .

(٧) أي يلقي بنفسه من مكان مرتفع .

(٨) أي بغير حق .

(٩) أي سخط الله ونقمته .

(١٠) يعني شهدوا قتله ظلماً ولم ينصروه ولم يخلصوه من القتل .

ظلماً ، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه » رواه الطبراني والبيهقي بإسناد حسن .

والسؤال الذي نريد أن نقف على إجابته الآن بعد أن وقفنا على تساؤلنا الهام الذي كان لا بد أن نقف على إجابته هو : ما هو الحق الذي لا تُقتل النفس التي حرم الله قتلها ، إلا به ؟ ولكي نقف على إجابة هذا السؤال الذي لا يقل أهمية عن التساؤل الأول :

أرى أن أوجز ما كتبه ـــ فضيلة الشيخ محمود شلتوت ـــ رحمه الله تعالى ، في كتابه : « الإسلام عقيدة وشريعة » تحت عنوان : « آيات القصاص في النفس » ، فيقول ما مضمونه :

● أنه إذا أمر الحاكم إنساناً بقتل آخر فقتله ، والأصل في هذه الجهة ، أن طاعة ولي الأمر واجبة شرعاً ، فيما ليس بمعصية ، وأن الشأن في ولي الأمر ، أنه لا يأمر إلا بما هو حق ، وهو يملك بحكم الشرع ، القتل للإفساد في الأرض ، وللزنى، ولاستيفاء القصاص للناس .

وعلى هذه المبادىء يكون الذي أمره الحاكم بقتل غيره ، فقتله منفذاً الواجب الشرعي عليه ، ويكون قاتلاً بحق ، ولكن إذا علِم المأمور أن مَن أُمِر بقتله لا يستحق القتل ، وأقدم مع ذلك على قتله ، تنفيذاً للأمر ، فإنه لا يكون قاتلاً بحق ، ويكون عليه القصاص ، لأنه غير معذور في فعله ، وقد صح أن النبي ﷺ قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وأنه قال : « من أمركم من الولاة بغير طاعة الله ، فلا تطيعوه » .

ووجوب القصاص على المأمور في تلك الحالة ، إنما يكون إذا كان في قدرته أن يتخلى عن الأمر ، أما إذا أكرهه السلطان عليه بالقتل ، فهي مسألة : « القتل بالإكراه » وفيها خلاف الفقهاء » .

ثم يقول : وأما جهة استيفاء الحق : فينبغي أن نعلم أن الحق فيها قسمان :

الأول : حق لولي الدم ـــ وذلك كما في القتل قصاصاً ـــ وقد جاءت فيه نصوص القرآن الكريم ، وهي نصوص الموضوع الذي نعالجه ، ولكن هل تختص الإباحة الناشئة عن هذا الحق بولي المجني عليه ، فتكون الإباحة له فقط

دون غيره ؟ .

وقد عرض الفقهاء لهذه المسالة ، وفيها يقول ابن قدامة الحنبلي : « وإذا قتل القاتل غير ولي الدم ، فعلى قاتله القصاص ، ولورثة الأول الدية ، وبهذا قال الشافعي ، وقال الحسن ومالك : يقتل قاتله ، ويبطل دم الأول لأنه فات محله . وروي عن قتادة وأبي هاشم ، أنه لا قود على الثاني ، لأنه مباح الدم . فلا يجب قصاص بقتله . وحجة الجمهور في وجوب القصاص على القاتل ، أنه محل لم يتحتم قتله ، ولا يبح قتله لغير ولي الدم . فوجب بقتله القصاص(١) .

وجاء في كتب الحنفية : « ولو قتل القاتِلَ أجنبيٌّ ، وجب القصاص عليه في القتل عمداً ، لأن دمه محقون بالنسبة إليه ، وإباحته لم تكن إلا بالنسبة لمن قتله هو ، ويسقط حق المقتول الأول في الدية ، كما سقط في القصاص لأن المال لا يجب إلا بالتراضي ولم يوجد . وهذا أعم من أن يكون القتل قبل الحكم بالجناية أو بعده ، لأن احتمال عفو الأولياء قائم ، ما دام الحكم لم ينفذ »(٢) .

وقول الحنفية : « إن احتمال عفو الأولياء قائم ، ما دام الحكم لم ينفذ » ، هو معنى قول ابن قدامة في حجة الجمهور « إنه كل لم يتحتم قتله » .

ومن هنا يتبين أن حق القصاص مبيح لدم الجاني عند جمهور الفقهاء ، إباحة خاصة بولي المجني عليه ، وليست إباحة مطلقة إلا في نظر قتادة ، وأبي هاشم .

وأما الثاني من قسمى الحق في وجهة الاستيفاء ــ فهو ما يكون للإمام . وهو في صور : منها ــ وقد جاء في القرآن ــ قتل المحارب المفسد في الأرض ، قال تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا ..** ﴾ ، ومنها ــ وقد جاء في السنة ــ قتل الزاني المحصن ، وقتل التارك لدينه ، المفارق للجماعة .

ففي الحديث الشريف يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث :

---

(١) أنظر الجزء التاسع من كتاب « المغني » .

(٢) أنظر باب ما يوجب القود في الجزء الخامس من شرح الدر وحاشية ابن عابدين

الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه » .

وقال ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » وعد منها : « قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق » .

ويذكر بعض الفقهاء في هذا القسم ، تارك الصلاة ، ومانع الزكاة ، ومرتكب الفاحشة مع الرجال ، أو البهائم ، كما يذكرون الساحر الذي يفرق بين المرء وزوجه ، وربما زاد بعضهم على ذلك .

ويذكر الفقهاء هنا بالنسبة للزاني المحصن ما إذا قتله غير الإمام ، ويقولون فيه : وليس على قاتل الزاني المحصن قصاص ، ولا دية ، ولا كفارة ، وحكى بعض الشافعية وجهاً ، أن على قاتله القود . لأن قتله إلى الأمام ، فيجب القود على من قتله ، وهو في ذلك كمن عليه القصاص ، إذا قتله غير مستحقه ، وحجة الجمهور أنه مباح الدم ، قتله محتم ، والعفو فيه غير مشروع فلا يضمن وصار في ذلك كالحربي الذي لا عصمة لدمه .

ثم يقول ـــ مشيراً إلى ملاحظة هامة ـــ ولعلك تذكر أن الشرع جعل لولي الدم حق القصاص ، ولم يمنحه لغيره ، وجعل كذلك لولي الأمر حق الحد ولم يمنحه لغيره ، فالتفرقة بينهما غير ظاهرة ، وقياس الزاني المحصن على الحربي ، قياس مع الفارق العظيم فلا يلحق به .

وأما الجهة الثالثة وهي جهة الدفاع عن الحق ، فينبغي أن تعلم أن الحق ، إما نفس ، أو عرض ، أو مال . وقد وردت السنة بإباحة القتل دفاعاً عن هذا الحق بأنواعه الثلاثة . وعُنِي الفقهاء فيها بالتفصيل والتفريع . شأنهم في كل ما يعرضون لبحثه .

وقد قال صاحب الكنز وشارحه في الدفاع عن النفس : « ومن شهر على المسلمين سيفاً وجب قتله : لقوله ﷺ : « ومن شهر على المسلمين سيفاً فقد أطلَّ دمه » . ولأن دفع الضرر واجب فوجب عليهم قتله إذا لم يمكن دفعه إلا به . وكذا إذا شهر على رجل سلاحاً ، فقتله أو قتله غيره ، دفعاً عنه ، فلا يجب بقتله شيء . ولا يختلف أن يكون بالليل أو بالنهار ، في المصر أو خارج المصر ، لأن السلاح لا يلبث . وإن شهر عليه عصاً فكذلك إن كان

ليلاً ، أو نهاراً خارج المصر ، لأنه لا يلحقه الغوث بالليل ، ولا في خارج المصر ، فكان له دفعه بالقتل »[1] .

وظاهر أن الحديث الذي جعلوه أصلاً في ثبوت حق الدفاع عن النفس ، وهو قوله ﷺ : « من شهر على المسلمين سيفاً فقد أطلَّ دمه » ، وأباحوا به دم المهاجم ، إنما ينطبق بلفظه ، وحرفه ، على الخروج على جماعة المسلمين ، فهو بإثبات حق دفاع البغاة أشبه .

ويظهر أن عموم كلمة « مَن » في الحديث ، وشمولها الفرد والجماعة ، هى منشأ الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت حق الدفاع عن النفس مُطلقاً ، على أن المسألة في تعليلها الفقهي ، وروحها التشريعي صحيحة معقولة ، تتفق ومباديء الشريعة العامة بالنسبة للضروريات التي منها حفظ النفس .

وقال صاحب الكنز وشارحه أيضاً في الدفاع عن المال : « ومن دخل عليه غيره ليلاً ، فأخرج السرقة ، فأتبعه ، فقتله ، فلا شيء عليه ، لقوله ﷺ : « قاتل دون مالك » ، ولأن له أن يمنعه بالقتل ابتداء ، فكذا له أن يسترده به انتهاء ، إذا لم يقدر على أخذه منه إلا به . ولو علم أنه لو صاح عليه ، يطرح ماله ، فقتله مع ذلك ، يجب القصاص عليه ، لأنه قتله بغير حق » . ثم قال : « وهو بمنزلة المغصوب منه إذا قتل الغاصب حيث يجب عليه القصاص ، لأنه يقدر على دفعه بالإستعانة بالمسلمين والقاضي ، فلا تسقط عصمته ، بخلاف السارق ، والذي لا يندفع بالصياح » ...

ثم يقول بعد ذلك : أما حق الدفاع عن العرض ، فقد قررهُ الفقهاء بالنسبة للمرأة يكرهها الرجل على نفسها . وبالنسبة لمن رأى رجلاً مع امرأته ، أو محرمه ، وبالنسبة لمن رأى رجُلاً مع امرأة أجنبية منه . وقيدوه في الجميع بما إذا لم يوجد للدفاع عن العرض سبيل دون القتل ، كما قرروا به قتلهما معاً إذا كانت المرأة مطاوعة للرجل .

وقد روي في هذا المقام ــ بالنسبة للرجل يجد أجنبيًّا في حالة تلبس كامل

---

(١) أنظر الجزء السادس من تبيين الحقائق الزيلعي ، وغيره من كتب الحنفية ، في باب ما يوجب القود ، وما لا يوجبه .

مع امرأته ـــ عن عمر رضي الله عنه : أنه كان يوماً يتغذى إذ جاءه رجل يعدو ، وفي يده سيف ملطخ بالدم ، ووراءه قوم يعدون خلفه ، فجاء حتى جلس مع عمر ، فجاء الآخرون ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا قتل صاحبنا ، فقال له عمر : ما يقولون ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني ضربت فخذي امرأتي ، فإن كان بينهما أحد فقد قتلته ، فقال عمر : ما يقول ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين، إنه ضرب بالسيف ، فوقع في وسط الرجل وفخذ المرأة ، فأخذ عمر سيفه فهزه ثم دفعه إليه ، وقال : إن عادوا فعُد .

وروي عن ابن الزبير ، أنه كان يوماً قد تخلف عن الجيش ، ومعه جارية له ، فأتاه رجلان ، فقالا : أعطنا شيئاً ، فألقى إليهما طعاماً كان معه ، فقالا : خل عن الجارية ، فضربهما بسيفه ، فقطعهما بضربة واحدة .

●● وأما عن القصاص ، فقد قال الله تعالى مشيراً إليه :

● ﴿ يأيها الذين آمنوا ، كُتب عليكم القصاصُ في القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * ولكم في القصاص حياة يأولي الألباب لعلكم تتقون ﴾[1] .

وقد قال الشيخ شلتوت ـــ رحمه الله ـــ ، حول : معنى القصاص في القتلى .. ، ما مضمونه :

أما معنى القصاص الذي كتبه الله على جماعة المؤمنين في شأن (القتلى) ، فهو قتل من قَتَل على وجه لا إسراف فيه كما صرحت الآية (المكية)[2] ، وهو يتفق تماماً مع ما كتبه الله في التوراة من أن (النفس بالنفس) ، وهو حق يثبت في قتل كل نفس ، قتلت عمداً وظلماً بغير حق .

وعليه : يقتل الحر بالعبد ، والعبد بالحر ، والذكر بالأنثى ، والأنثى

---

(١) سورة البقرة : ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) يقصد بالآية ٣٣ من سورة الإسراء : وهي التي يقول الله تعالى فيها : **﴿ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل .. ﴾** .

بالذكر ، والذمي بالذمي ، والولد بالوالد ، والوالد بالولد ، فالكل نفس محرمة ، ولوليها بنص القرآن حق القصاص .

وحول قوله تعالى : ﴿ **الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى** ﴾ يقول بعد ذلك :

نعم خصصت الآية التي معنا بعض الجزئيات بالذِّكر ، فقالت : ﴿ **الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى** ﴾ ، تأكيداً لإبطال ما كانوا عليه في الجاهلية من عدم الإكتفاء بقتل القاتل خاصة ، وليس هذا التخصيص بياناً ، لمعنى (القصاص في القتلى) فإنه واضح لا يحتاج إلى بيان ، كما أنه ليس لاتخاذ هذه الأوصاف أساساً لوجوب القصاص .

قال البيضاوي ، وهو ممن يعتبرون المفهوم في النصوص : « كان في الجاهلية بين حَيَّين من أحياء العرب دماء ، وكان لأحدهما طول على الآخر ، فأقسموا : لتقتلن الحر منكم بالعبد ، والذكر بالأنثى . فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى الرسول ﷺ ، فنزلت آية القصاص ، وأمرهم أن يتبارؤوا ، ولا تدل على ألا يقتل الحر بالعبد ، والذكر بالأنثى ، كما لا تدل على عكسه ، فإن المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر غرض ، سوى اختصاص الحكم » .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية ، هو : طلب مراعاة التساوي بين القاتل والمقتول ، وجعلوا قوله تعالى : ﴿ **الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى** ﴾ بياناً لأساس التساوي ، الذي طلبت مراعاته .

ثم اختلفوا فيما يتحقق به التساوي وما لا يتحقق ، ونشأ عن ذلك اختلافهم في قتل الحر بالعبد ، والذكر بالأنثى ، والوالد بالولد ، والجماعة بالواحد ، والمسلم بالذمي .

اختلفوا في هذه الجزئيات ، والحق فيما نرى أن اختلافهم فيه ، منشؤه اعتبارات فقهية ، أو أحاديث اختلفوا في صحتها ، وأنه لا يمت إلى أسلوب الآية بأدنى سبب ... إلخ .

●● والموضوع الذي أريد أن أعود إليه ، بعد هذا التقديم الهام الذي كان لا بد منه : هو الموضوع الأساسي الذي ندور حوله ، وهو : إحسان القِتلة ، والمراد بها ، ألا يعذب من سيقتله — حدًّا أو قصاصاً .. إلخ .. — وذلك بسرعة إمرار السيف على رقبته .. وأن يسارع بالإجهاز عليه حتى مع الأعداء في ميدان الجهاد .

بل ، وحتى بالنسبة للحشرات والهوام المؤذية لنا ، فقد ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل وزغة(١) ، في أول ضربة(٢) ، فله كذا وكذا حسنة ، ومن قتلها في الضربة الثانية فله كذا وكذا دون الحسنة الأولى(٣) ، ومن قتلها في الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة لدون الثانية » رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

وفي رواية لمسلم : « من قتل وزغاً في أول ضربة كُتِبت له مائة حسنةٍ ، وفي الثانية دون ذلك(٤) ، وفي الثالثة دون ذلك » .

وفي أخرى لمسلم وأبي داود قال : في أول ضربة سبعون حسنة .

فمفهوم هذا الحديث أنه كلما كان قتل هذا الوزغ أسرع — في الضربة الأولى — كان الثواب أكثر .. وإذا كان في الضربة الثانية كان الثواب أقل من الثواب الأول .. وكذلك إذا كان في الضربة الثالثة ، كان الثواب أقل من الثواب في الضربة الثانية .. وهكذا ...

وإتماماً للفائدة إليك أخا الإسلام هذه الأحاديث الواردة :

● عن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرةِ أنها دخلت على عائشة رضي الله عنها فرأت في بيتها رُمحاً موضوعاً ، فقالت : « ياأم المؤمنين ما تصنعين بهذا ؟ قالت : أقتل به الأوزاغ ، فإن رسول الله ﷺ أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام لما أُلقِيَ في

---

(١) وهي حشرة مؤذية يقال لها : سام أبرص .
(٢) يعني من أول ضربة .
(٣) يعني أقل منها ، وفي رواية (لدون الأولى) .
(٤) أي أقل من ذلك .

النار لم تكن دابة في الأرض إلا أطفأت النار عنه[1] غير الوزغ ، فإنه كان ينفخ عليه[2] ، فأمر رسول الله ﷺ بقتله »[3] . رواه ابن حبان في صحيحه والنسائي ، بزيادة ، وهي : « ونهى عن قتل الجنان إلا ذا الطفيتين والأبتر فإنهما يطمسان البصر ويسقطان ما في بطون النساء » .

● وعن أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الأوزاغ ، وقال : « كان ينفخ على إبراهيم » . رواه البخاري ، واللفظ له ومسلم ، والنسائي باختصار ذكر النفخ .

● وعن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزَغ وسماه فويسقاً »[4] رواه مسلم وأبو داود .

وإتماماً للفائدة ــ كذلك ــ إليك هذه الروايات :

● عن نافع قال : كان ابن عمر يقتل الحيَّات كُلَّهُنَّ ، حتى حَدَّثنا أبو لُبابةَ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل جِنَّان البيوت ، فأمسك »[5] .

رواه مسلم ، وفي رواية لأبي داود : وقال أبو لُبابة : سمعت رسول الله ﷺ نهى عن قتل الجِنَّانِ التي تكون في البيوتِ إلا الأبتَر ، وذا الطُّفْيَتَيْنِ ، فإنهما اللذان يخطفان البصر ، ويتبعان ما في بطون النساء »[6] .

● وعن أبي السائب أنه دخل على أبي سعيد الخدري رضي الله عن في بيته ، قال : فوجدته يصلي ، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته[7] ، فسمعت تحريكاً في عراجين في ناحية البيت فالتفتُّ ، فإذا حيَّةٌ ، فوثَبْتُ لأقتلها[8] ، فأشار إليَّ أن اجلس فجلستُ ، فلما انصرف أشار إلى بيتٍ في الدار ، فقال : أتَرى هذا البيت ؟ فقلت : نعم ، قال : كان فيه فتىً منَّا

---

(١) يعني تحاول بإلقاء التراب والماء عليها .

(٢) ليزيد من اشتعالها .

(٣) لأنه خبيث وشر ...

(٤) تصغير فاسق ، والمراد أنه مؤذ مفسد .

(٥) أي كف عن قتلهن .

(٦) يعني يسقطان الحمل .

(٧) أي يفرغ منها .

(٨) أي تحركت نحوها ونهضت .

حديثُ عهد بعرس(١) . قال : فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار ، فيرجع إلى أهله ، فاستأذنَه يوماً فقال : خذ عليك سلاحك ، فإني أخشى عليك قُريظةَ ، فأخذ الرجل سلاحه ، ثم رجع فإذا امرأته بين البابين(٢) قائمة ، فأهوى إليها بالرمح(٣) ليطعنها به ، وأصابته غيرة(٤) ، فقالت له : اكفف عليك رمحك ، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني ، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش(٥) ، فأهوى إليها بالرمح ، فانتظمها به(٦) ، ثم خرج : فركزه في الدار(٧) ، فاضطربت عليه ، فما يُدرى أيهما كان أسرع موتاً : الحية أم الفتى ؟ قال : فجئنا رسول الله ﷺ ، وذكرنا ذلك له ، وقلنا : ادع أن يُحيِيَه لنا(٨) ، فقال : « استغفروا لصاحبكم ، ثم قال : إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً ، فآذنوه ثلاثة أيام(٩) ، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه ، فإنما هو شيطان » .

وفي رواية نحوه ، وقال فيه : « إن رسول الله ﷺ ، قال : إن لهذه البيوتِ عوامر(١٠) ، فإذا رأيتم منها شيئاً ، فَحرِّجُوا عليها ثلاثاً(١١) ، فإن ذهبَ ، وإلا فاقتلوه فإنه كافر ، وقال لهم : اذهبوا فادفنوا صاحبكم » . رواه مالك ومسلم وأبو داود .

● وعن أبي ليلى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِل عن جِنَّان البيوت(١٢) ، فقال : « إذا رأيتم منهن شيئاً في مساكنكم فقولوا : أَنشدكم

---

(١) يعني بنى بأهله حديثاً من وقت قريب .
(٢) أي بين مصراعي الباب .
(٣) يعني قصدها بالرمح .
(٤) أي حمية على أهله .
(٥) أي نائمة عليه وقد التف جسمها بعضها على بعض .
(٦) أي أنفذ فيها الرمح .
(٧) أي غرزه في فناء الدار .
(٨) أي يبعثه من موته .
(٩) يعني اطلبوا منه الخروج والإنصراف .
(١٠) أي سكاناً من الجن .
(١١) أي شددوا عليها في الخروج .
(١٢) يعني هل يجوز قتلها أم لا ؟ .

العهد(١) الذي أخذ عليكم نوح ، أنشدكم العهد الذي أخذ عليكم سليمان أن لا تؤذونَا(٢) ، فإن عُدنَ(٣) فاقتلوهنَّ » . رواه أبو داود والترمذي والنسائي ... وهو حديث حسن غريب .

فمن الممكن أخا الإسلام أن تصرف جنّان البيوت بتلك الصيغة الواردة في هذا الحديث .

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يخطب على المنبر يقول : « اقتلوا الحيات ، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر ، فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحَبَل . قال عبد الله : فبينا أنا أطارد حَيَّةً أقتلها ناداني أبو لبابة : لا تقتلها ، قلت : إن رسولَ الله ﷺ أمر بقتل الحيات ، قال : إنه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت ، وهُنَّ العوامر » رواه البخاري ومسلم ، ورواه مالك وأبو داود والترمذي بألفاظ متقاربة .

وفي رواية لمسلم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بقتل الكلاب(٤) ، يقول: «اقتلوا الحيات والكلاب، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر، فإنهما يلتمسان البصر ، ويستسقطان الحبالى » .

قال سالم : قال عبد الله بن عمر : فلبثت لا أترك حية أراها إلا قتلتها ، فبينا أنا أطارد حَيَّة يوماً من ذوات البيوت مَرَّ بي زيد بن الخطاب وأبو لبابة ، وأنا أطاردها ، فقالا : مهلاً يا عبد الله ؟ فقلت : إن رسول الله ﷺ أمر بقتلهن ، قال : إن رسول الله ﷺ نهى عن ذوات البيوت .

وفي رواية لأبي داود ، قال : إن ابن عمر وجد بعد ما حَدَّثه أبو لبابة حية في داره ، فأمر بها ، فأخرجت إلي البقيع(٥) . قال نافع : ثم رأيتُها بعد في بيته(٦) .

---

(١) أي نسألكم ونطلب منكم أن تفوا بالعهد الذي أخذ عليكم .
(٢) أي لا تتعرضوا لنا بأذى ومكروه .
(٣) إي إن رجعن إلى البيت ولم ينصرفن ..
(٤) لعله صلوات الله وسلامه عليه يعني الكلاب الضالة .. والله أعلم .
(٥) وهو مقبرة أهل المدينة .
(٦) يعني أنها عادت إلى الدار ثانية .

و «الطفيتان» بضم الطاء المهملة وإسكان الفاء: هما الخطان الأسودان في ظهر الحية، وأصل الطفية: خوصة المقل، شبه الخطين على ظهر الحية بخوصتي المقل، وقال أبو عمر النمري: يقال إن ذا الطفيتين جنس يكون على ظهره خطان أبيضان.

« والأبتر » هو الأفعى ، وقيل : جنس أبتر كأنه مقطوع الذَّنَب(١) ، وقيل : هو صنف من الحيات أزرق مقطوع الذنب ، إذا نظرت إليه الحامل ألقت(٢) : قاله النضر بن شميل .

«قال الحافظ»: قد ذهب طائفة من أهل العلم إلى قتل الحيات أجمع في الصحاري والبيوت في المدينة، وغير المدينة، ولم يستثنوا في ذلك نوعاً ولا جنساً ولا موضعاً، واحتجوا في ذلك بأحاديث جاءت عامة كحديث ابن مسعود المتقدم، وأبي هريرة، وابن عباس

وقالت طائفة: تقتل الحيات أجمع إلا سواكن البيوت بالمدينة وغيرها فإنهن لا يُقتلن لما جاء في حديث أبي لُبابة وزيد بن الخطاب من النهي عن قتلهن بعد الأمر بقتل جميع الحيات.

وقالت طائفة: تنذر سواكن البيوت في المدينة وغيرها، فإن بَدَيْنَ بعد الإنذار قُتِلنَ، وما وُجد منهن في غير البيوت يُقتَلُ من غير إنذار، وقال مالك: يُقتل ماوُجِد منها في المساجد، واستدل هؤلاء بقوله ﷺ: «إن لهذه البيوتِ عوامرَ، فإذا رأيتم منها شيئاً فحرِّجوا عليها ثلاثاً، فإن ذهب، وإلا فاقتلوه» واختار بعضهم أن يقول لها ماورد في حديث أبي ليلى المتقدم، وقال مالك: يكفيه أن يقول: أحرج عليك بالله واليوم الآخر أن لا تبدو لنا(٣) ولا تؤذينا، وأن يقول لها: أنت في حرج إن عدت إلينا، فلا تلومينا أن نضيق عليك بالطرد والتتبع، وقالت طائفة: لا تنذر إلا حيات المدينة فقط لما جاء في حديث أبي سعيد المتقدم من إسلام طائفة من الجن بالمدينة، وأما حيات غير المدينة في جميع الأرض والبيوت فتقتل من غير إنذار لأنَّا لا نتحقق وجود المسلمين من الجن ثَمَّ(٤)، ولقوله ﷺ: «خمس من الفواسق تقتل في الحِلِّ والحرم، وذكر منهن الحية»، وقالت طائفة: يقتل الأبتر وذو الطفيتين من غير إنذار سواء كُنَّ بالمدينة وغيرها لحديث أبي لبابة سمعتُ رسول الله ﷺ نهى عن قتل الجِنَّان التي تكون في البيوت إلا الأبتر وذا الطَفيتين. ولكل من هذه الأقوال وجه قوي، ودليل ظاهر، والله أعلم.

---

(١) وسمه شديد جداً .

(٢) يعني ألقت حملها .

(٣) أي أن لا تظهر لنا .

(٤) أي هناك في هذه الأماكن الأخرى غير المدينة

وإتماماً للفائدة كذلك أخا الإسلام ، إليك أيضاً هذه الأحاديث الموضوعية التي وردت :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأُحرقت(1) ، فأوحى الله إليه في أن قرصتك نملة(2) ، فأحرقتَ أمةً من الأمم تُسبِّح » .

زاد في رواية : « فهلّا نملة واحدة »(3) . رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

وفي رواية لمسلم وأبي داود ، قال : « نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فأمر بجهازه(4) ، فأُخرِج من تحتها ، ثم أمر فأُحرِقت ، فأوحى الله إليه : هلّا نملة واحدة » .

« قال الحافظ » : قد جاء من غير ما وجه أن هذا النبي هو عزير عليه السلام ، وفي قوله : « فهلا نملة واحدة » ، دليل على أن التحريق كان جائزاً في شريعتهم(5) . وقد جاء في خبر أنه مر بقرية ، أو بمدينة أهلكها الله تعالى ، فقال : يا رب كان فيهم صبيان ودواب ، ومن لم يقترف ذنباً ، ثم إنه نزل تحت شجرة فجرت له هذه القصة التي قدرها الله على يديه تنبيهاً على اعتراضه على بديع قدرة الله وقضائه في خلقه ، فقال : إنما قرصتك نملة واحدة فهلّا قتلت واحدة ، وفي الحديث تنبيه على أن المنكر إذا وقع في بلد لا يؤمن العقاب العام .

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ، «نهى عن قتل أربع من الدواب : النملة ، والنحلة ، والهدهد ، والصُّرد » . رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

« والصُّرد » بضم الصاد المهملة وفتح الراء : طائر معروف ضخم الرأس

---

(1) يعني أنه غضب فأمر إحراق قرية النمل كلها .

(2) يعني من أجل نملة قرصتك .

(3) يعني فهلا اكتفيت بقتل النملة التي قرصتك .

(4) أي متاعه .

(5) ولكنه حرام في شرعتنا لقوله عليه السلام « لا تعذبوا بعذاب الله » .

والمنقار به ريش عظيم نصفه أبيض ، ونصفه أسود .

« قال الخطابي » : أما نهيه عن قتل النمل ، فإنما أراد نوعاً منه خاصًّا ، وهو الكبار ذوات الأرجل الطوال لأنها قليلة الأذى والضرر ، وأما النحلة فلما فيها من المنفعة ، وأما الهدهد والصُّرد ، فإنما نهى عن قتلهما لتحريم لحمهما ، وذلك أن الحيوان إذا نهى عن قتله ، ولم يكن لحرمة ولا لضرر فيه كان ذلك لتحريم لحمه .

● وعن عبد الرحمن بن عِبَان رضي الله عنه أن طبيباً سأل النبي ﷺ عن ضفدع يجعلها في دواء ، فنهاه عن قتلها . رواه أبو داود والنسائي .

فلاحظ أخا الإسلام كل هذا الذي نقلته إليك ــ بتصرف وأمانة من « الترغيب والترهيب » حتى تكون على علم به ، وتكون كذلك على فقه بتلك الجوانب الفقهية المتعلقة بهذا الموضوع الذي ندور حوله .

●● وأما عن المراد من قول الرسول ﷺ بعد ذلك في نص الوصية ، وهو :

● « وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » :

فإنه يتعلق بموضوع من أهم المواضيع الفقهية التي يجب أن نكون على علم بها ، وبأحكامها ، وهو موضوع :

الصيد والذبائح

الذي يشير إليه قول الله تبارك وتعالى في أول سورة المائدة :

● **﴿ يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أُحِلَّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يُتلى عليكم غير محلِّي الصيد وأنتم حُرم ... ﴾ .**

فالصيد ، هو : ما يُصطاد ويؤخذ من الحيوان ، والذبائح جمع ذبيحة وهو المذبوح .

والمراد بيان ما يحل أكله من الحيوان وما لا يحل ، وبيان آلة الصيد

والذبح ، وبيان الضحية وأحكامها .

وهذا المراد ، هو ما يجب علينا أن ندرسه .

وإذا كان المراد أولاً ، هو معرفة :

ما يحل أكله ومالا يحل

فإنني أحب أولاً ، أن نعرف ــ وباختصار ــ أن « بهيمة الأنعام » هي : الإبل والبقر والغنم بأنواعها .. وأن جميع أنواعها يحل أكلها بعد الذبح .

وإذا كان الله تعالى قد قال بعد ذلك في الآية الأولى من سورة المائدة : ﴿ **إلا ما يتلى عليكم** ﴾ ، أي تحريمه في آية : ﴿ **حرمت عليكم الميتة** ... ﴾(١) التي سنعود إليها بعد ذلك إن شاء الله : فإنني أرى أن نقف ــ باديء ذي بدء ــ على بعض الأحاديث الشريفة المشيرة إلى ما يحل أكله ، والتي منها ، ما ورد :

● عن أبي موسى رضي الله عنه ، قال : رأيت النبي ﷺ : « يأكل دَجاَجاً » رواه البخاري والترمذي والنسائي .

والدجاج بالتثليث واحده دجاجة لذكره وأنثاه ، وهو طير معروف يربى في البيوت ويألفها ويسمى ذَكره ديكاً ، ويصيح إذا رأى ملَكاً ... وقد ورد في الحديث: «إذا رأيتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً » .

وكالدجاج : الطير المعروف بالأوز ، والبط ، والديكة الرومية .

● وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما قال : « غزونا مع النبي ﷺ سبع غزواتٍ أو سِتًّا كنا نأكل معه الجراد » .

فأكل الجراد حلال مطلقاً ولو لم تمسه النار ، وعليه الجمهور ، لقوله صلوات الله وسلامه عليه : « أحلت لنا ميتتان الحوت والجراد » . وقال مالك

---

(١) وهي الآية رقم ٣ من سورة المائدة .

وأحمد : إنه حلال إذا شوي أو طبخ أو قطع جزء منه بخلاف ما إذا وُجِدَ ميتاً أو أماته بعصاً ونحوها .

● وعن أنس رضي الله عنه ، قال : « أَنْفَجْنَا أرنباً(١) ونحن بمرِّ الظَّهرانِ(٢) فسعى القوم فتعبوا فأخذتُها فجئت بها إلى أبي طلحة فذبحها فبعثَ بوَرِكَيْها ، أو قال : بفخِذَيْها إلى النبي ﷺ ، فقبِلَها » .

فأنس رضي الله عنه ، يقول : كنا بمر الظهران فهيجنا أرنباً ، فسعى القوم لأخذها فعجزوا، فأخذتها وذهبت بها إلى أبي طلحة ـــ رضي الله عنه ـــ فذبحها وأرسل بوركيها إلى النبي ﷺ ، فقبلها ، أي : للأكل .

وعلى هذا فالعناق ـــ وهو دويبة تشبه الأرنب ـــ والأرنب حلال بعد الذبح بالإجماع .

● وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه ، أنه دخل مع النبي ﷺ بيت ميمونة فأُتِيَ بضبٍّ محنوذٍ ، فأهوى إليه النبي ﷺ ، بيده ، فقال بعض النِّسوة : أخبروا النبي ﷺ بما يريد أن يأكل ، فقالوا : هو ضَبٌّ يا رسول الله ، فرفع يده ، فقلت : أحرام هو يا رسول الله ؟ قال : « لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه » قال خالد : فاجتَرَرْتُه فأكلته والنبي ﷺ ينظر .

قوله : بضب محنوذ ، أي :مشوي(٣) ، وقوله : فأهوى إليه بيده ، أي مدها ليأكل منه ، فقيل : هو ضب يا رسول الله فرفع يده . فسئل عنه ، فقال : ليست بحرام ، ولكنه ليس بأرض قومي التي نشأت فيها وهي مكة وما حولها ، فنفسي لا تميل إليه فجذبه خالد وصار يأكل منه والنبيّ ﷺ ينظر إليه .

والضب : دويبة معروفة والأنثى ضبة ، يعيش نحو سبعمائة سنة ولا يشرب ، ويبول كل أربعين يوماً قطرة .

ولمسلم : « كلوه فإنه حلال ولكنه ليس من طعامي » .

---

(١) أنفجنا أي هيجنا أرنباً .

(٢) الظهران : إسم مكان .

(٣) ومنه قوله تعالى : « فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » .

وعلى هذا ، فالضب حلال بعد الذبح باتفاق السلف والخلف ، إلا ما نقل عن على وأصحاب أبو حنيفة من كراهتهم له .

وعن جابر رضي الله عنه، قال :« نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحُمر الأهلية وأذِن فى لحوم الخيل » روى هذه الأربعة الأصول الخمسة .

فالحمر الأهلية ، أى التى يقتنيها الناس لركوبها والحمل عليها .. أكلها حرام بخلاف الحمر الوحشية فإنها حلال .

وعن أسماء رضى الله عنها ، قالت : « نحرنا فرساً على عهد النبى ﷺ فأكلناه » رواه الشيخان .

ففى هذا الحديث ــ بالإضافة إلى الحديث الذى قبله ــ : تصريح بحل لحوم الخيل .
وعليه جمهور السلف والخلف والشافعى وأحمد ، وقال مالك وأبو حنيفة : بكراهتها ، لقوله تعالى : ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾(١) ففي تلك الآية لم يذكر سبحانه وتعالى الأكل .

وعن أبى قتادة رضى الله عنه ، أنه أصاب حماراً وحشياً وهو حلال فأتى به أصحابه وهم محرمون فأكلوا منه ، فقال بعضهم : لو سألنا النبى ﷺ عنه ، فسألناه ، فقال : « قد أحسنتم هل معكم منه شيء ؟ قلنا : نعم ، قال : فأهدوا لنا ، فأتيناه منه فأكل منه وهو مُحرِم » رواه النسائى والبخارى .

قوله : « فأكلوا منه » ، أى : بعضهم وامتنع آخرون لتلبسهم بالإحرام ، فلما سألوا النبى ﷺ استحسن أكل من أكلوا وطلب منهم شيئاً منه فأكله لأن الذى صاده حلال ، وعلى هذا ، فالحمار الوحشى يحل أكله بعد الذبح باتفاق .

وعن جابر رضى الله عنه ، قال : سألت النبى ﷺ عن الضَّبُع ، فقال : « هو صيد وفيه كبش إذا صاده المحرم » رواه أصحاب السنن ، بسند صحيح ، ولفظ الترمذى ، قيل لجابر : الضبع صيد هى ؟ قال : نعم ، قلت :

---

(١) النحل : الآية ٨ .

آكلها ؟ قال : نعم ، قلت : أقاله النبي ﷺ ؟ قال : نعم .

وعلى هذا ، فالضبع يحل أكله بعد الذبح ، وعليه بعض الصحب والتابعين والشافعي وأحمد .

وقال الشافعي : إن العرب تستطيبه وتمدحه ، ولا يزال يباع ويشترى بين الصفا والمروة من غير نكير .

وقال الجمهور : إنه حرام لأنه سبع وقد نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع .

وأجاب الأولون بأنه خص من ذلك بالنص عليه .

وقوله : « صيد » أي يحل أكله ، والضبع للواحد الذَّكَر ، والأنثى ضبعان ، ومن عجيب أمره أنه يكون سنة ذكراً وسنة أنثى ، فيلقح في حال الذكورة ويلد في حال الأنوثة(١) .

● وعن عمرو بن سفينة رضي الله عنهما عن أبيه ، قال : أكلتُ مع النبي ﷺ « لحمَ حُبَارَى » رواه أبو داود والترمذي بسند غريب ،وكانت العرب تستطيبها .

« والحُبَارى » بالضم والقصر طائر معروف للذكر والأنثى واحدها وجمعها سواء ، وهي سريعة الطيران ، عنقها كبير ولونها رَمَادِي ، ولحمها بين لحم الدجاج ولحم البط .. وأكلها حلال .

● وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « ما من إنسان قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله تعالى عنها ، قيل : يا رسول الله وما حقُّها ؟ قال : يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها يرمي بها » رواه النسائي والشافعي والحاكم .

وعلى هذا ، فأكل العصفور حلال ، وقطع رأسها أو جزء منها حرام لأنه تعذيب .

---

(١) فلاحظ هذا أخا الإسلام وقل معي : سبحان الله العظيم .

● وسئل النبي ﷺ عن السمن والجبن والفراء ، فقال : « الحلال ما أحلَّ الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه » رواه الترمذي وأبو داود والحاكم وصححه .

أما عن السمن والجبن ، فهما فرعان من اللبن الحلال بنص القرآن .

وأما عن الفَرَاء ــ بفتح الفاء والراء ــ وهو حمار الوحش .. فحلال ــ كما تقدم ــ ومنه : « كل الصيد في جوف الفَرَا » .

● وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تَقَذُّراً ، فبعث الله نبيه ﷺ ، وأنزل كتابه وأَحَلَّ حلاله وحَرَّم حرامه ، فما أُحَلَّ فهو حلال ، وما حَرَّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، وتلا : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أُهِلَّ لغير الله به** ﴾[1] رواه الترمذي وأبو داود والحاكم وصححه .

قوله : « تقذراً » أي استقذاراً وكراهة لها . وقوله : « عفو » ــ كشرط ــ أي معفو عنه وحلال .

ولفظ الحاكم : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو معفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، ثم تلا : ﴿ .. **وما كان ربك نَسِيًّا** ﴾[2] .

فكل هذه النصوص تدل على أن الحلال ما أحله الشرع كتاباً أو سنة ، والحرام ما حرمه الشرع كتاباً أو سنة ، والمسكوت عنه حلال أيضاً إلا ما استخبثه العرب أصحاب الطباع السليمة ، فعلى هذا الأصل في الأشياء الحل ، ولا يصح مع هذا خلاف .

ومنه :

حيوان البحر وميتته

ففي القرآن الكريم ، يقول تبارك وتعالى :

---

(١) الأنعام : ١٤٥ .

(٢) مريم : الآية ٦٤ .

● ﴿ أُحِلَّ لكم صيدُ البحر وطعامه مَتاعاً لكم وللسيارة .. ﴾[1] .

فصيد البحر ، أي : هو ما لا يعيش إلا فيه ولو كان على صورة الإنسان أو الكلب ، أما ما يعيش فيه وفي البر كالضفدع والتمساح فحرام أكله ، وكذا أُحِلَّ لكم طعامه وهو ما يقذفه ميِّتاً ما لم ينتن .

وقوله : « وللسيارة » أي المسافرين ، أي : فصيد البحر حلال لكم وللمسافرين .

● وعن جابر رضي الله عنه ، قال : بعثنا النبي ﷺ ثَلَثمائة راكب وأميرُنا أبو عبيدة نرصد عيراً لقريش ، فأصابنا جوع شديد حتى أُكَلْنا الخَبَط ، فَسُمِّيَ جيش الخبط ، وألقى البحر حوتاً يقال له العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر وادَّهَنَّا بوَدَكِه حتى صلحت أجسامنا . قال : فأخذ أبو عبيدةَ ضِلَعاً من أضلاعه فنصبه فمرَّ الراكب تحته ، وكان فينا رجل لما اشتد الجوع نحر ثلاثَ جزائر ، ثم ثلاث جزائر ، ثم نهاه أبو عبيدة »[2] . رواه الخمسة إلا الترمذي .

قوله : « نرصد عيراً لقريش » أي : نتربص تجارتها فنأخذها ، « والخبط » بالتحريك ورق الشجر لأنه يتناثر بالخبط ، وقوله : « وادَّهنا بودكه » ، بفتحتين أي شحمه .

● ولأصحاب السنن : « هو الطهور ماؤه الحِلُّ ميتته » .

فـ « هو » أي البحر الملح ماؤه طاهر مطهر وميتته حلال .

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « أُحِلَّت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان : فالحوت والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطِّحال » رواه ابن ماجه والحاكم وصححه .

فالميتة والدم حرام بنص الآية : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم .. ﴾ إلا ميتة البحر والجراد ، وإلا الكبد والطحال فإنهما دم تجمد ، وحيوان البحر كالجراد : يحل أكله ، ولو لم يذبح ولو لم تمسه نار ، ولكن الأحسن أكله بعد

---

(١) المائدة : الآية ٩٦ .

(٢) أي رحمة به .

تسويته بالنار لسهولة هضمه . ويحرم وضعه فيها قبل موته أو ذبحه لأنه تعذيب ، وإن كان كبيراً فينبغي ذبحه بقطع ذيله . والله أعلم .

●● وأما :

مالا يحل أكله من الحيوان

فهو المشار إليه في قول الله تبارك وتعالى :

● **﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذَكَّيتم وما ذُبِحَ على النُّصُب .. ﴾** سورة المائدة : ٣ .

وفي قوله تبارك وتعالى :

● **﴿ قل لا أجد فيما أوحِيَ إلَيَّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ، أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير ، فإنه رجس أو فسقاً أُهِلَّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم ﴾**(١) .

ففي هاتين الآيتين الكريمتين ، تحدث الله تبارك وتعالى عن الأطعمة المحرمة من الحيوان ـــ تفصيلاً وإجمالاً ـــ .

فهي أربعة بالإجمال ، وعشرة بالتفصيل لأن المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، كلها في معنى الميتة ، فهي تفصيل لها . كما أن ما ذبح على النُّصب في حكم ما أُهِلَّ لغير الله به .. وتوضيحاً لهذا(٢) :

١ ـــ فالميتة : هي ما مات حتف أنفه من الحيوان والطير . أي : ما مات بدون عمل من الإنسان يقصد به تذكيته أو صيده .

٢ ـــ والدم المسفوح ، أي : السائل . سئل ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ عن الطحال ، فقال : كلوه . فقالوا : إنه دم . فقال : إنما حرم

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .

(٢) كما جاء في كتاب « الحلال والحرام في الإسلام » للدكتور يوسف القرضاوي ـــ أكرمه الله .

عليكم الدم المسفوح . والسر في تحريمه أنه مُستقذر يعافه الطبع الإنساني النظيف ، كما أنه مظنة للضرر كالميتة .

٣ ــ ولحم الخنزير : لأن الطباع السليمة تستخبثه ، وترغب عنه ، وذلك لأن أشهى غذائه القاذورات والنجاسات ، وقد أثبت الطب الحديث أن أكله ضار في جميع الأقاليم ولا سيما الحارة . كما ثبت بالتجارب العلمية أن أكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة القاتلة وغيرها من الديدان . ومن يدري لعل العلم يكشف لنا في الغد من أسرار هذا التحريم أكثر مما عرفنا اليوم ، وصدق الله العظيم إذ وصف رسوله بقوله : ﴿ .. **ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ .

ومن الباحثين من يقول : إن المداومة على أكل لحم الخنزير تورث ضعف الغيرة على المحرمات .

٤ ــ وما أُهِلَّ لغير الله به ، أي : ما ذُبِحَ وذُكِرَ عليه اسم غير الله كالأصنام . فقد كان الوثنيون إذا ذبحوا ذكروا على ذبيحتهم أسماء أصنامهم كاللات والعزى ، فهذا تقرب إلى غير الله ، وتعبد بغير اسمه العظيم . فَعِلَّةُ التحريم هنا علة دينية محض ، لحماية التوحيد ، وتطهير العقائد ، ومحاربة الشرك ومظاهر الوثنية في كل مجال من مجالاتها .

٥ ــ والمنخنقة : وهي التي تموت اختناقاً ، بأن يلتف وثاقها على عنقها ، أو تدخل رأسها في مضيق أو نحو ذلك .

٦ ــ والموقوذة : هي التي تضرب بالعصا ونحوها حتى تموت .

٧ ــ والمتردية : هي التي تتردى من مكان عال فتموت ، ومثلها التي تتردى في بئر .

٨ ــ والنطيحة : هي التي تنطحها أخرى فتموت .

٩ ــ وما أكل السبع : أي التي أكل السبع ــ الحيوان المفترس ــ جزءاً منها فماتت .

وقد ذكر الله تعالى بعد ذكر هذه الأنواع الخمسة ، وهي : المنخنقة ،

والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع : قوله تعالى : ﴿ إلا ما ذكيتم ﴾ ، أي : إلا ما أدركتم من هذه الحيوانات وفيه حياة فذكيتموه . أي : أحللتموه بالذبح ونحوه ..

ويكفي في صحة إدراك ما ذكر أن يكون فيه رمق من الحياة ، فعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة .. وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها .

وعن الضحاك : كان أهل الجاهلية يأكلون هذا فحرمه الله في الإسلام إلا ما ذكي منه ، فما أدرك فتحرك منه رجل أو ذنب أو طرف « عين » فذكى فهو حلال(١) .

وحول حكمة تحريم هذه الأنواع ، يقول أيضاً ، في « الحلال والحرام في الإسلام » :

والحكمة في تحريم هذه الأنواع من الميتة ما ذكرنا في تحريم الميت حتف أنفه ما عدا توقع الضرر ، إذ لا يظهر ههنا . وتتأكد الحكمة الأخيرة هنا أيضاً ، فإن الشارع الحكيم يعلم الناس العناية بالحيوان والرأفة به والمحافظة عليه ، فلا ينبغي أن يهمل حتى ينخنق أو يتردى من مكان عال ، أو نترك الحيوانات تتناطح حتى يقتل بعضها بعضاً ، ولا يجوز أن يعذب الحيوان بالضرب حتى يموت موقوذاً ، كما يفعل ذلك بعض قساة الرعاة ــ وبخاصة الأجراء منهم ــ وكما يحرشون بين البهائم فيغرون الثورين أو الكبشين بالتناطح حتى يهلكا أو يوشكا .

ومن هنا نص العلماء على تحريم النطيحة وإن جرحها القرن ، وخرج منها الدم ولو من مذبحها ، لأن المقصود ــ كما يلوح لي ــ هو عقوبة من ترك هذه الحيوانات تتناطح حتى يقتل بعضها بعضاً فحرمت عليه جزاءً وفاقاً .

وأما تحريم ما أكل السبع ففيه ــ أول ما فيه ــ تكريم للإنسان ، وتنزيه له أن يأكل فضلات السباع . وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من

---

(١) وقال بعض الفقهاء : لا بد أن تكون فيها حياة مستقرة وعلامتها انفجار الدم والحركة العنيفة .

الشاة أو البعير أو البقرة فحرم الله ذلك على المسلمين .

وأما عن العاشر من المحرمات ، وهو :

١٠ ــ ما ذبح على النصب : أي ما ذُبح على شيء منصوب من أصنام أو حجارة تقام أمارة للطاغوت وهو ما عبد من دون الله ــ وكانت حول الكعبة وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها أو عندها بقصد التقرب إلى آلهتهم وأوثانهم .

فهذا من جنس ما أُهِلَّ لغير الله به ، لأن في كليهما تعظيماً للطاغوت ، والفرق بينهما أن ما أُهِلَّ لغير الله به قد يكون ذُبِحَ لصنم من الأصنام بعيداً عنه وعن النُّصُب ، وإنما ذُكِرَ عليه اسم الطاغوت . أمَّا ما ذُبِحَ على النُّصُب فلا بد أن يُذبَح على تلك الحجارة أو عندها ، ولا يلزم أن يُتَلَفظ باسم غير الله عليه .

ولما كانت هذه النصب حول الكعبة ، وقد يتوهم متوهم أن في الذبح عليها تعظيماً للبيت الحرام ، أزال القرآن هذا الوهم ونص على تحريمها نصًّا صريحاً وإن كان مفهوماً مما أُهِلَّ لغير الله به .

كما يقول بعد ذلك ، تحت عنوان :

حالة الضرورة مستثناة

كل هذه المحرمات المذكورة إنما هي في حالة الاختيار .

أما الضرورة فلها حكمها ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وقد فصل لكم ما حُرِّمَ عليكم إلا ما اضطررتم إليه** ﴾(١) . وقال تعالى ــ بعد أن ذكر تحريم الميتة والدم وما بعدهما : ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم** ﴾(٢) .

والضرورة المتفق عليها هي ضرورة الغذاء ، بأن يعضه الجوع ، وقد حدده بعض الفقهاء بأن يمر عليه يوم وليلة ، ولا يجد ما يأكله إلا هذه

---

(١) سورة الأنعام : ١١٩ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٣ .

الأطعمة المحرمة ، فله أن يتناول منها ما يدفع به الضرورة ويتقي الهلاك . وقال الإمام مالك : حد ذلك الشبع والتزود منها حتي يجد غيرها . وقال غيره : لا يأكل منها إلا ما يمسك الرمق . ولعل هذا هو الظاهر من قوله تعالى : ﴿ **غير باغ ولا عاد** ﴾ أي بَاغ « طالب » للشهوة . ولا عاد « متجاوز » حد الضرورة .

وضرورة الجوع قد نص عليها القرآن نصاً صريحاً بقوله : ﴿ **فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾[1] ، و « المخمصة » ، أي : المجاعة .

وأما ضرورة « الدواء » — بأن يتوقف برؤه على تناول شيء من هذه المحرمات — فقد اختلف في اعتبارها الفقهاء .. فمنهم من لم يعتبر التداوي ضرورة قاهرة كالغذاء ، واستند كذلك إلى حديث : « إن الله لم يجعل شفاءكم فيماحرم عليكم » ، رواه البخاري عن ابن مسعود .

ومنهم من اعتبر هذه الضرورة وجعل الدواء كالغذاء ، فكلاهما لازم للحياة في أصلها أو دوامها ، وقد استدل هذا الفريق — على إباحة هذه المحرمات للتداوي — بأن النبي ﷺ رخص في لبس الحرير لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله عنهما لحكّة — جرب — كانت بهما . مع نهيه عن لبس الحرير ، ووعيده عليه .

وربما كان هذا القول أقرب إلى روح الإسلام الذي يحافظ على الحياة الإنسانية في كل تشريعاته ووصاياه .

ولكن الرخصة في تناول الدواء المشتمل على محرم مشروطة بشروط :

١ — أن يكون هناك خطر حقيقي على صحة الإنسان إذا لم يتناول هذا الدواء .

٢ — ألا يوجد دواء غيره من الحلال يقوم مقامه أو يغني عنه .

---

(١) سورة المائدة : ٣

٣ ــ أن يصف ذلك طبيب مسلم ثقة في خبرته وفي دينه معاً .

ثم يقول : على أنا نقول مما نعرفه من الواقع التطبيقي ، ومن تقرير ثقات الأطباء :

أنه لا ضرورة طبية تحتم تناول شيء من هذه المحرمات ــ كدواء ــ ولكننا نقرر المبدأ احتياطاً لمسلم قد يكون في مكان لا يوجد فيه إلا هذه المحرمات .

كما يقول أيضاً : « وليس من شرط الضرورة ألا يجد الإنسان طعاماً في ملكه هو فحسب ، بل لا يكون مضطرًّا لتناول هذه الأطعمة المحرمة ، إذا كان في أفراد مجتمعه ــ مسلمهم أو ذميهم ــ من يملك من فضل الطعام ما يدفع به الضرورة عنه . فإن المجتمع الإسلامي متكامل متكافل كأجزاء الجسد الواحد ، أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ...

●● هذا ، وإذا كان لنا بعد كل هذا الذي وقفنا عليه ، أن ندور حول :

الزكاة الشرعية وشروطها[1]

فإنني أذكر أن ما أبيح أكله من الحيوانات البرية نوعان :

نوع مقدور عليه متمكن منه ، كالأنعام من إبل وبقر وغنم ، وغيرها من الحيوانات المستأنسة والدواجن والطيور التي تُربَّى في المنازل ونحوها .

ونوع غير مقدور عليه ولا يتمكن منه .

أما النوع الأول فقد اشترط الإسلام لإباحته أن يذكى تذكية شرعية .

وحكمة مشروعية هذه الذكاة ، هي : تمييز حلال اللحم من حرامه ، فإن الغذاء الحرام ، يجعل من يتناوله فاسد الخلق ، خبيث النفس ، مظلم القلب ، دنيء الطبع ، كل أعماله شرٌّ وَوَبَاء ، وسعيه في الدنيا شقاء وَوَبَال ،

---

(١) كما جاء في كتاب « الحلال والحرام في الإسلام » للدكتور يوسف القرضاوي . وكتاب « أحكام الأطعمة والذبائح في الفقه الإسلامي » للدكتور أبو سريع محمد عبد الهادي .

وفي الآخرة جزاؤه جهنم وبئس القرار ، وذلك لقوله ﷺ : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » وقال : « ذكاة الأرض يبسها » أي طهارتها من النجاسة .

وعلى هذا ، فإن الذكاة في الذبيحة تطهير لها ، لأن الحيوان إذا أسيل دمه فقد طهر وطاب لأنه يسارع إليه التجفف ، وبالذكاة تتميز الذبيحة عن الميتة المحرمة ، كما أنه يُسنُّ ذكر الله على الذبيحة حتى يُطردَ الشيطان .

فالذكاة تطييب للذبيحة بإخراج دمها . وهذا تطييب حسي .

أما التطييب المعنوي : فهوبذكر الله الذي يطرد الشيطان[1] .

ويشترط لصحة الذبائح :

١ ــ أن يكون الذابح أهلاً للذكاة :

ولا يتحقق هذا الشرط إلا بثلاثة شروط وهي : العقل والنية والدين .

أما العقل ، فلأن الذكاة لا بد أن يتحقق فيها القصد ، والقصد لا يصح من المجنون أو السكران الذي لا يعقل ، كما لا يصح من الصبي الذي لم يميز . وذلك كما إذا وقعت السكين على عنق الدجاجة مثلاً فذبحها ، فلا يكون الذبح شرعيًّا حينئذ . لأن القصد غير موجود ، وكذا الحال من الصبي غير المميز ، أو المجنون ، وهذا قول الجمهور ...

وأما النية : فلأن الذابح لا بد أن يراعي الصفة والعدد . أما الصفة : فمن الضروري أن يكون الذبح من المقدم ومن الحتم عليه أن يقطع العدد المطلوب كالحلقوم والمريء والودجين . ومراعاة ذلك لا تحصل إلا بالنية ... وفضلاً عن ذلك فإن الذبح عمل شرعي يحتاج لنية لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات .. » .

وأما الدين : أي أنه يشترط أن يكون الذابح ذا دين سماوي ، مسلماً كان أو كتابياً ــ نصرانياً أو يهودياً ــ أما الكافر الذي لا يدين بدين سماوي فإن ذبيحته لا تحل . وتحل ذبيحة الكتابي ، ولكن الأفضل أن يكون مسلماً ....

---

(١) فقه الكتاب والسنة ص ١٣٨ .

٢ ـــ **آلة الذبح** : أي أنه من شروط صحة الذكاة استعمال الآلة حتى يحل المذبوح ، وذلك لما روي عن رافع بن خديج قال : قلت يا رسول الله ، إنا نلقى العدو غداً وليس معنا مُدى(١) . فقال النبي ﷺ : « ما أنهر الدم(٢) وذكر اسم الله عليه فكلوا ما لم يكن سِنًّا أو ظفراً ، وسأحدثكم عن ذلك : أما السن فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة » رواه الجماعة .

ولا بد أن تكون آلة الذبح محددة تقطع محل الذبح ، سواء كانت من حديد كالسيف والسكين والسهم والرمح ، أو من الرصاص أو النحاس أو الخشب المحدد أو الزجاج أو الحجر المحدد أو القصب ، أو غير ذلك من كل ما يحصل منه إنهار الدم .. فلو كانت الذكاة بمثقل لم يحل المذبوح بل لابد من الجرح وإسالة الدم ، كذلك لو ذبحه بحديدة لا تقطع وتحامل عليها الذابح حتى أزهق روح المذبوح لم يحل ، لأن القطع هنا بقوة الذابح لا بالآلة التي يُمرِّرُهَا فيسيل الدم .

وقد ذهب جمهور الفقهاء : إلى أنه لا يجوز الذبح بالسن والظفر والعظم مطلقاً لا فرق بين ظفر الآدمي أو ظفر الحيوان ، سواء كان متصلاً أو منفصلاً ، طاهراً أو نجساً ، كذلك السن ، يدخل فيه سن الآدمي أو غيره ، المتصل والمنفصل وأيضاً العظم .

وقال الأحناف : يجوز الذبح بالسن والظفر إذا كانا منفصلين .. وإنما تحرم الذكاة بهما إذا كانا متصلين .

وقال المالكية : يجوز الذبح بالعظم إذا أنهر الدم .

وقد استدل الجمهور على عدم جواز الذبح بالسن والظفر والعظم بحديث رافع بن خديج الذي فيه أن الرسول ﷺ قال : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ما لم يكن سناً أو ظفراً » .

وسبب النهي عن الذبح بالعظام : أنه كان معهوداً عند العرب أنه لا يجوز

---

(١) « مدية » جمع مدية ، وهي السكين .
(٢) أنهر الدم ، أي أساله وصبه بكثرة

الذبح به ، فأقرهم الشارع على ذلك ، كما أن العظام تتنجس بالدم ، ولا يجوز تنجيسها به لأنها زاد إخواننا من الجن .

أما النهي عن الذبح بالظفر ، فلأنه كان مدى الحبشة ، وهم كفار ، فنهانا الرسول ﷺ عن التشبه بهم ، وقيل : نهى عن الذبح بالظفر لأن فيه تعذيباً للحيوان ، ولا يقع به غالباً إلا الخنق الذي يكون على صورة الذبح ...

واستدل الأحناف : بما أخرجه أبو داود من حديث عدي بن حاتم : « أمرِرِ الدم بما شئت واذكر اسم الله » .

واستَدل المالكية على جواز الذبح بالعظم مع الكراهة التنزيهية ، فقالوا : إن النهي في حديث رافع محمول على الكراهة التنزيهية ، ولا يحمل على وجه الحظر ، جمعاً بين الأدلة .

والراجح : عدم جواز الذبح بالسن والظفر كما قال الجمهور لعموم حديث رافع الذي صرح بالنهي عن التذكية بالسن والظفر بدون تفرقة بين كونهما متصلين أو منفصلين ، وكذلك لا يجوز الذبح بالعظم لدلالة الحديث عليه حيث قال « أما السن فعظم » بمعنى أنه لا يجوز الذبح بالسن لأنه عظم . وكل عظم لا يجوز الذبح به ، وتأكد ذلك بالنهي عن الاستنجاء بالعظم ، فتكون الحكمة في النهي عن الذبح به ، صيانته عن التنجس بالدم ، كما يصان عن التنجس بالاستنجاء ، لأنه زاد إخواننا من الجن .

٣ ــ فعل الذابح : من الأربعة : الودجين(١) ، والحلقوم(٢) ، والمريء(٣) . فإن قطع الحلقوم والمريء والودجان ، أبيح أكل المذبوح ، ولكنهم اختلفوا فيما يكفى به من القطع :

فقال الأحناف : إن الواجب في التذكية هو قطع ثلاثة غير معينة من الأربعة : الودجين ، والحلقوم ، والمريء .

---

(١) وهما عرقان في صفحتي العنق : يحيطان بالحلقوم ، وقيل : يحيطان بالمريء .

(٢) وهو مجرى النفس .

(٣) وهو مجرى الطعام والشراب وهو تحت الحلقوم .

فإن قطع الحلقوم والمريء وأحد الودجين كفى ، وإن قطع الودجان والحلقوم جاز ، وإن قطع المريء والودجان كفى .

وبقطع الأربعة يتحقق كمال الذبح .

وقال المالكية : لابد من الودجين والحلقوم ، ولا يجوز أقل من ذلك .

وقال الشافعية والحنابلة في أصح الروايتين : يجب قطع الحلقوم والمريء ، ويستحب قطع الودجين .

وقال الثوري : يكتفى بقطع الودجين فقط .

وقد استدل الجميع بما يأتي :

أ ــ روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « نهى رسول الله ﷺ عن شريطة الشيطان ، وهي التي تذبح فيقطع الجلد ولا تفرى الأوداج » رواه أبو داود(١) .

وشريطة الشيطان : ذبيحته التي لا يستقصى ذبحها ، والتفسير ليس من الحديث بل زيادة رواها الحسن بن عيسى أحد رواته .

وكان أهل الجاهلية يقطعون بعض حلقها ويتركونها حتى تموت ، ثم يأكلونها بعد ذلك . وإنما أضيفت إلى الشيطان لأنه هو الذي حملهم على ذلك ، وحسَّن لهم هذا الفعل وسوَّله لهم .

ب ــ قال رسول الله ﷺ : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل » .

فكل من الحديثين يدلان على أن المطلوب هو إنهار الدم وإسالته . إلا أن الاختلاف فيما يكتفى به من الذبح لتحقيق إنهار الدم هذا .

● فاستدل الأحناف على قولهم : بالاكتفاء بقطع ثلاثة غير معينة : بأن

---

(١) قال المنذري : في إسناد عمرو بن عبد الله الصنعاني . وقد تكلم فيه غير واحد . أنظر نيل الأوطار جـ ٨ ص ١٤٣ .

المقصود من الذبح هو إزالة المحرم وإسالته ، وهو الدم المسفوح ، وهذا لا يحصل إلا بقطع الودج . وقد اشترطوا قطع ثلاثة من الأربعة لأن الثلاثة أكثر ، وللأكثر حكم الكل .

واستدل المالكية على مذهبهم : بقطع ثلاثة معينة ، هي : الودجان ، والحلقوم ، فقالوا : إن للودجين اتصالاً بأثر العروق ، واتصالاً بالدماغ وهي مجرى الدم ، والحلقوم مجرى النفس ، فإذا قطع الذابح الحلقوم فقد قطع النفس ، وإذا قطع الودجين قد نهر الدم وأساله فتزال الحياة ، فيحصل — بهذا — المقصود من التذكية .

أما الشافعية والحنابلة : فقد استدلوا على قولهم بأن الذبح هو إزالة الحياة ، والحياة لا تبقى بعد قطع الحلقوم والمريء ، لأن الحلقوم مجرى النفس داخلاً وخارجاً ، والمريء مجرى الطعام والشراب ، والروح لا تبقى بعد قطعهما عادة ، وقد تبقى بعد قطع الودجين لأنهما عرقان كسائر العروق ، ويمكن أن تبقى الحياة بعد قطع عرقين من سائر العروق .

أما الثوري ، فقد استدل على مذهبه : بأنه يكتفى بقطع الودجين ، فقال : إن إنهار الدم وسيلانه : يحصل بقطع الودجين ، وهذا هو المقصود .

فالحديثان : — كما يقول صاحب كتاب « أحكام الأطعمة والذبائح » — : يصلحان كدليلين لكل واحد من الأئمة ، لأن في قول كل منهم : المقصود هو : إنهار الدم وسيلانه ، إلا أن الإختلاف في الطريق الموصل إلى هذا الإنهار والسيلان .

والراجح — كما يقول بعد ذلك — : هو قول الأحناف القائل بوجوب قطع ثلاثة من الأربعة من غير تعيين لأن إنهار الدم سيحصل بها ، لأن الودجين هما العرقان المعدان لجريان الدم الذي تحفظ به الحياة وتستقر به الروح في البدن ، كما أن لهما اتصالاً بأكثر عروق البدن وبالدماغ أيضاً . والمقصود من الذبح الحل ، والحل لا يحصل إلا بإزالة الحرمة ، والحرمة تزال بسيلان الدم

المسفوح ، لأن الحديث يقول : « ما أنهر الدم » أي كل ما أسال الدم ، يحصل به المقصود . من هنا : يجب قطع ثلاثة غير معينة من الأربعة لأن إنهار الدم سيحصل بذلك وتستريح الذبيحة لسرعة زهوق النفس .

والقول بإيجاب قطع الودجين ، لا داعي له ، لأنه يحصل بقطع أحدهما ما يحصل بقطعهما أما إيجاب قطع الحلقوم والمريء فلا دليل عليه ، لأن المقصود إنهار الدم ، وهو حاصل بقطع أحدهما مع أحد الودجين ، وقد لا يتحقق الإنهار مع الحلقوم والمريء فقط . أما الحديث الأول وهو حديث أبي هريرة : « نهى رسول الله عن شريطة الشيطان . وهي التي تذبح فيقطع الجلد ولا تفرى الأوداج » : فالمراد بالأوداج بعضها لا كلها ، لأن لام التعريف قد تدل على البعض ، وبهذا يحصل الجمع بين الحديثين . فالقول بلزوم قطع الودجين لهذا الحديث غير سديد ــ هذا إن صح الحديث ــ لكن في سنده مقالاً . فهو لا يقوى على معارضة الحديث المرفوع الصحيح « ما أنهر الدم » إلخ . والقول بالاكتفاء بالحلقوم والمريء غير سديد[1] .

٤ ــ محل الذبح : فقد اتفق الفقهاء على أن محل الذبح هو الحلق واللبة ، ولا يجزيء الذبح في غير هذا المحل ، وقد اختص الذبح بهذا المحل ، لأنه مجمع العروق ، فيحصل بالذبح فيه إنهار الدم ، ويسرع زهوق الروح ، فيكون أطيب للحم وأخف على الحيوان .

وقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : « الذكاة في الحلق واللبة »[2] .

والذكاة في الحلق : وهو أعلى العنق تسمى ذبحاً ، ويكون ذلك فيما عدا الإبل ، والذكاة في اللبة : تسمَّى نحراً ، وذلك بالنسبة للإبل خاصة .

واللبة : هي الوهدة التي بين أصل العنق والصدر ، أي الثغرة التي في أسفل العنق ، أو موضع القلادة من الصدر .

---

(١) أنظر نيل الأوطار جـ ٨ ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، وبدائع الصنائع جـ ٥ ص ٤٠ وبداية المجتهد جـ ١ ص ٣٢٦ والمجموع جـ ٩ ص ٧٩ والمقنع بحاشيته جـ ٣ ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ وفقه الكتاب والسنة ص ١٤٤ .

(٢) روي هذا الحديث موقوفاً عن ابن عباس وكذا عن عمر وجابر مرفوعاً من وجه واهٍ . أنظر فتح الباري جـ ٩ ص ٦٤١ .

ثم يقول ، تحت عنوان :

تنبيهات تتعلق بهذا الشرط

الأول : قطع رأس الذبيحة :

قال جُمهور الفقهاء : إذا قطع رأس الذبيحة بشرط أن تكون قد ذكيت الذكاة الصحيحة ، وقطع رأسها في تمام الذبح : حَلّت .

وقال المالكية : إن تعمد ذلك : لا يحل .

والراجح : ما ذهب إليه الجمهور ، لأن ذلك روى عن ابن عمر وابن عباس وأنس حيث قالوا : إذا قطع الرأس فلا بأس .

فقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن ذبيحة قطع رأسها ، فأمر بأكلها .

وسئل ابن عباس عمن ذبح دجاجة فطير رأسها ، فقال : « ذكاة وحِيَّة »(١) .

وروى أن جزاراً لأنس بن مالك ذبح دجاجة فاضطربت فذبحها من قفاها فأطار رأسها . فأرادوا طرحها . فأمرهم أنس بأكلها(٢) .

فهذه الأدلة تبين أن قطع رأس الذبيحة يحلها ولايحرمها ، لأنه اجتمع قطع ما تبقى حياة الحيوان معه مع الذبح فأبيح .

وعلى هذا : فلو ضرب إنسان رأس بطّة أو شاة بالسيف يريد بذلك الذبيحة حل له الأكل منها .

الثاني : حكم المصبورة والمجثمة :

المجثمة : هي الطائر أو الأرنب يربط ويجعل غرضاً ثم يُرمى حتى يُقتل .

والمصبورة : مثله ، إلا أن المجثمة لا تكون إلا في الطائر والأرنب وأمثالهما .

والمصبورة : تكون في كل حيوان ربط وجعل غرضاً للرماة حتى يُقتْل ،

---

(١) بفتح الواو وكسر الحاء : أي ذكاة سريعة : منسوبة إلى الوحاء وهو الإسراع والعجلة .

(٢) فتح الباري جـ ٩ ص ٦٤١ ، ٦٤٢ .

والصبر : الحبس ، فإذا مات الطائر ، أو الحيوان بهذه الطريقة : لم يحل أكله ، ويصير ميتة ، بالإضافة إلى حرمة هذا الفعل .

والدليل على حرمة هذا الفعل والأكل ، ما روي عن هشام بن زيد ، قال : « دخلت مع أنس على الحكم بن أيوب ، فرأى غلماناً — أو فتياناً(١) — نصبوا دجاجة يرمونها ، فقال أنس : نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم » رواه البخاري .

وقال ﷺ : « لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً » .

وروى سعيد بإسناده عن أبي الدرداء ، قال : « نهى رسول الله ﷺ عن كل مجثمة » .

وروى أيضاً عن مجاهد ، قال : « نهى رسول الله ﷺ عن المجثمة وعن أكلها ، ونهى عن المصبورة وعن أكلها » .

وروى البخاري عن ابن عمر ، قال : « سمعت رسول الله ﷺ نهى أن تصبر بهيمة أو غيرها للقتل » وهكذا .

ولأنه حيوان مقدور عليه ، فلم يبح أكله بدون ذكاة كالبعير والبقرة والشاة .

الثالث : ذبيحة المرأة والجنب والأخرس والأعمى والأقلف(٢) .

أ — ذبيحة المرأة : جائزة لما روى البخاري وغيره عن كعب بن مالك : « أن جارية له كانت ترعى غنماً بسلع ، فأصيبت شاة منها ، فأدركتها فذبحتها بحجر . فسئل النبي ﷺ ، فقال : كلوها » .

ولكن الأفضل أن يكون الذابح ذكراً ، لأنه أقوى على الذبح من المرأة — إلا للضرورة المشار إليها في نصِّ الحديث الصحيح — .

ب — وتجوز ذبيحة الجنب ، ولا دليل يمنع من حِلِّ ذبيحته .. وإذا كان

---

(١) شك من الراوي .

الذبح يجوز من الحائض والنفساء حيث لم يستفسر الرسول ﷺ فإنه يجوز من الجنب من باب أولى . حتى لو قلنا : بأن التسمية شرط ـــ وهو قول الجمهور خلافاً للشافعية حيث قالوا بأنها سنة ـــ لأن الجنابة لا تمنع من التسمية لأنها ذكر . وإنما تمنع من القرآن . ولهذا تشرع له التسمية عند اغتساله ـــ رغم أنه ما زال جُنباً لأنه لا يطهر حتى ينتهي من الغسل . وهو مازال في بدايته .

كما أن الجنابة ليست أعظم من الكفر . والكافر من أهل الكتاب ، تؤكل ذبيحته . وعلى هذا : فإن ذبيحة الجنب جائزة ، وله أن يسمى وهو على هذه الحالة .

جـ ـــ وكذلك تحل ذبيحة الأخرس إذا كانت له إشارة مُفْهِمَةٌ ، لأن إشارته تقوم مقام النطق من الناطق ، وعليه أن يشير إلى السماء .

يدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية أعجمية[1] . فقال : يا رسول الله . إن عليَّ رقبة مؤمنة ، أفأعتق هذه ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « أين الله » ؟ فأشارت إلى السماء . فقال : « مَن أنا » ؟ فأشارت إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء . أي أنت رسول الله . فقال الرسول ﷺ : « أعتقها فإنها مؤمنة » رواه أحمد .

فحكم الرسول ﷺ بإيمانها بإشارتها إلى السماء ، يدل على أنه يكتفي بذلك علماً على التسمية .

ولو أشار إشارة تدل على التسمية وعلم ذلك كان كافياً .

أما إذا لم تكن إشارته مفهمة فقد اختلف الفقهاء : فريق يرى أن ذبيحته تحل لأن له قصداً وإن لم يسم . وفريق آخر يرى أنه كالمجنون لا تحل ذبيحته لأنه ليس عند القصد ، كما أنه لم يذكر اسم الله . وهو شرط في حل الذبيحة .

ثم يقول صاحب كتاب « أحكام الأطعمة والذبائح » :

والراجح : أنه ما دام عاقلاً مميزاً فإن ذبيحته تحل ، ولو كانت إشارته غير مفهمة ، لأن له قصداً كالناطق ، وكالأخرس المفهومة إشارته .. كما أن التسمية

---

(١) أي غير عربية .. وكانت لا تقدر على الكلام ..

ليست شرطاً عند الشافعية ، فلا شيء في تركها ولو عمداً ....

د ــ وتحل كذلك ذبيحة الأعمى ، لكن تكره كراهة تنزيه . لكن في حِل صيده قولان :

الأول : التحريم ، وهو الراجح لأنه لا يرى الصيد .

الثاني : الحل بالقياس على حل ذبيحته ، وذلك إذا أدرك حس الصيد ، وبنى إرساله عليه ، أو أخبره بَصير بالصيد ، فأرسل سهمه أو كلبه المعلم إليه . ..

هـ ــ وأما ذبيحة الأقلف ، وهو : من لم يُختتن ، فقد قال جمهور الفقهاء : إن ذبيحته حلال لعموم قوله تعالى : ﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه** ﴾ ، كما أن الله أباح ذبيحة الكتابيين ، ومنهم الأقلف . فالمسلم الأقلف تجوز ذبيحته من باب أولى ...

ثم يقول تحت عنوان :

معنى الحياة المستقرة

قال بعض الفقهاء : إن من علامات الحياة المستقرة ، الحركة الشديدة بعد قطع ما يجب قطعه مع انفجار الدم وتدفقه .

وقيل إن كل واحد منهما يكفي دليلاً على بقاء الحياة المستقرة . وقال النووي ، نقلاً عن إمام الحرمين : « من الأصحاب من قال : كل واحد منهما يكفي دليلاً على بقاء الحياة المستقرة . ثم قال : والأصح ــ أن كلاً منهما لا يكفي لأنهما قد يحصلان بعد الإنتهاء إلى حركة المذبوح لكن قد ينضم إلى أحدهما أو كليهما قرائن وأمارات أخرى تفيد الظن ، أو اليقين . فيجب النظر والإجتهاد » ثم علق النووي بعد أن نقل كلام الإمام ، فقال : « واختار المزني وطوائف من الأصحاب الاكتفاء بالحركة الشديدة ، وهو الأصح » . ذلك لأنه إذا ترك الحيوان حركة شديدة بعد قطع ما يجب قطعه فإنه يحل(1) . فالحياة

---

(1) أنظر في ذلك فتح الباري جـ ٩ ص ٦٣٢ ، ٦٣٣ وتكملة فتح القدير جـ ٩ ص ٤٩٧ ومختصر خليل مع الشرح الكبير جـ ٢ ص ٩٩ ، ١٠٧ وبداية المجتهد جـ ١ ص ٣٢٧ والمجموع جـ ٩ ص ٦٦ ، ٦٧ والمغني جـ ٨ ص ٥٨٠ ، ٥٨٣ .

المستقرة ، أن تكون فوق حركة المذبوح . وهذا هو الراجح .

●● والآن وبعد كل هذا الذي وقفنا عليه من الأحكام الفقهية المتعلقة بالذبح ، أو الذكاة الشرعية التي لا بد منها لكي تحل الذبيحة أرى من الخير كذلك أن نقف باختصار على :

مايسن عند الذبح وما يكره

فقد ذكر صاحب كتاب : « أحكام الأطعمة والذبائح في الفقه الإسلامي » :

أن هناك أموراً يسن حصولها عند الذبح حتى يكون أطيب ـــ وحتى لا تعذب الذبيحة تنفيذاً لوصية الرسول ﷺ ـــ وهذه الأمور باختصار ـــ منها :

● **أولاً** : التسمية على الذبيحة : حتى يطرد الشيطان عن الذابح وعن الذبيحة ، وذلك بقوله : « بسم الله » على الأرجح . وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقول : « بسم الله والله أكبر » .

وتكون هذه التسمية وقت الذبح ، أي : تقال وقت إمرار السكين .

وإذا كان هناك من الفقهاء من قال بوجوب التسمية .. فإن الأرجح هو رأي الشافعية ومن وافقهم من القائلين .. وأن التسمية سنة .. وأن الذبيحة حلال إذا لم يسم الله عليها ولو عمداً مع الكراهة التنزيهية .

● **ثانياً** : نحر الإبل وذبح ما عداها :

والنحر الذكاة في اللبة ، وهي الوهدة التي بين أصل العنق والصدر أو موضع القلادة في الصدر ، أي : أسفل العنق ، قال تعالى : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ .

أما الذبح : فهو ما يكون في الحلق عند أعلى العنق .

وقد ثبت أن النبي ﷺ : « نحر بدنة وضحى بكبشين أقرنين ذبحهما

بيده » متفق عليه .

فإن عكس بأن ذبح ما ينحر ، أي : كأن ذبح الإبل ، أو نحر ما يذبح ، كأنْ نحر بقرة أو شاة .: فإن أكثر أهل العلم يجيزونه ، وهم الأئمة الأربعة وغيرهم من الفقهاء .

والراجح : جواز ذلك ، أي نحر ما يذبح ، وذبح ما ينحر مع الكراهة التنزيهية .

● **ثالثاً** : نحر الإبل قائمة على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى ــ الركبة اليسرى الأمامية ــ :

قال تعالى : ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها صواف** ﴾[1] ، أي انحروها وقد صفت قوائمها على اسم الله ، وقال تعالى : ﴿ **فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها** ﴾[2] ، أي : إذا سقطت فكلوا منها ، وهذا يدل على أنها كانت قائمة لأن السقوط يكون من قيام .

وقد روى جابر رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدنة معقولة اليسرى ، قائمة على ما بقي من قوائمها » رواه أبو داود بسند صحيح على شرط مسلم .

فإذا أضجعها ونحرها جاز مع الكراهة .

والسنة أيضاً : أن تضجع البقرة والشاة على جنبها الأيسر وتترك رجلها اليمنى وتشد قوائمها الثلاث . ويستحب توجيه الذابح إلى القبلة ، ويوجه الذبيحة أيضاً إلى القبلة لأن عمر والصحابة كانوا يستحبون ذلك ــ عليهم جميعاً رضوان الله ــ وهذا في كل ذبيحة ، وفي الأُضحية والهَدي أشد استحباباً ، لأن الاستقبال مستحب في القربات . وفي كيفية توجيهها ثلاثة أوجه ــ كما ذكره النووي[3] ــ أصحها : يوجه مذبحها إلى القبلة ، ولا يوجه

---

(١) سورة الحج : الآية ٣٦ .

(٢) سورة الحج : الآية ٣٦ .

(٣) المجموع جـ ٩ ص ٧٥ .

وجهها ليتمكن هو من الاستقبال . والثاني : يوجهها بجميع بدنها . والثالث : يوجه قوائمها . فإذا ذبحت لغير القبلة ـــ أي ذبحت ولم توجه للقبلة ـــ فقد قال الجمهور : يجوز بلا كراهة لأن الله أحل ذبائح أهل الكتاب وهم يذبحون لغير القبلة .

وإن كان من الأفضل ألا يخالف المستحب حتى يفوز بالثواب .

● **رابعاً** : الذبح بآلة حادة ، أي أن يكون الذبح بآلة حادة ، أي مسنونة .. والأفضل أن يسنها قبل الذبح مباشرة . وذلك لما روي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »[1] رواه مسلم وأبو داود .

والآلة مثل السكين وغيرها من كل محدد إلا السن والعظم والظفر . ولا يشترط أن يكون بيد السكين ثلاثة مسامير كما يظنه كثير من الناس ، بل : ولا يشترط المسامير مطلقاً ، إنما يسن أن تكون قبضتها قوية حتى يتمكن من الذبح بها وإمرارها بقوة ، ذهاباً وإياباً ، ليكون ذلك أسهل للذبح وخروج الروح .

فلو تمت الذبيحة بسكين أو آلة كالّة ـــ أي غير محددة ـــ كُرِهَ وحلّت الذبيحة . ويكره أن يحد السكين والحيوان المراد ذبحه ينظر إلى السكين .. لما روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ : « أمر أن تحد الشّفار وأن توارى عن البهائم ، وقال : إذا ذبح أحدكم فليجهز » رواه أحمد وابن ماجه .

وقد رأى عمر رجلاً قد وضع رجله على شاة ، وهو يحد السكين فضربه حتى أفلت الشاة ، ويكره أيضاً : أن يذبح شاة والأخرى تنظر إليه حتى لا تتعذب بذلك .

ويستحب : أن تساق البهيمة إلى المذبح برفق ، وتضجع برفق ، ويعرض عليها الماء قبل الذبح .

---

(١) وهذا الحديث هو الوصية التي ندور حولها أساساً .

●● وأما عن المكروهات عند الذبح ، فمن أهمها ما يأتي :

● **أولاً** : الذبح من القفا :

وقد اتفق الفقهاء على أن الذكاة المشروعة تكون من ناحية الحلق ، أو اللبة ، وذلك من الناحية الأمامية للعنق .. لكنهم اختلفوا إذا كانت الذكاة من ناحية الخلف ــ أي القفا ــ هل تحل الذبيحة بها ، أم لا ؟ .

والرأي الراجح ، هو قول الجمهور : بأنه إذا ذبح الحيوان من القفا ووصل السكين إلى ما يجب قطعه ، وفيه حياة مستقرة : حل مع الكراهة التنزيهية ، والكراهة لا تمنع من جواز الأكل كما هو معروف ــ لأن الذبح إذا أتى على ما فيه حياة مستقرة أحله ــ كأكيلة السبع والمتردية والنطيحة . وقد قال الله تعالى : ﴿ **إلا ما ذكيتم** ﴾ وهذه قد ذكيت ــ إلا أنه يترتب عليه تأثيم من يفعل ذلك عمداً لتعذيب الحيوان ، إن كان عمداً .

أما إن فعل ذلك خطأ كأن تلتوي الذبيحة عليه ، فتأتي السكين على القفا : أبيحت . لأنها مع التوائها معجوز عن ذبحها في محل الذبح . فيسقط الاعتبار المتعلق بالمحل ، ولا كراهة حينئذ ولا تأثيم .

● **ثانياً** : قطع النخاع ، وهو : خيط أبيض يكون داخل عظمة الرقبة ، ويكون ممتدًا إلى الصلب .. وإنما تنخع الذبيحة إذا أبين رأسها .

فإذا استمر الذابح في ذبحه حتى قطع النخاع .. بمعنى أن يعجل الذابح في ذبحه فيبلغ به إلى النخاع :

فإن الفقهاء قد اختلفوا في حكم أكل هذه الذبيحة التي قطع نخاعها :

والراجح ، هو : إباحة الأكل مع كراهة الفعل ــ كما قال الجمهور ــ لحصول الذكاة بهذا الفعل ، لأنه ترتب على قطع النخاع زيادة إيلام الحيوان ، وذلك لا يقتضي تحريمه ، ولا حجة لمن منع أكله بعد الذكاة .

● **ثالثاً** : سلخ جلد الذبيحة قبل زهوق روحها :

ونحب أن نبين أن سلخ الجلد قبل أن تزهق روح الحيوان حلال مع

الكراهة . كذلك قطع لحم من الحيوان بعد الذكاة وقبل أن يبرد وتزهق روحه ، فالعُضو المقطوع حلال ، إلا أن الفعل مكروه . قال بذلك جمهور الفقهاء الأحناف والمالكية والحنابلة ، وذلك لقول عمر رضي الله عنه : « لا تعجلوا الأنفس حتى تزهق » .

وقد سئل الإمام أحمد عن رجل ذبح دجاجة فأبان رأسها ، فقال : « يأكلها » قيل : والذي بان منها أيضاً ؟ : قال : « نعم » .

كذلك يكره سلخ الحيوان بعد ذبحه وقبل أن يبرد . لأن فيه تعذيباً للحيوان ، وذلك كقطع العضو .

قال ابن المنذر : وكره ذلك عطاء . قال : وقال عمرو بن دينار : إن هذا العضو المقطوع بعد الذبح وقبل زهوق الروح : يعتبر ميتة . وكذلك السلخ في هذه الحالة يعتبر حراماً . ولعله استند في ذلك إلى قوله ﷺ : « ما قطع من البهيمة وهي حية فهوميتة » .

والذبيحة قبل خروج روحها تأخذ حكم الحية ، لأن الروح مازالت باقية فيها ، فما قطع منها يكون ميتة .

والراجح : قول الجمهور ، بأن هذا الفعل مكروه ، والعضو حلال . وأيضاً يكره سلخ الجلد في هذه الحالة ــ قبل زهوق الروح ــ لكنه يجوز لأن قطع العضو حصل بعد الذكاة ، فأشبه ما لو قطعه بعد الموت . ومثل ذلك سلخ الجلد .

أما استدلال المخالف بالحديث ، فهو غير سديد : لأنه يُستدل به على ما قطع من الحيوان الحي ، فإن المقطوع حينئذ يكون ميتة ، وهذا خارج عن محل النزاع لأن الحيوان المذبوح ليس حيًّا ، لأنه مذبوح . لكن لما فيه من زيادة إيلام كره الفعل ، ويكره أيضاً نفخ اللحم الذي يعرضه البائع للبيع ، لما فيه من الغش .

● **رابعاً : الذبح بسكين مغصوب :**

فلو ذبح الذابح بسكين مغصوب أو مسروق ، أو كال ــ غير

مسنون — وقطع ما يجب قطعه : فإن ذلك مكروه ، وتحل الذبيحة ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ **إلا ما ذكيتم** ﴾ ، ولحديث : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا » .

والذبيحة بهذه السكين مذكاة ذكاة شرعية ، وحصل بها إنهار الدم ، وشرط صحة الذكاة تحققت ، فالذبيحة حلال ، وحرمة الفعل وهو الغصب أو السرقة لا تقتضي حرمة الذبح .

وهذا هو الأرجح ، مع الكراهة .

ويكره أيضاً : أن يترك سنة من السنن التي وقفنا عليها قبل هذا .

كذلك لا يجوز ذبح الحيوان المأكول لغير الأكل ، لما روي عن ابن عمر مرفوعاً : « ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عنها : قيل يا رسول الله — وما حقها ؟ قال : يذبحها ويأكلها ولا يقطع رأسها ويطرحها » رواه الشافعي وأبو داود والحاكم . وفي حديث آخر : « من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة ، يقول : يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة » رواه الشافعي والنسائي .

فذبح الحيوان المأكول لغير الأكل : حرام . والله أعلم .

هذا ، وإذا كان لي بعد هذا العرض السريع — والنافع إن شاء الله — لأهم الأحكام المتعلقة بهذه الوصية العظيمة التي كنا ندور حولها ، والتي أرجو أن نكون قد فهمنا المراد منها ، فإنني أرى أن أذكر بكلام جامع : لابن رجب — في كتابه: « جامع العلوم والحكم » ، حيث يقول في شرحه لهذا الحديث .

وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال .. لكن إحسان كل شيء بحسبه ، فالإحسان في الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنة : الإتيان بها على وجه كمال واجباتها ، فهذا القدر من الإحسان فيها واجب .

وأما الإحسان فيها بإكمال مستحباتها فليس بواجب .

والإحسان في ترك المحرمات : الانتهاء عنها ، وترك ظاهرها وباطنها ، كما قال تعالى : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾[1] ، فهذا القدر من الإحسان فيها واجب .

وأما الإحسان في الصبر على المقدورات . بأن يأتي بالصبر عليها على وجهه من غير تسخُّطٍ ولا جذع .

والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم : القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كله .

والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسِيَاسَتِهِم : القيام بواجبات الولاية كلها .

والقدر الزائد على الواجب في ذلك كله : إحسان ليس بواجب .

والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب : إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأروحها من غير زيادة في التعذيب ، فإنه إيلام لا حاجة إليه .

وهذا النوع هو الذي ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث ، ولعله ذكره على سبيل المثال ، أو لحاجته إلى بيانه في تلك الحال ، فقال : « إذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة » :

والقِتلة والذبحة بالكسر : أي الهيئة ، والمعنى : أحسنوا هيئة الذبح ، وهيئة القتل .

وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه .

وقد حكى ابن حزم الإجماع على وجوب الإحسان في الذبيحة .

وأسهل قتل الآدمي ضربه بالسيف على العنق ، قال الله تعالى في حق الكفار : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾[2] . وقال :

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٠ .
(٢) سورة محمد : الآية ٤ .

﴿ **سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾(١) . وقد قيل إنه عيَّن الموضع الذي يكون الضرب فيه أسهل على المقتول ، وهو فوق العظام ، ودون الدماغ . ووصَّى دُرَيْدُ بن الصِّمَّةَ قاتله أن يقتله كذلك ... إلخ .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تنفذ وصية الرسول ﷺ .. على أكمل وجه من وجوه الإحسان في جميع صوره الإيمانية التي وقفت عليها بالإضافة إلى الأحكام الهامة المتعلقة بها ، والتي وقفت عليها كذلك باختصار مفيد إن شاء الله .

والله ولي التوفيق .



(١) سورة الأنفال : الآية ١٢ .

الوَصيّة الخامسة والستون

عَنْ أبي ذر رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلّى الله عَلَيه وسلّم :

يَا أَبَا ذَرٍّ إِنّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ الْيَتِيمِ (١).

رواه مسلم

---

(١) المراد لاتعرض نفسك لتحمل المسئوليات التى قد تتورط فيها ، فلا تستطيع أداءها لأنك ضعيف كما أرى .. والله أعلم .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي أوصى بها النبي ﷺ صَفيًا من أصفيائه المقربين إليه ، وهو الصحابي الجليل « أبو ذر الغفاري » رضي الله عنه الذي قال عنه الرسول ﷺ : « ما أقلّت الغبراء ، ولا أظلّت الخضراء أصدقَ لهجةً من أبي ذر » .

وهذا القول الذي قاله الرسول ﷺ يعتبر تحليلاً لشخصية أبي ذر .. بل وتلخيصاً لحياته كلها .

وكأن الرسول ﷺ يريد كذلك من خلال هذا القول الجامع أن يشير إلى مستقبل هذا الرجل الذي كان من الرجال القلائل الذين لا يخافون في الله لومة لائم ... تنفيذاً لوصية الرسول ﷺ التي يرويها هو(١) فيقول : « أوصاني خليلي بسبع :

- أمرني بحب المساكين ، وأن أدنو منهم .
- وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي .
- وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً .
- وأمرني أن أصل الرحم .
- وأمرني أن أقول الحقَّ وإن كان مُرًّا .
- وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم .
- وأمرني أن أكثر من : «لا حول ولا قوة إلا بالله » .

فكان عليه رضوان الله منفذًا لتلك الوصية التي كانت من مقومات شخصيته بين قومه وَأُمّته .. حتى قال عنه الإمامُ عليٌّ كرم الله وجهه :

« لم يبقَ اليومَ أحد لا يبالي في الله لومة لائم غير أبي ذر » .

وهذا القول الأخير للإمام علي عن أبي ذر لابد أن يزيح الستار عن أهم

---

(١) أي يرويها أبو ذر رضي الله عنه .

الجوانب البطولية في حياة أبي ذر رضي الله عنه ابتداء من دخوله في الإسلام إلى أن لقي الله تبارك وتعالى .. بعد حياة حافلة بالجهاد والصمود .

وحسبي أن أشير أولاً ـــ وباختصار ـــ إلى بعض تلك الجوانب البطولية في حياة أبي ذر قبل أن ندور معاً حول الوصية العظيمة التي أوصاه النبي ﷺ بها حتى نعرف المراد منها .. وحتى ننتفع بها كذلك إن شاء الله .

والخلاصة التي أريد أن نقف عليها ، هي : أن أبا ذر رضي الله عنه كان من السابقين إلى الإسلام ، وكان هذا بعد أن علم من الأعراب الرحّل أن نبيًّا قد ظهر بمكة يدعو إلى التوحيد والمساواة ، فجاء إلى مكة من قبيلة غفار ، وظل يبحث عن النبي ﷺ يومين طويلين حتى لقيه . فأخذ يسأله صلوات الله وسلامه عليه عن الإسلام .. ثم بايعه عليه .. ثم خرج بعد ذلك من عند النبي ﷺ ليعلن إسلامه قائلاً بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، بين أعراب مكة وحول الكعبة .. فأوسعوه ضرباً حتى كادوا يقتلوه لولا خشيتهم عى تجارتهم من أهل غِفار الذين يمرون عليهم في غدوهم ورواحهم .. فلما علم النبي ﷺ بما حدث له .. خاف عليه ... ولهذا أرسله إلى قبيلة غفار حتى يدعو أهلها إلى الإسلام ... الذين دعاهم فعلاً إلى الإسلام فأسلموا .. وبايعوا النبي ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة المنورة مهاجراً ... فقال النبي ﷺ عنهم : « غفار غفر الله لها » .

ويتحدث التاريخ بعد الهجرة عن أبي ذر بأنه كان مع النبي ﷺ في معظم الغزوات ، وأنه سمع من النبي ﷺ كثيراً من الأحاديث الشريفة التي رواها عنه في حياته وبعد مماته .. وأنه كان في مجلس النبي ﷺ دائماً لا يفارقه يتعلم منه ويسأل .... إلى أن توفي الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بعد أن استمع مع نَفر قليل من أصحابه الفضلاء إلى وصيته صلوات الله وسلامه عليه .

وبعد ذلك أحسَّ بفراغ هائل بعد رحيل خليله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فرأى أن المدينة لم تعد له مكاناً من بعده ... فذهب في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى القتال في صفوف المسلمين حتى استقر به المقام في

بلاد الشام يعلم الناس أمور دينهم ــ أيام السلم ــ ويشترك مع الجيش الإسلامي في الجهاد .. وقد كان خلال هذا يرفض كل العروض التي وجهت إليه ليتولى إحدى الإمارات كبعض الصحابة .. زهداً .. وإيماناً بدوره الذي وهب نفسه له ..

إلى أن توفي الصدِّيقُ رضي الله عنه .. وإلى أن قُتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. فعاد أبو ذر رضي الله عنه إلى يثرب ... وهو يؤمن أن الوقت قد حان لولاية علي كرم الله وجهه ... ولكن خاب أمله وتولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة التي بدأت معها جَحَافِلِ قريش تخرج من عزلتها التي حكم بها عليها عُمر خشية الفتنة وخشية تكديس الثروات .

فماذا فعل أبو ذر ــ وهو البطل الذي لا يخشى في الله لومة لائم ــ : لقد وقف يعلن دعوته .. التي جوهرها : إعلاء كلمة الله ، وإعطاء كل ذي حق حقه .. وأن يكون المال لجمهور المسلمين .. وأن تقال كلمة الحق لكل حاكم ووالٍ .. وكان شعاره هو قول الله تبارك وتعالى : ﴿ .. **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾[1] .

وقد بدأ من المسجد الكبير في المدينة يعلن سَخَطِه على الولاة الذين تكالبوا على بيت المال .. وهم أقارب عثمان ــ رضي الله عنه ــ وخاصته .. الذين كان منهم : مروان بن الحكم الذي أخذ خمس خراج أفريقيا ، والحارث بن العاص الذي أخذ ثلاثمائة ألف درهم ، وزيد بن حارثة الذي أخذ مائة ألف درهم .

فوصلت كلماته إلى مجلس عثمان الذي ضاق بهجومه وتصرفاته ضد ولاته فيستدعيه ذات يوم إلى مجلسه .. الذي يسأله فيه عثمان عن الذي بلغه عنه ، فيقول أبو ذر : وما بلغك ؟ فيقول : بلغني أنك تحرض الناس عليَّ .. فيقول أبو ذر : وكيف ذلك ؟ فيقول عثمان : إنك لا تقرأ في المسجد إلا : ﴿ **والذين**

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٤ ، ٣٥ .

يكنزون الذهب والفضة ... ﴾ .

فيصرخ أبو ذر : « أينهاني عثمان عن قراءة كِتاب الله . وعيب من ترك أمر الله ، فوالله لأن أرضى الله بسخط عثمان أحب إلي وخير لي من أن أسخط الله برضاك » .

وتنتهي المناقشة أو المناقشات الحادة مع الأيام بإبعاد أبي ذر عن المدينة المنورة إلى الشام .. حيث ولاية معاوية التي تكون فيها المعركة بين أبي ذر ومعاوية أشد ضراوة من التي كانت بين أبي ذر وعثمان .

فماذا يفعل الداهية معاوية مع أبي ذر الزاهد الثائر ... صاحب رسول الله ﷺ : يحاول أن يقربه فلا يرضى .. فيلح عليه إلى أن لَبَّى دعوته ذات يوم إلى مائدته التي رأى عليها من المأكولات التي لا يعرفها إلا الرومان .. فأمسك يده .. ثم قال لمعاوية : من أين لك هذا .. يا معاوية ؟ إن كان من بيت أبيك فهو السَّفه ، وإن كان من بيت مال المسلمين فهي السرقة ، ويرفض تناول الطعام .

ويستمر الصراع في الشام بين معاوية وأبي ذر ... حتى يضيق به الداهية ابن أبي سفيان .. فيكتب إلى عثمان شاكياً .. فيأتيه من المدينة أمر بأن يُحمل إليها أبو ذر بلا تَمَهُّل .

وهناك في المدينة كان اللقاء عاصفاً — مرة أخرى — بين عثمان وأبي ذر . فقداستجوبه عن شكاة أهل الشام ضده .. فنفى أبو ذر اتهامهم .. وقال : « ليس أهل الشام هم الذين يشكونني ولكن هناك فئة قليلة كنزت المال واحتكرت الأرزاق ومنعتها عن أصحابها ومستحقيها ، فساءها أن أقول للناس ما كان لكم من حق فخذوه ، وما كان باطلاً فذروه ، فهم يصرون يا عثمان على أكل الباطل وحقوق الناس » .

ثم .. يطلب منه عثمان أن يعتزل الناس ، فيتركه أبو ذر غاضباً ولا يطيع أمره .

ولم تطل الحياة بأبي ذر .. فقد تعرض لمحن أشد وأقوى وتكالبت عليه

حاشية عثمان توقع بينهما(١) ... إلى أن انتهى الأمر ذات يوم بأن يصدر الخليفة أمره .. وهو : أن يُنْفى هذا الثائر الزاهد إلى حيث لا يلقى أحداً حتى لا يلتقي بإنسان ، وإلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ويحاول بعض الصحابة إلغاء أمر النفي أو تعديله .. ولكنهم لم ينجحوا في مساعيهم ... فنُفِي فعلاً أبو ذر رضي الله عنه إلى الربذة(٢) .. التي استقر فيها ولم يغادرها غير مرة واحدة بحثاً وراء حقه في بيت المال .

وشاهد خلال إقامته صراعاً عنيفاً مع الموت والحياة .. ورأى الموت يختطف ابنته وابنه وهو لا يملك لهما من دون الله شيئاً .. وبقيت إلى جانبه زوجته تواسيه وتؤانسه .

ومرت الأيام بطيئة ثقيلة .. ووقع أبو ذر تحت مطارق الألم في غيبوبة الموت .. وكان يفيق ليرى دموع زوجته تبلل وجنتيه .

وذات مرة أخيرة .. طلب منها أن تكف عن البكاء ، فقالت : كيف لا أبكيك ونحن غريبان وليس عندي ما أكفنك فيه .

ويستكمل إبراهيم ابن الأشقر الحديث(٣) فيقول : أن أبا ذر رضي الله عنه حضره الموت وهو بالربذة ، فبكت امرأته ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : أبكي أنه لا يدلي بنفسك(٤) وليس عندي ثوب يسعك كفناً . فقال : لا تبكي فإني سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده في نفر يقول : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة(٥) من المؤمنين .. قال : فكل من كان معي في ذلك الوقت مات في جماعة ورفقة(٦) . وفي رواية : في قرية أو جماعة ، فلم يبق منهم غيري ، وقد أصبحت بالفلاة أموت فراقبي الطريق ، فإنك سوف ترين ما أقول فإني والله ما كَذَبتُ ولا كُذِبتُ(٧) . قالت : وأنَّى ذلك وقد

---

(١) أي تحاول أن توقع بينه وبين عثمان .

(٢) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز .. وقد أقام بها إلى أن مات في سنة ٣٢ هـ .

(٣) كما في مسند الإمام أحمد « الفتح الرباني » ج ٢٢ .

(٤) أي لا قدرة لي على تجهيزك ودفنك .

(٥) أي جماعة .

(٦) أي الجماعة ترافقهم في سفر ، والجمع رفاق

(٧) الأول مبني للمعلوم والثاني مبني للمجهول

انقطع الحاج .. ؟ قال : راقبي الطريق .. قال : فبينما هي كذلك إذا هي بالقوم تخدى(١) بهم رواحلهم(٢) كأنهم الرخم(٣) فأقبل القوم حتى وقعوا عليها .. فقالوا : مالِك ؟ قالت : امرؤ من المسلمين تكفنونه وتؤجرون فيه .. قالوا : ومن هو ؟ قالت : أبو ذر .. ففدوه بآبائهم وأمهاتهم(٤) ووضعوا سياطهم في نحورها(٥) يبتدرونه ، فقال أبشروا أنتم النفر الذين قال رسول الله ﷺ فيكم ما قال .. أبشروا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرؤين مسلمين هلك بينهما ولدان أو ثلاثة فاحتسبا وصبرا فيريان النار أبداً » . ثم أصبحت اليوم حيث ترون ولو أن ثوباً من ثيابي يسعني لم أُكَفَّنْ إلا فيه ، فأنشدكم الله أن لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً(٦) أو بريداً(٧) . فكل القوم كان قد نال من ذلك شيئاً إلا فتى من الأنصار كان مع القوم .. قال : أنا صاحبك .. ثوبان في عيبتي(٨) من غزل أمي وأجد ثَوبيَّ هذين اللذين عليَّ .. قال : أنت صاحِبي فكفِّنِّي .

ومن أجمل ما قرأت في هذا(٩) : أن القافلة هذه التي قامت بدفن أبي ذر رضي الله عنه كان على رأسها الصحابي الجليل : « عبد الله بن مسعود » رضي الله عنه ، الذي وقف على جثمان أبي ذر الطاهر وعيناه تفيض بالدمع .. يقول : « صدق رسول الله .. تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتُبعث وحدك » .

وكان هذا القول الذي أشار إليه ابن مسعود رضي الله عنه في غزوة « تبوك » سنة تسع من الهجرة .. وقد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لملاقاة الروم ، الذين كانوا يكيدون للإسلام ويأتمرون به .

---

(١) أي تسير بهم مسرعة .

(٢) أي إبلهم وجمعها رواحل .

(٣) بفتحتين : نوع من الطيور .

(٤) أي قال كل منهم لأبي ذر : فداك أبي وأمي .

(٥) أي في أعناق رواحلهم .

(٦) العريف : أي المقيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم .

(٧) أي الرسول الذي يركب البغل ويحمّل معه الرسائل من بلد إلى بلد .

(٨) أي مستودع الثياب .. وجمعها عياب .

(٩) في كتاب « رجال حول الرسول » للأستاذ خالد محمد خالد .

وكانت الأيام التي دُعي الناس فيها للجهاد أيام عُسرة وقيظ .. وكانت الشقة بعيدة .. والعدو مخيفاً .. فتقاعس بسبب هذا عن الخروج نفر من المسلمين تَعَلَّلوا بِشَتَّى المعاذير . وخرج الرسول وصحبه ... وكلما أمعنوا في السير ازدادوا جهداً ومشقة ، فجعل الرجل يتخلف ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول : « دعوه .. فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم .. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » ..!!

وتلفَّت القوم ذاتَ مرة ، فلم يجدوا أبا ذر .. وقالوا للرسول ﷺ : لقد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره .. وأعاد الرسول عليهم مقالته الأولى .

وقد كان بعير أبي ذر فعلاً قد ضَعُفَ تحت وطأة الجوع والظمأ والحر وتعثرت من الإعياء خُطاه .

وحاول أبو ذر أن يدفعه للسير الحثيث بكل حيلة .. ولكنه لم ينجح بسبب الإعياء الشديد .

فرأى أبو ذر أنه بهذا سيتخلف عن المسلمين وينقطع دونهم الأثر .. فنزل من فوق ظهر البعير ، وأخذ متاعه وحمله على ظهره ومضى ماشياً على قدميه ، مهرولاً ، وسط صحراء ملتهبة ، كيما يُدرك رسول الله عليه السلام وصحبه .

وفي الغداة .. وكان المسلمون قد وضعوا رِحَالهم ليستريحوا بَصُر أحدهم فرأى سَحابة من النقع والغبار تخفى وراءها شبح رجل يغزّ السير .. فقال : يا رسول الله ، هذا رجل يمشي على الطريق وحده .. فقال الرسول ﷺ : « كن أبا ذر » ....

وفعلاً وبعد أن قطع المسافر الجليل المسافة التي كانت بينه وبين خليله وصحبه ... وعندما اقترب منهم .. وبلغ أول القافلة صاح صائحهم : يا رسول الله إنه والله أبو ذر ...

فلم يكد النبي ﷺ يراه حتى تألقت على وجهه ابتسامة حانية وآسية ، وهو يقول :

«يرحم الله أبا ذر... يمشي وحده... ويموت وحده... ويُبعث وحده».

وبعد مُضِيٍّ عشرين عاماً على هذا اليوم ، أو تزيد ، مات أبو ذر وحيداً ، في فلاة الربذة ... بعد أن سار حياته كلها وحيداً على طريق لم يتألق فوقه سواه ... ولقد بُعِثَ في التاريخ وحيداً في عظمة زهده ، وبطولة صموده ... ولسوف يبعث عند الله وحيداً كذلك ، لأن زحام فضائله المتعددة ، لن يترك بجانبه مكاناً لأحد سواه ... !!!(١) .

هذا ، وإذا كان النبي ﷺ ، قد قال لأبي ذر : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي : لا تأمَّرنَّ على اثنين ، ولا تولَّيَنَّ مال يتيم » .

فهذا الحديث ــ الذي ندور حوله ــ كما قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم : أصل عظيم في اجتناب الولايات ، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية ، وأما الخزي والنادمة ــ المشار إليهما في الحديث الصحيح الآخر الذي رواه مسلم والذي جاء فيه : أن أبا ذر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ألا تستعملُني ؟ فضرب الرسول ﷺ بيده على منكب أبي ذر وقال له : « يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها » :

فقد قال أيضاً الإمام النووي شارحاً هذا المعنى المتعلق بهما :

وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها ، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ، ويندم على ما فرط ، وأما من كان أهلاً للولاية ، وعدل فيها ، فله فضل عظيم ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة ، كحديث : « سبعة يظلهم الله .. » وحديث : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا » ، وغير ذلك ، وإجماع المسلمين منعقد عليه .

ومع هذا ، فلكثرة الخطر فيها حَذَّر الرسول ﷺ أبا ذَرّ منها . وكذا حذَّر العلماء ، وامتنع منها خلائق من السَّلف وصبرُوا على الأَذَى حين امتنعوا .

---

(١) انتهى بتصرف ما كتبه صاحب كتاب : « رجال حول الرسول » . أكرمه الله .

بل ولم يثبت أن النبي ﷺ استخلف أحداً من بعده .

وقد أشار الإمام النووي إلى هذا في شرح مسلم فقال :

حاصله أن المسلمين أجمعوا على أن الخليفة إذا حضرته مقدمات الموت ، وقبل ذلك يجوز له الاستخلاف ، ويجوز له تركه ، فإن تركه فقد اقتدى بالنبي ﷺ في هذا ، وإلَّا فقد اقتدى بأبي بكر ، وأجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف وعلى انعقادها بعقد أهل الحل والعقد لإنسان إذا لم يستخلف الخليفة ، وأجمعوا على جواز جعل الخليفة الأمر شورى بين جماعة ، كما فعل عمر بالستة(١) ، وأجمعوا على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة ووجوبه بالشرع لا بالعقل ، وأما ماحكى عن الأصم أنه قال : لا يجب ، وعن غيره أنه يجب بالعقل لا بالشرع فباطلان ، أما الأصم فمحجوج بإجماع من قبله ، ولا حجة له في بقاء الصحابة بلا خليفة في مدة التشاور يوم السقيفة ، وأيام الشورى بعد وفاة عمر رضي الله عنه ، لأنهم لم يكونوا تاركين لنصب الخليفة ، بل كانوا ساعين في النظر في أمر من يعقد له ، وأما القائل الآخر ففساد قوله ظاهر ، لأن العقل لا يوجب شيئاً ولا يحسنه ولا يقبحه ، وإنما يقع ذلك بحسب العادة لا بذاته .

كما كان النبي ﷺ لا يُولّي من يطلب الإمارة .. وإنما كان ينهى عن هذا :

ففي صحيح مسلم : عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتَها عن مسألة وُكِلت إليها ، وإن أُعطيتَها عن غير مسألةٍ أُعِنْتَ عليها » .

وعن أبي موسى ، قال : دخلتُ على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي ، فقال أحد الرجلين : يا رسول اللهِ أمِّرنَا على بعض ما ولَّاك اللهُ عَزَّ وجل ، وقال الآخر مثل ذلك ، فقال : « إنَّا والله لا نولِّى على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرصَ عليه » .

قال العلماء : والحكمة في أنه لا يُوَلِّي من سأل الولاية ، أنه يوكل إليها ،

---

(١) وهم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالبٌ ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص . رضي الله عن الجميع .

ولا تكون معه إعانة كما صرح به في حديث عبد الرحمن بن سمرة .. وإذا لم تكن معه إعانة لم يكن كفؤاً ولا يُوَلّى غير الكفء ، ولأن فيه تهمة للطالب والحريص . والله أعلم .

ولهذا كان أبو ذر يهرب من الولاية إذا ما عرضت عليه تنفيذاً لوصية الرسول ﷺ ، وخوفاً على نفسه من الفتنة التي غالباً ما تكون عن طريقها ..

كما كان يحزن إذا رأى صاحباً من أصحاب الرسول ﷺ مشغولاً بالولاية التي لا يؤمن عواقبها .

وقد أشار إلى هذا صاحب كتاب « رجال حول الرسول » فقال :

ولقد بلغ الأمر بأبي ذر إلى تجنب إخوانه إن لم يكن مقاطعتهم ، لأنهم ولُّوا الإمارات ، وصار لهم بطبيعة الحال ثراء ووفرة ...

لقيه أبو موسى الأشعري يوماً ، فلم يكد يراه حتى فتح له ذراعيه وهو يصيح من الفرح بلقائه : « مرحباً أبا ذر .. مرحباً بأخي » ولكن أبا ذر دفعه عنه وهو يقول : « لست بأخيك ، إنما كنت أخاك قبل أن تكون والياً وأميراً » ..!!

كذلك لقيه أبو هريرة يوماً واحتضنه مُرحِّباً ، ولكن أبا ذَرٍّ نَحَّاهُ عنه بيده وقال له :

« إليك عني .. ألستَ الذي وليت الإمارة ، فتطاولتَ في البنيان ، واتخذت لك ماشية وذرعًا » ..؟؟.

ومضى أبو هريرة يدافع عن نفسه ويبرئها من تلك الشائعات .

ثم يقول في « رجال حول الرسول » :

وقد يبدو « أبو ذر » مبالغاً في موقفه من الحكم ومن الثروة .

ولكن لأبي ذر منطقه الذي يشكله صدقه مع نفسه ، ومع إيمانه ، فأبو ذر يقف بأحلامه وأعماله .. بسلوكه ورؤاه عند المستوى الذي خَلَّفه لهم رسول الله وصاحباه .. أبو بكر وعمر .

وإذا كان البعض يرى في ذلك المستوى مثالية لا يدرك شأوها ، فإن أبا ذر يراها قدوة ترسم طريق الحياة والعمل ، لا سيما لأولئك الرجال الذين عاصروا الرسول عليه السلام ، وصلوا وراءه ، وجاهدوا معه ، وبايعوه على السمع والطاعة .

فرضي الله عن أبي ذر .. وجعلنا جميعاً نسير على نهجه حتى نفوز بخيري الدنيا والآخرة ... آمين .

***

الوصية السادسة والستون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

إذا أُقيمت الصَّلاةُ فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وأنتم تمشون[1] ، وعليكم السَّكينة فما أدركتم فصلُّوا ، وما فاتكم فأتمُّوا.[2]

متفق عليه

زاد مسلم في رواية له :
فإنَّ أحدكم إذا كان يعمد إلى الصَّلاة فهو في صلاةٍ .

(١) المـراد : لاتسرعوا فى التوجـه إلى صفوف المصلين حتى لاتُحْدِثوا هرجًا فى المسجـد .

(٢) أى ماأدركتم من الصَّلاة مَع الإمام فصَـلّوه ، وَمَافاتكم فأتـموه بعـد السَّلام .

● وهذا معناه أن النبى صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن نتعود عن طريق ذلك عدم العجلة لأنها من الشيطان. وقد ورد فى الأثر عن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه قال: العجلة من الشيطان إلا فى خمسة أشياء فإنها من السنة : إطعام الضيف إذا دخل ، وتجهيز الميت ، وتزويج البكر ، وقضاء الدين ، والتوبة من الذنب .

★★★

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي تتعلق بأداء أهم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهو الصلاة .

وحسبك أن تعلم أن الصلاة هي أفضل العبادات ، وأعظم القربات إلى الله تبارك وتعالى ، وأن موضع الصلاة من الدين ، كموضع الرأس من الجسد .

● فقد روى الطبراني في الأوسط بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين ، كموضع الرأس من الجسد » .

● وأخرج ابن حبان والحاكم ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « الصلاة خير موضوع(1) ، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » .

● وفي رواية صحيحة أيضاً : « واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » .

لأنها تدفع العبد دفعاً إلى طاعة الله عز وجل، وتقوده إلى رضوانه وتنأى به عن المعاصي والمنكرات ، وتبغِّضه في كل عمل يغضب الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ **أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ..** ﴾(2) .

وإنما تنهى الصلاة صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، إذا أداها بخشوع ، وخضوع وإخلاص ، وحافظ عليها في أوقاتها ، وأتم ركوعها ، وسجودها ، ولم ينقرها كنقر الغراب ، ووجد فيها رَوحَه وريحانه ، ولم يدخلها وهو كاره لها ، أو متثاقل في أدائها(3) .

قال القرطبي : لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ،

---

(1) أي خير شيء وضعه الشارع .
(2) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .
(3) كما يقول صاحب كتاب « الفقه الواضح » أكرمه الله .

وهذا أبلغ في المقصود ، وأتم في المراد ، فإن الموت ليس له سن محددة ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد ، واصفر لونه ، فكلم في ذلك فقال : إني واقف بين يدي الله تعالى . وحق لي هذا مع ملوك الدنيا ، فكيف مع ملك الملوك ؟ .. فهذه صلاة تنهى — ولا بد — عن الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء[1] لا خشوع فيها ، ولا تذكر ، ولا فضائل ، كصلاتنا — وليتها تجزيء — فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى ، تركته الصلاة يتمادى على بعده ، وعلى هذا يخرج الحديث المروي عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، والأعمش ، قولهم : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من الله إلا بعداً ولم يزدد بها من الله إلا مقتاً »[2] انتهى[3] .

ولهذا كان لابد أن تصلى الصلاة على أساس من الخشوع الذي يستلزم حضور القلب فيها . كما يستلزم كذلك أن يكون المصلي مُستشْعِراً عظمة الخالق سبحانه وتعالى الذي يقف بين يديه حتى يشعر بالراحة الحقيقية التي أشار إليها الحبيب صلوات الله وسلامه عليه في قوله لبلال رضي الله عنه عندما كان يطلب منه إقامة الصلاة : « أرِحْنَا بها يا بلال » ولهذا ورد عنه كذلك أنه كان يقول : « وَجُعِلَتْ قرةُ عيني في الصلاة » .

هذا ، وإذا كان الحديث الذي ندور حوله يتعلق بإدراك الصلاة مع الإمام عندما تقام صلاة الجماعة فإنني أرى أولاً أن أذكر بأهم الأحكام المتعلقة بصلاة الجماعة حتى نحرص عليها ولا نتخلف عنها في كل وقت من أوقات الصلاة .

فهي سنة مؤكدة عند أكثر الفقهاء ، لا يتخلف عنها من الذكور المكلفين — لغير عذر قاهر[4] — إلا منافق بيِّن[5] النفاق ، أو ضعيف الإيمان :

---

(١) أي يقصد منها إسقاط الفرض وكفى ، دون النظر إلى مرضاة الله تعالى ، والتقرب إليه بها .
(٢) بغضاً وسخطاً .
(٣) تفسير القرطبي جـ ١٣ ص ٣٤٨ طبعة دار الكتب المصرية .
(٤) سنشير إليه بعد .
(٥) أي واضح النفاق .

● روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : « من سره أن يلقى الله غداً مسلماً ، فليحافظ على هؤلاء الصلوات ، حيث يُنَادَى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سُنن(١) الهدي ، وإنهن من سنن الهدي ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يُصلى هذا المتخلف في بيته ، لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتكم سنة نبيكم لَضَلَلْتُم ، وما من رجل يَتَطهَّرُ ، فيُحسن الطهور(٢)، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد ، إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتُنَا وما يتخلَّف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادى(٣) بين الرجلين حتى يقام في الصف » .

وفي رواية لمسلم أيضاً : « لقد رأيتُنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق ، قد عُلم نفاقه ، أو مريض . إن كان المريض ليمشي بين رجلين ، حتى يأتي الصلاة » .

● وعن جابر رضي الله عنه ، قال : « أتى ابن أم مكتوم النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني منزلي شاسع(٤) ، وأنا مكفوف البصر ، وأنا أسمع الأذان ، قال : فإن سمعت الأذان فأجب ، ولو حَبْواً ، أو زحفاً » رواه أحمد والطبراني .

وفي رواية للطبراني عن أبي أمامة قال : يعني ابن أم مكتوم — : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، أنا كما تراني قد دَبَرت(٥) سني ، ورقَّ عظمي(٦) ، وذهب بصري(٧) ، وليَ قائد ، لا يلايمني(٨) قياده إياي ، فهل تجد لي رخصة

---

(١) قال النووي : روى بضم السين وفتحها ، وهما بمعنى متقارب ، أي طرائق الهدى جـ ٥ ص ١٦٦ صحيح مسلم .

(٢) الطهور بضم الطاء القيام بالتطهر ، أما الطهور بفتح الطاء فهو ما يتطهر به من ماء أو تراب .

(٣) أي يمشي بين رَجلين يسندانه .

(٤) أي بعيد عن المسجد .

(٥) أي كبرث سني .

(٦) أي ضعف جدًّا .

(٧) أي أنه ضرير لا يرى .

(٨) أي لا يرأف بي ولا يطاوعني .

أصلي في بيتي الصلوات ، فقال لي رسول الله ﷺ : « هل تسمع المؤذن في البيت الذي أنت فيه ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : ما أجد لك رخصة ، ولو يعلم هذا المتخلف عن الصلاة في الجماعة ما لهذا الماشي إليها(١) ، لأتاها ولو حبواً على يديه ورجليه » .

وحتى تعلم أخا الإسلام ما للمحافظ على صلاة الجماعة من ثواب ، إليك كذلك هذه الأحاديث الشريفة الصحيحة :

● عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ(٢) بسبع وعشرين درجة » رواه البخاري ومسلم .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في جماعة تُضعَّفُ على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضِعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء(٣) ، ثم خرج إلى المسجد لا يُخْرِجُه إلا الصلاةُ ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحُطت عنه بها خطيئة ، فإذا صَلَّى لم تزل الملائكة تُصَلِّي عليه(٤) ما دام في مُصَلَّاه ما لم يُحدث ، تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة(٥) » متفق عليه وهذا لفظ البخاري .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « إسباغ الوضوء على المكاره(٦) ، وكثرة الخطى(٧) إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة(٨) ، فذلكم الرباط(٩) ، فذلكم الرباط » رواه مسلم .

---

(١) أي من الثواب .
(٢) أي المنفرد .
(٣) أي إسبغه وأتى بسننه وآدابه .
(٤) أي تترحم .
(٥) أي مدة انتظاره للصلاة في المسجد .
(٦) أي استيعاب أعضائه بالغسل والمسح مع السنن .
(٧) أي تتابع المشي إلى المساجد .
(٨) أي الجلوس لانتظارها بعد انقضاء الصلاة الأولى .
(٩) أي ملازمة الثغر لحفظ عورة المسلمين .

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله عز وجل : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

فلتكن كل هذه الأحاديث الشريفة الصحيحة ــ أخا الإسلام ــ سبباً في حرصك علي حضور الجماعات في جميع الأوقات .

اللهم إذا كان هناك عذر ، من :

الأعذار التي تبيح التخلف عن صلاة الجماعة

والتي منها(١) :

١ ، ٢ ــ البرد والمطر :

● فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه كان يأمر المنادي فينادي بالصلاة . ينادي : « صلوا في رحالكم في الليلة الباردة المطيرة في السفر » رواه الشيخان .

● وعن جابر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَفر فمطرنا فقال : « ليصل من شاء منكم في رَحله »(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي .

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لمؤذنه في يوم مطير إذا قلت : « أشهد أن محمداً رسول الله ، فلا تقل : حيَّ على الصلاة ، قل : صلوا في بيوتكم . قال : فكأن الناسَ استنكروا ذلك . فقال : أتعجبون من ذا ؟ فقد فعل ذا من هو خير مني : النبي ﷺ . إن الجماعة عزمة ، وإني كرهتُ أن أخرجكم فتمشوا فى الطين والدَّحض » رواه الشيخان ، ولمسلم : أن ابن عباس أمر مؤذنه في يوم جمعة في يوم مطير .

---

(١) كما جاء في « فقه السنة » للشيخ سيد سابق .

(٢) في رحله : أي في منزله .

ومثل البرد والحر الشديد والظلمة والخوف من ظالم . قال ابن بطال : أجمع العلماء على أن التخلف عن الجماعة في شدة المطر والظلمة والريح وما أشبه ذلك مباح .

٣ ــ حضور الطعام : لحديث ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال النبي ﷺ : « إذا كان أحدكم على الطعام فلا يعجل حتى يقضي حاجته منه وإن أُقيمت الصلاة » رواه البخاري .

٤ ــ مدافعة الأخبثين : فعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي ﷺ يقول :« لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافع الأخبثين »(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

٥ ــ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : « من فقه الرجل إقباله على حاجته ، حتى يقبل على صلاته وقلبه فارغ » رواه البخاري .

●● وإذا لم يكن هناك عذر من هذه الأعذار فإنه ينبغي عليك أن تحرص على أن تدرك الجماعة .. وذلك ولو بإدراك ركعة مع الإمام ، لأنك إن أدركت الإمام راكعاً ، فركعت معه ، فقد حصل لك ثواب الجماعة .

وهذا مشهور مذهب المالكية .. الذين استدلوا على هذا بقوله ﷺ :

● « من أدرك ركعة من الصلاة مع الإمام فقد أدرك الصلاة » رواه مسلم .

وفي رواية للنسائي : « فقد أدرك الصلاة كلها ، إلا أنه يقضي ما فاته » .

ومعنى قوله ﷺ : « فقد أدرك الصلاة كلها » أي أدرك ثواب الجماعة كله .

وقال كثير من فقهاء الحنفية والشافعية ، وبعض فقهاء المالكية ، والحنابلة : يحصل للمأموم ثواب الجماعة ، ولو لم يدرك معه إلا التشهد الأخير .. واستدلوا على ما ذهبوا إليه بما رواه البخاري ومسلم(٢) عن أبي

---

(١) أي البول والغائط.   (٢) وهو الحديث الذي ندور حوله .

هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال :

● « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون(١) وأتوها تمشون ، وعليكم بالسكينة ، فما أدركتم فَصَلُّوا ، وما فاتكم فأتموا » .

وقد أعجبني تعليق على هذا لصاحب كتاب « الفقه الواضح » حول هذا الموضوع ، يقول فيه :

أقول : من سمع الأذان وأتى المسجد ، دون الإبطاء قاصداً إدراك الجماعة فوجد الإمام في التشهد الأخير ، فنوى الصلاة وجلس معه أرجو أن يحصل له ثواب الجماعة ، كما قال أكثر الفقهاء .

أما من سمع الأذان ، فأبطأ في إجابته ، من غير عذر ، فجاء إلى المسجد فوجد الإمام في التشهد الأخير ، فإني أشك في حصول ثواب الجماعة له ، لإبطائه عن الحضور . والله أعلم .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى لا تبطيء في إجابتك للنداء .. وحتى لا تكون بسبب هذا من الغافلين .

وليكن مشيك إلى المسجد بسكينة ووقار دون سعي بتلك الصورة التي فسروها بأنها فوق المشي المعتاد ... لأن النبي ﷺ قد نهاك عن هذا ...

ولاحظ كذلك حديث أبي بكرة الذي جاء فيه أنه دخل المسجد ونبي الله ﷺ راكع ، فركع دون الصف ، فقال له النبي ﷺ : « زادك الله حرصاً ولا تعد » أخرجه البخاري .

فمعنى قول النبي ﷺ للرجل : « لا تَعُد » بفتح التاء وضم العين ـــ أي لا تَعد إلى السعي الشديد ، والركوع دون الصف ، ثم المشي إليه ، وأنت راكع ، ويؤيده حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا أتى أحدكم الصلاة ، فلا يركع دون الصف ، حتى يأخذ مكانه من الصف » . أخرجه الطحاوي بسند حسن .

---

(١) أي تسرعون ، فالسعي في اللغة هو المشي فوق المعتاد .

وروى « تُعِد » بضم التاء وكسر العين ، من الإعادة ، أي ولا إعادة عليك .

قال في « الفقه الواضح » : لكن إذا لم يجد المصلي فرجة في الصف ماذا يجب عليه أن يفعل ؟ هل يقف وحده ؟ أم : يجذب واحداً من الصف يقف معه ؟ .

في هذا خلاف بين الفقهاء .

والأرجح أنه يقف وحده : لأنه لو جذب واحداً من الصف ، أحدث فرجة فيه ، وقد أمرنا بسد الفرج .

قال مالك في المدونة : من صلى خلف الصفوف وحده فصلاته تامة ، مجزئة ولا يجذب إليه أحداً ، ومن جَذَبَ أحداً ليقيمه معه ، فلا يتبعه .. انتهى[1] .

وهناك حكم آخر يتعلق بإدراك صلاة الجمعة بأكملها .. أرجو كذلك أن تقف عليه ، وهو :

أن الجمعة تدرك عند المالكية والشافعية والحنابلة ، وجمهور من فقهاء الحنفية : بإدراك ركعة مع الإمام ، فإن أدرك المأموم الإمام ، وهو راكع نوى الجمعة ، وركع معه ، وأتى بركعة أخرى ، بعد سلام الإمام .

واستدلوا على ما ذَهبُوا إليه بما أخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أدرك من الجمعة ركعة فليصل إليها أخرى ، فإن أدركهم جلوساً[2] صلى أربعاً » .

قال في فقه السنة : وأما من أدرك أقل من ركعة فإنه لا يكون مُدركاً للجمعة ويُصلي ظهراً أربعاً[3] في قول أكثر العلماء . قال ابن مسعود : من أدرك من الجمعة ركعة فليُضف إليها أخرى ، ومن فاتته الركعتان فليُصلِّ

---

(١) المدونة الكبرى ص ١٠٢ جـ ١ .

(٢) أي في التشهد الأخير .

(٣) أي ينوي الجمعة ويتمها ظهراً .

أربعاً . رواه الطبراني بسند حسن .

وقال ابن عمر : إذا أدركت من الجمعة ركعة فأضِفْ إليها أخرى ، وإن أدركتهم جلوساً فَصَلِّ أربعاً . رواه البيهقي .

وهذا مذهب الشافعية والمالكية والحنابلة ومحمد بن الحسن .

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : من أدرك التشهد مع الإمام فقد أدرك الجمعة فيصلي ركعتين بعد سلام الإمام وتمت جمعته .

●● فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تكون مُنفذاً له على أساس من الفقه ، وكن إن شاء الله تعالى دَائماً وأبداً ــ اللهم إلا إذا كان هناك عذر(١) ــ محافظاً على حضور صلاة الجماعة بسكينة ووقار كما أوصاك الحبيب صلوات الله وسلامه عليه ... والله ولي التوفيق .

***

(١) من الأعذار التي وقفت عليها .

الوصية السابعة والستون

عن ابن عمر رضي الله عنهما :
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وَحَاذُوا
بَيْنَ المَنَاكِبِ[1] وَسُدُّوا الخَلَلَ[2]
وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ[3]،
وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ،
وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ
اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا
قَطَعَهُ اللَّهُ.

رواه أبو داود بإسناد صحيح

(١) منكب كمجلس : مجمع عظم العضد وَالكتف .

(٢) الخــلل بفتح اللام : الفــرجَــة .

(٣) وليـنوا بأيـدى إخوانكم : أى لا تمتنعوا عَـلى مَن يجئ ليدخل فى الصَّف فيضيق به المكان فيبـدأ صَفًا جَـديدًا ، فإذا جَـذبكم فلينوا معَـه .

● وقد ورد فى الحديث عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" سَوُّوا صفُوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصَّلاة " رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"خياركم ألينكم مناكب فى الصلاة ، وما من خطوة أعظم أجرًا من خطوة مشاها رجل إلى فرجة فى الصف فسدها " رواه البزار .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي كلها فقه ينبغي على كل مسلم أن يكون على علم به حتى إذا ما ذهب إلى المسجد لصلاة الجماعة كان منفذاً له إذا ما وقف في صف من صفوف الصلاة .

وذلك حتى يكون من المثابين على هذا ، وحتى يكون من الذين يتراصُّون في الصف كما تُصَفُّ الملائكة عند ربها :

● فقد روى الجماعة إلا البخاري والترمذي عن جابر بن سمرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال : « ألا تُصَفُّونَ كما تصف الملائكة عند ربها ؟ فقلنا : يا رسول الله كيف تُصَفُّ الملائكة عند ربها ؟ قال : يُتِمُّون الصَّفَّ الأولَ ويتراصُّون في الصف الأول » .

وفي القرآن الكريم يُشير الله تعالى إلى أنه يحب هذا ، ولا سِيَّما في صُفوف القِتال في سبيل الله ، فيقول :

● **﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص ﴾**[1] .

لأن هذا معناه النظام والخشوع التام اللذان إن تحققا في الصلاة فُهِمَ من ذلك أن العبد يدرك تماماً الهدف الأسمى من الصلاة التي ينبغي أن تكون تدريباً كاملاً له على وحدة الصف وحب النظام ولا سِيَّما وهو بين يدي الله تعالى الذي يحب هذا ، و **﴿ الذي خلق فسوّى ﴾**[2] .

ولهذا فإنه يُستحب للإمام أن يأمر بتسوية الصفوف وسَدِّ الخلل قبل الدخول في الصلاة كما كان يفعلُ رسول الله ﷺ :

● فعن أنس أن النبي ﷺ كان يقبل علينا بوجهه قبل أن يُكَبِّر فيقول : « تَراصُّوا واعتدِلُوا » رواه البخاري ومسلم ، وَرَوَيَا ــ كذلك ــ عنه أن النبي ﷺ قال : « سَوُّوا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة » .

---

(١) سورة الصف : الآية ٤ .

(٢) سورة الأعلى : الآية ٢ .

● وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يُسَوِّينَا في الصفوف كما يُقَوَّمُ القِدح[1] حتى إذا ظنَّ أن قد أخذنا ذلك عنه وفقهنا أقبل ذات يوم بوجهه إذا رجل منتبذ بصدره[2] فقال : « لَتسوُّنَّ صُفُوفكم أو ليُخالِفنَّ الله بين وجوهكم » رواه الخمسة وصححه الترمذي .

وهذا منتهى التحذير : لأن مخالفة الوجوه ، كناية عن اختلاف القلوب ، وحصول العداوة والبغضاء بين المسلمين .. والله تعالى يأمر بعكس هذا ، فيقول :

● ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ... ﴾[3] .

● وروى أحمد والطبراني بسند لا بأس به عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « سَوُّوا صفوفكم ، وحاذوا بين مناكبكم لِينُوا في أيدي إخوانكم وسُدُّوا الخلل فإن الشيطان يدخل فيما بينكم بمنزلة الحَذَفِ » .

فمعنى : حاذوا بين المناكب[4] ، أي اجعلوا بعضها حذاء بعض بحيث يكون منكب كل واحد من المصلين محاذياً وموازياً لمنكب الآخر .

ومعنى : لينوا في أيدي إخوانكم : أي إذا وجد فيك أخوك اعوجاجاً عن الصف وأنت في الصلاة فجذبك إليه ليسوى بك الصف فإنه ينبغي أن تلين في يده ، ولا تستصعب عليه ... وقد قال المناوي في توضيح هذا : أي ألزمكم للسكينة والوقار والخشوع ، ويحتمل أن يكون معناه أي لايمتنع على من يريد الدخول بين الصفوف لسد الخلل ولضيق المكان بل يُمكِّنه من ذلك ولا يدفعه بمنكبه ، أو أنه يطاوع من جره ليصطف معه إذا لم يجد فرجة .

ومعنى : سَدُّ الفرج ، أي الخلل الذي يكون في صفوف الصلاة .

وقد ورد الترغيب في هذا :

---

(١) المراد أنه كان يبالغ في تسويتها كأنما يقوم بها السهام لشدة استوائها واعتدالها .

(٢) أي مرتفعاً بالتقدم على صدور أصحابه في الصف .

(٣) آل عمران : الآية ١٠٣ .

(٤) جمع منكب وهو مجتمع رأس العضد والكتف .

● فعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله وملائكته يصلون على الذين يَصِلون الصفوف »[١] رواه أحمد ،وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحيهما والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، وزاد ابن ماجه : « ومن سَدَّ فُرجة رفعه الله بها درجة » .

● وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يأتي الصفَّ من ناحية إلى ناحية[٢] فيمسح مناكبنا ، أوصدورنا ، ويقول : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، قال : وكان يقول : إن الله وملائكته يُصلون على الذين يَصِلون الصفُوف الأُوَل »[٣] رواه ابن خزيمة في صحيحه[٤] .

● وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « مَن وَصَلَ صَفًّا[٥] وصله الله[٦] ، ومَن قطع صفًّا قطعه الله » رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، ورواه أحمد وأبو داود .

● وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خيارُكم أليَنُكُم مناكبَ في الصلاة ، وما من خُطوة أعظم أجراً من خطوة مشاهَا رَجُلٌ إلى فُرجَةٍ في الصف فسَدَّها » رواه البزار بإسناد حسن ، وابن حبان في صحيحه ، كلاهما بالشطر الأول ، ورواه بتمامه الطبراني في الأوسط . وكذلك روى شطره الأول أبوداود والبيهقي عن ابن عباس بإسناد صحيح .

هذا مع ملاحظة أنك إذا سِرتَ بين الصفوف لكي تسد فُرجَة في الصف فإنه يجوز لك هذا ، لأن الإمام سيكونُ سُترة لك، ولكل مَنْ خَلفه :

● فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : هبطنا مع رسول الله

---

(١) أي يملأونها ويسدون الفرج التي فيها .
(٢) يعني يمشي على طول الصف يتعهده ويسوي فيه .
(٣) يعني يدخلون فيها ليتموها ويسدوا ما بها من فرج .
(٤) قال في الزوائد : إسناد حديث البَراء صحيح ورجاله ثقات .
(٥) يعني دخل فيه وأتمه .
(٦) أي أدام عليه بره وتابع عليه نعمه .

ﷺ من ثنية أذاخر(١) فحضرت الصلاة ، فصلى إلى جدار فاتخذه قبلة ونحن خلفه فجاءت بهمة(٢) تمر بين يديه فما زال يدارئها(٣) حتى لصق بطنه بالجدار ومرت من ورائه » رواه أحمد وأبو داود .

● وعن ابن عباس ، قال :«أقبلت راكباً على أتان(٤) وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام (٥) والنبي ﷺ يُصلي بالناس بمنىً فمررتُ بين يدي بعض الصف ، فأرسلتُ الأتان تَرتع(٦) ودخلت في الصف فلم ينكر ذلك عليَّ أحد » . رواه الجماعة .

أما إذا كان المصلى إمَاماً أو منفرداً : فإنه يَحْرُمُ المرور بين يدي المصلي وسترته :

● فعن بُسر بن سعيد قال : إن زيد بن خالد أرسله إلى أبي جُهَيم يسأله ماذا سمع من رسول الله ﷺ : في المارِّ بين يدي المصلي ؟ فقال أبو جُهيم : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه » رواه الجماعة .

● وعن زيد بن خالد أن النبي ﷺ قال : « لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه كان لأن يقومِ أربعين خريفاً خير له من أن يمر بين يديه » رواه البزار بسند صحيح .

قال ابن القيم ، قال ابن حبان وغيره : التحريم المذكور في الحديث إنما هو إذا صلى الرجل إلى سترة ، فأما إذا لم يُصَلِّ إلى سترة فلا يحرم المرور بين يديه ، واحتج أبو حاتم(٧) على ذلك بما رواه في صحيحه عن المطلب بن أبي وداعة ،

---

(١) التثنية : الطريق المرتفع ، وأذاخر : موضع قرب مكة .
(٢) البهمة : ولد الضأن .
(٣) يدارئها : أي يدافعها .
(٤) أي الحمارة ولا تقل أتانه .. مختار الصحاح .
(٥) ناهزت الاحتلام : أي قاربت البلوغ .
(٦) الرتع : الرعي .
(٧) أبو حاتم : هو ابن حبان .

قال : رأيت النبي ﷺ حين فرغ من طوافه أتى حاشية المطاف فصلى ركعتين وليس بينه وبين الطوافين أحد . قال أبوحاتم : في هذا الخبر دليل على إباحةمرور المرء بين يدي المصلي إذا صلى إلى غير سترة . وفيه دليل واضح على أن التغليظ الذي روى في المار بين يدي المصلي إنما أريد بذلك إذا كان المصلي يصلي إلى سترة دون الذي يصلي إلى غير سترة يستتر بها ...

وقد قال في فقه السنة ، تحت عنوان :

مشروعية دفع المار بين يدى المصلى

إذا اتخذ المصلي سترة يشرع له أن يدفع المار بين يديه إنساناً كان أو حيواناً ، أما إذا كان المرور خارج السترة فلا يشرع الدفع ولا يضره المرور .

فعن حميد بن هلال قال : بينما أنا وصاحب لي نتذاكر حديثاً إذ قال أبو صالح السمان : أنا أحدثك ما سمعت عن أبي سعيد ورأيت منه ، قال : بينما أنا مع أبي سعيد الخدري نصلي يوم الجمعة إلى شيء يستره من الناس إذ دخل شاب من بني أبي مُعيط أراد أن يجتاز بين يديه فدفعه في نحره فنظر فلم يجد مساغاً[1] إلا بين يدي أبي سعيد فعاد ليجتاز فدفعه في نحره أشد من الدفعة الأولى ، فمثل قائماً ونال من أبي سعيد[2] ثم تزاحم الناس ، فدخل على مروان فشكا إليه ما لقي ، ودخل أبو سعيد على مروان فقال : مالك ولابن أخيك جاء يشكوك ؟ فقال أبو سعيد : سمعت النبي ﷺ يقول : « **إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس فأراد أحد أن يجتاز بين يدي فليدفعه فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان** » رواه البخاري ومسلم .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا ... وأن يجعل بين يديه سترة تمنع المرور بين يديه إذا أراد أن يصلى سواء كان إماماً أو منفرداً :

● فعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا صلى أحدكم فليصل إلى سترة وليدن منها** » رواه بو داود وابن ماجه .

---

(١) مساغاً : أي ممرًا .   (٢) أي أصاب من عرضه بالشتم .

● وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج يوم العيد أمر بالحربة فتوضع بين يديه فيصلي إليها والناس وراءه ، وكان يفعل ذلك في السفر ثم اتخذها الأمراء . رواه البخاري ومسلم وأبو داود .

ويرى الحنفية والمالكية أن اتخاذ السترة إنما يُستحب للمصلي عند خوف مرور أحد بين يديه ، فإذا أمن مرور أحد بين يديه فلا يُستحب .

لحديث ابن عباس أن النبي ﷺ صلى في فضاء وليس بين يديه شيء . رواه أحمد وأبو داود ، وروراه البيهقي وقال : وله شاهد بإسناد أصح من هذا عن الفضل بن عباس .

قال في « فقه السنة » : وتتحقق السترة بكل شيء ينصبه المصلي تلقاء وجهه ولو كان نهاية فرشه :

● فعن صبرة بن معبد قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلى أحدكم فليستتر لصلاته ولو بسهم » رواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ، وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح .

● وعن أبي هريرة قال : قال أبو القاسم ﷺ : « إذا صلى أحدكم فليجعل تلقاء وجهه شيئاً ، فإن لم يجد شيئاً فلينصب عَصاً ، فإن لم يكن معه عصاً فليخط خطًا ولا يضره ما مر بين يديه » رواه أحمد وأبو داود وابن حبان وصححه ، كما صححه أحمد وابن المديني ، وقال البيهقي : لا بأس بهذا الحديث في هذا الحكم إن شاء الله .

قال في الدين الخالص : وينبغي في السترة الترتيب على ما في الحديث ، فتكون بالحائط ونحوه ثم العصا ثم الخط .. وعند الإمام أحمد : يكون الخط معترضاً أمام المصلي مقوساً كالهلال في انعطاف طرفيه .. واختار بعض الحنفية أن يكون مستقيماً من بين يدي المصلي إلى القبلة ...

هذا ، مع ملاحظة أن ما تقدم من طلب اتخاذ السترة إنما هو في غير المسجد الحرام ، لأنه يجوز فيه ترك اتخاذ السترة ولا سيما في محل الطواف ، وحينئذ يجوز المرور أمام المصلي وإن اتخذ سترة ...

قال في الدين الخالص[1] : « والحكمة » في الترخيص في ترك السترة بالمسجد الحرام ازدحام الناس فيه وكثرة الطائفين به ، فلو منع المرور بين يدي المصلي لكان فيه حرج ومشقة وقد قال الله تعالى : ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ .

فكن أخا الإسلام على علم بكل هذا ونفذه ، ولا سيما بالنسبة لتسوية الصفوف .. لأن تسوية الصفوف كما عرفت : « من تمام الصلاة » أو : « من إقامة الصلاة » .

خاصة وأن ابن حزم قد استدل بذلك على وجوب التسوية ، فقال : لأن إقامة الصلاة واجبة ، وكل شيء من الواجب واجب ، ونازع من ادعى الإجماع على عدم وجوب التسوية .

وقد روي عن عمر وبلال رضي الله عنهما ما يدل على الوجوب لأنهما كانا يضربان الأقدام على ذلك ، والجمهور على أنها سنة وقد استدلوا لذلك بما في البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ : « فإن إقامة الصف من حسن الصلاة » لأن حسن الشيء زيادة على تمامه .

والله ولي التوفيق .



(١) ارجع إلى الجزء الثالث من الدين الخالص حتى تقرأ آراء الفقهاء في هذا الموضوع .

الوصية الثامنة والستون

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه .
أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

صَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ ، فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ[1] .

متفق عليه

---

(١) المكتوبة : أى المفروضة . وهذا ترغيب فى صلاة النوافل فى البيوت .

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذه الوصية العظيمة التي يوصيك فيها النبي ﷺ بأن تصلي التطوع في بيتك حتى تنوره ، وحتى تعمره بالخير :

فقد ورد في حديث رواه الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « صلاة الرجل في بيته تطوعاً نُور فمن شاء نَوَّرَ بيته » .

وروى أحمد ومسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا صلى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نَصيباً من صَلاتِه فإن الله عز وجل جَاعِلٌ في بيته من صلاته خيراً » .

وحسبك أخا الإسلام ترغيباً لك في هذا الخير الذي يوصيك به النبي ﷺ أن تلاحظ ما قاله الإمام النووي ، وهو :

إنما حث على النافلة في البيت لكونه أخفى وأبعد عن الرياء وأصون من مُحبطاتِ الأعمال ، وليتبرك البيت بذلك وتنزل فيه الرحمة والملائكة ، وينفر منه الشيطان .

وأنه بصلاة النافلة في البيت : تحصل البركة بذكر الله والصلاة ، وتنزل عليه الرحمة ، وتدخله الملائكة ، ويتعود من فيه من الخَدَمِ والأولاد على أداء الصلاة ... إلخ .

هذا بالإضافة إلى أن البيت الذي ستُصلَّى فيه النوافل لن يكون شبيهاً بالقبر :

فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ، قال : « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم(١) ولا تتخذوها قبوراً » رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والترمذي والنسائي .

قال النووي : معناه صلوا فيها ولا تجعلوها كالقبور مهجورة من الصلاة ، والمراد به صلاة النافلة ...

وقد شبه النبي ﷺ البيت الذي لا يذكر الله عز وجل فيه بجسد ميت

---

(١) يعني صلوا فيها بعض صلاتكم وهي النافلة ولا تهجروها بالكلية .

لا روح فيه ،لأن ذكر الله عز وجل حياة للقلوب والأرواح وللبيوت أيضاً ، فأيُّما بيت خلا من ذكر الله عز وجل فهو كالقبر المهجور أو كالبيت الخرب الذي خلا من ساكنيه :

● فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « مثل البيت الذي يُذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه : مثل الحيِّ والميت » رواه البخاري ومسلم .

قال النووي : فيه الندب إلى ذكر الله تعالى في البيت وأنه لا يُخلى من الذكر ، وفيه جواز التمثيل ، وفيه أن طول العمر في الطاعة فضيلة وإن كان الميت ينتقل إلى خير لأن الحي سيلحق به ويزيد عليه بما يفعله من الطاعات .

هذا ، وإذ كان لنا أن نقف على النوافل المرغب في أدائها في بيوتنا كما روى أبو داود بإسناد صحيح عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ قال : « صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة » .

فإنه ينبغي علينا حتى تتم الفائدة وحتى نكون على علم كامل بأقسام التطوع :

أن أشير إلى أن التطوع ينقسم إلى تطوع مطلق ، وإلى تطوع مُقَيَّد .

أما التطوع المطلق فإنه يقتصر فيه على نية الصلاة .

قال النووي : فإذا شرع في تطوع ــ مطلق ــ ولم ينو عدداً فله أن يسلم من ركعته وله أن يزيد فيجعلها ركعتين أو ثلاثة أو مائة أو ألفاً أو غير ذلك .

ولو صلى عدداً لا يعلمه ثم سلم صَحَّ بلا خلاف اتفق عليه أصحابنا ونص عليه الشافعي في الإملاء .

● وروى البيهقي بإسناده أن أبا ذر رضي الله عنه صلى عدداً كثيراً فلما سلم قال له الأحنف بن قيس رحمه الله : هل تدري انصرفت على شفع أم على وتر ؟ قال : إن لا أكن أدري فإن الله يدري ، إني سمعت خليلي أبا القاسم ﷺ يقول ثم بكى . ثم قال : إني سمعت خليلي أبا القاسم ﷺ يقول : « ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة » رواه

الدارمي في مسنده بسند صحيح إلا رجلاً اختلفوا في عدالته .

●● وقد شرع التطوع هذا ـــ سواء كان مطلقاً أم مقيداً ـــ ليكون جبراً لما عسى أن يكون قد وقع في الفرائض من نقص ولما في الصلاة من فضيلة ليست لسائر العبادات :

● فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامةمن أعمالهم الصلاة ، يقول ربنا لملائكته ، وهو أعلم : أنظروا في صلاة عبدي أَتَمَّهَا أم نَقَصَهَا ؟ فإن كانت تَامَّةً كُتِبَت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً ، قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فإن كَان له تطوع ، قال : أتموا لعبدي فريضَتَه من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك » رواه أبو داود .

● وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما أُذِنَ الله لعبد في شيء أفضلَ من ركعتين يُصليهما ، وإن البر لَيُذَرُّ[1] فوق رأس العبد ما دام في صلاته » الحديث رواه أحمد والترمذي وصححه السيوطي .

● وقال مالك في الموطأ : بلغني أن النبي ﷺ ، قال : « استقيموا ولن تُحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

● وروى مسلم عن ربيعة بن مالك الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « سل » فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : « أوغير ذلك » ؟ قلت : هو ذاك . قال : « فأعني على نفسك بكثرةالسجود » .

● وجاء في نص حديث رواه الترمذي وقال عنه أنه حديث حسن صحيح : أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « ألا أدلك على أبواب الخير ـــ وفي رواية : ألا أدلك على أبواب الجنة : الصوم جُنَّة[2] ، والصدقة تُطفيء الخطيئة كما يطفي الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل . ثم تلا : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما

(١) أي ينثر .
(٢) أي وقاية .

رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفِي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾[1] » .

ولهذا كان من الخير أن نكون من هؤلاء الموفَّقِين الذين : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ... ﴾ وأن نكون من الذين يكثِرون من صلاة التطوع في بيوتهم ، وأن نكون بصفة خاصة من الذين يقومون الليل حتى نكون إن شاء الله من الذين سيدخلون الجنة بسلام .

● فعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل[2] الناسُ إليه فكنتُ فيمن جَاءه ، فلما تأمَّلْتُ وجهَهُ واستبنتهُ[3] عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كَذَّاب ، قال : فكان أولَ ما سمعتُ من كلامه أن قال : « أيها الناسُ : أفشوا السلامَ ، وأطعموا الطعامَ ، وصِلُوا الأرحَامَ ، وصَلُّوا بالليل والناسُ نيام[4] : تدخلوا الجنة بسلام[5] » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وابن ماجه والحاكم ، وقالا : صحيح ـــ على شرط الشيخين .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأسِ أحدكم[6] إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ[7] يضربُ على كل عُقدة : عليك ليل طويل فارقد[8] ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضَّأ انحلَّت عقدة ، فإن صلى انحلت عُقَدُهُ كلُّها فأصبح نشيطاً طيبَ النفس[9] ، وإلا أصبحَ خبيث النفس كسلان[10] » رواه مالك والبخاري ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه وقال : « فيصبحُ

---

(1) السجدة ١٦ ، ١٧.
(2) أي أسرعوا إليه .
(3) أي تبينته .
(4) أي صلوا أنتم بالليل حين ينام أهل الغفلة المخذولون .
(5) أي مصاحبين للسلام وهو الأمان من العذاب .
(6) أي مؤخر العنق أو وسط الرأس .
(7) قيل معناه : يمر بيده عليها ويضغط على حباله الداعية إلى الكسل والخمول ، وقيل : يضرب بالرقاد ، ومعناه حجب الحس عن النائم حتى لا يستيقظ .
(8) أي أمامك ليل طويل فنم واهدأ .
(9) أي خفيف البدن مستريح النفس شاعراً بقوة ونشاط .
(10) أي بليداً مسترخياً متعب النفس شاعراً بسآمة وضجر وفتور همة .

نشيطاً طيب النفس قد أصابَ خيراً ، وإن لم يفعل أصبح كَسِلاً خبيث النفس لم يُصِبْ خيراً » رواه ابن خزيمة في صحيحه بنحوه ، وزاد في آخره : « فحلُّوا عُقَد آلشيطان ولو بركعتين » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم(١) ، وأفضلُ الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل(٢) » رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحه .

● وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « في الجنة غرفةٌ(٣) يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها(٤) ، فقال أبو مالك الأشعري : لمن هي(٥) يا رسول الله ؟ قال : لمن أطابَ الكلامَ(٦) ، وأطعم الطعامَ ، وباتَ قائماً(٧) والناسُ نيامٌ » رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله(٨) رجلاً قام من الليل فصلّى ، وأيقظ امرأته(٩) ، فإن أبت نضح في وجهها الماء(١٠) ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء(١١) » رواه أبو داود ، وهذا لفظه ، والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم . وعند بعضهم : رَشَّ ، ورشَّت بدل : نضح ونضَحت ، وهو بمعناه .

---

(١) يعني أن أفضل صيام التطوع بعد الفريضة هو ما كان في هذا الشهر ، وأضافه إلى الله تعظيماً لشأنه .
(٢) يعني التهجد بالليل وهو الصلاة بعد النوم ولو قليلاً ويبتدىء من نصف الليل إلى قبيل الفجر .
(٣) الغرفة هى البناء العالى ، قال تعالى : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ﴾
(٤) أي أنهار رقيقة شفافة ، فمن كان داخلها يري ما هو خارجها والعكس .
(٥) يعني لمن أعدت هذه الغرف وما العمل الذي يوصل إليها .
(٦) يعني أحسن القول وألانه ورد على محدثه ردًّا جميلاً ودفع السيئة بالتي هي أحسن .
(٧) أي قائماً يصلي ويتهجد .
(٨) جملة دعائية ، ويحتمل أن تكون خبرية .
(٩) لكي تنال مع فضيلة قيام الليل وهو من باب التعاون على البر والتقوى ، والمراد إيقاظها بالنداء عليها .
(١٠) أي رش على وجهها قليلاً من الماء لتتنبه وتستيقظ .
(١١) يعنى أن هذا الفضل يحصل كذلك للمرأة إذا استيقظت وأيقظت زوجها .

● وروى الطبراني في الكبير عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يستيقظ من الليل فيوقظ امرأته ، فإن غَلبها النوم نضح في وجهها الماء[1] ، فيقومان في بيتهما فيذكران الله عز وجل ساعة من الليل[2] إلا غُفِرَ لهما » .

● وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلّيا ، أو صلى[3] ركعتين جميعاً : كُتِبَا في الذاكرين والذاكِرَات » رواه أبو داود ، وقال : رواه ابن كثير موقوفاً على أبي سعيد ، ولم يذكر أبا هريرة ، ورواه النسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وألفاظهم متقاربة :

● « من استيقظ من الليل ، وأيقظ أهله فصلّيا ركعتين » زاد النسائي : جميعاً[4] : « كُتبا من الذاكرين اللهَ كثيراً والذاكرات » قال الحافظ[5] : صحيح على شرط الشيخين .

وآخر حديث أذكر به هنا .. :

● عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، قال : قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه[6] ، فقيل له[7] : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » رواه البخاري ومسلم والنسائي .

وفي رواية لهما وللترمذي ، قال :

---

(١) يعني أنه يجتهد في إيقاظها بكل وسيلة حتى ولو كان ذلك برش الماء على وجهها .

(٢) المراد بالساعة هنا مطلق الوقت ، والذكر يشمل الصلاة وقراءة القرآن والاستغفار ونحو ذلك ويحتمل أن يكون المراد منه الصلاة بدليل الروايات الأخرى التي صرحت للفظ الصلاة .

(٣) « أو » هنا شك من الراوي في لفظ الصلاة هل هو بالتثنية أم المراد بالإفراد ولكن الصحيح أنه مثنى لعودته إلى الرجل والمرأة .

(٤) هو تأكيد للضمير في قوله : « فصليا » ويحتمل أن يكون المراد صلاتهما في جماعة بأن يؤمها في الصلاة .

(٥) وفي بعض النسخ : « قال الحاكم » ولعله أصوب .

(٦) يعني انتفخت من طول قيامه في صلاة الليل .

(٧) أي قال له أصحابه إشفاقاً عليه .

● « إن كان النبي ﷺ ليقوم أو لِيُصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه ، فيقال له ، فيقول : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يقوم حتى ترم قدماه فقيل له : أي رسولَ الله أتصنع هذا وقد جاءك من الله أن قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» رواه ابن خزيمة في صحيحه .

وقد قال الشرقاوي كلاماً هامًّا حول قول الرسول ﷺ : « أفلا أكون عبداً شكوراً» أرجو أن تنتفع به، وهو: «أي أأترك قيامي وتهجدي لما غفر لي فلا أكون عبداً شكوراً ، يعني أن غفران الله لي سبب لأن أقوم وأتهجد شكراً له فكيف أتركه ، كأن المعنى : ألا أشكره وقد أنعم علي وخَصَّني . بخير الدارين ، فإن الشكر من أبنية المبالغة يستدعي نِعمة خطيرة ، وتخصيص العبد بالذكر مشعر بغاية الإكرام والقرب من الله تعالى ، ومن ثَمَّ وصفه به في مقام الإسراء . وفيه أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة وهو أفضل إن لم يخش المَلَل ، لأنه إذا كان هذا فعل المغفور له ، فكيف من جهل حاله ، وأثقلت ظهره الأوزار ولا يأمن عذاب النار » اهـ .

فلاحظ هذا الإيجاز المفيد أخا الإسلام وكن بسبب فهمه والوقوف على أبعاده والمراد منه من الذين يقومون الليل لأنه كما علمتَ من أعظم القربات إلى الله تعالى وهو من صفات : عباد الرحمن الذين قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ والذين يبيتون لربهم سُجداً وقياماً ﴾(١) .

واعلم أنه يُسَنُّ لك إذا أردتَ قيام الليل ــ إن شاء الله ــ أن تُلاحظ الآداب الآتية :

١ ــ أن تنوي عند نومك قيامَ الليل :

● فعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال : « من أتى فِراشَه وهو ينوي أن

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٦٤ .

يقوم فيصلي من الليل ، فغلبته عينه حتى يُصبح : كُتب له ما نوى ، وكان نومه صدقةً عليه من رَبِّه » رواه النسائي وابن ماجه بسند صحيح .

٢ ــ أن تمسح عن وجهك النومَ عند الاستيقاظ وتتسوك وتنظر في السماء ثم تدعو بما جاء عن رسول الله ﷺ ، وهو : « لا إله إلا أنتَ سبحانك ، أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زِدني علماً ، ولا تُزِغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب . الحمد لله الذي أحيانًا بعدما أماتنا وإليه النشور .

ثم اقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران ، ابتداء من قوله تعالى : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهارِ لآيات لأولي الألباب** ﴾[1] إلى آخر السورة[2] .

ثم قل : « اللهم لك الحمد أنتَ نور السموات والأرض ، ومن فيهن ، ولك الحمدُ ، أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خَاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ ، ومأأسررتُ وما أعلنتُ ، أنت الله لا إله إلا أنت » .

٣ ــ أن تفتتح صلاةَ الليل بركعتين خفيفتين ، ثم تصلي بعدهما ما تشاء :

● فعن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يُصلي افتتح صلاته بركعتين خفيفتين » رواه مسلم .

● وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين » رواه مسلم .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٠ .

(٢) أي إلى الآية ٢٠٠ .

٤ ــ أن توقظ أهلك :

● فعن أم سلمة[1] أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال : « سبحان الله ، ماذا أنزل الليلة من الفتنة ، ماذا أنزل من الخزائن ، مَن يوقظ صواحب الحجرات ، يارُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ يومَ القيامة » رواه البخاري .

● وعن عليٍّ أن رسولَ الله ﷺ طرقه وفاطمة ، فقال : « ألا تُصَلِّيَان ؟ » قال : فقلت : يا رسولَ الله أنفُسَنا بيد الله . فإن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضربُ فخذه وهو يقول : ﴿ ... **وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلا** ﴾[2] متفق عليه .

٥ ــ أن تترك الصلاة وترقد إذا غلبك النعاس حتى يذهب عنك النوم :

● فعن عائشة أن النبي ﷺ قال : « إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع » رواه مسلم .

● وقال أنس : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين ، فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : لزينب تصلي ، إذا كسلت أو فترت أمسكت به . فقال : « حُلُّوه ، لِيُصَلِّ أحدُكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليرقد » متفق عليه .

٦ ــ ألا تشق على نفسك ، بل تقوم من الليل بقدر ما تتسع له طاقتك ، وتواظب عليه ولا تتركه إلا لضرورة :

● فعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملُّوا » رواه البخاري ومسلم .

أي : أن الله لا يقطع الثواب حتى تقطعوا العبادة .

● وروى البخاري ومسلم كذلك عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « أدومه وإن قل » .

---

(١) بالإضافة إلى الأحاديث الشريفة التي وقفت عليها قبل ذلك في نفس الموضوع .
(٢) الكهف : الآية ٥٤ .

● وروى مسلم عنها ، قالت : « كان عمل رسول الله ﷺ دِيمة ، وكان إذا عمل عملاً أثبتَه » .

●● مع ملاحظة :

● أن صلاة الليل تجوز في أول الليل ووسطه وآخره ما دامت الصلاةُ بعد العِشاء :

● قال أنس رضي الله عنه في وصف صلاة رسول الله ﷺ : « ما كنا نشاء أن نراه من الليل مُصَلِّياً إلا رأيناه ، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه ، وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً ، ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً » . رواه أحمد والبخاري والنسائي .

قال الحافظ : لم يكن لتهجده ﷺ وقت معين بل بحسب ما يتيسر له القيام .

● وأن الأفضل تأخير صلاة الليل إلى الثلث الأخير من الليل :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « ينزل ربنا عز وجل كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، مَن يستغفرني فأغفر له » رواه الجماعة .

● وقال أبو مسلم لأبي ذر : أي قيام الليل أفضل ؟ قال : سألت رسول الله ﷺ كما سألتني ، فقال : « جوف الليل الغابر[1] وقليل فاعله » رواه أحمد بإسناد جيد .

● وأنه ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ولا حَدٌّ معين ، فهي تتحقق ولو بركعة الوتر بعد صلاة العشاء :

● فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ : أن نصلى من الليل ما قل أو كثر ونجعل آخر ذلك وتراً » رواه الطبراني والبزار .

---

(١) الغابر : الباقي أو نصف الليل .

قال في « فقه السنة » : والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاث عشرة ركعة ، وهو مخير بين أن يَصِلها وبين أن يقطعها :

● قالت عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة ، يُصلى أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولِهِنَّ ، ثم يُصلى أربعاً فلا تسأل عن حُسنهن وطولِهِنَّ ، ثم يُصلى ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله أتنام قبل أن تُوتِر ؟ فقال : « يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي » رواه البخاري ومسلم . ورويا أيضاً عن القاسم بن محمد ، قال : سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول : كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل عشر ركعات ويوتر بسجدة .

ثم يقول في « فقه السنة » تحت عنوان :

قضاء قيام الليل

روى مسلم عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا فاتته الصلاة من الليل من وَجع أو غيره صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة .

● وروى الجماعة إلا البخاري : عن عمر أن النبي ﷺ قال : « من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب كأنما قرأه من الليل » .

●● هذا ، وأما عن السنن الراتبة المتعلقة بكل صلاة مكتوبة .. فإنها تنقسم إلى قسمين : مؤكدة ، وغير مؤكدة[1] سواء كانت تلك السُّنن قَبلية أو بَعدية وهاك بيان كل على حدة :

السنن المؤكدة

١ ـــ سنة الفجر :

● فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، في

---

(١) السنن المؤكدة هي التي فعلها النبي ﷺ وواظب عليها .. أما غير المؤكدة فهي التي فعلها النبي ﷺ ولم يواظب عليها .. وكلاهما خير ينبغي المحافظة عليه .

الركعتين قبل صلاة الفجر ، قال : « هما أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً » رواه أحمد ومسلم والترمذي .

● وعن عائشة أيضاً أنها قالت : « لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد معاهدة[1] من الركعتين قبل الصبح » رواه الشيخان وأحمد وأبو داود .

● وعنها ـــ أيضاً ـــ أن النبي ﷺ قل : « ركعتا الفجرخير من الدنيا وما فيها » رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائيْ .

ولأحمد ومسلم عنها ، قالت : ما رأيته إلى شيء من الخير أسرع منه إلى الركعتين قبل الفجر .

● والمعروف من هَدي الرسول ﷺ : أنه كان يُخفف القراءة في ركعتي الفجر :

● فعن حفصة ، قالت : كان رسول الله ﷺ يُصلي ركعتي الفجر قبل الصبح في بيتي يخففهما جدًّا . قال نافع : وكان عبد الله « يعني ابن عمر » يخففهما كذلك. رواه أحمد والشيخان .

وأما عن القراءة فيهما ، فقد ورد :

● عن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر : ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ و ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ وكان يُسِرُّ بهما. رواه أحمد والطحاوي . وكان يقرأهما بعد الفاتحة ، لأنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب .

● وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر : ﴿ **قولوا آمنَّا بالله وما أُنزِل إلينا** .. ﴾[2] والتي في آل عمران : ﴿ .. **تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم** ... ﴾[3] رواه مسلم .

---

(١) معاهدة : أي مواظبة .

(٢) البقرة : الآية ١٣٦ .

(٣) آل عمران : الآية ٥٢ .

● وعنه في رواية أبي داود أنه كان يقرأ في الركعة الأولى : ﴿ **قولوا آمنا بالله** ﴾ وفي الثانية : ﴿ **فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر قال مَن أنصاري إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنّا مسلمون** ﴾[1] .

ويجوز الإقتصار على الفاتحة وحدها لأنه ورد عن عائشة في حديث رواه أحمد والنسائي ومالك والطحاوي : أنه ﷺ كان يقوم في الركعتين قبل صلاة الفجر قدر ما يقرأ بفاتحة الكتاب .

ومن السنة الاضطجاع بعدهما .

● فقد قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ : إذا ركع ركعتي الفجر اضطجع على شِقه الأيمن . رواه الجماعة .

● ورووا عنها ــ كذلك ــ أنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى ركعتي الفجر فإن كنتُ نائمة اضطجع وإن كنت مستيقظة حدثني .

وذهب بعض السلف إلى استحبابهما في البيت دون المسجد ، وهو محكي عن ابن عمر ...

وأما عن قضاء ركعتي الفجر ، فقد ورد :

● عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « من لم يصل ركعتي الفجر حتى تطلع الشمي فليصلّها » رواه البيهقي . قال النووي : وإسناده جيد .

ويجوز أن تقضى : قبل طلوع الشمس وبعد طلوعها ، سواء كان فواتها لعذر ، أو لغير عذر ، وسواء فاتت وحدها أو مع الصبح ... كما جاء هذا في ظاهر الأحاديث الواردة في هذا الموضوع .

٢ ــ سنة الظهر :

وقد ورد في السنة أنها أربع ركعات أو ست أو ثمان ، وإليك ما ورد في كل هذا :

---

(١) آل عمران : الآية ٥٢ .

● عن ابن عمر ، قال : حفظتُ من النبي ﷺ عشر ركعات : « ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب في بيته ، وركعتين بعد العشاء في بيته ، وركعتين قبل صلاة الصبح » رواه البخاري .

● وعن عبد الله بن شقيق ، قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله ﷺ ؟ قالت : « كان يصلي قبل الظهر أربعاً ، واثنتين بعدها » رواه أحمد ومسلم وغيرهما .

● وعن أم حبيبة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « من صلى أربعاً قبل الظهر وأربعاً بعدها : حرم الله لحمه على النار » رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي .

وقد ورد في أفضلية الأربع قبل الظهر :

● عن أبي أيوب الأنصاري : « أنه كان يصلي أربع ركعات قبل الظهر ، فقيل له : إنك تُديم هذه الصلاةَ ، فقال : إني رأيتُ رسول الله ﷺ يفعله ، فسألته فقال : « إنها ساعة تُفتح فيها أبوابُ السماء ، فأحببتُ أن يرفع لي فيها عمل صالح » رواه أحمد وسنده جيد .

وإذا صليت أربعاً قبلها أو بعدها .. فالأفضل أن تُسلم بعد كل ركعتين .. وإن كان يجوز أن تصليها مُتصلة بتسليم واحد ، لقول رسول الله ﷺ : « صلاة الليل والنهار مثنى مثنى » رواه أبو داود بسند صحيح .

وعن قضاء سنتي الظهر ، ورد :

● عن عائشة : أن النبي ﷺ كان إذا لم يصل أربعاً قبل الظهر صلاهن بعدها » . رواه الرمذي وقال : حديث حسن غريب .

● وروى ابن ماجه عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الأربع قبل الظهر صلاهن بعد الركعتين بعد الظهر(١) » .

وأما عن قضاء الراتبة البعدية فقد جاء فيه ، ما رواه أحمد :

---

(١) السنن القبلية يمتد وقتها إلى آخر وقت الفريضة .

● عن أم سلمة قالت : صلى رسول الله ﷺ الظهر ، وقد أُتيَ بمالٍ فقعد يُقَسِّمه حتى أتاه المؤذن بالعصر ، فصلى العصرَ ثم انصرفَ إليَّ ، وكان يومي ، فركع ركعتين خفيفتين ، فقلنا : ما هاتان الركعتان يا رسول الله ، أُمِرتَ بهما ؟ قال : « لا .. ولكنهما ركعتان كنتُ أركعهما بعد الظهر فشغلني قسم هذا المال حتى جاء المؤذنُ بالعصر فكرهتُ أن أدعَهُمَا » رواه البخاري ومسلم وأبو داود بلفظ آخر .

٣ ــ سنة المغرب :

فقد ورد كما عرفت ــ في حديث ابن عمر ــ أنه يُسن بعد صلاة المغرب صلاة ركعتين ، وأنهما من الصلاة التي لم يكن يدعها النبي ﷺ .

كما ورد كذلك : أنه يُستحب أن يقرأ فيهما ، ما ورد :

● عن ابن مسعود أنه قال : ما أُحصي ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب وفي الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ **قل ياأيها الكافرون** ﴾ و ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه .

وأنه يستحب كذلك أن تؤدى في البيت :

● فعن محمود بن لبيد ، قال : أتى رسول الله ﷺ بني عبد الأشهل فصلى بهم المغرب ، فلما سَلَّم ، قال : « اركعوا هاتين الركعتين في بيوتكم » رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي .

وقد تقدم أنه ﷺ كان يصليهما في بيته .

٤ ــ سنة العشاء :

وقد تقدمت الأحاديث الدالَّةُ على سنية الركعتين بعد صلاة العشاء .

السنن غير المؤكدة

١ ــ ركعتان أو أربع قبل صلاة العصر :

وقد ورد فيها عدة أحاديث متكلم فيها ولكن لكثرة طرقها يؤيد بعضها

بعضاً :

● فمنها حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله امرءاً صلى قبل العصر أربعاً » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان وصححه ، وكذا صححه ابن خزيمة .

● ومنها حديث علي أن النبي ﷺ كان يصلي قبل العصر أربعاً يفصل بين كل ركعتين بالتسليم على الملائكة المقربين والنبيين ومن تبعهم من المؤمنين والمسلمين .. رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وحسنه .

قال في « فقه السنة » : وأما الاقتصار على ركعتين فقط فدليله عموم قوله ﷺ : « بين كل أذانين صلاة »(١) .

٢ ـــ ركعتان قبل صلاة المغرب :

● فقد روى البخاري ، عن عبد الله بن مغفل أن النبي ﷺ قال : « صلوا قبل المغرب ، صلوا قبل المغرب » ثم قال في الثالثة : « لمن شاء » : كراهية أن يتخذها الناس سنة .

● وفي رواية لابن حبان : أن النبي ﷺ صلى قبل المغرب ركعتين .

● وفي مسلم عن ابن عباس قال : كُنَّا نُصلِّي ركعتين قبل غروب الشمس ، وكان رسول الله ﷺ يرانا فلم يأمرنا ولم ينهنا .

قال الحافظ في الفتح : ومجموع الأدلة يرشد إلى استحباب تخفيفهما كما في ركعتي الفجر .

٣ ـــ ركعتان قبل صلاة العشاء :

● لما رواه الجماعة من حديث عبد الله بن مغفل أن النبي ﷺ قال : « بين كل أذانين صلاة ، بين كل أذانين صلاة » ثم قال في الثالثة : « لمن شاء » .

ولابن حبان من حديث ابن الزبير أن النبي ﷺ قال : « ما من صلاة

---

(١) متفق عليه .

مفروضة إلا وبين يديها ركعتان » .

وتحت عنوان :

استحباب الفصل بين الفريضة والنافلة بمقدار ختم الصلاة

جاء في « فقه السنة » ما نصه :

● عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى العصر فقام رجلٌ يصلي فرآه عمر ، فقال له اجلس ، فإنما هلك أهل الكتاب أنه لم يكن لصلاتهم فصل فقال رسول الله ﷺ : « أحسن ابن الخطاب » رواه أحمد بسند صحيح .

كذلك : من السنن المؤكدة التي حث عليها رسول الله ﷺ ، ورغب فيها ، والتي ينبغي عليك أن تحافظ عليها ، وتؤديها في بيتك :

صلاة الوتر

● فعن علي رضي الله عنه أنه قال : إن الوتر ليس بحتم(1) كصلاتكم المكتوبة ، ولكن رسول الله ﷺ أوتر ثم قال : « ياأهل القرآن أوتروا فإن الله وتر(2) يحب الوتر » رواه أحمد وأصحاب السنن وحسنه الترمذي ورواه الحاكم أيضاً وصححه .

وقد أجمع العلماء على أن وقت الوتر لا يدخل إلا بعد صلاة العشاء ، وأنه يمتد إلى الفجر .

فعن أبي تميم الجيشاني رضي الله عنه أن عمرو بن العاص خطب الناس يوم جمعة فقال : إن أبا بصرة حدثني أن النبي ﷺ قال : « إن الله زادكم صلاة ، وهي الوتر فصلوها فيما بين صلاة العشاء إلى صلاة الفجر » قال أبو تميم :

---

(1) حتم : أي لازم .

(2) أي أنه تعالى واحد يحب صلاة الوتر ويثيب عليها . قال نافع : وكان ابن عمر لا يصنع شيئاً إلا وتراً .

فأخذ بيدي أبو ذر فسار في المسجد إلى أبي بصرة رضي الله عنه فقال: «أنت سمعت رسول الله يقول ما قال عمرو ؟ قال أبو بصرة : أنا سمعته من رسول الله ﷺ » رواه أحمد بإسناد صحيح .

● وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ : يوتر أول الليل وأوسطه وآخره . رواه أحمد بسند صحيح .

قال في « فقه السنة » : يُستحب تعجيل صلاة الوتر أول الليل لمن خشي أن لا يستيقظ آخره ، كما يستحب تأخيره إلى آخر الليل لمن ظن أنه يستيقظ .

● فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من ظن منكم أن لا يستيقظ آخره (أي الليل) فليوتر أوله ، ومن ظن منكم أنه يستيقظ آخره فليوتر آخره فإن صلاة آخر الليل محضورة(١) وهي أفضل » رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه .

● وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر : « متى توتر ؟ » قال : أول الليل بعد العتمة(٢) . قال : « فأنت يا عمر ؟ » قال : آخر الليل . قال : « أما أنت يا أبا بكر فأخذت بالثقة(٣) ، وأما أنت ياعمر فأخذت بالقوة »(٤) رواه أحمد وأبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وأما عن :

عدد ركعات الوتر

فقد قال الترمذي : روي عن النبي ﷺ الوتر : بثلاث عشرة ركعة ،

---

(١) أي تحضرها الملائكة .

(٢) أي العشاء .

(٣) أي الحزم والحيطة .

(٤) أي العزيمة على القيام آخر الليل .

وإحدى عشرة ركعة ، وتسع ، وسبع ، وخمس ، وثلاث ، وواحدة .

قال إسحاق بن إبراهيم : معنى ما روى عن النبي ﷺ كان يوتر بثلاث عشرة ركعة أنه كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر ، يعني من جملتها الوتر فنسبت صلاة الليل إلى الوتر .

ويجوز أداء الوتر ركعتين ركعتين(١) ، ثم صلاة ركعة بتشهد وسلام ، كما يجوز صلاة الكل بتشهدين وسلام ، فيصل الركعات بعضها ببعض من غير أن يتشهد إلا في الركعة التي هي قبل الأخيرة ، فيتشهد فيها ثم يقوم إلى الركعة الأخيرة فيصليها ويتشهد فيها ويسلم ، ويجوز أداء الكل بتشهد واحد وسلام في الركعة الاخيرة ، كل ذلك جائز وارد عن النبي ﷺ .

ويجوز القراءة في الوتر بعد الفاتحة بأي شيء من القرآن . قال علي : ليس من القرآن شيء مهجور فأوتر بما شئت . ولكن المستحب إذا أوتر بثلاث أن يقرأ في الأولى بعد الفاتحة : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ وفي الثانية : ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ وفي الثالثة : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ : لما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعة الأولى بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ وفي الثانية بـ ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ وفي الثالثة : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ .

وأما عن :

القنوت فى الوتر

فقد قال كذلك في « فقه السنة » :

يُشرع القنوت في الوتر في جميع السَّنة ، لما رواه أحمد وأهل السنن وغيرهم من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت ، وتولّني فيمن تولّيت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقِني شرَّ ما قضيتَ ، فإنك

(١) أي يسلم على رأس كل ركعتين .

تقضي ولا يُقضى عليك ، وإنه لا يَذل من واليتَ ، ولا يَعز مَن عاديتَ ، تباركتَ ربنا وتعاليتَ ، وصلى الله على النبي محمد » . قال الترمذي : هذا حديث حسن . قال : ولا يعرف عن النبّي ﷺ في القنوت شيء أحسن من هذا . وقال النووي : إسناده صحيح وتوقف ابن حزم في صحته ، فقال : هذا الحديث وإن لم يكن مما يحتج به فإنّا لم نجد فيه عن النبي ﷺ غيره والضعيف من الحديث أحب إلينا من الرأي كما قال ابن حنبل وهذا مذهب ابن مسعود ، وأبي موسى ، وابن عباس ، والبراء ، وأنس ، والحسن البصري ، وعمر بن عبد العزيز ، والثوري ، وابن المبارك ، والحنفية ، ورواية عن أحمد . قال النووي : وهذا الوجه قوي في الدليل .

وذهب الشافعي وغيره : إلى أنه لا يقنت في الوتر إلا في النصف الأخير من رمضان ، لما رواه أبو داود أن عمر بن الخطاب جمع الناس على أُبَيِّ بن كعب وكان يصلي لهمْ عشرين ليلة ولا يقنت إلا في النصف الباقي من رمضان .

وروى محمد بن نصر أنه سأل سعيد بن جبير عن بدء القنوت في الوتر فقال : بعث عمر بن الخطاب جيشاً فتورَّطُوا مُتورَّطاً خاف عليهم ، فلما كان النصف الآخر من رمضان قنت يدعو لهم .

ثم قال بعد ذلك في « فقه السنة » تحت عنوان :

محل القنوت

يجوز القنوت قبل الركوع بعد الفراغ من القراءة ، ويجوز كذلك بعد الرفع من الركوع :

● فعن حميد قال : سألت أنساً عن القنوت قبل الركوع أو بعد الركوع ؟ فقال : كنا نفعل قبل وبعد . رواه ابن ماجه ومحمد بن نصر . قال الحافظ في الفتح : إسناده قوي.

وإذا قنت قبل الركوع كَبَّر رافعاً يديه بعد الفراغ من القراءة وكبر

كذلك بعد الفراغ من القنوت ، رُوي ذلك عن بعض الصحابة . وبعضُ العلماء استحب رفع يديه عند القنوت وبعضهم لم يستحب ذلك .

وأما مسح الوجه بهما فقد قال البيهقي : الأولى أن لا يفعله ويقتصر على ما فعله السلف رضي الله عنهم من رفع اليدين دون مسحهما بالوجه في الصلاة .

مع ملاحظة كذلك ما أشار إليه في فقه السنة ، بعد ذلك ، وهو :

● أنه يستحب أن يقول المصلي بعد السلام من الوتر : « سبحان الملك القدوس » ثلاث مرات يرفع صوته بالثالثة ، ثم يقول : « رب الملائكة والروح » :

لما رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ و ﴿ **قل ياأيها الكافرون** ﴾ و ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ . فإذا سلم قال : سبحان الملك القدوس ثلاث مرات يمد بها صوته في الثالثة ويرفع . وهذا لفظ النسائي . زاد الدارقطني ويقول : رب الملائكة والروح ، ثم يدعو بما رواه أحمد وأصحاب السنن عن علي أن النبي ﷺ كان يقول في آخر وتره : « اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِكَ ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أُحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

● وأن من صلى الوتر ثم بدا له أن يُصلي جاز ولا يعيد الوتر :

● لما رواه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه عن علي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا وِتران في ليلة » .

● وروى مسلم عن عائشة أن النبي ﷺ كان يسلم تسليماً يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين بعد ما يسلم وهو قاعد .

● وروى أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم ، عن أم سلمة : أنه ﷺ كان يركع ركعتين بعد الوتر وهو جالس .

● وقد ذهب جمهور العلماء إلى مشروعية قضاء الوتر :

● لما رواه البيهقي والحاكم وصححه على شرط الشيخين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا أصبح أحدكم ولم يوتر فليوتر » ....

واختلفوا في الوقت الذي يُقضى فيه :

فعند الحنفية : يقضى في غير أوقات النهي .

وعند الشافعية : يُقضى في أي وقت من الليل أو من النهار .

وعند مالك وأحمد : يُقضى بعد الفجر ما لم تُصل الصبح .

●● وهناك حُكم آخر أرجو كذلك أخا الإسلام أن تقف عليه لأنك قد تحتاج إليه ، وهو :

● أنه يصح التطوع من قعود مع القدرة على القيام ، كما يصح أداء بعضه من قعود وبعضه من قيام ، لو كان ذلك في ركعة واحدة فبعضها يُؤَدَّى من قيام وبعضها يُؤَدَّى من قعود وسواء تقدم القيام أو تأخر كل ذلك جائز من غير كراهة ويجلس كيف شاء ، والأفضل التربع .

● فقد روى مسلم عن علقمة قال : قلت لعائشة : كيف كان يصنع رسول الله ﷺ في الركعتين وهو جالس ؟ قالت : كان يقرأ فيهما فإذا أراد أن يركع قام فركع .

● وروى أحمد وأصحاب السنن عنهما ، قالت : ما رأيتُ رسول الله ﷺ يقرأ في شيء من صلاة الليل جالساً قطُّ حتى دخل في السن[1] فكان يجلس فيها فيقرأ حتى إذا بقي أربعون أو ثلاثون آية قام فقرأها ثم سجد .

والآن أخا الإسلام ، وبعد أن وقفت على أهم الإشارات والتوجيهات المتعلقة بالوصية التي ندور حولها .

لا يسعني إلا أن أسأل الله تعالى لي ولك التوفيق والسَّداد حتى نُؤديها على أكمل وجه ، إن شاء الله ... والله ولي التوفيق .

---

(١) أي تقدمت به السن .

الوصية التاسعة والستون

عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ.(١)

رواه أبو داود بإسناد صحيح

---

(١) هذا معناه أن الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة فيها خير عظيم، وأن صلاتنا عليه تصل إليه وتعرض عليه فيفرح بذلك فرحًا عظيمًا.

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي إن فهمتها ونفذْتَها فرح بك الحبيبُ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وكنتَ بهذا إن شاء الله من السعداء في الدارين .

وإذا كان النبي ﷺ قد أشار في أول هذه الوصية إلى أفضلية يوم الجمعة : فإنه يجدر بنا أولاً أن نقف من خلال تلك الإشارة على ما ورد عن رسول الله ﷺ في شأن هذا اليوم العظيم :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم عليه السلام، وفيه أُدخِل الجنة ، وفيه أُخرِجَ منها . ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة .. » رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وصححه .

● وعن أبي لبانة البدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « سيد الأيام يوم الجمعة وأعظمها عند الله تعالى ، وأعظم عند الله تعالى من يوم الفطر ويوم الأضحى وفيه خمسُ خِلال : خلقَ الله عَزَّ وجَلَّ فيه آدم عليه السلام ، وأهبط الله تعالى فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفَّى الله تعالى آدم ، وفيه ساعة لا يَسأل العبد فيها شيئًا إلا آتاه الله تعالى إياه ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من مَلكٍ مُقرب ولا سماء ولا أرض ، ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا هُنَّ يُشفِقْنَ من يوم الجمعة » . رواه أحمد وابن ماجه . قال العراقي إسناده حسن .

●● فمن هذين الحديثين الشريفين ــ فضلاً عن غيرهما من الأحاديث ــ يتأكد لنا أفضلية يوم الجمعة .. ، وأنه خير أيام الأسبوع ... ولهذا كان من الخير لنا نحن المسلمين أن نحتفل بهذا اليوم العظيم احتفالاً كريماً يُحبه الله ورسوله ... وذلك لن يكون إلَّا بتنفيذ ما رغبنا فيه الحبيبُ المصطفى صلوات الله وسلامه من العمل في ذلك اليوم الكريم .

● فعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « على كل مسلم الغسل يوم الجمعة ، ويلبس من صالح ثيابه ، وإن كان له طبيب مَسَّ منه »

رواه أحمد والشيخان .

● وعن ابن سلام رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول على المنبر يوم الجمعة : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته[1] » رواه أبو داود وابن ماجه .

● وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : « قال النبي ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ، ويتطهَّرُ بما استطاع من طهر ، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ، ثم يروح إلى المسجد ، ولا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ، ثم ينصت للإمام إذا تكلم إلا غُفِر له من الجمعة إلى الجمعة .. الأخرى » رواه أحمد والبخارى .

وكان أبوهريرة يقول : « وثلاثة أيام زيادة ، أن الله جعل الحسنة بعشرة أمثالها » .

وغفران الذنوب خاص بالصغائر : لما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة : « ما لم يغش الكبائر » .

● وعن أحمد بسند صحيح أن النبي ﷺ قال : « حق على كل مسلم الغسل والطيب والسواك يوم الجمعة » .

● وعن الطبراني في الأوسط والكبير بسند رجاله ثقات : عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال في جمعة من الجمع : « يا معشر المسلمين هذا يوم جعله الله لكم عيداً فاغتسلوا وعليكم بالسواك » .

فيوم الجمعة كما تشير هذه الأحاديث الشريفة يوم عظيم مبارك ... بل هو يوم عيد كما أشار الحديث الأخير :

ولهذا كان من الخير لنا أن نَعرف قدره حتى نغتنم كلّ خير فيه ... ولا سيما بالنسبة لحضور صلاة الجمعة التي اتفق جمهور الفقهاء على وجوب

---

(١) المهنة : الخدمة ، وقد روى البيهقي عن جابر أنه كان للنبي ﷺ برد يلبسه في العيدين والجمعة . وفي الحديث : استحباب تخصيص يوم الجمعة بملبوس غير ملبوس سائر الأيام .

السعي إليها عند الأذان لقوله تعالى :

● ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاة من يوم الجمعة .. فاسعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾(١) .

والمراد بالسعي : الذهاب إليها مشياً وسطاً ، بين الإسراع والإبطاء ، والمراد بذكر الله هنا : الصلاة ، لقوله تعالى : ﴿ **أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** ﴾(٢) .

ولقوله تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة لذكري** ﴾(٣) .

وقد قال جماعة من المفسرين : المراد بذكر الله هنا : الخطبة ، لاشتمالها على حمد الله ، والثناء عليه ، والتذكير بآياته .

وإذا كان الله تعالى قد قال في الآية الأولى : ﴿ .. **فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع** .. ﴾ .

فإن الآية هذه تفيد حرمة البيع والشراء في هذا الوقت المنهي عن البيع والشراء فيه .. أي عند سماع الأذان .. وقد اتفق الفقهاء على هذا ... وإن كانوا قد اختلفوا في فسخ البيع إذا وقع مع الأذان ، أو بعده ... فقال جماعة : يفسخ ، ولا ينعقد . وقال جماعة : لا يفسخ ، بل يمضي ، ويصح .

وإذا كان من الواجب على المؤمن أن يُلبِّي النداء ويذهب إلى المسجد لكي يستمع إلى خطبة الجمعة .. ويصلي الجمعة بعد هذا تنفيذاً لأمر الله تعالى :

فإنه يستحب التبكير إلى المسجد لحضور صلاة الجمعة ، لِمَا لِهذا التبكير من ثواب عظيم ، عند الله عز وجل :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من اغتسل

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٩ .
(٢) العنكبوت : الآية ٤٥ .
(٣) سورة طه : الآية ١٤ .

يوم الجمعة غسل الجنابة[1] ، ثم راح ، فكأنما قَرَّبَ بدنة[2] ، ومن راح في الساعة الثانية ، فكأنما قرب بقرة . ومن راح في الساعة الثالثة ، فكأنما قرب كَبشاً أقرن [3] ، ومن راح في الساعة الرابعة ، فكأنما قرب دجاجة . ومن راح في الساعة الخامسة : فكأنما قرب بيضة . فإذا خرج الإمام[4] ، حضرت الملائكة يستمعون الذكر » رواه البخاري ومسلم .

● وقال علقمة : خرجت مع عبد الله بن مسعود إلى الجمعة ، فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة ، وما رابع أربعة من الله ببعيد ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة على قدر تراوحهم إلى الجمعات ، الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع : وما رابع أربعة من الله ببعيد » رواه ابن ماجه .

والخلاصة التي أريد أن ننتهي إليها بعد هذا التقديم عن يوم الجمعة وما فيه من خير عميم : هي ما قاله صاحب كتاب « الفقه الواضح » :

فأحرى بك أيها المسلم أن تعظم اليوم الذي عظمه الله ، وجعله عيداً للمسلمين ، يجتمعون فيه على الحب ، والإخاء ، والإخلاص ، ليؤدوا ما افترض الله عليهم من الصلاة ..

فأولى لك أيها المسلم أن تجعل هذا اليوم يومَ راحتك ، تغسل فيه ثيابك ، وتطهر بدنك، وتتجمل بأحسن ما عندك من الثياب ، وتأتي إلى المسجد مُبكراً فتأخذ مكانك في الصف ، وقد علمت فضل التبكير إلى الجمعة ، وفضل الجلوس في الصف الأول ، وبعد انتهاء الصلاة ، ... لك أن تنتشر في الأرض حيث شئت ، لعملك ، أو لزيارة أقاربك ، أو لمتنزه حلال ، أو لبيتك ، ترعى فيه شئونك وشئون أولادك ، قال تعالى : ﴿ **فإذا قُضيت الصلاة**

(١) معناه غسلاً كغسل الجنابة .
(٢) أي ناقة .
(٣) أي له قرون .
(٤) أي خرج من خلوته وصعد المنبر .

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[1] .

وإذا كان قد أشار في تلخيصه هذا إلى أفضلية الصلاة في الصف الأول بعد الجلوس فيه أثناء خطبة الجمعة .. فإنني أرى أن أذكر الأخ المسلم بالحديث الآتي :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « لو يعلم الناسُ ما في النداء[2] ، والصف الأول[3] ، ثم لم : يجدوا إلا أن يستهموا عليه[4] لاستهموا » رواه البخاري ومسلم .

هذا ، وإذا كان لنا بعد هذا أن نقف على المراد من قول الرسول ﷺ : « .. فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي ... » :

فإنني أرى أن نقف على كلام جامع قاله ابن القيم ، وهو :

أنه يستحب كثرة الصلاة والسلام عل النبي ﷺ في يوم الجمعة وليلته ، لقوله : « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة وليلة الجمعة » ورسول الله سيد الأنام ، ويوم الجمعة سيد الأيام ، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ، ليست لغيره ، مع حكمة أخرى ، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة ، فإنها نالته على يده ، فجمع الله لأمته بين خيري الدنيا والآخرة ، فأعظم كرامة تحصل لهم ، فإنما تحصل يوم الجمعة ، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة ، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة ، وهو عيد لهم في الدنيا ، ويوم يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم ، ولا يرد سائلهم ، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه ، وعلى يده ، فمن شكره وحمده ، وأداء القليل من حقه ﷺ : أن يكثروا من الصلاة عليه في هذا اليوم وليلته[5] » أ هـ .

وأحب الآن وبعد أن وقفنا على هذا الكلام الجامع الذي قاله ابن القيم

---

(١) سورة الجمعة الآية : ٩

(٢) يعني الأذان من الفضل وكثرة الثواب وعلو الدرجات .

(٣) يعني الصلاة في الصف الأول الذي يلي الإمام ..

(٤) أي يقترعوا عليه .. إذا لم يجدوا وسيلة للحصول عليه إلا القرعة .

(٥) أنظر زاد المعاد جـ ١ ص ١٠ المطبعة المصرية

ـ رحمه الله ـ : أن نقف على المعنى المراد من قول الرسول ﷺ « .. فإن صلاتكم معروضة عليَّ » :

فإن معنى هذا : أي أنها معروضة عليَّ كعرض الهدايا على من أُهديت إليه ، فهي من الأعمال الفاضلة ، ومقربة لكم إلى كما تقرب الهدية المهدي بها إلى المُهدَى إليه ، وإذا كانت بهذه المثابة ، فإنه ينبغي إكثارها في الأوقات الفاضلة .. لأن العمل الصالح يزيد فضلاً بواسطة فضل الوقت ...

وفي رواية لأحمد وأبي داود وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه :

● « .. قالوا : يا رسول الله : وكيف تُعرض صلاتُنا عليك ، وقد أَرَمتَ يعني بليت؟ فقال : إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

● وفي حديث رواه ابن ماجه بإسناد جيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْثِروا عليَّ من الصلاة كُلَّ يوم جمعة(١) ، فإنه مشهود(٢) تشهده الملائكة وإن أحداً لن يُصَلِّي عليَّ إلا عُرضت عليَّ صلاته حتى يفرغ منها(٣) ، قال : قلتُ : وبعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد صلى على حبيبه وحبيبنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مع ملائكته ثم أمرنا بأن نصلي ونسلم عليه صلوات الله وسلامه عليه فقال : ﴿ **إن الله وملائكته يُصلون على النبي يأأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً** ﴾(٤) :

فإنه ينبغي علينا نحن المؤمنين أن ننفذ هذا الأمر .. فنكثر من الصلاة والسلام عليه في يوم الجمعة بصفة خاصة ، وفي جميع الأيام بصفة عامة حتى

---

(١) وفي رواية : « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة » أي زيدوا من الصلاة على في هذا اليوم أكثر من الصلاة على في غيره ...

(٢) يعني أي محضور فيه ..

(٣) أي إلى أن ينتهي منها ...

(٤) الأحزاب : الآية ٥٦ .

نكون بهذا من المقربين إليه صلوات الله وسلامه عليه يوم القيامة .

● فقد ورد في حديث رواه البيهقي بإسناد حسن قوله ﷺ : « .. فمن كان أكثرهم عليَّ صلاة كان أقربهم مِنِّي منزلة[1] » .

هذا بالإضافة إلى الثواب العظيم الذي سنفوز به في الدنيا والآخرة ، فقد ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من صلّى عليَّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه عشراً » رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي ، وابن حبان في صحيحه .

وأفضل صيغ الصلاة عليه : الصيغة الإبراهيمية التي علمها ﷺ لأصحابه :

● فقد روى ابن أبي ليلى عن كعب بن عجرة قال : قيل : يا رسول الله قد علمنا أو عرفنا كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

● وروى مسلم بسنده عن أبي مسعود الأنصاري ، قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليتَ على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، والسلام كما علمتم » .

ومعنى : أن الله تبارك وتعالى يصلي عشر مرات على من صلى على الرسول ﷺ

---

(١) أي كان قريباً منه صلوات الله وسلامه عليه في الجنة .. وهذا شرف نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً أهلاً له .. آمين .

واحدة : أي عشر صلوات ، وذلك أن الحسنة بعشر أمثالها ، والصلاة على النبي ﷺ من أعظم الحسنات .

قال ابن العربي : إن قيل قال الله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » فما فائدة هذا الحديث ؟ قلنا : أعظم فائدة ، وذلك أن القرآن اقتضى أن مَن جاء بحسنة تُضاعف عشراً ، والصلاة على النبي ﷺ حسنة بمقتضى القرآن أن يعطى عشر درجات في الجنة ، فأخبر أن الله تعالى يُصلي على مَن صَلّى على رسوله عشراً ، وذكر الله للعبد أعظم من الحسنة مضاعفة ، قال : ويحقق ذلك أن الله تعالى لم يجعل جزاء ذكره إلا ذكره ، وكذلك جعل جزاء ذكر نبيه ذكره لمن ذكره .

قال العراقي : ولم يقتصر على ذلك حتى زاده كتابة عشر حسنات ، وحطَّ عنه عشر سيئات ، ورفعه عشر درجات كما ورد في الأحاديث .

● وفي بعض ألفاظ الترمذي : « من صلّى عليَّ مرة واحدة كتب الله له بها عشر حسنات » :

وهذا يفسر قوله في الرواية السابقة[١] : « صلى الله عليه عَشْراً » إذ المراد رحمته وتضعيف أجره .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ ، يقول : إذا سمعتم المؤذن[٢] فقولوا مثل ما يقول[٣] ، ثم صلوا عليَّ[٤] فإنه من صَلّى عليَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة[٥] ، فإنها منزلة من الجنة[٦] لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله[٧] ، وأرجو أن أكون

---

(١) أي التي رواها أبو هريرة رضي الله عنه .
(٢) أي ينادي للصلاة .
(٣) أي رددوا معه ألفاظ الصلاة إلا في الحيعلتين فإنه يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .
(٤) أي قولوا : « اللهم صل على محمد ... إلخ » كما قدمنا .
(٥) أي الدرجة والمنزلة ... وقيل الشفاعة العظمى .
(٦) وفي رواية « في الجنة » .
(٧) أي لا تصلح إلا لرجل واحد من الناس .

هو[1] ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له الشفاعة[2] » رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

قال النووي : وفيه استحباب الصلاة على رسول الله ﷺ بعد فراغه من متابعة المؤذن واستحباب سؤال الوسيلة له ﷺ ، واستحباب قول سامع المؤذن مثل ما يقول إلا في الحيعلتين ، ويستحب أن يقول السامع كل كلمة بعد فراغ المؤذن منها لا ينتظر فراغه من كل الأذان » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحدٍ يسلم عليَّ إلا ردَّ الله إليَّ روحي حتى أرد عليه السلام » رواه أحمد وأبو داود .. قال ابن كثير : تفرد به أبو داود وصححه النووي في الأذكار .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تفوز بثواب الصلاة على الحبيب صلوات الله وسلامه عليه .

واحذر نسيان هذا أوتركه في أي مقعد قعدت فيه ، فقد ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يُصلوا على نبيهم : إلا كان عليهن تِرَةٌ[3] ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » رواه أبو داود والترمذي واللفظ له ، وقال : حديث حسن ، ورواه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا والبيهقي .

ولفظ أبي داود قال : « من قَعَدَ مقعداً لم يذكر الله فيه ، كان عليه من الله تِرة ، ومن اضطجع مضجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله تِرة ، وما مشى أحد ممشى لا يذكر الله فيه إلا كان عليه من الله تِرة » رواه أحمد وابن أبي الدنيا ، والنسائي وابن حبان في صحيحه ، كلهم بنحو أبي داود .

● وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما قعد قوم مقعداً

---

(١) لعله قد قال هذا من قبيل التواضع .

(٢) أي وجبت وثبتت له شفاعتي يوم القيامة .

(٣) أي نقص وحسرة من قولهم وتره ماله إذا نقصه إياه ، والترة أيضاً الثأر ، يقال لفلان على فلان ترة ..

لم يذكروا الله عز وجل فيه ، ويُصلوا علي النبي ﷺ ، إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة ، وإن دخلوا الجنة للثواب » . رواه أحمد بإسناد صحيح ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، وقل معى ، على الدوام :

« اللهم صل على من انتخبته من أشرف قبيلة ، وجعلته إليك أكبر وسيلة ، وجعلت الصلاة عليه أكرم فضيلة ، وأعليته إلى المرتبة الجليلة ، وجعلته بينك وبين عبادك وسيلة ، اللهم صل عليه صلاة تجعلها بيننا وبين عذابك حجاباً ، وتجعلها لنا إلى كرامتك مثاباً ، وتفتح لنا بها إلى الجنة العالية باباً ، اللهم صل على محمد عدد قطر الأمطار ، وعدد رمال الأودية والقفار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد زبد البحار ، وعدد مياه الأنهار ، وعدد مثاقيل الجبال والأحجار ، وعدد أهل الجنة وأهل النار ، وعدد الأبرار والفجار ، وعدد ما يختلج فى الليل والنهار ، وأجعل اللهم صلاتنا عليه حجاباً من عذاب دار البوار ، وسبباً لإباحة دار القرار ، اللهم صل على محمد النبى المختار ، وسيد الأبرار ، وزين المرسلين الأخيار ، وأكْرَم من أظلم عليه النهار ، أبى القاسم النبى الصادق المختار . اللهم صل عليه عدد من صلى عليه ، وعدد من لم يصل عليه ، كما أمرت بالصلاة عليه ، وصل عليه كما تحب أن يُصَلَّى عليه ، وصل عليه كما ينبغى أن يُصَلَّى عليه . اللم صل على النبى الصادق الأوَّاب ، وعلى ذريته وعلى جميع القرابه والأصحاب ، وتوفنا اللهم على سُنته ، واجعلنا من أهل ولايته ، وانفعنا بهدايته وعنايته ، وأدخلنا الجنة مع صحابته الأبرار الطيبين الأخيار ، آمين آمين يا أرحم الراحمين » .

« الهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته وأهل بيته ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

ثم قل مخاطباً معي إخوة الإسلام :

صلوا على خير الأنام كرامة   وجلالـــة يا معشر الإسلام
فهو النبي المصطفى علم الهدى   وأدلُّ من يدعو لسُبُل سلام

---

(١) من كتاب « بستان الواعظين » .

نطق الكتاب بفضله وجلاله ... وبفضله ننجو من الأسقام
صلوا على خير البرية كلِّها ... ما لاح بدر تحت جُنح ظلامِ
فهو السبيل لدار كلِّ كرامةٍ ... وهو الدليل لجنة وسلامِ
وهو الشفيع لمن يدين بدينه ... ولمن يلوذ بملة الإسلام

* * *

صلوا على خير الأنام ومن به ... تنجو العباد وبموقف الأهوال
إن الصلاة على النبي حبيبنا ... من أفضل الأفعال والأعمال
فهو النبي المصطفى علم الهدى ... الطيب الأقوال والأفعال

* * *

صلوا على القمر المنير إذا بدا ... في موكب من حسنه وجماله
لم يخلق الرحمن خلقاً مثله ... في فضله وبهائه وكماله
ختم النبوة طيبه فختامه ... مسك تكون من نسيم جلاله
صلوا على العلم لذي مَن أمَّهُ ... نال المنى وجرى السرور بباله
صلوا على البدر التمام محبة ... وكرامةً وجلالة لجلالِه
إن الصلاة على النبي سلامةٌ ... وتفضلٌ وتوسُّلٌ بجمالِهِ
وتودُّدٌ وتحنُّنٌ وتشوقٌ ... وتوسل وتقرب لنوالِهِ

* * *

صلوا على ماجد جلَّت مآثره ... وأكثر الخلق إفضالاً وإحسانا
أتى العباد وقد ضلَّت مسالكهم ... فأوضح الحق تبياناً وبرهانا
وبين الدين بالتذكير مجتهداً ... وأظهر الشرع أحكاماً وقرآنا
وأنقذ الخلق من نار السموم لظى ... وأورد الناسَ جناتٍ ورضوانا
لاتبغ طيباً إذا ما كنت ذاكره ... ولا ترث بعده رَوحاً وريحَانا
فيه الجِنَانُ وفيه الحسن مجتمع ... والنيل والظرف أشكالاً وألوانا
فالحمد لله إذ كنا له تبعاً ... لقد تفضل بالخيرات مولانا

●● فصلاة الله وسلامه عليكَ سيدي يا رسول الله ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم :

صلاة المحبين الصادقين إلى يوم الدين :

أزكى صلاة مع سلام عاطرٍ ينمو به يوم الحصاد حصادي

★★★

الوصية السبعون

عن جابر رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ،
وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ،
لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ
فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ.[1]

رواه مسلم

---

(١) المراد : أى احذروا أن تدعوا على أنفسكم أو على أولادكم . فربما وافق استجابة من الله فى ساعة لا يرد فيها سؤال .. والعكس وهو سؤال الخير خير .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذا النهي أو هذا التحذير المحمدي الوارد في نص هذه الوصية العظيمة .. والذي مضمونه أو المراد منه أن النبي ﷺ يريد منك ألا تكون متسرعاً بالدعاء على نفسك أو على أولادك ، أو على أموالك ... لأن هذا الدعاء الذي ستدعو به على هـذا النحو قد يوافق ساعة لا يرد الله فيهَا سؤالاً فيستجيب الله لك .. وتكون النتيجة هي الضياع والخسران المبين الذي ما كان إلا بسبب التسرع الذي من أهم أسبابه عدم الصبر واستعمال الفكر السليم الذي لو كان مُستعملاً ولا سيَّما في وقت الغضب لكان الإنسان هذا مُصيباً لا مُخطئاً في حق نفسه ، ولا في حق أولاده ، ولا في حق أمواله ...

وكان من الأجدر به أن يسأل الله تعالى خيراً لا شرًّا .

وأعني بهذا : أن يسأل الله تعالى أن يهدي له نفسه حتى تكون أهلًا لكل خير يرتجى ، وأن يهدى له أولاده حتى يكونوا له عوناً وسَنداً ، وحتى يَستطيعوا أن يُثبتوا وجودهم الصالح في هذه الحياة ، وأن يبارك له في أمواله ــ الحلال ــ حتى تكون له نعمة لا نقمة .. وحتى تكون سبباً في سعادته لا في تعاسته ... إلخ .

ومن أجمل ما قرأت حول كل هذا المشار إليه في هذا الإجمال الموجز : أن سيدنا داود عليه السلام دعا الله تعالى فقال :

● « اللهم إني أسألك أربعاً ، وأعوذ بك من أربع :

أسألك لساناً صادقاً ، وقلباً خاشعاً ، وبدناً صابراً ، وزوجة تُعينني على أمر دُنياي وأمرِ آخرتي .

وأعوذ بك من ولد يكونُ على سَيِّداً ، ومن زوجة تُشيِّبني قبل وَقتِ المشِيب ، ومن مالٍ يكون مشبعة لغيري بعد موتي ويكون حسابه في قبري ، ومن جارِ سُوء إن رأى حسنة كتمها ، وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها » .

فهكذا يكون التضرع إلى الله تبارك وتعالى .. بالصورة التي تعود على الإنسان الداعي : ــ إن كان أهلاً للإستجابة ــ بالخير العميم .

ولهذا : كان من الخير أن يكون التضرع بخير لا بشر .

وإليك أخا الإسلام بعض الأحاديث الشريفة التي أرجو أن تكون نماذج لك حتى تكون الأدعية التي ستدعو بها ــ إن شاء الله تعالى ــ لك لا عليك ، ولا على أهلك ومالك :

● عن أنس رضي الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبي ﷺ : « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » متفق عليه ، رواه مسلم وفي روايته ، قال : وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » رواه مسلم .

● وعن طارق بن أُشَيْم رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسْلَم علمه النبي ﷺ الصلاةَ ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني » رواه مسلم ، وفي رواية له عَن طارق أنه سمع النبي ﷺ وأتاه رجل فقال : يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربي ؟ قال : « قل : اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياةَ زيادةً لي في كل خير ، واجعل الموتَ راحة لي من كل شر » رواه مسلم .

● وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » وفي رواية : « وضلع الدين وغلبة الرجال » رواه مسلم .

● وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه : « اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملتُ ، ومن شر ما لم أعمل » رواه مسلم .

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفُجَاءة نقمتك ، وجميع سَخَطِك » رواه مسلم .

● وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم ، وعذاب القبر ، اللهم آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنت خير من زكّاهَا ، أنت وليُّها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يُستجابُ لها » رواه مسلم .

● وعن عمران بن حُصَين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ علَّم أباه حُصيناً كلمتين يدعو بهما : « اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتِك ، والسلامةَ من كل إثم ، والغنيمة من كل بِرٍّ ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » رواه الحاكم أبو عبد الله وقال حديث صحيح على شرط مسلم .

فليكن هذا هو أسلوبك في الدعاء .

وإذا كان دعاؤك على نفسك أو أولادك أو أموالك بسبب كرب حلّ بك ، أو لسبب هموم أو ديون تراكمت عليك : فإنني أوصيك بما أوصي به الرسول ﷺ أبا أمامة رضي الله عنه :

● فقد قال أبو سعيد : دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم ، فإذا هو برجل من الأنصار ، يقال له أبو أمامة ، فقال : « يا أبا أمامة ، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة ؟ » . قال : هموم لزمتني وديون يارسول الله . قال : « أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك ؟ » قلت : بلى يا رسول الله . قال : « قل إذا أصبحتَ وإذا أمسَيتَ : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحَزَن ، وأعوذ بك من العجز والكسَل ، وأعوذ

بك من الجبن والبُخْل ، وأعوذ بك من غَلَبة الدين وقهر الرجال » قال : ففعلتُ ذلك فأذهب الله همي ، وقَضَى عني دَيْني[1] .

وإذا نزل بك ما تكره ، أو غلبَ على أمرك : فاسترجع ، أي قل : « إنا لله وإنا إليه راجعون » :

فقد روى ابن السني عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليسترجع أحدكم في كُلِّ شيء حتي في شسع[2] نعله ، فإنها من المصائب » .

● وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإذا أصابك شيء ، فلا تقل : لو أني فعلُ كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

وتجمل دائماً وأبداً بالصبر ، الذي هو « مفتاح الفرج » وأنت تذكر دائماً وأبداً قول القائل :

ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فُرجت وكنتُ أظنها لا تفرج

* * *

وقول القائل :

إذا اشتدت بك البلوى ففكر في « ألم نشرح »
فعسر بين يسرين إذا فكرته تفرح

واستعن على تحقيق كل هذا دائماً وأبداً بالصبر والصلاة ، لأن الله تعالى قد أمرنا بهذا جميعاً ــ نحن المؤمنين ــ فقال :

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) الشسع : أحد سيور النعل التي تشد إلى زمامها .

- ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾[1] ، و :
- « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ... »[2] .

والله تعالى على كل شيء قدير وبالإجابة جدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

***

(١) البقرة الآية ١٥٢

(٢) رواية عن الترمذي .. وهي صحيحة .

الوصية الواحدة والسبعون

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال :
قلت يا رسول الله ما النجاة[1] ؟ .. قال :

أَمسك عليك لسانَكَ[2]، وَليسعك بَيتُكَ ، وَابكِ عَلَى خَطِيئَتكَ .

رواه الترمذى وقال حديث حسن

---

(١) ما النجاة : أى ما هى أسباب النجاة فى الدنيا والآخرة .

(٢) أملك عليك لسانك : أى أمسكه عن الشر لا عن الخير.

فكن أخا الإسلام :

من المنتفعين دائماً وأبداً بهذه الوصية العظيمة التي ينبغي أن تذكرها وتُذَكِّر بها على الدوام :

لأنها تجيب على أهم تساؤلٍ ينبغي أن نكون دائماً وأبداً في شغل شاغل به ، لأنه يتعلق بأسباب نجاتنا في الدنيا والآخرة .

وإذا كان عقبة بن عامر رضي الله عنه قد وفق في سؤاله هذا ... نيابة عنا جميعاً نحن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها : فإننا جميعاً نسأل الله تعالى أن يجزيه عنَّا أحسن الجزاء .

لأنه بهذا قد خدمنا جميعاً بهذا السؤال الذي أجاب عليه الرسول ﷺ بتلك الإجابة الكافية والشافية التى تشير من قريب وبعيد إلى أهم أسباب النجاة من شرّى الدنيا والآخرة .

ولا شك أننا جميعاً كمؤمنين بصفة خاصة نبحث عن كل تلك الأسباب التي نرجو أن تكون من أهم أسباب نجاتنا في الدنيا والآخرة .

وإذا كان النبي ﷺ قد بدأ إجابته بالإشارة إلى أخطر الجوارح ، وهو اللسان الذي ينبغي ألا يُستعمل إلا في الخير كما أشار النبي ﷺ إلى هذا في قوله :

● « من كَان يؤمن بالله واليومِ الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ... » متفق عليه .

وهذا صريح في أنه ينبغي ألا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً ، وهو الذي ظهرت مصلحته ، ومتى شُكَّ في ظهور المصلحة فلا يُتَكَلَّم به .

وقد جاء في « رياض الصالحين » ما نصه :

إعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه من جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة ، فالسنة الإمساك عنه لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرامٍ أو مكروهٍ ، وذلك كثير في العادة ، والسلامة لا يعدلها شيء .

ولهذا ، فقد ورد :

● عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء تُكَفِّر[1] اللسان تقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوجَجْنَا » رواه الترمذي .

وفي حديث آخر رواه الترمذي وقال عنه أنه حديث حسن صحيح : قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل — بعد أن دَلَّه على الأعمال التي بها سيكون أهلاً لدخول الجنة وتبعده عن النار ، وبعد أن دَلَّه على أبواب الخير ، ورأس الأمر وعموده وذروة سنامه : « .. ألا أخبركَ بملاكِ ذلك له . قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا . قلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به : فقال : ثكلتك أمك[2] ، وهل يكب الناسَ في النار على وجوههم ، أو قال [3] على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » .

وحصائد ألسنتهم : أي جنايَاتها على الناس بالوقوع في أعراضهم والمشي بالنميمة ونحو ذلك . وجنايات اللسان : الغيبة والنميمة والكذب والبهتان ، وكلمة الكفر والسخرية وخلف الوعد ..

فمن جنايات اللسان — كما عرفت — التي هي من أهم أسباب الخسران والضياع في الدنيا والآخرة :

١ — الغيبـــة :

التي عرفها النبي ﷺ في نص حديث صحيح رواه مسلم ، جاء فيه :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن

---

(١) تكفر اللسان : أي تذل وتخضع .

(٢) أي فقدتك أمك .. وهذه مداعبة من النبي ﷺ على عادة العرب وليس دعاء عليه .

(٣) شك من الراوي .

لم يكن فيه ما تقول فقد بَهتَّه » .

ولهذا ، فقد حرم الله تعالى الغيبة ونهى عنها ، فقال سبحانه :

● **﴿ .. ولا يغتب بعضكم بعضاً أيُحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾**(١) .

كما ورد النهي كذلك عن الغيبة في السنة المطهرة :

● فعن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر بمنىً في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت .. » متفق عليه .

● وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا . قال بعض الرواة : تعني قصيرة . فقال : « لقد قُلتِ كلمةً لو مُزِجت بماء البحر لمزجته » قالت : وحكيت له إنساناً ، فقال : « ما أُحِبُّ أني حكيتُ إنساناً وأن لي كذا وكذا » رواه أبو داود والترمذي وقال هو حديث حسن صحيح .

« ومعنى » مزجته : أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها .

وهذا الحديث ـــ كما يقول في « رياض الصالحين » : من أبلغ الزواجر عن الغيبة ، قال الله تعالى : **﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾** .

● وعن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . فقلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس و يقعون في أعراضهم » رواه أبو داود .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل المسلم

---

(١) الحجرات : الآية ١٢ .

على المسلم حرام دمه وعرضه وَمَالُه » . رواه مسلم .

وقد ذكر في « رياض الصالحين » بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تفيد : تحريم سماع الغيبة وأمر من سمع غيبة محرمة بردها والإنكار على قائلها فإن عجز أو لم يقبل منه فارق ذلك المجلس إن أمكنه .

فإليك بعض ما يفيد بهذا :

● قال الله تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾(١) .

● وقال تعالى : ﴿ **والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾(٢) .

● وقال تعالى : ﴿ **وإذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾(٣) .

● وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَن رَدَّ عن عرضِ أخيه رَدَّ الله عن وجهه النار يومَ القيامة » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

● وعن كعب بن مالك رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة توبته .. قال : قال النبي ﷺ وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله : حَبَسه بُرداه والنظر في عِطفيه(٤) . فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ » متفق عليه .

كما ذكر بعد ذلك كذلك في « رياض الصالحين » ، باباً من أهم الأبواب التي تتعلق بموضوع الغيبة ، قال فيه تحت عنوان :

---

(١) القصص : الآية ٥٥ .

(٢) المؤمنون : الآية ٣ .

(٣) الأنفال : الآية ٦٨ .

(٤) إشارة إلى إعجابه بنفسه .

ما يباح من الغيبة

إعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهو بستة أسباب :

(**الأول**) : التظلم : فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول : ظلمني فلان بكذا .

(**الثاني**) : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر : فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك ، ويكون مقصوده التوصُّل إلى إزالة المنكر فإن لم يقصد ذلك كان حراماً .

(**الثالث**) : الاستفتاء ، فيقولُ للمفتي : ظلمني أبي أو أخي أو زوجي أو فلان بكذا فهل له ذلك ، وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ، ودفع الظلم ونحو ذلك ، فهذا جائز للحاجة ، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول : ما تقول في شخص أو زوج كان من أمره كذا ، فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ، ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث إن شاء الله تعالى .

(**الرابع**) : تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم ، وذلك من وجوهٍ ، منها جرح المجروحين من الرواة والشهود ، وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة ، ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان أو مشاركته أو إيداعه أو معاملته بغير ذلك ، ومجاورته ، ويجب على المُشَاوَرِ ألا يُخفي حاله ، بل يذكر المساويء التي فيه بنية النصيحة ، ومنها إذا رأى مَتَفَقِّهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسِقٍ يأخذ عنه العلم وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك فعليه نصيحته ببيان حاله بشرط أن يقصد النصيحة ، وهذا مما يُغلط فيه ، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد ويُلبِّسُ الشيطان عليه ذلك ويُخيِّلُ إليه أنه نصيحة ، فليتفطَّن لذلك ، ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها إمَّا بأن لا يكون صالحاً لها ، وإمَّا بأن يكون فاسقاً أو مُغفَّلاً ونحو ذلك ، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويُولِّي من يصلح أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر

به ، وأن يسعى في أن يَحثه على الإستقامة أو يستبدل به .

(**الخامس**) : أن يكون مُجَاهراً بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وأخذ المكس[1] وجبابة الأموال ظلماً ، وتولى الأمور الباطلة ، فيجوز ذكره بما يجاهر به ، ويَحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه .

(**السادس**) : التعريف إذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول وغيرهم جاز تعريفهم بذلك ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص ، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى .

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليه ودلائلها من الأحاديث الصحيحة المشهورة ، فمن ذلك :

● عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ ، فقال : « ائذنوا له بئس أخو العشيرة » متفق عليه ، احتج به البخاري في جواز غيبة أهل الفساد وأهل الرِّيَب .

● وعنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما أظن فلاناً أو فلاناً يعرفان من ديننا شيئاً » . رواه البخاري ، قال الليث بن سعد أحد رواة هذا الحديث : هذان الرجلان كانا من المنافقين .

● وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت : أتيت النبي ﷺ ، فقلت : إن أبا الجهم ومعاوية خطباني ، فقال رسول الله ﷺ : « أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأمَّا أبو الجهْم فلا يَضعُ العصا عن عاتقه » متفق عليه ، وفي رواية لمسلم : وأما أبو الجهم فضراب للنساء ، وهو تفسير لرواية لا يضع العصا عن عاتقه ، وقيل معناها : كثير الأسفار .

● وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم . قال : « خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف » متفق عليه .

---

(١) أي الرشوة .

٢ ـ النميمـة :

وهي كذلك حرام : لأنها نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد : وقد قال الله تعالى مشيراً إليها :

● ﴿ هماز مشاءٍ بنميم ﴾[١] .

كما ورد كذلك في السنة الشريفة :

● عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة نَمام » متفق عليه .

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال : « إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، بلى إنه كبير : أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » متفق عليه ، وهذا لفظ البخاري . قال العلماء : معني وما يعذبان في كبير : أي كبير في زعمهما ، وقيل كبير تركه عليهما .

وكان النبى ﷺ يكره أن يبلغه أحد مى أصحابه عن أحد من أصحابه شيئاً .

● فعى ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » رواه أبو داود والترمذي .

ففي هذا الحديث يشير النبي ﷺ إلى أهم ملاحظة ينبغي علينا نحن المؤمنين بصفة خاصة أن نلاحظها وننفذها حتى يظل بناء الإسلام شامخاً وحتى يظل المسلمون بسبب شموخه هذا قوة لا يُستهان بها :

لأنه ينبغي أن يكون « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[٢] .

وهذا لن يكون إلا بسلامة الصدور ، ونقائها من الحقد والحسد وجميع

---

(١) سورة القلم : الآية ١١ .

(٢) رواه مسلم .

الأمراض التي من أخطرها كذلك حب الذات ، وعشق الشهوات .

٣ ــ الكــــذب :

من أخطر جنايات اللسان .. التي غالباً ماتكون سبباً في فجوره الذي يوصله إلى النار :

● فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتي يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً » متفق عليه .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً[١] ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق[٢] حتى يدعها[٣] : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي .

ومعنى : « إذا اؤتمن خان » ، أي : إذا أودع عنده شيء من سر أو مال أفشى السر وأذاعه وبدد المال وأضاعه .

ومعنى : « وإذا خاصم فجر » ، أي : إذا كانت بينه وبين أحد خصومة ارتكب ضده ما لا يليق من أنواع الأذى ، ولم يقف في خصومته عند حد فيكيد لخصمه ما استطاع حتى يستحل حرمته ويثلم عرضه ، ويفتري عليه الكذب ، ويسعى به لدى الحكام والولاة ونحو ذلك .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث[٤] : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر »

---

(١) أي كامل النفاق .

(٢) وفي رواية : « خصله من النفاق » .

(٣) أي يتركها .

(٤) أي العلامات التي تميزه وتدل عليه ثلاث خصال .

رواه البخاري ومسلم : وزاد في رواية له : « وإن صلّى وصام وزعم أنه مسلم » .

يعني : ما دامت فيه واحدة من هذه الخصال فهو منافق حتى ولو كان يقوم بالعبادات الظاهرة : من صلاة وصيام أو كان يدعي الإسلام .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى لا تكون من أهل الكذب .. لأن الله تعالى : ﴿ .. **لا يهدي من هو مسرف كذاب** ﴾[1] .

مع ملاحظة ما أشار إليه كذلك صاحب كتاب « رياض الصالحين » ، تحت عنوان :

ما يجوز من الكذب

إعلم : أن الكذب وإن كان أصله محرماً ، فيجوز في بعض الأحوال بشروط قد أوضحتها في كتاب الأذكار .

ومختصر ذلك أن الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب . ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً ، وإن كان واجباً كان الكذب واجباً :

ثم يقول موضحاً هذا :

فإن اختفى مسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله ، أو أخفى ماله وسُئِل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه ، وكذا لو كان عنده وديعة وأراد ظالم أخذها وجب الكذب بإخفائها ، والأحوط في هذا كله أن يُورِّيَ ، ومعنى التورية أن يقصد بعبارته مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ وبالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب، ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام في هذا الحال ، واستدل العلماء بجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) الآية رقم ٢٨ من سورة غافر .

« ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً » متفق عليه ، زاد مسلم في رواية : قالت أم كلثوم : ولم أسمعه يُرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث : يعني الحربَ ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها .

٤ ــ شهادة الزور :

تعتبر كذلك من جنايات اللسان على الإنسان : وقد حرمها الله ورسوله :

ففي القرآن الكريم يقول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **واجتنبوا قول الزور** ﴾[١] .

كما قال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين :

● ﴿ **والذين لا يشهدون الزور** ﴾[٢] .

● وعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقولَ الزور وشهادةَ الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليَته سكت » متفق عليه .

كذلك من جنايات اللسان :

٥ ــ سب المسلم بغير حق :

ففي القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

● ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾[٣] .

---

(١) الحج : ٣٠ .
(٢) الفرقان : ٧٢ .
(٣) الأحزاب : ٥٨ .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه .

● وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يرمي رجُلٌ رجُلاً بالفسق أو بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » رواه البخاري .

أما لعن أصحاب المعاصي ، فقد ورد جوازه في القرآن والسنة .

وفي القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

● ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾[1] .

وقال تعالى :

● ﴿ **فأذَّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين** ﴾[2] .

وثبت في الصحيح :

أن رسول الله ﷺ ، قال :

● « لعن الله الواصلة والمستوصلة » وأنه قال :

● « لعن الله آكل الربا » وأنه :

● « لعن المصورين » وأنه :

● « لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال » .

●● فكُفَّ لسانك أخا الإسلام عن كل تلك الجنايات ، حتى تكون مسلماً بمعنى الكلمة :

● فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه » متفق عليه .

---

(١) هود : ١٨ .

(٢) الأعراف : ٤٤ .

●● ولا تَكُفَّ لسانكَ عن الخير المشار إليه في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾[١] :

ومعنى هذا أنه من الخير للإنسان أن يستعمل لسانه في الخير لا في الشر .

●● وذلك ـــ مثلاً ـــ بأن يأمر الناس بصدقة ، أي : بأن يتصدقوا على إخوانهم الفقراء والمساكين بما يستعينون به على شئون الحياة ومطالبها التي قد لا يستطيعون مواجهتها ...

ولهذا كان من الخير أن نعينهم على هذا .. وأن نلفت قلوب أهل الخير إليهم ... وذلك بتذكيرهم بمثل هذه الأحاديث التي وردت :

● عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل معروف صدقة » رواه البخاري ، ورواه مسلم من رواية حذيفة رضي الله عنه .

● وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعون خصلة أعلاها منيحةُ[٢] العَنز ، ما من عاملٍ يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديقَ موعودها[٣] إلا أدخله الله بها الجنة » رواه البخاري و « المنيحة » أي : أن يعطيه إياها ليأكل لبنها ثم يردها إليه .

● وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « اتقوا النار ولو بشق[٤] تمرة » متفق عليه . وفي رواية لهما[٥] عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحدٍ إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه تَرجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم[٦] منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه : فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فكلمة طيبة » .

---

(١) النساء : ١١٤ .

(٢) أي : عطية .

(٣) أي ما وعد به فيها .

(٤) أي : نصفها .

(٥) أي للبخاري ومسلم .

(٦) أي جهة يساره .

● وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « على كل مسلم صدقة » قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه[1] ويتصدق » قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يُعينُ ذا الحاجة الملهوف » قال : أرأيتَ إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف أو الخير » قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر[2] فإنها صدقة» متفق عليه .

●● وكذلك من الخير للإنسان العاقل أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : حتى يكون بهذا من المشار إليهم في قول الله تعالى :

● ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[3] .

وإلا كان والعياذ بالله كالمشار إليهم في قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[4] .

وقد ورد في السنة الشريفة :

● عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده[5] ، فإن لم يستطع فبلسانه[6] ، فإن لم يستطع فبقلبه[7] وذلك أضعف الإيمان[8] » رواه مسلم .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون[9] وأصحاب يأخذون بسنته

---

(١) بثمنه أو بأجره أو بثمره .
(٢) أي عن الأذى ليسلم من الهلاك ويسلم الناس من شره .
(٣) آل عمران : ١٠٤ .
(٤) المائدة : ٧٨ .
(٥) أي كتكسير أواني الخمر وآلات اللهو وقبائح يراها فيزيل أثرها .
(٦) وذلك بنحو صياح واستغاثة وتوبيخ وتذكير بالله مع لين أو إغلاظ .
(٧) أي ينكره ويكره ذلك ويعزم على تغييره إذا قدر بمنع الزاني أو شارب الخمر .
(٨) أي أقله ثمرة .
(٩) أي : خلصاء الأنبياء وأصفياؤهم المفضلون .

ويقتلون بأمره ، ثم إنها تخلف[1] من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون[2] ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » رواه مسلم .

● وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذِ مَن فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم[3] نجوْا ونجوْا جميعاً » رواه البخاري (والقائم في حدود الله) معناه: المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها . والمراد بالحدود : ما نهى الله عنه (واستهموا) : أي اقترعوا .

فلنكن من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حتى لا تغرق السفينة بنا جميعاً ... كما أشار الحديث ..

وكن كذلك من الذين يُصلحون بين الناس حتى تكون من أهل الخير .. لأن الله تعالى يقول :

● ﴿ والصُّلح خير ﴾[4] ، ويقول :

● ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾[5] .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سُلامَى[6] من الناس عليه صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الإثنين صدقة ، وتُعين الرجلَ في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه

---

(١) أي تحدث .
(٢) أي يفعلون خلاف المأمور به من المنكرات .
(٣) أي منعوهم من خرق السفينة .
(٤) النساء : ١٢٨ .
(٥) الحجرات : ١٠ .
(٦) أي أعضاء المفاصل .

صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خُطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق(١) صدقة » متفق عليه .

ومعنى : « تعدل بينهما » أي : تُصلح بينهما بالعدل .

● وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيراً أويقول خيراً » متفق عليه . وفي رواية لمسلم زيادة ، قالت : ولم أسمعه يُرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : تعني الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها .

أي أن الكذب في هذه الأحوال سيكون أبيض لَا أسود ... ما دام الهدف خيراً لا شرًّا .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تمسك لسانك عن الشر لا عن الخير :

وقد نقل عن أبي القاسم القشيري رحمه الله تعالى أنه قال : السكوت في وقته صفة الرجال كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال .. قال : وسمعتُ أبا عليٍّ الدقاق يقول : من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس .. وكذا نقله في حلية العلماء عن غير واحد .

وفي حلية الأولياء : أن الإنسان لا ينبغي له أن يُخرج من كلامه إلا ما يحتاج إليه كما أنه لا ينفق من كسبه إلا ما يحتاج إليه .. وقال : لو كنتم تشترون الكاغد(٢) للحفظة لسكتم عن كثير من الكلام .

وروى عنه ﷺ أنه قال : « العافية في عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله عز وجل » .

ويقال : من سكتَ فَسَلِمَ ، كمن قال فغنم .

وقد ورد في الحديث : « رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكتَ فسلم » .

---

(١) أي تزيل ما يؤذي المارة من حجر وشوك ونحوهما .

(٢) لعله رحمه الله يقصد أنهم لو كانوا يشترون الورق الذي يسجل فيه الحفظة ما يقولون من كلام لما تكلموا كثيراً .. والله أعلم .

وقيل لبعضهم : لم لزمت السكوت ؟ قال : لأني لم أندم على السكوت قط وقد ندمت على الكلام مِراراً .

وقد نظم أحدهم هذا ، فقال :

ما إن ندمت على سكوتي مرة لكن ندمت على الكلام مِراراً

ومما قيل : جرح اللسان كجرح اليد .

وقيل : اللسان كلب عقور إن خُلي عنه عقر .

وروي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال :

يموت الفتى من عثرة من لسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه[1] ترمي برأسه وعثرته بالرجل تبري على المهل

ومما قيل :

قد أفلح الساكت الصموت كلامه قد يُعد قُوت
ما كل نطق له جواب جواب ما يكره السكوت
واعجباً لامرىء ظلوم مستيقن أنه يموت

●● هذا ، وأما عن المراد من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد ذلك في نص الوصية :« وليسعك بيتك » :

فإنه يعني بهذا أن تكون من المؤمنين الذين زَكَّاهم الله سبحانه وتعالى بنعمة الحصانة التي أغنتهم عن الحرام كما يشير إلى هذا نص الحديث الذي يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مخاطباً الشباب المسلم بصفة خاصة :

● « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء » :

فكانوا بسبب نعمة الزواج في بعد عن الجرائم الخلقية التي ما كانت إلا بسبب عدم تنفيذ وصية الرسول صلوات الله وسلامه عليه سواء كان هذا

---

(١) أي : من فمه .

بالنسبة للزواج .. أو الصيام التطوع[1] .

ولهذا فإنه ينبغي على الأخ المؤمن الذي أكرمه الله بنعمة الزواج أن يكون عفيفاً على الدوام .. وذلك بالإستغناء بالحلال عن الحرام .

● فعن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : يا رسول الله ذهب أهل الدثور[2] بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم[3] . قال : « أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون . إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وِزر ، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » رواه مسلم .

وهذا المعنى الأخير يشير إلى المراد من قول الرسول ﷺ : « وليسعك بيتك » : لأنه بهذا سيعف نفسه ، وسيعف زوجته من نحو نظر أو فكر أو هم محرم ، وقضاء حقها من معاشرتها بالمعروف.. مع ملاحظة : أن شهوة الجماع شهوة أحبها الأنبياء والصالحون .. قالوا : لما فيها من المصالح الدينية والدنيوية من غض البصر ، وكسر الشهوة عن الزنى ، وحصول النسل الذي تتم به عمارة الدنيا وتكثر الأمة إلى يوم القيامة .. قالوا : وسائر الشهوات يقسى تعاطيها القلب إلا هذه فإنها ترقق القلب .

ولهذا كان على الزوجة الصالحة أن تعين زوجها على تحقيق هذا ، وعلى أن يكون مستعيناً بها عن الرخيصات من المنحرفات « هداهن الله » :

وهذا من حق الزوج على زوجته :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا

---

(١) وهو المشار إليه في نص الحديث فصلاً عن صيام رمضان الذي فرضه الله علينا جميعاً نحن المسلمين المكلفين من الذكور والإناث .

(٢) « الدثور » : بالثاء المثلثة : الأموال ، واحدها دثر .

(٣) أي بأموالهم الفاضلة عن كفايتهم .

الرجل امرأته إلى فراشه[١] فلم تأته فبات غضباناً عليها: لعنتها الملائكة حتى تصبح » متفق عليه . وفي رواية لهما : « وإذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح » . وفي رواية قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده : ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى[٢] عليه إلا كان الذي في السماء[٣] ساخطاً عليها حتى يرضى عنها » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد[٤] إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه »[٥] متفق عليه وهذا لفظ البخاري .

● وعن أبي على طلق بن على رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور[٦] » رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

● وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

فعلى الأخت المسلمة — كزوجة صالحة — أن تلاحظ هذا وتنفذه حتى تكون إن شاء الله تعال من الزوجات الصالحات بمعنى الكلمة .. وحتى تكون بذلك إن شاء الله تعالى من أهل الجنة ... بل وحتى تكون بهذا قد أعانت زوجها على حفظ دينه ودينها ..

●● وقد يكون المراد كذلك من قول الرسول ﷺ : « وليسعك بيتك » : أنه ينبغي على الرجل العاقل — والمؤمن بصفة خاصة — أن يقضي وقت فراغه بين أهله في بيته لكي يكون مالئاً لفراغ هذا البيت الذي يحتاج إلى كل توجيهاته وإرشاداته .. التي بهاسيكون كل فرد من أفراد هذا البيت عضواً

---

(١) كناية عن الجماع
(٢) أي تمتنع عنه بغير مانع كمرض .. أو عادة شهرية .
(٣) أي أن الله تعالى سيظل ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها .
(٤) أي : حاضر .. لأنه قد يحتاج إليها
(٥) أي : لرجل محرم أو غيره ، ولا للمرأة كذلك .
(٦) التنور : الذي : تخبز فيه .. بمعنى أنها تخيب طلبه .

صالحاً ينفع ولا يضر .. ولن يتحقق هذا إلا إذا كان ربُّ البيت هذا على مستوى المسئولية المشار إليها في الحديث الشريف الذي ورد :

● عن ابن عمز رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « كُلُّكُم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير[1] راع ، والرجل راع على أهل بيته[2] ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده[3] . فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » متفق عليه .

فعلى الأخ المسلم : أن يلاحظ هذا وينفذه حتى يكون فعلاً من الرُّعاة الموفقين .

وحذار أن يقضي فراغه في أماكن اللهو واللعب.. أو على قارعة الطريق حتى لا يكون من الأخسرين أعمالاً .. وإن كان لا بد من الجلوس في الطرقات لأسباب تجارية .. أو ما شابه هذا .. فلْيعط الطريق حقه المشار إليه في الحديث الشريف الذي ورد :

● عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « إياكم والجلوس في الطرقات » قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بُدٌّ : نتحدث فيها : فقال رسول الله ﷺ : « فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غض البصر ، وكف الأذى ، وَرَدُّ السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » متفق عليه .

● وعن أبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه قال : كنا قعوداً بالأفنية نتحدث فيها فجاء رسول الله ﷺ فقام علينا فقال : « ما لكم ولمجالس الصُّعُدات »[4] » ؟ فقلنا : إنما قعدنَا لغير ما بأسٍ : قعدنا نتذاكر ، ونتحدث . قال : « إمَّا لا فأدوا حقها : غض البصر ، ورد السلام ، وحُسن الكلام » رواه مسلم.

---

(١) أي : دو الأمر . ويشمل سائر الحكام .
(٢) أي يقوم بكفايتهم ويأمرهم بالمعروف .
(٣) أي : تقوم بحفظه وحصانة ابنه وخدمته .
(٤) « الصعدات » بضم الصاد والعين : أي الطرقات .

●● وأما عن المراد من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « وابك على خطيئتك » : فإنه يشير إلى ما أشار إليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه في قوله : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » :

فإن هذا معناه أننا جميعاً هنا في هذه الحياة الأولى نُخطيء ونصيب باستثناء الأنبياء فإنهم يُصيبون ولا يُخطئون ... لأن الله عصمهم من الخطأ .

ولهذا : فإنه ينبغي على الإنسان العاقل .. الذي يرجو رحمة الله ومغفرته : أن يكون دائماً وأبداً متذكراً .. أو مُذكراً نفسه بأنه كثيراً ما كان مُقصِّراً في طاعة الله .. وأنه كثيراً ما ارتكب ما يُغضب الله تبارك وتعالى بسبب تزيين الشيطان لتلك المعاصي التي كانت ولا تزال سبباً في إعراض الله تبارك وتعالى عنه وعن أمثاله من العصاة :

ففي الحديث القدسي يقول تبارك وتعالى :

● « يا عبادي إني أتممت عليكم نعمتي ، وأرسلت إليكم الرسل الكرام لتعرفوا أحكام شريعتي .. فلماذا تُعرضون عنى وأنا الغني الكريم فوعزتي وجلالي لو أطعتموني لنصرتكم على أعدائكم ، وإذا استعنتم بي في الشدائد أعنتكم .. ولكنكم عصيتموني فأعرضت عنكم ، فوقعتم في الذل والعذاب المهين » .

وحسبي أن أذكر الأخ المسلم بموعظة إبراهيم بن أدهم التي وعظ بها أحد العُصاة يومَ أن ذهب إليه فقال له : إني مُسرف على نفسي فأعرض على من مواعظك النافعة ما يكون سَبباً في زجرها عن المعاصي والمخالفات .

فقال ابن أدهم ـــ ما مضمونه ـــ :

إن قدرت على خمس خصال لن تكون من العصاة ، ولن تكون من الذين تقهرهم نفوسهم الأمارة بالسوء .

فقال الرجل : هات ما عندك يا إبراهيم .

فقال ابن أدهم :

الأولى : إذا أردت أن تعصي الله .. فلا تأكل شيئاً من رزقه .. فقال

الرجل : كف تقول ذلك يا إبراهيم والأرزاق كلها من عند الله ؟ فقال له : إذا كنت تعلم هذا .. فهل يليق بك أن تأكل رزقه وتعصيَه ؟!! فقال الرجل : لا يا إبراهيم .. هات الثانية . فقال :

الثانية : إذا أردت أن تعصي الله فلا تسكن بلاده .. فقال الرجل : كيف تقول ذلك يا إبراهيم والبلاد كلها ملك الله ؟!! فقال له : إذا كنت تعلم هذا .. فهل يليق بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه ؟!! فقال الرجل : لا يا إبراهيم .. هات الثالثة : فقال :

الثالثة : إذا أردت أن تعصي الله فانظر مكاناً لا يراك فيه فاعصه فيه .. فقال الرجل : كيف تقول هذا يا إبراهيم وهو أعلم بالسرائر .. يعلم السرَّ وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟!! فقال له : إذا كنتَ تعلم هذا .. فهل يليق بك أن تعصيه ؟!! . فقال الرجل : لا يا إبراهيم هات الرابعة .. فقال :

الرابعة : إذا جاءك مَلَكُ الموت ليقبض روحك فقل له : أخرني إلى أجل معدود وحاول إغراءه بشتى الوسائل حتي يتركك ــ فقال الرجل : كيف تقول هذا يا إبراهيم والله تعالى يقول : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ ؟!! فقال له : إذا كنت تعلم هذا .. فكيف ترجو النجاة ؟!! . فقال الرجل : نعم يا إبراهيم هات الخامسة . فقال :

الخامسة : إذا جاءك الزبانية ــ وهم ملائكة جهنم ــ ليأخذوك إلى جهنم فلا تذهب معهم .. وقل لهم اتركوني فلن أذهب معكم .. فقال الرجل : كفى يا إبراهيم .. أنا أستغفر الله وأتوب اليه .. ولزم العبادة حتى فارق الحياة .

●● فلتكن أخا الإسلام كصاحبنا هذا الذي استفاد بهذه الموعظة النافعة فاستغفر الله تعالى وتاب إليه توبة صادقة ظل مؤكداً لها بالأعمال الصالحة طوال حياته .

وحسبك أن تُذَكِّر نفسك دائماً وأبداً بقول الله تعالى :

● ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾(١) .

● ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾(٢) .

وذلك حتى تكون من المؤكِّدين لتوبتك إلى الله تعالى على الدوام .

وإذا كان الرسول ﷺ قد قال : « وابك على خطيئتك » :

فإن المراد كما عرفتَ قبل هذا : أن تذكر نفسك بأنك قد قَصَّرت في طاعة الله ، وأن الشيطان قد استطاع أن يضحك عليك حتى يشغلك عن طاعة الله بأمور دنيوية لا تَمتُّ إلى عبادة الله بصلة.. هذا بالإضافة إلى بقية الأعداء المشار إليهم في قول القائل :

إني ابتليت بأربع ما سلطوا إلا لشدة شِقـوتي وعنـائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي

ونحن نجيبه بقول الله تعالى :

● ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين ﴾(٣) .

وإن المطلوب منك كذلك ــ أخا الإسلام ــ بالإضافة إلى هذه المجاهدة المستمرة : أن تكثر من الاستغفار الذي معناه طلب المغفرة من الله .. والذي ينبغي أن يكون بالوارد عن سيد المستغفرين صلوات الله وسلامه عليه :

● فعن ابن عمر رضي الله عنهما : قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة(٤) : « رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم » رواه أبو داود والترمذي والحاكم ، وقال : حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من

---

(١) طه : ٨٢ .
(٢) الفرقان : ٧١ .
(٣) العنكبوت : ٦٩ .
(٤) زيادة في الخضوع لله تعالى .

قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيَّ[1] القَيُّومَ[2] وأتوب إليه : غُفِرَتْ ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف »[3] رواه أبو داود والترمذي والحاكم ، وقال : حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم .

● وعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « سيد الاستغفار[4] أن يقول العبد : اللهم أنت ربي ، لاإله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك[5] ما استطعت[6] ، أعوذ بك من شر ما صنعت[7] ، أبوء لك[8] بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

من قالها في النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسيَ فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة » رواه البخاري .

● وعن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته : استغفر الله ثلاثاً وقال : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » قيل للأوزاعي ، — وهو أحد رواته — : كيف الاستغفار ؟ قال : يقول : «أستغفر الله أستغفر الله» رواه مسلم .

● وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول قبل موته : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » متفق عليه .

●● وحتى تستبشر ولا تيأس من رحمة الله تعالى : إليك كذلك أخا الإسلام الأحاديث الآتية :

---

(١) صفة مشتقة من الحياة وهي صفة أزلية ذاتية .

(٢) القيوم : أي الدائم القائم بتدبير خلقه وحفظه .

(٣) أي من موطن الحرب .. والمعنى أن الله تعالى سيغفر له ذنوبه الصغائر المتعلقة بحق ربه الكريم ، أو سيغفر له جميع الذنوب حتى الكبائر ...

(٤) أي الجامع لمعاني التوبة .

(٥) أي معاهدة إيمان وإخلاص وطاعة لك .

(٦) هذا اعتراف بالعجز والتقصير عن القيام بالواجب في حق الله العظيم .

(٧) أي من الإثم والعذاب والبلاء المرتب على ذلك .

(٨) أبوء : بباء مضمومة ثم واو وهمزة ممدودة : أي أقر وأعترف بنعمتك التي لا تحصى ولا تعد .

● عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني[1] ورجوتني[2] غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي[3] ، يا بن آدم لو بَلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقُراب الأرض[4] خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لآتيتك بِقُرَابِها مغفرة » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي[5] وأنا معه[6] حيثُ يذكرني ، واللهِ للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة[7] ، ومن تقرب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذِرَاعاً ، ومَن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه بَاعاً ، وإذا أقبل يمشي أقبلت إليه أهرول » متفق عليه ، وهذا لفظ إحدى روايات مسلم .. وروى في الصحيحين : « وأنا معه حين يذكرني » بالنون وفي هذه الرواية (حيث) بالثاء ، وكلاهما صحيح .

● وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم رسول الله ﷺ بسَبْي فإذا امرأة من السَّبي[8] تسعى إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألزمته ببطنها فأرضعته . فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ » قلنا : لا والله . فقال : « أللهُ أرحم بعباده من هذه بولدها » متفق عليه .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله الخلق كتب في كتاب[9] فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي »

---

(١) أي مدة دعائك بمغفرة .
(٢) بأن ظننت تفضلي عليك بالإجابة .
(٣) أي لا أكترث بكثرة ذنوبك .
(٤) أي ما يقارب ملء الأرض من الذنوب والآثام .
(٥) أي في الرجاء والعفو .
(٦) أي بالنصر والرحمة والتوفيق .
(٧) الفلاة : أي الصحراء
(٨) أي من الإماء الأسيرات .. عن طريق الحرب مع الكفار .
(٩) أي من صحف الملائكة المقربين .

وفي رواية : « غلبت غضبي » وفي رواية : « سبقت غضبي » متفق عليه .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم » رواه مسلم .

● وعن أبي أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يُذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » رواه مسلم .

● وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم .

فيا أيها المغرور قم وانتبه قد فاتك المطلوب والركب سار
إن كنت أذنبت فقم واعتذر إلى كريم يقبل الإعتـــذار
وانهض إلى مولى عظيم الرجا يغفـر بالليـل ذنـوب النهار

فهو القائل سبحانه في قرآنه الكريم :

● ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾[1] .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يغفر لنا أجمعين .. آمين .

---

(١) النساء : ١١٠ .

الوصية الثانية والسبعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه .
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

اجتنبوا السبع الموبقات[1] ، قالوا : يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف[2] ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات .

رواه البخاري ومسلم

(١) الموبقات ، أى المهلكات .

(٢) الزحف ، أى للقتال فى سبيل الله .

- وهذا الذى حذرنا النبى صلى الله عليه وسلم منه ؛ من الكبائر التى لابد أن يجتنبها العبد إذا أراد أن يغفر الله تعالى له الصغائر ، لأن الله تعالى يقول :

(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريمًا)

وفى الحديث الشريف : (الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذا التحذير المحمدي الذي يؤكد شيئاً واحداً ، وهو أن النبي ﷺ يحبنا ويكره الشر لنا ، وأنه صلوات الله وسلامه عليه حريص علينا ، كما يشير إلى هذا رب العزة في قوله :

● **﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾**[1] .

وهذا معناه كذلك أن النبي ﷺ يريد منا نحن المؤمنين بصفة خاصة أن نبتعد عن جميع المهلكات التي إن أصبنا بها ــ والعياذ بالله ــ كنا من أهل الضياع والخسران في الدنيا والآخرة .

وهذا معناه كذلك أن النبي ﷺ يريد منا أن نفعل عكس هذا .. حتى نكون فعلاً : ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** .. ﴾ .. وهذا لن يكون إلا بالخلق الفاضل الذي بُعِثَ النبي ﷺ ليتممه ، والذي لن يكون كذلك إلا بالبُعد عن السبع الموبقات التي هي أخطر الأمراض الحسية والمعنوية التي كانت ولا تزال من أهم أسباب الدّمار لكثير من المجتمعات على المستوى العام والخاص .. والتي كانت ولا تزال من أهم أسباب تفكّك المسلمين والسيطرة عليهم بتلك الصورة التي جعلتهم يُستهان بهم ولا يُخشى بأسهم .. كما أشار إلى هذا حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه :

● « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها قالوا : أوَمِن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا . بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهَن . قالوا : وما الوهَن يا رسول الله ؟ قال : حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت »[2] .

فنحن ــ للأسف الشديد ــ ما أصبحنا كغُثاء السيل بتلك الصورة المهينة والمشينة إلا بسبب تلك الأمراض السبع التي نهانا ﷺ عنها ، والتي

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

(٢) وهو من الأحاديث المشهورة .

أمرنا ﷺ كما جاء في صدر الحديث باجتنابها ..

ولهذا كان لا بد من تنفيذ هذا الأمر المحمدي الذي هو من أوامر الله .. قال تعالى :

● ﴿ **مَن يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾[1] .

وذلك حتى نكون إن شاء الله أهلاً للإنتساب إلى أمة هذا النبي العظيم الذي إن أطعناه إن شاء الله كنا من المهتدين .. قال تعالى :

● ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾[2] .

والآن أخا الإسلام وبعد هذا التقديم ـــ لهذا الحديث الصحيح ـــ إليك توضيح المراد من أمر النبي ﷺ باجتناب الموبقات السبع التي أرجو إن شاء الله تعالى أن تكون من أوائل المجتنبين لها ، والعاملين على تحذير الناس منها .. حتى تثاب على هذا .. لأنك بهذا ستكون من الناهين عن المنكر :

●● فأما عن :

الشرك بالله

فهو أكبر الكبائر ، لأنه يتنافى مع قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[3] .

● ﴿ **هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين** ﴾[4] .

● ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم[5] لا تأخذه سنة[6] ولا نوم له**

(١) النساء : ٨٠ .

(٢) النور : ٥٤ .

(٣) سورة الإخلاص .

(٤) سورة غافر ، الآية ٦٥ .

(٥) أي الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه .

(٦) والسنة : ما يتقدم النوم من الفتور وهو النعاس .

له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وَسِعَ كرسيه السموات والأرض ولا يُؤوده[1] حفظهما وهو العلي العظيم ﴾[2] .

● ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾[3] .

● ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[4] .

● ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ۞ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس[5] السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ۞ هو الله الخالق البارىء المصوِّرُ له الأسماء الحسنى يُسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[6] .

● ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين ۞ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يُرِدك بخير فلا رادَّ لفضله يُصِيبُ به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾[7] .

وقد ورد في السنة الشريفة :

● عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نِدًّا[8] وهو خلقك » قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أيُّ ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يَطعم معك »

---

(١) يؤوده : أي يثقله .
(٢) البقرة : ٢٥٥ .
(٣) المؤمنون : ١١٧ .
(٤) الأنبياء : ٢٢ .
(٥) معناه المنزه من النقائص .
(٦) الحشر : ٢٢ ــ ٢٤ .
(٧) يونس : ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٨) نِدًّا : أي المثل والنظير ، وقوله « وهو خلقك » : جملة حالية سيقت لتقريع المشرك وتوبيخه .

قلت : ثم أيُّ ؟ قال : « أن تُزَانيَ حليلة جارك » رواه البخاري ومسلم .

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما بَعَثَ النبي ﷺ مُعَاذاً نحو اليمن قال له : « إنك تَقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أولَ ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمسَ صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم ، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم(١) أموال الناس » رواه البخاري .

● وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه ، قال : كنا عند النبي ﷺ تسعةً أو ثمانية أو سبعةً ، فقال :

« ألا تبايعونَ رسول الله ﷺ ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : علام نبايعك يارسول الله ؟ قال : « على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وتسمعوا وتطيعوا ــ وأسَرَّ كلمة خفية ــ قال : ولا تسألوا الناسَ شيئاً ، فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوط(٢)أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه » رواه مسلم وأبو داود .

فمن كل هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة يتضح لنا ــ بل يتأكد لنا ــ أنه لا بد أن نكون من الموحدين لا من المشركين لأن الله تعالى .

﴿ .. **لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ .

وحسبي أن أذكرك بكلام جامع قرأته في « مجموعة التوحيد »(٣) حول هذا الموضوع الذي ندور حوله ، فإليك :

إعلم أرشدك الله تعالى أن الله خلق الخلق ليعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، قال تعالى : ﴿ **وما خلقتُ الجن والإنسَ إلا ليعبدون** ﴾(٤) .

---

(١) أي نفائسها التي تتعلق بها نفس مالكها واحدتها كريمة . وتوق : أي احذر وابتعد عنها .
(٢) السوط بالسين والطاء : الذي يضرب به .
(٣) لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله .
(٤) الذاريات : الآية ٥٦ .

والعبادة : هي التوحيد ، لأن الخصومة بين الأنبياء والأمم فيه ، كما قال تعالى :

● ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[1] .

وأما التوحيد فهو ثلاثة أنواع : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

أما توحيد الربوبية ، فهو الذي أقرَّ به الكفار على زمن رسول الله ﷺ ، ولم يُدخلهم في الإسلام ، وقاتلهم رسول الله ﷺ واستحل دماءهم وهو توحيد بفعله تعالى ، والدليل قوله تعالى :

● ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمعَ والأبصار ، ومن يخرج الحيَّ من الميت ، ويُخرج الميتَ من الحيِّ ، ومن يُدَبِّر الأمرَ ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ﴾[2] .

● ﴿ قل لمن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون ۞ سيقولون لله ، قل أفلا تذكَّرون ۞ قل مَن رب السموات السبع ورب العرش العظيم ۞ سيقولون لله قل أفلا تتقون ۞ قل مَن بيده ملكوتُ كُلِّ شيء وهو يُجيرُ ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون ۞ سيقولون لله ، قل فأنَّى تُسحرون ﴾[3] .

والآيات ــ الدالة ــ على هذا كثيرة جداً ، أكثر من أن تُحصر ، وأشهر من أن تُذكر .

الأصل الثاني : وهو توحيد الألوهية ، فهو الذي وقع فيه النزاع في قديم الدهر وحديثه وهو توحيد الله بأفعال العباد ، كالدعاء ، والنذر ، والنحر ، والرجاء ، والخوف ، والتوكل ، والرغبة ، والرهبة ، والإنابة .

ودليل الدعاء قوله تعالى :

---

(1) النحل : الآية ٣٦ .
(2) يونس : ٣١ .
(3) المؤمنون : ٨٤ ــ ٨٩ .

● ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين[1] ﴾[2] .

وكل نوع من هذه الأنواع عليه دليل من القرآن .

وأصل العبادة : تجريد الإخلاص لله تعالى وحده ، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ .. قال تعالى :

● ﴿ وأنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾[3] . وقال تعالى :

● ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحِي إليه أنه لا إله إلّا أنا فاعبدونَ ﴾[4] . وقال تعالى :

● ﴿ له دعوة الحق ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾[5] . وقال تعالى :

● ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾[6] . والآيات معلومات . وقال تعالى :

● ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[7] . وقال تعالى :

● ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾[8] .

والأصل الثالث : فهو توحيد الذات والأسماء والصفات . قال تعالى :

● ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له

---

(١) داخرين : أي صاغرين .
(٢) غافر : الآية ٦٠ .
(٣) الجن : الآية ١٨ .
(٤) الأنبياء : الآية ٢٥ .
(٥) الرعد : الآية ١٤ .
(٦) الحج : الآية ٦٢ .
(٧) الحشر : الآية ٧ .
(٨) آل عمران : الآية ٤١ .

كفواً أحد ﴾(١) . وقال تعالى :

● **﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه ، سيُجزون ما كانوا يعملون ﴾**(٢) . وقال تعالى :

● **﴿ ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ﴾**(٣) .

ثم اعلم أن ضد التوحيد الشرك ، وهو ثلاثة أنواع : شرك أكبر ، وشرك أصغر ، وشرك خفي .

والدليل على الشرك الأكبر قوله تعالى :

● **﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ﴾**(٤) . وقال تعالى :

● **﴿ وقال المسيح : يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾**(٥) .

وهو أربعة أنواع :

النوع الأول : شرك الدعوة . والدليل قوله تعالى :

● **﴿ فإذا ركبوا في الفلكِ دَعَوُا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البَرِّ إذا هم يُشركون ﴾**(٦) .

النوع الثاني : شرك النية وإرادة القصد ، والدليل قوله تعالى :

● **﴿ من كان يريد الحياةَ الدنيا وزينَتها نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم**

---

(١) سورة الإخلاص .
(٢) الأعراف : الآية ١٨٠ .
(٣) الشورى : الآية ١١ .
(٤) النساء : الآية ١١٦ .
(٥) المائدة : الآية ٧٢ .
(٦) العنكبوت : الآية ٦٥ .

فيها لا يُبخسون • أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾[1] .

والنوع الثالث : شرك الطاعة ، والدليل قوله تعالى :

● **﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابنَ مريمَ وما أمِروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[2] .**

وتفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية ، لادعاؤهم إياهم ، كما فسرها النبي ﷺ لعدي بن حاتم لما سأله ، فقال : لسنا نعبدهم فذكر له أن عبادتهم طاعتهم في المعصية[3] .

النوع الرابع : شرك المحبة ، والدليل قوله تعالى :

● **﴿ ومن الناس مَن يتخذ من دون الله أنداداً يُحبونهم كحب الله ﴾[4] .**

والنوع الثاني ــ من أنواع الشرك الثلاثة ــ : شرك أصغر ، وهو الرياء ، والدليل قوله تعالى :

● **﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[5] .**

والنوع الثالث : شرك خفي ، والدليل عليه قوله ﷺ :

● « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصَّفا في الليلة الظلماء » .

---

(١) هود : الآية ١٥ ــ ١٦ .

(٢) التوبة : الآية ٣١ .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) البقرة : الآية ١٦٥ .

(٥) الكهف : الآية ١١٠ .

وكفارته قوله ﷺ :

● « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم ، وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم »[1] .

فالكفر كُفران : كفر يُخرج من المِلَّة .. ، وهو خمسة أنواع :

النوع الأول : كفر التكذيب ، والدليل قوله تعالى :

● ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ، أليس في جهنم مثوىً للكافرين** ﴾[2] .

النوع الثاني : كفر الإباء والإستكبار مع التصديق ، والدليل قوله تعالى :

● ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾[3] .

النوع الثالث : كفر الشك ، وهو كفر الظن ، والدليل قوله تعالى :

● ﴿ **ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رُدِدْتُ إلى ربِّي لأجدنَّ خيراً منها مُنْقَلَباً * قال له صاحبه وهو يحاوره . أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم مِن نطفة ثم سَوَّاك رجلاً ، لكنَّا هو الله ربي ولا أشركُ بربي أحداً** ﴾[4] .

النوع الرابع : كفر الإعراض ، والدليل قوله تعالى :

● ﴿ **والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾[5] .

النوع الخامس : كفر النفاق ، والدليل قوله تعالى :

● ﴿ **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فَطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾[6] .

---

(1) رواه الحاكم وأبو نعيم عن عائشة .
(2) العنكبوت : الآية ٦٨ .
(3) البقرة : الآية ٣٤ .
(4) الكهف : الآية ٣٥ ــ ٣٨ .
(5) الأحقاف : الآية ٣ .
(6) المنافقون : الآية ٣ .

وكفر أصغر لا يخرج من المِلّة ، والدليل قوله تعالى :

● **﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾**[1] .

وأما النفاق فنوعان : اعتقادي ، وعملي .

فأما الاعتقادي ، فهو ستة أنواع : تكذيب الرسول ، أو تكذيب بعض ما جاء به ، أو بغض الرسول ، أو بغض ما جاء به الرسول ، أوالمسرة بانخفاض دين الرسول ، أو الكراهية بانتصار دين الرسول .

وأما العملي ، فهو خمسة أنواع ، والدليل قوله ﷺ :

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر » .

فهذه الأنواع الخمسة : وصاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار ، نعوذ بالله من النفاق والشقاق وسوء الأدب ، والله أعلم .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، ونفذ المراد منه حتى تكون موحداً لا مشركاً .

مع ملاحظة : أن التوحيد ، وهو : إفراد الله تعالى بالعبادة ـــ بعكس الشرك ـــ حق لله تعالى عليك :

● فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : كنت رِدْفَ[2] النبي ﷺ على حمار ، فقال : « يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذِّبَ من لا يشرك به شيئاً » فقلت يا رسول الله أفلا أُبَشِّر الناس ؟ قال : « **لا تبشرهم فيتكلوا** » [3] . متفق عليه .

---

(١) النحل : الآية ١١٢ .
(٢) أي كان يركب خلفه على الدابة .
(٣) حث على الإكثار من صالح العمل خشية أن يعطل التبليغ .

● وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحْلِ ، قال : « يا معاذ » قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً ، قال : « ما من عبدٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه[1] إلا حرمه الله على النار » قال : يا رسول الله أفلا أخبر بها الناسَ فيستبشروا ؟ قال : « إذاً يتَّكِلوا » فأخبر بها معاذٌ عند موته تأثُّماً » متفق عليه . وقوله : « تأثُّماً » : أي خوفاً من الإثم في كتم هذا العلم .

واعلم : أن من أهم ثمار هذا التوحيد أنك سَتُثَبَّتُ في القبر عند السؤال :

● فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « المسلم إذا سُئِلَ في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت[2] في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ متفق عليه .

وأنك إن شاء الله ستكون من أهل الجنة لا من أهل النار :

● فعن جابر رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال : « من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يُشرك به شيئاً دخل النار » رواه مسلم .

وتأمل معي في ختام هذا العنصر الأساسي قول هذا الموحد :

أعددت لله حين ألقاه ... أشهد أن لا إله إلاه
أقولها للإله خالصة ... يرحمني في القيامة الله
يوم يفوز على الأشهاد قائلها ... ويخسر الجاحدون نعماه
فهي لدار الخلود قائدة ... ومن عصى فالجحيم مأواه
من قالها للإله مخلصة ... فهو الذي قد أتاه تقواه
وهو الذي في الخلد مسكنه ... الله قد خصه فيها وأرضاه

* * *

---

(١) أي وحد الله تعالى وأفرده بالعبودية صادقاً .

(٢) أي بالحجة الواضحة .

يا واحداً في ملكه أنت الأحد ولقد علمت بأنك الفرد الصمد
لا أنت بمولود ولستَ بوالد كلا ولا لك في الورى كفواً أحد

●● وأما عن العنصر الثاني ، وهو :

السِّحر

فهو المشار إليه في قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾[1]

فالنفاثات في العقد : هُنَّ السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط ، حين يرقين عليها ، أي تنفخ فيها بشيء تقوله من غير ريق .

وقد قرأت في تفسير هذه السورة ــ سورة الفلق ــ حول هذا الجزء المتعلق بموضوع السحر ، ما جاء في مضمونه :

أن قوله « السواحر » كما جاء في التفسير : صفة لموصوف محذوف ، أي النساء السواحر وخص النساء بالذكر لأن سحرهن أشد من سحر الرجال ، لما ورد أنه بعد إغراق فرعون وقومه ، وتوجه موسى وقومه لقتال الجبارين ، مَلَك نساء القبط مصر وأقمن فيها ستمائة سنة كلما قصدهن عسكر صورن صورته وفعلن بالصورة ما شئن من قلع الأعين ، وقطع الأعضاء فيتفق نظيره للعسكر القاصد لهن فتخافهن العسكر .

وأن قوله في التفسير « بشيء تقوله من غير ريق » : متعلق بتنفخ .. ولهذا اختلف في النفث عند الرقية والمسح باليد ، فمنعه قوم لما فيه من التشبه بالسحر . وأجازه آخرون وهو الصحيح ، لما ورد عن عائشة : كان النبي ﷺ ينفث في الرقية وورد عنها أيضاً أنها رقت ونفثت. وقال علي كرم الله وجهه : اشتكيت فدخل على النبي ﷺ وأنا أقول : اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني ، وإن كان متأخراً فاشفني وعافني ، وإن كان بلاء فصبرني . فقال ﷺ : كيف قلت ؟ فقلت له ، فمسحني بيده ، ثم قال : « اللهم اشفه » فما رأيت ذلك الوجع بعد . أ . هـ .

---
(١) سورة الفلق .

ومن أجمل ما قرأت حول : المعوذتين .. في حاشية « الصاوي على الجلالين » ، قوله ﷺ : « لقد أُنزلت على سورتان ما أُنزل مِثلهما ، وإنه لن يقرأ أحد سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما » .. يعني المعوذتين[1] . .

ومعني قوله ﷺ : « ما أنزل مثلهما » أي في التحصن والتعوذ .

ومنها قوله ﷺ : « يا ابن عامر : ألا أخبرك بأفضل مما تعوذ به المتعوذون . قلت : بلى يا رسول الله . قال : « قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » .

ومنها أنه كان ﷺ : يتعوذ من عين الجان ومن عين الإنس ، فلما نزلت سورتا المعوذتين ، أخذ بهما وترك ما سواهما .

ومنها قوله ﷺ لبعض أصحابه : « اقرأ : قل هو الله أحد ، والمعوذتين ثلاثاً ، يكفيك من كل شيء » وفي رواية : « من قرأ : قل هو الله أحد والمعوذتين ثلاث مرات إذا أخذ مضجعه ، فإذا قُبض قُبِضَ شهيداً ، وإنْ عاش عاش مَغفوراً له » .

وقد نزلت المعوذتان ــ بإجماع الصحابة ــ لما سحر لبيد بن الأعصم اليهودي النبي ﷺ .

وحاصله : أنه لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة ، ودخل المحرم سنة بسبع وفرغ من وقعة خيبر ، جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم وكان حليفاً في بني زريق ، وكان ساحراً فقالوا له : أنت أسحرنا ، أي أعلمنا بالسحر ، وقد سحرنا محمداً فلم يؤثر فيه سحرنا شيئاً ، ونحن نجعل لك جُعلاً على أن تسحره لنا سحراً يؤثر فيه فجعلوا له ثلاثة دنانير . فأتى غلاماً يهوديًّا كان يخدم النبي ﷺ فلم يزل به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه وأعطاها له .. فسحره بها وكان من جملة السحر صورة من شمع على صورة رسول الله ﷺ وقد جعلوا في تلك الصورة إبراً مغروزة إحدى عشرة ، وَوَتر[2] فيه إحدى عشرة عقدة .. وكان النبي ﷺ كلما قرأ

---

(١) سورة الفلق وسورة الناس .

(٢) وهو وتر القوس .

آية انحلت عقدة ، وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً في بدنه ثم يجد بعدها راحة ، وكانت مدة سحره ﷺ أربعين يوماً ، وقيل ستة أشهر ، وقيل عاماً . قال ابن حجر : وهو المعتمد .

ثم يقول : إن قلت : كيف يؤثر السحر فيه ﷺ مع أنه معصوم بنص الله : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾[1] ؟: أجيب : بأن المعصوم منه ما أدى لخبل في عقله ، أو لضياع شرعه ، أو لموته .. وأما ما عدا ذلك .. فهو من الأعراض البشرية الجائزة في حقه .. كما أن جرحه وكسر رباعيته لا يقدح في عصمته .

ثم يقول : وأنكر بعض المبتدعة حديث السحر زاعمين أنه يحط من منصب النبوة ويشكِّكُ فيها ، وما أدى لذلك فهو باطل .

وزعموا أيضا أن تجويز السحر على الأنبياء يؤدي لعدم الثقة بما أتوا به من الشرائع .. إذ يحتمل أن يخيل إليه أن يرى جبريل يكلمه وليس هو ثَمَّ .. وهذا كله مردود لقيام الدليل على ثبوت السحر بإجماع الصحابة وعصمته ﷺ وجميع الأنبياء وصدقهم فيما يبلغونه عن الله ، وأما ما كان متعلقاً بأمور الدنيا فهم كسائر البشر تعتريهم الأعراض كالصحة والسقم والنوم واليقظة والتألم بالسحر ونحو ذلك ..

وأما ما ورد في قصة السحر من أنه كان يخيل إليه أنه يأتي أهله ولم يأت : فمعناه أنه يظهر له من نشاطه وسابق عادته الإقتدار على الوطء .. فإذا دنا من المرأة فَتَر عن ذلك .. كما هو شأن المعقود .. وتسميه العامة المربوط لما ورد أنه حبس عن عائشة سنة .. وعن ابن عباس أنه مرض وحُبِسَ عن النساء والطعام والشراب .. ففي ذلك دليل على أن السحر إنما تسلط على ظاهر جسده لا على عقله .. ثم اعلم : أن مذهب أهل السنة أن السحر حق وله حقيقة ويكون بالقول والفعل .

ومن جملة أنواعه السيمياء وهي حيل صناعية يتوصل بها بالاكتساب غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس . ومادته الوقوف على خواص الأشياء

---

(١) المائدة : الآية ٦٧ .

والعلم بوجوه تركيبها وأوقاتها وأكثرها تخيلات .. فيعظم عند من لا يعرف ذلك .. والحق أنه من الأسباب العادية التي توجد الأشياء عندها لا بِهَا .. فيؤثر في القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر في الأبدان بالألم والسقم .. وأما قلب الجماد حيواناً وعكسه : فباطل لا يُتَصَوَّر إذ لو قدر الساحر على هذا لقدر أن يرد نفسه إلى الشباب بعد الهرم ، وأن يمنع نفسه من الموت .. وهو حرام إن لم يكن بما يعظم به غير الله ، أو يعتقد تأثيره بنفسه وإلا فهو كفر .

ثم ذكر بعد ذلك وفي ختام هذا الكلام الجامع .. كيف علم النبي ﷺ بخبر هذا السحر ، فقال :

روى أنه ﷺ كان نائماً ذات يوم إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رأسه : ما بال الرجل ؟ فقال الذي عند رجليه : طب .. أي سحر .. قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن الأعصم اليهودي . قال : وبم طبه ؟ قال : بمشط ومشاطة . قال : وأين هو ؟ قال : في جف طلعة تحت راعوفة في بئر ذروان .

فانتبه النبي ﷺ ــ بعد أن استمع إلى هذا الحوار الذي كان بين الملكين ــ ثم أمر عليًّا والزبير وعمار بن ياسر ــ رضي الله عنهم ــ فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجف ، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطه ، وإذا وتره معقود فيه إحدى عشرة عقدة ، وإذا تمثال من شمع على صورته ﷺ مغروز فيه إحدى عشرة إبرة .. وكانت هذه المذكورات كلها موضوعة في الجف ، وهو بضم الجيم وتشديد الفاء وعاء طلع النخل ، والراعوفة حجر أسفل البئر يقوم عليه السابح .

فكان ﷺ ــ كما عرفت قبل ذلك ــ كلما قرأ آية من المعوذتين انحلت عقدة ووجد خفة حتى انحلت العقد كلها وقام كأنما نشط من عقال ، وقام ليس به بأس .

وزاد القرطبي على هذا : أن جبريل عليه السلام : جعل يرقي رسول الله ﷺ فيقول : « باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر حاسد وعين والله يشفيك » فقالوا : يا رسول الله ، ألا نقتل الخبيث ؟ فقال : « أمَّا أنا فقد

شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شرًا » .

والآن وبعد أن وقفت معك على هذا التقديم الهام الذي كان لا بد أن تقف عليه حتى تقف من خلاله على موضوع سحر الرسول ﷺ .. وما يتعلق به من آراء .. : أريد أن أقف معك كذلك على بعض الإشارات التفسيرية المتعلقة بقول الله تعالى في الآية الثانية بعد المائة في سورة البقرة ، وهي :

● ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان** ﴾ أي : اتبع أحبار اليهود ما تُحدث وتروى الشياطين من السحر في عهد ملك سليمان ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ أي : ما سحر سليمان ، ولا تعلم السحر ، ولا كان ساحراً لأن السحر كفر ﴿**ولكن الشياطين كفروا**﴾ أي : كفروا بتعليمهم السحر للناس ﴿ **يعلمون الناس السحر** ﴾ فالشياطين هي التي علمت الناس السحر ، وروته لهم ، لا سليمان عليه السلام ، روى أن رسول الله ﷺ لما ذكر « سليمان بن داود » وَعَدَّه في المرسلين ، قال من كان بالمدينة من اليهود : ألا تعجبون من محمد ! يزعم أن « سليمان بن داود » كان نبيًّا ! والله ما كان إلا ساحراً . فنزلت الآية .. والغرض أن أحبار اليهود نبذوا كتاب الله المنزل على رسوله ، ونقضوا العهد ، وآثروا السحر الذي روته الشياطين وحدثت به في عهد ملك سليمان ، وزعموا أن ذلك كان من علمه وروايته ، وأنه إنما كان يستعبد الإنس والجن والشياطين بالسحر ، فبرأ الله سليمان من السحر والكفر ، وأخبرهم بأنهم إنما اتبعوا في عملهم بالسحر ، وماتلته الشياطين في عهد سليمان ﴿ **وما أنزِلَ على المَلَكَين ببابل هاروت وماروت** ﴾ أي : واتبعوا أيضاً السحر الذي أنزل على المَلَكين «هاروت» و « ماروت » ببلدة بابل ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ أي : وما يعلمان ـــ أي « هاروت، وماروت » السحر أحداً من الناس حتى يخبراه بأنهما فتنة وابتلاء ، وينهيانه عن السحر والعمل به ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ أي : فيتعلم الناس منهما السحر الذي به يفرقون بين الرجل وزوجته[1] ، وذلك بتخييل الساحر إلى كل واحد منهما

(١) قال الطبري : فإن قيل : هل يجوز أن ينزل الله السحر ؟ وهل يجوز لملائكته أن تعلمه الناس ؟ =

شخص الآخر على خلاف حقيقته ، من حسن وجمال حتى يقبحه عنده فيحدث الفراق . ﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ أي : ولا يضرون بالذي تعلموه أحداً من الناس ، إلا من قضى الله عليه أن ذلك يضره ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ أي : ويتعلم الناس السحر الذي يضرهم في دينهم ، ولا ينفعهم في معادهم ﴿ **ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق** ﴾ أي : ووالله لقد علم اليهود لمن اشترى السحر ، ما له في الآخرة حظ ولا نصيب من الجنة ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ أي : ولبئسما باع به نفسه من تعلم السحر ، لو كان يعلم سوء عاقبته .. وهذا ذم من الله تعالى لمن تعلم السحر ، وخبر منه جَلَّ ثناؤه أنهم بئسما باعوا به أنفسهم برضاهم بالسحر عوضاً عن دينهم ، الذي به نجاة أنفسهم من الهلكة ، جهلاً منهم بسوء عاقبة فعلهم . أ . هـ[1] .

●● وقد ذكر القرطبي كذلك حول تفسير هذه الآية بعض المسائل الهامة المتعلقة بموضوع السحر .. والتي أرى من الخير أن أذكرك بها فإليك :

● ففي المسألة الثالثة يقول : السحر قيل أصله التمويه بالحيل والتخاييل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به ، يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيراً حقيقيًّا يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه ....

● وفي المسألة الرابعة يقول : واختلف هل له حقيقة أو لا ، فذكر الفرنوي الحنفي في عيون المعاني : أن السحر عند المعتزلة خداع لا أصل له ، وعند الشافعي وسوسة وأمراض ، قال : وعندنا أصله طِلْسَمٌ يليني عند تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس في زئبق عصا فرعون ، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر .

= قلنا : إن الله قد أنزل الخير والشر كله ابتلاء ، فليس في إنزال الله إياه على الملكين ، ولا في تعليم الملكين لهما ، بعد إخباره بأنهما فتنة ، ونهيه عن السحر والعمل به ، وإنما الإثم على من يتعلمه منهما ويعمل به ، كما لا إثم في العلم بصنعة الخمر ونحت الأصنام ، وإنما الإثم في عمله وتسويته . ا هـ الطبري ٢ / ٤٢٢ .

(٢) مختصر تفسير الطبري . طبعة دار التراث العربي بالقاهرة مع تصرف يسير .

ثم يقول القرطبي :

قلت : وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء على ما يأتي ، ثم من السحر ما يكون . بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذي : البريد لخفة سيره . قال ابن فارس في المجمل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهي خفة في اليدين وأُخذة كالسحر ، ومنه ما يكون كلاماً يُحفظ ، ورُقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، وأدخنة وغير ذلك .

● وفي المسألة الخامسة يقول : سمى رسول الله ﷺ الفصاحة في الكلام واللسانة فيه سحراً ، فقال : « إن من البيان لسحراً » . أخرجه مالك ، وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهم السامع أنه حق ، فعلى هذا يكون قوله عليه السلام : « إن من البيان لسحراً » : خرج مخرج الذم للبلاغة والفصاحة إن شبهها بالسحر . وقيل : خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان . قاله جماعة من أهل العلم ، والأول أصح ، والدليل عليه قوله عليه السلام : « فلعل بعضكم أن يكون ألحَنَ بحجته من بعض » . وقوله : « إن أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » . الثرثرة : كثرة الكلام وترديده ، يقال : ثرثر الرجل فهو ثرثار مهذار . والمتفيهق نحوه .... ثم يقول القرطبي .

قلت : وبهذا المعنى الذي ذكرناه فسره عامر الشعبي راوي الحديث وصعصعة بن صوحان فقالا : أما قوله عليه السلام : « إن من البيان لسحراً » . فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه ، وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسانة ما لم تخرج إلى حد الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل في صورة الحق . وهذا بين ، والحمد لله .

● وفي المسألة السادسة يقول : من السحر ما يكون كفراً من فاعله مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم في هيئة بهيمة وقطع مسافة شهر في ليلة والطيران في الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه مُحِقٌّ فذلك كفر منه . قال أبو نصر عبد الرحيم القشيري : قال أبو عمرو : مَن زعم أن الساحر يقلب الحيوان من صورة إلى صورة ، فيجعل الإنسان حماراً أو نحوه ويقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ، فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء

يدعي مثل آياتهم ومعجزاتهم ، ولا يتهيأ مع هذا علم صحة النبوة إذ قد يحصل مثلها بالحيلة . وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتمويهات وتخييلات فلم يجب على أصله قتل الساحر إلا أن يقتل بفعله أحداً فيقتل به .

● وفي المسألة السابعة يقول : ذهب أهل السُّنة إلى أن السحر ثابتَ وله حقيقة وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الإستراباذي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على ما هو به ، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، كما قال تعالى : ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ ولم يقل تسعى على الحقيقة ، ولكن قال يخيل إليه . وقال أيضاً : ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾ وهذا لا حجة فيه ، لأنا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع ، فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس فدل على أن له حقيقة ، وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون : ﴿ .. **وجاءوا بسحر عظيم** ﴾(١) . وسورة الفلق ، مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم وهو مما خرَّجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، الحديث . وفيه أن النبي ﷺ قال لما حل السحر : « إن الله شفاني » . والشفاء ، إنما يكون برفع العِلّة وزوال المرض ، فدل على أن له حقًّا وحقيقة ، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه . وعلى هذا أهل الحل والعقد الذي ينْعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق . ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبي الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال : علم السحر في قرية قرى مصر يقال لها : « الفرما » . فمن كذب به فهو كافر ، مكذب لله ورسوله ، منكر لما عُلم مشاهدة وعياناً .

---

(١) الأعراف : ١١٦ .

● وفي المسألة الثامنة يقول : قال علماؤنا : لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر ، قالوا : ولا يبعد في السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يدخل في الكوات والخوخات والإنتصاب على رأس قصبة ، والجري على خيط مستدق ، والطيران في الهواء والمشي على الماء وركوب كلب وغير ذلك ، ومع ذلك فلا يكون السحر مُوجباً لذلك ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولداً ، ولا يكون الساحر مستقلاً به ، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر ، كما يخلق الشبع عند الأكل ، والري عند شرب الماء . وروى سفيان عن عمار الذهبي أن ساحراً كان عند الوليد بن عقبة يمشي على الحبل ، ويدخل في إست الحمار ويخرج من فيه ، فاشتمل له جندب على السيف فقتله جندب — هذا هو جندب بن كعب الأزدي ويقال الجبلي — وهو الذي قال في حقه النبي ﷺ : « يكون في أمتي رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل » . فكانوا يرونه جندباً هذا قاتل الساحر . قال علي بن المديني : روى عنه حارثة بن مضرب .

● وفي المسألة التاسعة يقول : أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجمى وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام . فهذا ونحوه مما يجل القطع بأنه لا يكون ولايفعله الله عند إرادة الساحر . قال القاضي أبو بكر بن الطيب : وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه أجزناه .

● وفي المسألة العاشرة يقول : في الفرق بين السحر والمعجزة، قال علماؤنا : السحر يوجد من الساحر وغيره ، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد ، والمعجزة لا يمكن الله أحداً أن يأتي بمثلها وبمعارضتها ، ثم الساحر لم يدع النبوة .. فالذي يصدر منه متميز عن المعجزة ، فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوة والتحدي بها .

● وفي المسألة الحادية عشرة يقول : واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذمي ، فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون

كفراً : يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته ، لأنه أمر يستتر كالزنديق والزاني ، لأن الله تعالى سمى السحر كفراً بقوله : ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة . وروى قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن أسعد وعن سبعة من التابعين . وروى عن النبي ﷺ : « حَدُّ الساحر ضربه بالسيف » أخرجه الترمذي وليس بالقوي ، انفرد به إسماعيل بن مسلم عن الحسن مرسلاً ، ومنهم من جعله عن الحسن عن جندب . قال ابن المنذر : وقد روينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها في الرقاب . قال ابن المنذر : وإذا أقرَّ الرجل أنه سحر بكلام يكون كفراً وجب قتله إن لم يتب . وكذلك لو ثبتت به عليه بينة ووصفت البينة كلاماً يون كفراً ، وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله ، فإن كان أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقتُصَّ منه إن كان عمد ذلك وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك . قال ابن المنذر : وإذا اختلف أصحاب رسول الله ﷺ في المسألة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسنة ، وقد يجوز أن يكون السحر الذي أمر من أمر منهم بقتل الساحر سحراً يكون كفراً فيكون ذلك موافقاً لسنة رسول الله ﷺ ، ويحتمل أن تكون عائشة رضي الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كُفراً ، فإن احتج بحديث جندب عن النبي ﷺ : « حد الساحر ضربه بالسيف » . فلو صح لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذي يكون سحره كفراً فيكون ذلك موافقاً للأخبار التي جاءت عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يحل دم امريء مسلم إلا بإحدى ثلاث » :

ثم يقول القرطبي : قلت : هذا صحيح ، دماء المسلمين محظورة لا تُستباح إلا بيقين ولا يقين مع الإختلاف . والله تعالى أعلم . وقال بعض العلماء : إن قال أهل الصناعة لا يتم السحر إلا مع الكفر والإستكبار أو تعظيم الشيطان .. فالسحر إذن دَلَّ على الكفر على هذا التقدير والله تعالى أعلم . وروى عن الشافعي : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول تعمدت القتل ، وإن قال لم أتعمد ، لم يُقتل ، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ ، وإن أضَرَّ به أُدِّب على

قدر الضرر . قال ابن العربي : وهذا باطل من وجهين ، أحدهما أنه لم يعلم السحر ، وحقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى ، وتنسب إليه المقادير والكائنات . الثاني : أن الله تعالى قد صرح في كتابه بأنه كفر فقال : ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ بقول السحر ﴿ **ولكن الشياطين كفروا** ﴾ به وبتعليمه ، وهاروت وماروت يقولان : ﴿ **إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ وهذا تأكيد للبيان .

احتج أصحاب مالك بأنه لا تقبل توبته ، لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق، وإنما يستتاب من أظهر الكفر مرتدًّا . قال مالك : فإن جاء الساحر أو الزنديق تائباً قبل أن يُشهد عليهما قُبلت توبتهما ، والحجة لذلك قوله تعالى : ﴿ **فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسَنَا** ﴾ فقال أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب فكذلك هذان .

● وفي المسألة الثانية عشرة يقول : وأما ساحر الذمة فقيل : يقتل . وقال مالك : لا يقتل ، إلا أن يقتل بسحره ويضمن ما جنى ، ويقتل إن جاء منه مالم يعاهد عليه .

وقال ابن خويز منداد : فأما إذا كان ذِمِّيًّا فقد اختلفت الرواية عن مالك ، فقال مرة : يستتاب وتوبته الإسلام وقال مرة : يُقتل وإن أسلم . وأما الحربي فلا يقتل إذا تاب ، وكذلك قال مالك في ذِمِّيٍّ سَبَّ النبي ﷺ : يُستتاب وتوبته الإسلام . وقال مرة : يُقتل ولا يُستتاب كالمسلم . وقال مالك أيضاً في الذمِّيِّ إذا سحر : يعاقب ، إلا أن يكون قتل بسحره ، أو أحدث حدثاً فيؤخذ منه بقدره . وقال غيره : يُقتل ، لأنه قد نقض العهد . ولا يرث الساحر ورثته ، لأنه كافر إلا أن يكون سحره لا يسمى كفراً . وقال مالك في المرأة تعقد زوجها عن نفسها أو عن غيرها : تُنَكَّل ولا تُقتل .

● وفي المسألة الثالثة عشرة يقول : واختلفوا هل يسأل الساحر حل السحر عن المسحور ، فأجازه سعيد بن المسيب على ما ذكره البخاري ، وإليه مال المزني وكرهه الحسن البصري ، وقال الشافعي : لا بأس بالنُّشرة . قال ابن بطال : وفي كتاب وهب بن منبه : أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر

فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل ، فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حُبِس عن أهله .

●● فمن كل هذه المسائل ــ التي وقفت عليها ــ تستطيع أن تقف على أهم الأحكام المتعلقة بالسحر والساحرين .. والتي أرجو أن تكون من أهم الأسباب المنفرة من السحر الذي هو من الموبقات السبع كما جاء في وصية الرسول ﷺ ــ التي ندور حولها ــ :

فكن أخا الإسلام لكل هذا : مُجتنباً للسحر ــ حتى لا تكفر ــ فتكون بهذا من الهالكين ..

واحذر كذلك أن تتردد على هؤلاء الدجالين الذين يسمون بالعرافين .. حتى لا تكون من الذين قد كفروا بما أنزل على محمد ﷺ ... وحتى لا تكون بذلك من المضحوك عليهم والمغفلين .. بل ينبغي عليك كمسلم عاقل على صلة بكتاب الله ورسوله أن تكون لكل هؤلاء الضالين المضلين من المحاربين حتى تُطهِّر الأرض منهم ومن شرورهم .

وحسبي تحذيراً لك ولغيرك أن أذكرك ببعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بهذا الموضوع والتي منها ، ما ورد :

● عَن أبي مسعود رضي الله عنه قال : نهى نبي الله ﷺ عن ثمن الكَلْب ، ومهر البغيِّ ، وحلوان الكاهن . رواه البخاري والترمذي .

● وقالت عائشة رضي الله عنها : سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكُهَّان فقال : « ليسُوا بشيء » قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقًّا ، قال : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجِنِّيُّ فيَقُرُّها في أُذُنِ وليِّه قَرَّ الدَّجَاجَة[1] فيخلطون فيها أكثر من مائة كَذْبَةٍ » رواه الشيخان .

فالكهانة[2] التي ورد ذكرها في هذين الحديثين ، أو في هاتين الروايتين

---

(١) أي صوتها ...
(٢) كما جاء في كتاب « التاج الجامع للأصول » مجلد ٣ ص ٢٢٣ .

بالفتح والكسر حرفة الكاهن ، وهو من يدعي علم الغيْب في الأخبار بما يكون في الأرض ، وقد كان في العرب كهنة مشهورون كشق وسطيح بعضهم يزعم أنه له تابعاً من الجن يأتيه بالأخبار ، وبعضهم يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات يستدل بها ككلام السائل أو فعله أو حاله ، وهذا هو العراف الذي يدعي معرفة الأشياء كمكان المسروق ، ومكان الضالة ونحوهما ، والخط هو الخط بالكتابة أو في الرمل ، وله كيفيات في شرح أبي داود ، وكلها لا تجوز لأن مفادها ادعاء علم الغيب وهو لا يعلمه إلا الله تعالى وبعض مَنِ اصطفاهم الله من عباده لقوله تعالى : ﴿ **وما تدري نفس ماذا تكسب غداً** .. ﴾(١) وللحديث الشريف : « مفاتيح الغيب(٢) خمس لا يعلمها إلا الله ، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى » .

ومعنى : نهي النبي ﷺ عن « حلوان الكاهن » أي : عن أجرة كهانته ، لأن الزنى والكهانة حرام ، فكسبهما كذلك حرام .

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : أخبرني رجل أنصاري من أصحاب النبي ﷺ أنهم بينا هم جلوس ليلة مع النبي ﷺ رُمِيَ بنجم فاستنار(٣) ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمِيَ بمثل هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، كنا نقول : وُلِدَ الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم . فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يُرمَى بها لموتِ أحدٍ ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سَبَّح حملةُ العرش ثم سَبَّحَ أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم فيخبرونهم ماذا قال فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويُرمون به(٤) ، فما جاءوا به على وجهه فهو

---

(١) سورة لقمان : الآية ٣٤

(٢) وهي أيضاً المشار إليها في سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

(٣) أي وقع نجم فأنار الأرض .

(٤) فإذا خطف الجني كلمة وسمعها ليبلغها للكاهن ربما رمي بالنجم ، قال تعالى : ﴿ **إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾ .

حق ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون »[1] رواه الشيخان والترمذي .

وعنه عن النبي ﷺ ، قال : « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » رواه أبو داود وأحمد .

فمن تعلم شيأً من علم النجوم فكأنما تعلم سحراً وكلما زاد فيه زاد في السحر ، وهذا مذموم إذا كان يفهم منه أن للنجوم تأثيراً في الكون كنجم كذا يجيء بالأمطار ، ونجم كذا يأتي بالرياح ، ونجم كذا يأتي بالقحط وعلو الأسعار ، ونجم كذا يأتي بالوباء ، ونجم كذا يأتي بالحروب ونحو ذلك ، وأما معرفة النجوم للاهتداء بها إلى معرفة عظمة الخالق جل شأنه أو إلى الأوقات والقبلة والشهور أو إلى جهة المسير فلا بأس به ، بل هي لهذا مطلوبة ، قال تعالى : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾[2] .

● وعن بعض أمهات المؤمنين رضي الله عنهن عن النبي ﷺ قال : « من أتى عرَّافاً فسأله عن شيء لم تُقبل صلاته أربعين ليلة »[3] رواه مسلم وأحمد ولفظه : « من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد[4] ﷺ » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، أو أتى امرأته حائضاً ، أو أتى امرأته في دبرها فقد بريء بما أُنزل علي محمد ﷺ » رواه أصحاب السنن .

وذلك لأن شرعه ﷺ يحرم تصديق الكاهن والوطء في الحيض والدبر .. وهذا إن استحله وإلا فهو للزجر والتنفير لأن هذه ليست من الكبائر إلا إذا أصر عليها .

---

(١) يقرفون ويزيدون : مترادفان ، أي : يزيدون فيه ، فإذا قضى الله شيئاً من أمر العباد صدع الأمر الإلهي به فسبح له حملة العرش إجلالاً ومهابة ثم سبح من سمعهم ممن تحتهم وهكذا حتى يصل إلى السماء الدنيا فإذا أفاقوا مما غشيهم سأل من يلون العرش حملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ثم تستخبر كل طائفة من فوقها حتى يصل الخبر إلى السماء الدنيا ... إلخ .

(٢) النحل : الآية ١٦ .

(٣ ، ٤) قوله ﷺ لم تقبل صلاته أربعين ليلة ، وقوله : فقد كفر بما أنزل على محمد معناه : إن استحله ، وإلا فهو زجر ووعيد شديد .

● وعن معاوية بن الحكم السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قلت : يا رسول الله أموراً كنا نصنعها في الجاهلية(١) : كنا نأتي الكهان . قال : « فلا تأتوا الكهان » قلت : كنا نتطيَّر قال : « ذاك شيء : يجده أحدكم في نفسه فلا يَصُدَّنَّكم » قلت : ومنا رجال يخطون . قال : « كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه فذاك » رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي .

فمعنى : لا يصدنكم ، أي : عن مرادكم ومقصودكم ولكن توكلوا على الله .

وهذا النبي الذي كان يخط : قيل هو سيدنا إدريس ، وقيل دانيال عليهما السلام كان يخط بالرمل بإلهام أو بأمر إلهي وهذا مجهول الآن ، فلا يجوز تصديق من يدعيه .

● وعن قبيصة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : العَيافَةُ ، والطِّيَرة، والطَّرْقُ ، من الجِبْتِ » رواه أبو داود بسند صالح .

فالطرق : أي الضرب بالحصى ، والطِّيرة : أي التشاؤم بأي شيء ، والعيافة : أي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها .. كالتفاؤل بالعقاب على العقاب ، وبالغراب على الغربة ، وبالهدهد على الهدى ونحو ذلك ، فهذه الثلاثة وشبهها مما تقدم من الجبت(٢) والباطل ، فعملها حرام وتصديقها حرام على حد قول القائل :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

فاذكر كل هذا أخا الإسلام وانتفع به .. حتى يكون من أهم أسباب اجتنابك للسحر وأهله .. فتكون بهذا من الناجين لا من الهالكين إن شاء الله .

●● وأما عن العنصر الثالث في الوصية وهو :

قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق

فإن الحديث عن هذا العنصر الثالث نستطيع أن نبدأه من خلال قول الله

---

(١) أي أذكر لك أموراً كنا نعلها في الجاهلية (٢) الجبت : هو كل ما عبد من دون الله .

تعالى :

● ﴿ .. ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاباالحق ... ﴾ الأنعام الآية ١٥١ ، الإسراء الآية ٣٣ .

فهذاالحق المشار إليه في هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام ، ومن سورة الإسراء هو القصاص ، والردة عن الدين ، ورجم المحصن .

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا الحق المباح به القتل في الحديث الشريف الذي يقول فيه : « لا يحل دم امريء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وفي القرطبي قال كلاماً أوسع من هذا ، وأوضح من هذا الموجز الذي وقفتَ عليه ، وهو :

قوله تعالى : ﴿ .. **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق** .. ﴾ : الألف واللام في « النفس » لتعريف الجنس ، كقولهم : أهلك الناس حب الدرهم والدينار . ومثله : ﴿ **إن الإنسان خُلِق هلوعاً** ﴾[١] ألا ترى قوله سبحانه : ﴿ **إلا المصلين** ﴾[٢] وكذلك قوله : ﴿ **والعصر . إن الإنسان لفي خسر** .. ﴾[٣] لأنه قال : ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾ . وهذه الآية نهي عن قتل النفس المحرمة ، مؤمنة كانت أو معاهدة إلا بالحق الذي يوجب قتلها . قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله فَمن قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه إلا بحقه وحسابهم على الله » . وهذا الحق أمور : منها منع الزكاة ، وترك الصلاة .. وقد قاتل الصِّديق مانعي الزكاة . وفي التنريل: ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾[٤] . وهذا بَيِّن . وقال ﷺ : « لا يحل دم امريء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » وقال عليه

---

(١) المعارج : الآية ١٩ .
(٢) المعارج : الآية ٢٢ .
(٣) العصر : الآية ١ ، ٢ .
(٤)التوبة : الآية ٥ .

السلام : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخرِ منهما » أخرجه مسلم . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . وفي التنزيل : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقَتَّلوا** .. ﴾[1] . وقال : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** .. ﴾ الآية . وكذلك مَن شَقَّ عصا المسلمين وخالف إمام جماعتهم وفرق كلمتهم وسعى في الأرض فساداً بانتهاب الأهل والمال والبغي على السلطان والإمتناع من حكمه يُقتل ـــ فهذا معنى قوله : ﴿ **إلا بالحق** ﴾ وقال عليه السلام : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين » وروى أبو داود والنسائي عن أبي بكرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قتل معاهداً في غير كُنْهِه[2] حرم الله عليه الجنة » . وفي رواية أخرى لأبي داود ، قال : « مَن قَتَلَ رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً » وفي البخاري في هذا الحديث : « وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » . أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

كما أشار القرطبي بعد ذلك ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ .. **ذلكمْ وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾[3] .

عن نافع عن ابن عمر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أشرف على أصحابه فقال : علامَ تقتلوني ! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دم رجل مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل زنى بعد حصانة فعليه الرجم ، أو قتل عمداً فعليه القَوَد ، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل » فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ، ولا قتلتُ أحداً فأقيد نفسي به ، ولا ارتددتُ منذ أسلمتُ ، إني أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ذلكم الذي

---

(١) المائدة : الآية ٣٣ .

(٢) كنه الأمر : حقيقته ، وقيل : وقته وقدره . وقيل : غايته .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .

ذكرت لكم وصاكم به لعلكم تعقلون ! .

●● ومن أجمل ما قرأت كذلك حول قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق** ﴾ : تفسيراً عظيماً للإمام الشيخ محمود شلتوت ـــ رحمه الله تعالى ـــ يقول فيه : وهذه هي الوصية الخامسة[1] ، وهي النهي عن قتل النفس التي حرمها الله ، وهي النفس البشرية التي استخلفها الله في الأرض وناط بها عمارتها وإظهار أسراره فيها ، وقد تكرر في القرآن النهي عن قتلها ، جاء هنا في تلك الوصايا ، وجاء في وصايا الإسراء: ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومَن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنه كان منصوراً** ﴾[2] .

ثم قال بعد ذلك ، تحت عنوان :

القتل أبشع الجرائم

وقد اتفقت جميع الملل والنحل منذ بدء الخليقة على أن قتل النفس عمداً بغير حق يبرره ، جريمة منكرة لا يقرها شرع ولا يتقبلها وضع ، ولا يستسيغها اجتماع ، وقد عنيت الشريعة الإسلامية بهذه الجريمة أيّما عناية ، وأولتها كثيراً من الإهتمام ، فكررت النهي عنها ، وشددت التنفير منها والنكير عليها ، وبينت بوجه خاص حكمها الأخروي ، وأفاضت فيه ، وحكمها الدنيوي وفصلت أهم نواحيه وجعلت لها بعد عقوبتها الأصلية وهي « القصاص » عقوبة أخري تبعية وهي : « حرمان القاتل من ميراث المقتول إذا كان بينهما سبب من أسباب الميراث » ذلك أنها سلب لحياة المجني عليه ، وتيتيم لأطفاله ، وترميل لنسائه ، وحرمان منه لأهله وذويه ، وهي بعد ذلك تَحدٍّ لشعور الجماعة الإنسانية الذي فطرت عليه في اعتقاد أن الحياة حق لكل حي يتمتع به حسب ما قدر له ، ولا يجوز لأحد غير خالقه الذي قدر له ذلك الحق ومنحه إياه أن ينتزعه منه ، وهي فوق ذلك زعزعة لما ترجو هذه الجماعة من

---

(١) أي في الوصايا العشر .. الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

(٢) الإسراء : ٣٣ .

هدوء الحياة واستقرارها ، والانتفاع بجميع عناصرها وأبنائها ، هي هدم لعمارة شادها الله تتكون منها ومن أمثالها العمارة الكبرى لهذه الحياة .

ثم يقول بعد ذلك تحت عنوان :

موقف القرآن من تلك الجريمة المنكرة

وقد كان من أصرح وأقوى ما جاء في حكمها الأخروي قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً** ﴾[1] :

وقد كان مجيء هذا الوعيد على جريمة القتل في هذه الآية مطلقاً غير مقيد بالتوبة ــ كما هو الشأن في سائر الجرائم ، حتى جريمة الكفر ــ سبيلاً لبعض العلماء في تقرير أن توبة القاتل غير مقبولة متى كان المقتول مؤمناً ، وقد روى هذا الرأي عن ابن عباس ، وزيد بن ثابت وغيرهما من الصحابة ، وجاء في البخاري عن سعيد بن جبير أنه قال : اختلف أهل الكوفة في قاتل العمد : هل له توبة ؟ فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها ، فقال : نزلت هذه الآية : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ..** ﴾ وهي آخر ما نزل في عقوبة القتل وما نسخها شيء ، وقرأت عليه آية الفرقان التي فيها : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ..** ﴾ فقال : هذه آية مكية ، نسختها آية مدنية : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً ..** ﴾ وسواء أصح هذا الرأي أو صح أن الآية المدنية ﴿ **ومن يقتل مؤمناً ...** ﴾ نسخت الآية المكية : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ...** ﴾ أم لم يصح ــ كما يقتضيه النظر الصحيح في المقارنة بين الآيتين وأصل نظرية النسخ من وقوعها في القرآن عامة ، وفي آيات الأخبار خاصة التي منها آيات الجزاء الأخروي ، والتي بطبيعتها لا تعرض لتكليف ينسخ أو لا ينسخ ، وإنما تعرض لبيان ما أعد من الجزاء ، سواء صح ذلك أم لم يصح ، فحسبنا في عظم الجريمة عند الله أن الوعيد عليها جمع الخلود في جهنم ، وغضب الله عليه ولعنته ، وإعداد العذاب العظيم ، وهو وعيد لم ير

---

(١) النساء : الآية ٩٣ .

مثله في جريمة أخرى .

والنفس قد ذكرت مطلقة فتعم نفس القاتل ونفس غيره ، وعليه فمن قتل نفسه كان عند الله كمن قتل غيره ، وقد صَوَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم جزاء من يقتل نفسه فيما يرويه عنه أبو هريرة : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومَن قتل نفسه بسُمٍّ فسمه في يده يتحسَّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تَردَّى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالِداً مُخلَّداً فيها أبداً » وأحاديث الانتحار ــ وهو قتل الإنسان نفسه ــ كثيرة مروية في صحاح الأحاديث ، ومنها يتبين أن النَفس في الآية تَعُمُّ نفس القاتل ونفس غيره ، فكلتاهما نفس حرمها الله وحرم قتلها ...

●● فلتكن أخا الإسلام منتفعاً بكل هذا الذي أرجو أن يكون حجة لك لا عليك حتى تكون إن شاء الله من المجتنبين لهذا المنكر الكبير وهو قتل النفس التي حرم الله ..

وحسبك تحذيراً لك من فعل هذه الجرم... أن تقرأ معي هذه الأحاديث :

● عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أولَ ما يُقضَى بين الناس يوم القيامة في الدماء » رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

قال في الفتح تعليقاً على هذا الحديث : « أي أول القضاء يوم القيامة القضاء في الدماء أي في الأمر المتعلق بالدماء وفيه عظم أمر القتل لأن الابتداء إنما يقع بالأهم » .

وقال العيني : « أي في القضاء بها لأنها أعظم المظالم فيما يرجع إلى العباد ففيه وعيد شديد من حيث يبتدأ به في الحساب » .

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يزال المؤمن في فُسحةٍ[1] من دينه ما لم يُصِبْ دماً حراماً . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : إن من ورطاتِ الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم

(١) أي متسع .

الحرام بغير حِلّه » رواه البخاري والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

قال في الفتح : « قال ابن العربي : الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره .

والفسحة في الذنب قبول الغفران حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول .

وحاصله أنه فسره على رأي ابن عمر في عدم قبول توبة القاتل » .

وقد رواه الطبراني بزيادة : « فإذا أصاب دماً حراماً نزع منه الحياء » .

و « الورطات » : جمع ورطة بسكون الراء ، وهي الهلكة ، وكل أمر تعسر النجاة منه .

● وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لزوال الدنيا(١) أهون على الله(٢) من قتل مؤمن بغير حق » . رواه ابن ماجه بإسناد حسن ، ورواه البيهقي والأصبهاني . وزاد فيه : « ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله النار » .

وفي رواية للبيهقي ، قال رسول الله ﷺ : « لزوال الدنيا جميعاً أهون على الله من دمٍ سُفِكَ بغير حق » .

قال ابن العربي : « ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك فكيف بقتل الآدمي ، فكيف بالمسلم ، فكيف بالتقي الصالح » .

● وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » . رواه مسلم والنسائي والترمذي مرفوعاً وموقوفاً ، ورجح الموقوف .

وقد قال بعضهم تعليقاً على هذا الحديث : « الكلام مسوق لتعظيم القتل وتهويل أمره ، وكيفية إفادة اللفظ ذلك هو أن الدنيا عظيمة في نفوس الخلق ،

---

(١) أي لخراب الدنيا وفناؤها كلها .
(٢) يعني أيسر وأخف .

فزوالها يكون عندهم على قدر عظمتها .. فإذا قيل أن زوالها أهون من قتل المؤمن يفيد الكلام من تعظيم القتل وتهويله وتقبيحه وتشنيعه ما لا يحيطه الوصف » .

● وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره[1] إلا الرجل يموت مشركاً ، أو يقتل مؤمناً متعمداً » رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

نعوذ بالله تعالى من ارتكاب هذه الجرم الكبير .. ونسأله سبحانه وتعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

●● وأما عن العنصر الرابع في الوصية وهو :

أكل الربا

فإنه أيضاً من المنهي عنه صراحة في القرآن الكريم .. قال تعالى :

● ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** ﴾[2] :

وتعريفه : هو الزيادة في أشياء من المال مخصوصة ، وهو نوعان : ربا فضل ، وربا نسيئة .

فأما عن ربا الفضل ، فهو : بيع الجنس الواحد مما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً ، وذلك كبيع قنطار قمح بقنطار وربع من القمح مثلاً ، أو بيع صاع تمر بصاع ونصف من التمر مثلاً ، أو بيع أوقية فضة بأوقية ودرهم من فضة مثلاً .

وربَا النسيئة قسمان : رِبَا الجاهلية ؛ وهو المشار إليه في الآية القرآنية ــ السابقة ــ التي أشار الله تعالى فيها إلى تحريمه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا ...** ﴾ : وحقيقته أن يكون للمرء على آخر دَينٌ مؤجل ، ولما

---

(١) أي يرجى ويتوقع غفرانه من الله .
(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

يحل أجله يقول له : إما أن تقضيني أو أزيد عليك .. فإذا لم يقضه زاد عليه نسبة من المال وانتظره مدة أخرى ، وهكذا حتى يتضاعف في فترة من الزمن إلى أضعاف ، ومن ربا الجاهلية أيضاً : أن يعطيه عشرة دنانير مثلاً بخمسة عشر إلى أجل قريب أو بعيد .

وربا نسيئة : وهو بيع الشيء الذي يجري فيه الربا كأحد النقدين ، أو البُر أو الشعير ، أو التمر بآخر بما يدخله الربا نسيئة ، وذلك كأن يبيع الرجل قنطاراً تمراً بقنطار قمحاً إلى أجل مثلاً ، أو بيع عشرة دنانير ذهباً بمائة وعشرين درهماً إلى أجل مثلاً .

وفي كتاب « منهاج المسلم »[1] : يقول كلاماً جامعاً وكافياً حول هذا الموضوع الذي ندور حوله وهو الربا.. فيقول بعد هذا الذي وقفنا عليه ، تحت عنوان :

حكم الربـــا

الربا محرم بقول الله تعالى :

- ﴿ **وأحل الله البيع وحرَّم الربا** ﴾[2] .

وبقوله عز وجل :

- ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا ...** ﴾ .

ويقول الرسول ﷺ :

- « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه ، وكاتبه »[3] .

- وقوله : « درهم رباً يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية »[4] .

---

(١) للشيخ أبو بكر الجزائري أكرمه الله .

(٢) البقرة : الآية ٤٣ .

(٣) رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي .

(٤) رواه أحمد بسند صحيح .

وقوله :

● « الربا ثلاثون وسبعون باباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربَا عرض الرجل المسلم »[1] .

ثم يتحدث بعد ذلك عن حكمة تحريم الربا فيقول :

من الحكم الظاهرة في تحريم الربا زيادة على الحكمة العامة في جميع التكاليف الشرعية وهي امتحان إيمان العبد بالطاعة فعلاً وتركاً فإنها :

١ ــ المحافظة على مال المسلم ، لئلا يؤكل بالباطل .

٢ ــ توجيه المسلم إلى استثمار ماله في أوجه المكاسب الشريفة الخالية من الإحتيال والخديعة ، والبعيدة عن كل ما يجلب المشاقة بين المسلمين والبغضاء، وذلك كالفلاحة والصناعة والتجارة الصحيحة النظيفة .

٣ ــ سد الطرق المفضية بالمسلم إلى عداوة أخيه المسلم ومشاقته والمسببة له بغضه وكراهيته .

٤ ــ تجنيب المسلم ما يؤدي به إلى هلاكه ، إذ آكل الربا باغ ظالم ، وعاقبة البغي والظلم وخيمة ، قال تعالى :

● ﴿ **يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ..** ﴾[2] .

وقال رسول الله ﷺ :

● « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإنه أهلك مَن كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

٥ ــ فتح أبواب البر في وجه المسلم ليتزود لآخرته فيقرض أخاه المسلم بلا فائدة ، ويداينه ، وينتظر ميسرته ، وييسر عليه ويرحمه ابتغاء مرضاة الله ، وفي هذا ما يشيع المودة بين المسلمين ، ويوجد روح الإخاء والتصافي بينهم .

---

(١) رواه الحاكم وصححه .

(٢) يونس : الآية رقم ٢٣ .

ثم يتحدث بعد ذلك ، عن أحكام الربا ، فيقول تحت عنوان :

أصول الربويات

١ ــ أصول الربويات ستة ، وهي :

الذهب ، والفضة ، والقمح ، والشعير ، والتمر ، والملح ، لقوله ﷺ :

● « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبُرُّ بالبُرِّ ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » رواه مسلم .

وقاس أهل العلم من الصحابة والتابعين والأئمة ، رحمة الله عليهم ، كل ما اتفق مع هذه الستة في المعنى والعلة من كل مكيل أو موزون مطعوم مُدَّخر ، وذلك كسائر الحبوب ، والزيوت ، والعسل ، واللحوم . قال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: «لا رباً إلا فيما كيل أو وُزِنَ مما يؤكل أو يُشرب » .

٢ ــ الربا في جميع الربويات يكون من ثلاثة أوجه :

الأول : أن يباع الجنس الواحد بجنسه كالذهب بالذهب ، أو البُرُّ بالبُرِّ ، أو التمر بالتمر متفاضلاً . لما روى الشيخان أن بلالاً جاء إلى النبي ﷺ بتمر برني فقال له النبي ﷺ : « من أين هذا يا بلال ؟ » قال : كان عندنا تمر رديء فبعت صاعين بصاع ليطعم النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « أوه !.. عين الربا ... عين الربا ... لا تفعل ، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثم اشتره » .

الثاني : أن يباع الجنسان المختلفان كالذهب والفضة ، أو البر والتمر بعضهما بعضاً ، أحدهما حاضر ، وثانيهما غائب ، وذلك لقوله ﷺ : « لا تبيعوا منها غائباً بناجز » . وقوله : « بيعوا الذهب بالفضة يداً بيد » . وقوله : « الذهب بالورِق رباً إلّا هاءوهاء »[١] .

---

(١) الأحاديث متفق عليها .

الثالث : أن يباع الجنس . بجنسه متساويان ، ولكن أحدهما غائب نسيئة ، كأن يباع الذهبُ بالذهب ، أو التمر بالتمر ، مثلاً بمثل متساويان ، غير أن أحدهما غائب لقوله ﷺ : « البُرُّ بالبُرِّ رباً إلا هاء وهاء »(١) .

ومعنى ، هاءوهاء : يداً بيد ، أي مناجزة .

٣ ــ لا رباً مع الحلول واختلاف الأجناس : .

لا يدخل الربا بيعاً اختلف فيه الثمن والمثمن إلا أن يكون أحدهما نسيئة(١) . وهو غير النقدين ، فيجوز بيع الذهب بالفضة متفاضلاً ، وبيع البُر بالتمر أو الملح بالشعير متفاضلا إذا كان يداً بيد ، أي لم يكن أحدهما نسيئة ، لقوله ﷺ : « إذا اختلفت هذه الأشياء فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » رواه مسلم وقد تقدم .

كما لا رباً فيما يبيع من الربويات بنقد حاضر أو غائب ، وسواء غاب الثمن أو السلعة ، فقد اشترى رسول الله ﷺ جمل جابر بن عبد الله في السفر ولم يسدد له ثمنه إلا بالمدينة ، كما أن السَّلَم أجازه الرسول ﷺ بقوله : « من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم ، ووزن معلوم ، إلى أجل معلوم » . والسَّلَم يقدم فيه الثمن نقداً ، ويتأخر المثمن إلى أجل بعيد .

٤ ــ بيان أجناس الربويات :

الربويات أجناس ، والذي عليه الجمهور من الصحابة والأئمة هو أن الذهب جنس ، والفضة جنس ، والقمح جنس، والشعير جنس ، وأنواع التمر كلها جنس ، والقطاني أجناس مختلفة ، فالفول جنس ، والحمص جنس ، والرز جنس ، والذرة جنس ، وأنواع الزيوت كلها جنس ، والعسل جنس ،

---

(١) الحديث متفق عليه .

(٢) اختلف أهل العلم في حكم بيع الحيوان بالحيوان نسيئة ، وذلك لتعارض الأدلة ، فقد ورد أن النبي ﷺ أمر عبد الله بن عمر أن يشتري البعير بالبعيرين إلى آجل ، وذلك عند الحاجة ، كما ورد أنه ﷺ نهى عن بيع الحيوان بالحيوان نسيئة . والأقرب إلى الصواب والله أعلم أن بيع الحيوان بالحيوان نسيئة ممنوع ما لم تكن ضرورة داعية إلى ذلك . أما كونه مناجزة مع التفاضل وعدمه فجائز . كما ورد في الصحيح .

واللحوم أجناس : فلحم الإبل جنس[1] ولحم البقر جنس ، ولحم الضأن جنس ، ولحوم الطيور جنس ، ولحوم الأسماك المختلفة جنس .

٥ ــ ما لا يجرى فيه الربا من الأطعمة :

لا يجري الربا في مثل الفواكه والخضراوات لأنها لا تدّخر من جهة ، ولم تكن في الزمن الأول مما يُكال أو يوزن من جهة أخرى ، كما أنها ليست من الأغذية الأساسية كالحبوب والثمار واللحوم ، الواردة فيها النص الصريح عن النبي ﷺ .

ثم يقول بعد ذلك كلاماً هامًّا تحت عنوان :

تنبيهـــان

الأول : في البنوك[2] :

البنوك الحالية في سائر بلاد العالم الإسلامي أغلبها يتعامل بالربا ، بل ما وضع إلا على أساس ربوي خالص ، فلا يجوز التعامل معها إلا فيما ألجأت إليه الضرورة كالتحويل من بلد إلى آخر . وبناء على هذا فقد وجب على الإخوة الصالحين من المسلمين أن ينشئوا لهم بنوكاً إسلامية بعيدة عن الربا خالية من سائر معاملاته .

ثم يقول : وهاهي صورة تقريبية للبنك الإسلامي المقترح إنشاؤه : يجتمع الإخوة المسلمون من أهل البلد ، ويتفقون على إنشاء دار يسمونها : « خزانة الجماعة » يختارون لها من بينهم من هو حفيظ عليهم ، يتولى إدارتها ، وتسيير عملها .. وتكون مهمة هذه الخزانة مقصورة على ما يلي :

١ ــ قبول الإيداعات « حفظ أمانات الإخوان » بدون مقابل .

---

(١) يرى مالك ، رحمه الله تعالى ، أن لحوم الإبل والبقر والغنم جنس واحد فلا يجوز بيع بعضها ببعض متفاضلاً ولا نسيئة .

(٢) وهي المصارف .

٢ ــ الإقراض : فتقرض الإخوة المسلمين قروضاً تتناسب وإيراداتهم أو مكاسبهم بلا فائدة .

٣ ــ المشاركة في ميادين الفلاحة ، والتجارة ، والبناء ، والصناعة ، فتساهم الخزانة في كل ميدان يُرى أنه يحقق مكاسب وأرباحاً ــ طيبة ــ للخزانة .

٤ ــ المساعدة على تحويل عملة الإخوان من بلد إلى بلد بلاأجر إذا كان لها فرع في البلد المراد التحويل إليه .

٥ ــ على رأس كل سنة تُصفى حسابات الخزانة ، وتوزع الأرباح على المساهمين بحسب أسهمهم في الخزانة .

الثاني : في التأمين :

لا بأس أن يُكَوِّن أهل البلد من الإخوة المسلمين الصالحين صندوقاً يساهمون فيه بنسبة إيراداتهم الشهرية ، أو حسبما يتفقون عليه ، من مساهمة كل فرد بنصيب معين يكونون فيه سواء ، على أن يكون هذا الصندوق وقفاً خاصًّا بالإخوة المشتركين ، فمن نزل به حادث دهر ، كحريق ، أو ضياع مال ، أو إصابة في بدن أعطي منه ما يخفف به عن مصابه .

غير أنه ينبغي ملاحظة ما يلي :

١ ــ أن ينوي المساهم بمساهمته وجه الله تعالى ، ليثاب عى ذلك .

٢ ــ أن تحدد فيه المقادير التي تمنح للمصابين ، كما حددت أنصبة المساهمين بحيث يكون قائماً على المساواة التامة .

٣ ــ لا مانع من تنمية أموال الصندوق بالمضاربات التجارية والمقاولات العمرانية ، والأعمال الصناعية المباحة .

ثم يتحدث بعد ذلك عن الصرف ، فيقول في تعريفه ، وحكمه ، وحكمته ، وشروطه ، وأحكامه :

١ ــ تعريفه الصرف هو بيع النقدين ببعضهما بعضاً كبيع دنانير

الذهب بدراهم الفضة .

٢ ــ حكمه : الصرف جائز ، إذ هو من البيع ، والبيع جائز بالكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا .. ﴾[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « بيعوا الذهب بالفضة كيف شئتم يداً بيد » .

٣ ــ حكمته : حكمة مشروعية الصرف الإرفاق بالمسلم في تحويل عملته إلى عملة أخرى هو في حاجة إليها .

٤ ــ شروطه : يشترط في صحة جواز الصرف التقابض في المجلس بحيث يكون يداً بيد ، لقوله ﷺ : « بيعوا الذهب بالفضة كيف شئتم يداً بيد » . وقول عمر رضي الله عنه : « لا والله لا تفارقه حتى تأخذ منه ، قال رسول الله ﷺ : « الذهب بالورِق رباً إلا هاء وهاء » . قاله عمر لطلحة بن عبيد الله لما اصطرف منه مالك بن أوس فأخذ الدنانير ، وقال له : « حتى يأتي خازني من الغابة »[٢] يعني فيعطيه حينئذ الدراهم .

٥ ــ أحكامه : للصرف أحكام ، وهي :

١ ــ يجوز صرف الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، إذا اتحدا في الوزن بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر ، لقوله ﷺ : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ، ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منها غائباً بناجز »[٣] . وكان ذلك في المجلس ، لقوله ﷺ : « الذهب بالذهب رباً إلا هاء وهاء ، والفضة بالفضة رباً إلا هاء وهاء »[٤] .

٢ ــ يجوز التفاضل مع اختلاف الجنس كذهب بفضة ، إذا كان في المجلس ، لقوله ﷺ « إذا اختلفت هذه الأشياء فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » .

٣ ــ إذا افترق المتصارفان قبل التقابض بطل الصرف لقوله ﷺ : « إلا هاء بهاء » وقوله : « إذا كان يداً بيد »[٥] .

---

(١) البقرة الآية : ٢٧٥ . (٢) رواه البخاري .

(٣) (٤) (٥) الأحاديث متفق عليها .

وهكذا ترى أخا الإسلام حكمة تحريم الربا .. كما يتضح لك ضرورة اجتناب التعامل بالربا .. حتى تكون من أهل الحلال .. وحتى يبارك الله لك في أموالك وأولادك وكل شئونك .. بل ، وحتى يتقبل الله منك أعمالك وصدقاتك ودعواتك إذا ما تضرعت إليه سبحانه وتعالى :

● فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾[2] ثم ذكر الرجل يُطيلُ السفر أشعثَ أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّيَ بالحرام فأنَّى يُستَجَابُ له » رواه مسلم .

وحسبك أن تذكر دائماً وأبداً قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **الذين يأكلون الربا** ﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ، أخذاً ، وعطاءً ، وأكلاً ، وليس المقصود في الآية الأكل فحسب ، وإنما وردت تقبيحاً للحال التي هم عليها في مطاعمهم ، وتعظيماً لأمر الربا : ﴿ **لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ أي : لا يقومون من قبورهم يوم القيامة، إلا كقيام المصروع الذي يخنقه الشيطان فيصرعه من الجنون : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا** ﴾ أي : ذلك الجزاء بسبب أنهم كانوا يكذبون ويفترون ويقولون : الربا مثل البيع ، فلماذا يكون حراماً ؟ ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ أي : أحل الله الربح في التجارة ، والبيع والشراء ، وحرم الزيادة بسبب الأجل ، وتأخير الدَّين : ﴿ **فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى** ﴾ أي : فمن جاءه تذكير وتخويف من ربه ، فانزجر عن أكل الربا وارتدع : ﴿ **فله ما سلف** ﴾ أي : فله ما مضى ، قبل مجيء التحريم : ﴿ **وأمره إلى الله** ﴾ أي : أمر آكل الربا إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء

(١) المؤمنون : الآية ٥١ .

(٢) البقرة: الآية ١٧٢ .

عذبه : ﴿ **ومن عاد** ﴾ أي : ومن عاد لأكل الربا بعد التحريم : ﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أي : فأولئك أهل النار ، ماكثون فيها أبداً : ﴿ **يمحق الله الربا ويُربي الصدقات** ﴾ أي : يُنقِصُ الله الربا فيذهبه ، ويضاعف أجر الصدقات وينميها : ﴿ **والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ أي : والله لا يحب المصر على الكفر ، المتمادي في الإثم ، الذي لا يتعظ ولا يرعوي : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي : الذين صدقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم الله : ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ أي : أدوها بأركانها وسننها : ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ أي : أعطوا الزكاة المفروضة في أموالهم ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم** ﴾ أي لهم ثواب أعمالهم في معادهم ﴿ **ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي : لا خوف عليهم من العقاب ، ولا هم يحزنون على ما تركوا في الدنيا : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ أي : خافوا الله على أنفسكم ، بطاعته ، واجتناب معاصيه : ﴿ **وذروا ما بقي من الربا** ﴾ أي : واتركوا ما بقي لكم ، من زيادة على رءوس أموالكم : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي : إن كنتم محققين إيمانكم ، قولاً وفعلاً . قال الضحاك : كان رباً يتبايعون به في الجاهلية ، فلما أسلموا أُمِروا أن يأخذوا رءوس أموالهم : ﴿ **فإن لم تفعلوا** ﴾ أي : فإن لم تتركوا الربا : ﴿ **فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ أي : فكونوا على علم ويقين ، من حرب الله ورسوله : ﴿ **وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم** ﴾ أي : وإن أنبتم إلى الله ، وتركتم أكل الربا ، فلكم رءوس أموالكم ، دون الزيادة : ﴿ **لا تظلمون ولا تُظلمون** ﴾ أي : لا تظلمون غيركم بأخذ الزيادة على أموالكم ، ولا تُظلمون أنتم بأخذكم رءوس أموالكم فقط : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾ أي : وإن كان المستدين معسراً ، فعليكم أن تُنظِروه إلى ميسرة ، أي إلى وقت الغِنى واليسار : ﴿ **وأن تَصَدَّقُوا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ أي : وأن تتصدقوا على هذا المعسر برءوس أموالكم ، خير لكم من أن تنظروه ، لتقبضوا منه أموالكم ، إن كنتم تعلمون فضل الصدقة ، وثواب من وضع عن غريمه المعسر دينه : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله** ﴾ أي : فاحذروا يوماً رهيباً ، تلقون فيه ربكم : ﴿ **ثم تُوفَّى كلُّ نفس ما كسبت** ﴾ أي : ثم تنال كل نفس جزاءها العادل ، وما قدمت من سيىء وصالح ، لأنه يوم مجازاة بالأعمال : ﴿ **وهم**

لا يظلمون ﴾[1] أي : لا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً ، وكيف يُظلم مَن جوزي بالإساءة مثلها ، وبالحسنة عشر أمثالها ؟ وهذه آخر آية نزلت من القرآن ، كما قال الجمهور ، ثم انقطع الوحي وعاش بعدها النبي ﷺ تسع ليال ، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وفيها تذكير للناس بالوقفة الرهيبة ، بين يدي أحكم الحاكمين : **﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾** .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : لعن رسول الله ﷺ : « آكل الربا[2] ، وموكله » رواه مسلم . زاد الترمذي وغيره : « وشاهديه وكاتبه » .

أعاذنا الله جميعاً من التعامل بالربا ... وجعلنا جميعاً من آكلي الحلال حتى لا ندخل النار ... فقد ورد في الحديث : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » .

نسأل الله تعالى النجاة من النار ، والفوز بالجنة .

●● وأما عن العنصر الخامس ، من المهلكات ، وهو :

أكل مال اليتيم

فقد قال الله تعالى مؤكداً حرمته ومشيراً إلى مصير آكله :

● **﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾**[3] .

فقد روى — كما جاء في القرطبي — أنها نزلت في رجل من غَطَفَانَ يقال له مرثد بن زيد ولِيَ مالَ ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله ، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية ، قاله مقاتل بن حيان .

---

(١) ما بين الأقواس من سورة البقرة من الآية ٢٧٦ — ٢٨١ .
(٢) آخذاً كان أو معطياً .
(٣) سورة النساء : الآية ١٠ .

ولهذا قال الجمهور : إن المراد الأوصياء الذين يأكلون ما لم يُبح لهم من مال اليتيم .

وقال ابن زيد : نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورِّثون النساء ولا الصغار . وسُمِّى أخذ المال على كل وجوهه أكلاً لمَّا كان المَقصودُ هو الأكل وبه أكثر إتلاف الأشياء ، وخَصَّ البطون بالذكر لتبيين نقصهم ، والتشيع عليهم بضد مكارم الأخلاق . وسُمِّى المأكول ناراً بما يئول إليه ، كقوله :﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾أي عنباً . وقيل : ناراً أي حراماً ، لأن الحرام يوجب النار ، فسماه الله تعالى باسمه . وروى أبو سعيد الخدري ، قال : حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسري به قال : « رأيت قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وُكِّل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في مشافرهم صخراً من نار يخرج من أسافلهم . فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً » : فدل الكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر . وقال ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » وذكر فيها « وأكل مال اليتيم » .

هذا ، وإذا كان الله تعالى قد قال قبل ذلك في الآية الثانية من سورة النساء :

● **﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾ :**

فإنني أحب كذلك أن أشير إلى أهم الجوانب المتعلقة بأكل مال اليتيم في هذه الآية :

فقد ذكر القرطبي : أنها نزلت في قول مقاتل والكلبي في رجل من غطفان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عمه ، فنزلت . فقال العم : نعوذ بالله من الحوب الكبير(١) ! ورد المال . فقال النبي ﷺ : « من يوق شُحَّ نفسه ورجع به هكذا فإنه يَحُلّ داره يعني جنته » . فلما قبض الفتى المالَ أنفقه في سبيل الله ، فقال عليه السلام : « ثبت

---

(١) أي الإثم الكبير .

الأجر وبقي الوزر » فقيل : كيف يا رسول الله ؟ فقال : « ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده » لأنه كان مشركاً .

ثم يقول القرطبي في المسألة الثانية : وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين : أحدهما : إجراء الطعام والكسوة ما دامت الولاية ، إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكُلّي والإستبداد كالصغير والسفيه الكبير . الثاني : الإيتاء بالتمكن وإسلام المال إليه ، وذلك عند الإبتلاء والإرشاد ، وتكون تسميته مجازاً ، المعنى : الذي كان يتيماً ، وهو استصحاب الإسم ، كقوله تعالى : ﴿ **فألقى السحرة ساجدين** ﴾ أي الذين كانوا سحرة . وكان يقال للنبي ﷺ : « يتيم أبي طالب » . فإذا تحقق الولى رشده حُرم عليه إمساك ماله عنده وكان عاصياً . وقال أبو حنيفة : إذا بلغ خمساً وعشرين أُعطيَ ماله على كل حال ، لأنه يصير جَدًّا ....

وفي المسألة الثالثة ، يقول : قوله تعالى : ﴿ **ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب** ﴾ أي : لا تتبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة ولا الدرهم الطيب بالمزيف . وكانوا في الجاهلية لعدم الدِّين لا يتحرجون عن أموال اليتامى ، فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى ويبدلونه بالرديء من أموالهم ، ويقولون : اسم باسم ، ورأس برأس فنهاهم الله عن ذلك . هذا قول سعيد بن المسيب والزهري والسُّدِّي والضحاك وهو ظاهر الآية . وقيل : المعنى لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب وهو ما لكم . وقال مجاهد وأبو صالح وباذان : لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من الله . وقال ابن زيد : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث ، وقال عطاء : لا تربح على يتيمك الذي عندك وهو غِرٌّ صغير ، وهذان القولان خارجان عن ظاهر الآية ، فإنه يقال : تبدل الشيء بالشيء أي أخذه مكانه ، ومنه البدل .

ثم يقول في المسألة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم** ﴾ : قال مجاهد : هذه الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق ، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنُهوا عن ذلك ، ثم نُسِخَ بقوله : ﴿ **وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ وقال ابن فورك عن الحسين : تأول الناس في

هذه الآية النهي عن الخلط فاجتنبوه مِن قِبل أنفسهم فخفف عنهم في آية البقرة — يعني قوله تعالى : ﴿ .. **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم** ﴾[1] — وقالت طائفة من المتأخرين : إن « إلى » بمعنى مع ، كقوله تعالى : ﴿ **مَن أنصاري إلى الله** ﴾ ... وهذا الرأي ليس بجيد . وقال الحُذّاق : « إلى » على بابها وهي تتضمن الإضافة ، أي لا تضيفوا أموالهم وتضُمُّوها إلى أموالكم في الأكل . فنُهوا أن يعتقدوا أموال اليتامى كأموالهم فيتسلطوا عليها بالأكل والانتفاع .

ثم يقول في المسألة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ **إنه كان حُوباً كبيراً** ﴾ « إنه » أي الأكل : ﴿ **كان حوباً كبيراً** ﴾ أي إثماً كبيراً ، عن ابن عباس والحسن وغيرهما . يقال : حاب الرجل يحوب حوباً إذا أثم . وأصله الزجر للإبل ، فَسُمِّيَ الإثم حوباً لأنه يزجر عنه وبه . ويقال في الدعاء : « اللهم اغفر حوبتي » أي إثمي . والحوبة أيضاً الحاجة . ومنه في الدعاء : « إليك أرفع حوبتي » أي حاجتي والحُوبُ الوحشة ، ومنه قوله عليه السلام لأبي أيوب : « إن طلاق أم أيوب لحُوب » وفيه ثلاث لغات : « حُوباً » بضم الحاء وهي قراءة العامة ولغة أهل الحجاز . وقرأ الحسن : « حَوْباً » بفتح الحاء . وقال الأخفش وهي لغة تميم . ومقاتل : لغة الحبش . والحوب المصدر ، وكذلك الحيابة ، والحوب الاسم . وقرأ أُبَيُّ بن كعب : « حاباً » على المصدر مثل القال .....

●● وإذا كان الله تبارك وتعالى قد قال كذلك في الآية السادسة من سورة النساء .

● ﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يَكْبَرُوا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً** ﴾ :

---

(١) البقرة : الآية ٢٢٠ .

فإنني أحب كذلك أن أذكر بأهم ما تشير إليه هذه الآية من أحكام تتعلق بمال اليتيم .. كما جاء في القرطبي الذي يقول : قوله تعالى : ﴿ **وابتلوا اليتامى** ﴾ الابتلاء ، الاختبار .. وهذه الآية خطاب للجميع في بيان كيفية دفع أموالهم . وقيل : إنها نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمه . وذلك أن رفاعة تُوفي وترك ابنه وهو صغير ، فأتى عم ثابت إلى النبي ﷺ فقال : إن ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من ماله ، ومتى أدفع إليه ماله ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ثم يقول : واختلف العلماء في معنى الإختبار ، فقيل : هو أن يتأمل الوصيُّ أخلاق يتيمه ، ويستمع إلى أغراضه ، فيحصل له العلم بنجابته ، والمعرفة بالسعي في مصالحه وضبط ماله ، والإهمال لذلك ، فإذا توسَّم الخير .. قال علماؤنا وغيرهم : لا بأس أن يدفع إليه شيئاً من ماله يبيح له التصرف فيه ، فإن نَمَّاهُ وحسَّنَ النظر فيه فقد وقع الإختبار ، ووجب على الوصي تسليمَ جميع ماله إليه ، وإن أساء النظر فيه وجب عليه إمساك ماله عنده . وليس في العلماء من يقول : إنه إذا اختبر الصبي فوجده رشيداً ترتفع الولاية عنده ، وأنه يجب دفع ماله إليه وإطلاق يده في التصرف ، لقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغوا النكاح** ﴾ وقال جماعة من الفقهاء : الصغير لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون غلاماً أو جارية — يعني ذكراً أو أنثى — فإن كان غلاماً ردَّ النظر إليه في نفقة الدار شهراً ، أو أعطاه شيئاً نَزْراً[1] ليتصرف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرفه ، وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه ، فإن أتلفه فلا ضمان على الوصي . فإذا رآه متوخِّياً سلم إليه ماله وأشهد عليه . وإن كان جارية رد إليها ما يُردُّ إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه ، في الإستغزال والإستقصاء على الغزَّالات في دفع القطن وأجرته ، واستيفاء الغزل وجودته . فإن رآها رشيدة سَلَّم أيضاً إليها مالها وأشهد عليها وإلا بقيا — أي الغلام والجارية — تحت الحجر حتى يؤنس رشدهما . وقال الحسن ومجاهد وغيرهما : اختبروهم في عقولهم وأديانهم وتنمية أموالهم .

ثم يقول القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغوا النكاح** ﴾ أي الحلم ،

---

(١) أي يسيراً .. أو : قليلاً .

لقوله تعالى : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحُلم ﴾ أي البلوغ . وحال النكاح والبلوغ يكون بخمسة أشياء : ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء ، واثنان يختصان بالنساء وهما الحَيض والحبَل ، فأما الحيض والحَبَل فلم يختلف العلماء في أنه بلوغ ، وأن الفرائض والأحكام تجب بهما . واختلفوا في الثلاثة فأما الإنبات والسن فقال الأوزاعي والشافعي وابن حنبل : خمس عشرة سنة بلوغ لمن لم يحتلم . وهو قول ابن وهب وأصبغ وعبد الملك بن الماجشون وعمر بن عبد العزيز وجماعة من أهل المدينة ، واختاره ابن العربي . وتجب الحدود والفرائض عندهم على من بلغ هذه السن. قال أصبغ بن الفرج . والذي نقول به إن حد البلوغ الذي نلزم به الفرائض والحدود خمس عشرة سنة ، وذلك أحب ما فيه إليَّ وأحسنه عندي ، لأنه الحدُّ الذي يُسهم فيه في الجهاد ولمن حضر القتال . واحتج بحديث ابن عمر إذ عُرِضَ يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجيز ، ولم يُجزَ يوم أُحُد لأنه كان ابن أربعَ عشرة سنة . أخرجه مسلم . قال أبو عمر بن عبدالبر: هذا فيمن عرف مولده ، وأمَّا مَن جُهِلَ مولده وعدم سنه أو جحده فالعمل فيه ما روى نافع عن أسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى أمراء الأجناد : ألّا تضربوا الجزية إلا على مَن جرت عليه المواسي . وقال عثمان في غلام سَرق : انظروا إن كان قد اخضر مبرزه فاقطعوه . وقال عطية القُرظِي : عرضَ[1] رسول الله ﷺ بني قريظة فكل مَن أنبت منهم قتله بحكم سعد بن معاذ ، ومن لم ينبت منهم استحياه ، فكنت فيمن لم يُنبت فتركني . وقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : لا يُحكم لمن لم يحتلم حتى يبلغ ما لم يبلغه أحد إلا احتلم ، وذلك سبع عشرة سنة ، فيكون عليه حينئذ الحد إذا أتى ما يجب عليه الحد ....

ثم يقول القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ أي : أبصرتم ورأيتم ...

واختلف العلماء في تأويل « رُشْدَاً » ، فقال الحسن وقتادة وغيرهما : صلاحاً في العقل والدين . وقال ابن عباس والسُّدِّى والثوري : صلاحاً في العقل وحفظ المال . قال سعيد بن جُبير والشعبي : إن الرجل ليأخذ بلحيته

---

(١) أي عرضه رسول الله ﷺ ليعرف حاله .

وما بلغ رشده ، فلا يدفع إلى اليتيم ماله وإن كان شيخاً حتى يُؤنس منه رُشده . وهكذا قال الضحاك : لا يُعطى اليتيم ماله وإن بلغ مائة سنة حتى يعلم منه إصلاح ماله . وقال مجاهد : « رُشداً » يعني في العقل خاصة . وأكثر العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم وإن شاخ لا يزول الحجر عنه ، وهو مذهب مالك وغيره . وقال أبو حنيفة : لا يحجر على الحر البالغ إذا بلغ مبلغ الرجال ، ولو كان أفسق الناس وأشدهم تبذيراً إذا كان عاقلاً . وبه قال زفر بن الهُذَيل ، وهو مذهب النخعي . واحتجوا في ذلك بما رواه قتادة عن أنس أن حَبَّان بن منقُذ كان يبتاع وفي عقله ضعف ، فقيل يا رسول الله أحجر عليه ، فإنه يبتاع وفي عقله ضعف . فاستدعاه النبي ﷺ ، فقال : « لا تبع » . فقال : لا أصبر . فقال له : « إذا بايعتَ فقل لا خِلَابَةَ ولك الخيار ثلاثاً » قالوا : فلما سأله القوم الحجر عليه لما كان في تصرفه من الغبن ولم يفعل عليه السلام ثبت أن الحجر لا يجوز . وهذا لا حجة لهم فيه ، لأنه مخصوص بذلك ... فغير بخلافه . وقال الشافعي : إن كان مفسداً لماله ودينه أو كان مفسداً لماله دون دينه حجر عليه ، وإن كان مفسداً لدينه مصلحاً لماله فعلى وجهين : أحدهما يحجر عليه ، وهو اختيار أبي العباس بن سريج . والثاني لا حجر عليه ، وهو اختيار أبي إسحاق المروزي ، والأظهر من مذهب الشافعي . قال الثعلبي : وهذا الذي ذكرناه من الحجر على السفيه قول عثمان وعليٍّ والزبير وعائشة وابن عباس وعبد الله بن جعفر رضوان الله عليهم ، ومن التابعين شريح ، وبه قال الفقهاء مالك وأهل المدينة والأوزاعي وأهل الشام وأبو يوسف ومحمد وأحمد وإسحاق وأبو ثور . قال الثعلبي : وادعى أصحابنا الإجماع في هذه المسألة .

ثم يقول القرطبي بعد ذلك في المسألة السادسة : إذا ثبت هذا فاعلم أن دفع المال يكون بشرطين : إيناس الرشد والبلوغ ، فإن وُجِد أحدهما دون الآخر لم يجز تسليم المال . كذلك نص الآية وهو رواية ابن القاسم وأشهب وابن وهب عن مالك في الآية . وهو قول جماعة الفقهاء إلا أبا حنيفة وزفر والنخعي فإنهم أسقطوا إيناس الرشد ببلوغ خمس وعشرين سنة . قال أبو حنيفة : لكونه جدًّا . وهذا يدل على ضعف قوله . وضعف ما احتج به

أبو بكر الرازي في أحكام القرآن له من الآيتين حسب ما تقدم ، فإن هذا من باب المطلق والمقيد ، والمطلق يردُّ إلى المقيد باتفاق أهل الأصول . وماذا يغني كونه جدًّا إذا كان غير جد ، أي بخت . إلا أن علماءنا شرطوا في الجارية دخول الزوج بها مع البلوغ ، وحينئذ يقع الإبتلاء في الرشد . ولم يره أبو حنيفة والشافعي ، ورأوا الإختيار في الذكر والأنثى واحداً على ما تقدم ، وفرق علماؤنا بينهما بأن قالوا : الأنثى مخالفة للغلام لكونها محجوبة لا تعاني الأمور ولا تبرز لأجل البكارة ، فلذلك وقف فيها على وجود النكاح . فبه تفهم المقاصد كلها . والذّكر بخلافها ، فإنه بتصرفه وملاقاته للناس من أول نشئه إلى بلوغه يحصل له الإختيار ، ويكمل عقله بالبلوغ ، فيحصل له الغرض . وما قاله الشافعي أصوب ، فإن نفس الوطء بإدخال الحشفة لا يزيدها في رشدها إذا كانت عارفة بجميع أمورها ومقاصدها ، غير مبذرة لمالها ، ثم زاد علماؤنا فقالوا : لا بد بعد دخول زوجها من مضيٍّ مدّة من الزمان تمارس فيها الأحوال . قال ابن العربي : وذكر علماؤنا في تحديدها أقوالاً عديدة ، منها الخمسة الأعوام والستة والسبعة في ذات الأب . وجعلوا في اليتيمة التى لا أب لها ولا وصى عليها عاماً واحداً بعد الدخول ، وجعلوا فى المولّى عليها مؤبداً حتى يثبت رشدها . وليس في هذا كله دليل . وتحديد الأعوام في ذات الأب عسير ، وأعسر منه تحديد العام في اليتيمة . وأما تمادي الحجر في المَوَلّى عليها حتى يتبين رشدها فيخرجها الوصي عنه ، أو يخرجها الحكم منه فهو ظاهر القرآن . والمقصود من هذا كله داخل تحت قوله تعالى : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً ﴾ فتعين اعتبار الرشد ولكن يختلف إيناسه بحسب اختلاف حال الرشد . فاعرفه ورَكِّب عليه واجتنب التحكم الذي لا دليل عليه ....

إلى أن يقول في المسألة التاسعة : فإذا سُلِّم المال إليه بوجود الرشد ، ثم عاد إلى السفه بظهور تبذير وقلة تدبير عاد إليه الحجر عندنا . وعند الشافعي في أحد قوليه . وقال أبوحنيفة : لا يعود لأنه بالغ عاقل ، بدليل جواز إقراره في الحدود والقصاص . ودليلنا قوله تعالى : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً

أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يُمِلَّ هو فليُملل وليه بالعدل ﴾ ولم يُفرق بين أن يكون محجوراً سفيهاً أو يطرأ عليه ذلك بعد الإطلاق .

ثم يقول : ويجوز للوصي أن يصنع في مال اليتيم ما كان للأب أن يصنعه من تجارة وبضاعة وشراء وبيع . وعليه أن يؤدي الزكاة من سائر أمواله : عينٍ وحرثٍ وماشية وفِطر . ويؤدي عنه أروش الجنايات وقيمَ المتلفات ، ونفقة الوالدين وسائر الحقوق اللازمة . ويجوز أن يُزَوِّجه ويؤدي عنه الصداق ، ويشترى له جارية يتَسَرَّي بها ، ويُصالِح له وعليه على وجه النظر له . وإذا قضى الوصي بعض الغرماء وبقي من المال بقية تَفِي ما عليه من الدَّين كان فعل الوصي جائزاً . فإن تَلِف باقي المال فلا شيء لباقي الغرماء على الوصي ولا على الذين اقتضوا . وإن اقتضى الغرماء جميع المال ثم أتى غرماء آخرون فإن كان عالماً بالدَّين الباقي ، أو كان الميت معروفاً بالدين الباقي ضمن الوصيُّ لهؤلاء الغرماء ما كان يصيبهم في المحاصَّة ، ورجع على الذين اقتضوا دينهم بذلك . وإن لم يكن عالماً، ولاكان الميت معروفاً بالدين فلاشيء على الوصي. وإذا دفع الوصيُّ دَيْنَ الميت بغير إشهاد ضمن . وأما إن أشهد وطال الزمان حتى مات الشهود فلا شيء عليه ..

ثم يقول في المسألة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ : ليس يريد أن أكل مالهم من غير إسراف جائزة فيكون له دليل خطاب ، بل المراد ولا تأكلوا أموالهم فإنه إسراف . فنهىٰ الله سبحانه وتعالى الأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم ، على ما يأتي بيانه . والإسراف في اللغة الإفراط ومجاوزة الحد ... والسَّرف الخطأ في الإنفاق ... « وبداراً » معناه : ومبادرة كبرهم ، وهو حالُ البلوغ ... و ﴿ أن يكبروا ﴾ في موضع نصب ببداراً ، أي لا تستغنم مال محجورك فتأكله وتقول أبادر كِبره لئلا يرشد ويأخذ ماله ، عن ابن عباس وغيره .

ثم يقول في المسألة الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ ومن كان غنيًا فليستعفف ﴾ الآية .. بيَّن الله تعالى ما يحل لهم من أموالهم ، فأمر الغني بالإمساك وأباح للوصيِّ الفقير أن يأكل من مال وليه بالمعروف .. روى أبو داود من حديث حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : إني فقير

ليس لي شيء ولي يتيم . قال فقال : « كُل من مال يتيمك غير مسرف ولا مُباذرٍ ولا مُتَأثِّلٍ » : متأثل : أي جامع .

ثم يقول في المسألة الثالثة عشرة : واختلف العلماء مَن المخاطب والمراد بهذه الآية ، ففي صحيح مسلم عن عائشة في قوله تعالى : ﴿ **ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف** ﴾ قالت : نزلت في وليِّ اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً جاز أن يأكل منه . في رواية بقدر ماله بالمعروف . وقال بعضهم : المراد باليتيم إن كان غنيًّا وسَّعَ عليه وأعَفَّ من ماله ، وإن كان فقيراً أنفق عليه بقدره ، قاله ربيعة ويحيى بن سعيد، والأول قول الجمهور وهو الصحيح، لأن اليتيم لا يُخاطب بالتصرف في ماله لصغره ولسفهه . والله أعلم .

ثم يقول في المسألة الرابعة عشرة : واختلف الجمهور في الأُكل بالمعروف ما هو ؟ فقال قوم : هو القرض إذا احتاج ويقضي إذا أيسر ، قاله عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة وابن جبير والشعبي ومجاهد وأبو العالية ، وهو قول الأوزاعي ولا يتسلّف أكثر من حاجته . قال عمر : ألا إني أنزلتُ نفسي من مال الله منزلة الوليِّ من مال اليتيم ، إن استغنيتُ استعففت ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف ، فإذا أيسرتُ قضيْتُ . روى عبد الله بن المبارك عن عاصم عن أبي العالية : ﴿ **ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف** ﴾ قال قرضاً ــ ثم تلا : ﴿ **فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم** ﴾ . وقول ثان روي عن إبراهيم وعطاء والحسن البصري والنخعي وقتادة : لا قضاء على الوصي الفقير فيما يأكل بالمعروف ، لأن ذلك حق النظر ، وعليه الفقهاء . قال الحسن : هو طعمة من الله له ، وذلك أنه يأكل ما يسدُّ جوعته ، ويُكسَى ما يستر عورته ، ولا يلبس الرفيع من الكتان ولاالحلل . والدليل على صحة هذا القول إجماع الأمة على أن الإمام الناظر للمسلمين لا يجب عليه غرم ما أكل بالمعروف ، لأن الله تعالى قد فرض سهمه في مال الله . فلا حجة لهم في قول عمر : فإذا أيسرتُ قضيتُ ــ أن لو صح . وقد روي عن ابن عباس وأب العالية والشعبي أن الأكل بالمعروف هو كالانتفاع بألبان المواشي ، واستخدام العبيد ، وركوب الدواب إذا لم يضر بأصل المال ، كما يهنأ الجرباء، وينشد الضالة، ويلوط

الحوض ، ويجذ الثمر . فأما أعيان الأموال وأصولها فليس للوصي أخذها . وهذا كله يخرج مع قول الفقهاء : إنه يأخذ بقدر أجر عمله ، وقالت به طائفة وأن ذلك هو المعروف ، ولا قضاء عليه ، والزيادة على ذلك محرمة . وفرق الحسن بن صالح بن حيّ ــ ويقال ابن حيان ــ بين وصي الأب والحاكم ، فلوصي الأب أن يأكل بالمعروف ، وأما وصي الحاكم فلا سبيل له إلى المال بوجه ، وهو القول الثالث . وقول رابع روي عن مجاهد قال : ليس له أن يأخذ قرضاً ولا غيره . وذهب إلى أن الآية منسوخة ، نسخها قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾ وهذا ليس بتجارة . وقال زيد بن أسلم : إن الرخصة في هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ الآية . وحكى بشر بن الوليد عن أبي يوسف قال : لا أدري ، لعل هذه الآية منسوخة بقوله عز وجل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾ وقول خامس ــ وهو الفرق بين الحضر والسفر ، فيمنع إذا كان مقيماً معه في المصر . فإذا احتاج أن يسافر من أجله فله أن يأخذ ما يحتاج إليه ، ولا يقتني شيئاً ، قاله أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد ــ وقول سادس ــ قال أبو قلابة : فليأكل بالمعروف بما يجني من الغَلّة ، فأما المال الناض(١) فليس له أن يأخذ منه شيئاً قرضاً ولا غيره . وقول سابع ــ روى عكرمة عن ابن عباس : ﴿ **ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف** ﴾ قال : إذا احتاج واضطر . وقال الشعبي : كذلك إذا كان منه بمنزلة الدم ولحم الخنزير أخذ منه ، فإن وجد أوفى . قال النحاس : وهذا لا معنى له ، لأنه إذا اضطر هذا الإضطرار كان له أخذ ما يقيمه من مال يتيمه أو غيره من قريب أو بعيد . وقال ابن عباس أيضاً والنخعي : المراد أن يأكل الوصي بالمعروف من مال نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم ، فيستعفف الغنيُّ بغناه ، والفقير يُقَتِّرُ على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال يتيمه . قال النحاس : وهذا من أحسن ما روي في تفسير هذه الآية ، لأن أموال الناس محظورة لا يُطلق شيء منها إلا بحجة قاطعة .

---

(١) الناضُّ : الدرهم والدينار عند أهل الحجاز .

ثم يقول : قلت : وقد اختار هذا القول ، الطبريّ في أحكام القرآن فقال : « توهَّم متوهمون من السلف بحكم الآية أن للوصيِّ أن يأكل من مال الصبي قدراً لا ينتهي إلى حد السَّرف ، وذلك خلاف ما أمر الله تعالى به في قوله : ﴿ **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم** ﴾ ولا يتحقق ذلك في مال اليتيم .فقوله: ﴿ **ومن كان غنيًّا فليستعفف** ﴾ يرجع إلى أكل مال نفسه دون مال اليتيم . فمعناه ولا تأكلوا أموال اليتيم مع أموالكم ، بل اقتصروا على أكل أموالكم . وقد دل عليه قوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً** ﴾ وبان بقوله تعالى : ﴿ **ومن كان غنيًّا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف** ﴾ الاقتصار على البلغة ، حتى لا يحتاج إلى أكل مال اليتيم ، فهذا تمام معنى الآية . فقد وجدنا آيات محكمات تمنع أكل مال الغير دون رضاه ، سيَّما في حق اليتيم . وقد وجدنا هذه الآية محتملة للمعاني فحملها على موجب الآيات متعيِّن » .

فإن قال من ينصر مذهب السلف : إن القضاة يأخذون أرزاقهم لأجل عملهم للمسلمين ، فهلَّا كان الوصي كذلك إذا عمل لليتيم ، ولِم لا يأخذ الأجرة بقدر عمله ؟ قيل له : اعلم أن أحداً من السلف لم يُجوِّز للوصيِّ أن يأخذ من مال الصبي مع غنى الوصي ، بخلاف القاضي ، فذلك فارق بين المسألتين . وأيضاً فالذي يأخذه الفقهاء والقضاة والخلفاء القائمون بأمور الإسلام لا يتعين له مالك . وقد جعل الله ذلك المال الضائع لأصناف بأوصاف ، والقضاة من جملتهم ، والوصي إنما يأخذ بعمله مال شخص معيَّن من غير رضاه ، وعمله مجهول وأجرته مجهولة وذلك بعيد عن الاستحقاق .

ثم يقول : قلت : وكان شيخُنا الإمام أبو العباس يقول : إن كان مال اليتيم كثيراً يحتاج إلى كبير قيَّام عليه بحيث يشغل الولي عن حاجاته ومهماته فرِض له فيه أجرُ عمله ، وإن كان تافهاً لا يُشغله عن حاجاته فلا يأكل منه شيئاً ، غير أنه يستحب له شرب قليل اللبن وأكل القليل من الطعام والسمن ، غير مُضر به ولا مستكثر له ، بل على ما جرت العادة بالمسامحة فيه . قال شيخنا : وما ذكرته من الأجرة ، ونيل اليسير من التمر واللبن كل واحد منهما معروف ، فصلح حمل الآية على ذلك . والله أعلم .

قلت : والاحتراز عنه أفضل ، إن شاء الله . وأما ما يأخذه قاضي القسمة ويسميه رسماً ونهب أتباعه فلا أدري له وجهاً ولا حِلاً ، وهم داخلون في عموم قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً** ﴾ .

ثم يقول في المسألة الخامسة عشرة: قوله تعالى : ﴿ **فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم** ﴾ : أمر الله تعالى بالإشهادِ تنبيهاً على التخصيص وزوالاً للتُّهَم . وهذا الإشهاد مستحب عند طائفة من العلماء ، فإن القول قول الوصيِّ لأنه أمين .

وقالت طائفة : هو فرض ، وهو ظاهر الآية ، وليس بأمين فيقبل قوله كالوكيل إذا زعم أنه قد رَدَّ ما دُفِعَ إليه أو المودع ، وإنما هو أمين للأب ، ومتى ائتمنه الأب لا يقبل قوله على غيره .ألا ترى أن الوكيل لو ادعى أنه قد دفع لزيد ما أمره به بعدالته لم يُقبل قوله إلا ببينة ، فكذلك الوصي . ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن جبير أن هذا الإشهاد إنما هو على دفع الوصي في يسره ما استقرضه من مال يتيمه حالة فقره . قال عبيدة : هذه الآية على وجوب القضاء على من أكل ، المعنى : فإذا اقترضتم أو أكلتم فأشهدوا إذا عزمتم . والصحيح أن اللفظ يعم هذا وسواه . والظاهر أن المراد إذا أنفقتم شيئاً على المولى عليه فأشهدوا ، حتى لو وقع خلاف أمكن إقامة البينة ، فإن كُلَّ مالٍ قُبِضَ على وجه الأمانة بإشهاد لا يُبرأ منه إلا بالإشهاد على دفعه ، لقوله تعالى : ﴿ **فأشهدوا** ﴾ فإذا دفع لمن دفع إليه بغير إشهاد فلا يحتاج في دفعها الإشهاد إن كان قبضها بغير إشهاد . والله أعلم .

ثم يقول في المسألة السادسة عشرة : كما على الوصي والكفيل حفظ مال يتيمه والتثمير له ، كذلك عليه حفظ الصبي في بدنه . فالمال يحفظه بضبطه ، والبدن يحفظه بأدبه ... وروى أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن في حجري يتيماً أآكل من ماله ؟ قال : « نعم غير متأثّل(١) مالاً ولا واقٍ مالك بماله » . قال : يا رسول الله ، أفأضربه؟ قال : « ما كنتَ ضارباً منه ولدك » . قال ابن

---

(١) أي : جامعاً .

العربي : وإن لم يثبت مسنداً فليس يجد أحد عنهُ مُلتحداً(١) .

ثم يختم القرطبي كل هذه المسائل بالمسألة السابعة عشرة التي يقول فيها : قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ : أي كفى الله حاسباً لأعمالكم ، ومجازياً بها . ففي هذا وعيد لكل جاحد حق . والباء زائدة ، وهو في موضع رفع .

●● فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تتعامل مع اليتيم على أساسه ، وحتى لا تكون من الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ...

وحسبك ترغيباً لك في عكس هذا .. أعني حتى تكون من المؤمنين الذين يكفلون اليتيم ويرحمونه .. وحتى تكون بهذا من أهل الجنة إن شاء الله : أن تقرأ معي هذه الأحاديث الشريفة :

●● عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا وكَافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرَّج بينهما » رواه البخاري وأبوداود والترمذي .

كافل اليتيم : أي القيم عليه المدبر لمصالحه المتعهد لشئونه ، واليتيم من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال .

قال في الفتح : « وفيه إشارة إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى وهو نظير الحديث الآخر : « بُعثت أنا والساعة كهاتين .. » .

وقال ابن بطال : « حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك » .

●● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره(٢) ، وأنا وهو كهاتين في الجنة : وأشار مالكٌ بالسبابة

---

(١) أي : منصرفاً .

(٢) قال في الفتح : « بأن يكون جدًّا أو عمًّا أو أخاً أو نحو ذلك من الأقارب ، أو يكون أبو المولود قد مات فتقوم أمه مقامه أو ماتت أمه فيقوم أبوه في التربية مقامها » .

والوسطى » رواه مسلم ، ورواه مالك عن صفوان بن سليم مرسلاً .

ورواه البزار متصلاً ، ولفظه قال : « من كفل يتيماً ذا قرابة(١) أو لا قرابة له ، فأنا وهو في الجنة كهاتين(٢) ، وضَمَّ أُصبُعَيه ، ومن سعى على ثلاث بناتٍ(٣) ، فهو في الجنة(٤) ، وكان له كأجر المجاهد في سبيل الله صائماً قائماً »(٥) .

●● وعن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه ، فقال : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

فلتكن متذكراً لكل هذا أخا الإسلام ... حتى تفوز بهذا الثواب العظيم الذي وقفت عليه .. واعلم أن عطفك على اليتيم وكفالتك له سيكون إن شاء الله تعالى سبباً في أن أهلك أو أولادك من بعدك سيجدون من المؤمنين ومن المؤمنات من سيتعامل معهم بنفس الأسلوب الذي كنت تتعامل به مع أبناء المؤمنين والمؤمنات الذين سبقوك بالإيمان .

ولا يفوتني بعد هذا العرض السريع لأهم ما يتعلق بهذا العنصر الهام المتعلق بأموال اليتامى : أن أذكرك ونفسي بالآية التاسعة من سورة النساء والتي ينبغي على جميع الآباء والأمهات من المؤمنين والمؤمنات أن يلاحظوها وينفذوا المراد منها حتى يُؤَمِّنُوا مستقبل أبنائهم وبناتهم ، وهي التي يقول الله تعالى فيها :

●● ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سَديداً ﴾ :

فهذه الآية الكريمة تشير كما هو واضح في نصها إلى ضرورة أن يُؤَمِّن

---

(١) أي صاحب قرابة ، وهو بالنصب صفة ليتيم .

(٢) يعني السبابة والوسطى .

(٣) أي عمل لكسب قوتهن وما يلزم لهن من نفقة وكسوة .

(٤) أي إذا احتسب ذلك وابتغى به الأجر من الله .

(٥) حالان من المجاهد ، أي حال كونه صائماً نهاره وقائماً ليله .

الآباء الأوصياء على ذرياتهم من بعدهم ــ ولا سيما إذا كانوا ضعافاً يخشون عليهم ــ وذلك بأن يتقوا الله تبارك وتعالى في اليتامى ، وتسديد القول لهم .

فقد ذكر القرطبي بعض الأقوال التي تشير إلى هذا ، فقال : اختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقالت طائفة : هذا وعظ للأوصياء ، أي افعلوا باليتامى ما تحبون أن يُفعل بأولادكم من بعدكم ، قاله ابن عباس . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ . وقالت طائفة : المراد جميع الناس ، أمرهم باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس ، وإن لم يكونوا في حجورهم . وأن يُسددوا لهم القول كما يريد كل واحد منهم أن يُفعَل بولده بعده . ومن هذا ما حكاه الشيباني قال : كنا على قسطنطينية في عسكر مسلمة ابن عبد الملك ، فجلسنا يوماً في جماعة من أهل علم فيهم ابن الديلمي ، فتذاكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان . فقلت له : يا أبا بشر ، وُدّي ألّا يكون لي ولد . فقال لي : ما عليك ! ما مِن نسمة قضى الله بخروجها من رجل إلا خرجت ، أحب أو كره ، ولكن إن أردت أن تأمن عليهم فاتق الله في غيرهم ، ثم تلا الآية . وفي رواية : ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجاك الله منه ، وإن تركت ولداً من بعدك حفظهم الله فيك ، فقلت : بلى ! فتلا هذه الآية : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا ...** ﴾ إلى آخرها .

ثم يقول القرطبي : قلت : ومن هذا المعنى ما روى محمد بن كعب القرطبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من أحسن الصدقة جاز على الصراط ، ومَن قضى حاجة أرملة أخلف الله في تركته » وقول ثالث قاله جمع من المفسرين : هذا في الرجل يحضره الموت فيقول له مَن بحضرته عند وصيته : إن الله سيرزق ولدك فانظر لنفسك ، وأوص بمالك في سبيل الله ، وتصدق وأعتق . حتى يأتي على عامَّة ماله أو يستغرقه فيضر ذلك ورثته ، فنُهوا عن ذلك . فكأن الآية تقول لهم كما تخشون على ورثتكم وذريتكم بعدكم ، فكذلك فاخشوا على ورثة غيركم ولا تحملوه على تبذير ماله ، قاله ابن عباس وقتادة والسُّدّي وابن جبير والضحاك ومجاهد . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : إن حضر الرجل الوصيةَ فلا ينبغي أن يقول أوص بمالك فإن الله تعالى

رازق ولدك ، ولكن يقول قَدِّم لنفسك واترك لولدك . فذلك قوله تعالى : ﴿ **فليتَّقوا الله** ﴾ . وقال مِقْسَم وحضرمي : نزلت في عكس هذا ، وهو أن يقول للمحتضر مَن يحضره : أمسك على ورثتك ، وأبق لولدك فليس أحد أحقَّ بمالك من أولادك ، وينهاه عن الوصية ، فيتضرر بذلك ذوو القربى وكل مَن يستحق أن يُوصَى له ، فقيل لهم : كما تخشون على ذريتكم وتُسَرُّون بأن يحسن إليهم ، فكذلك سَدِّدوا القول في جهة المساكين واليتامى ، واتقوا الله في ضررهم. وهذان القولان مبنيان على وقت وجوب الوصية قبل نزول آية المواريث ، رُوي عن سعيد بن جبير وابن المسيِّب . قال ابن عطية: وهذان القولان لا يطَّرِد كل واحد منهما في كل الناس ، بل الناس صنفان ، يصلح لأحدهما القول الأول ، ولآخر القول الثاني . وذلك أن الرجل إذا ترك ورثة ضعفاء مُهملين مقلين حَسُن أن يندب إلى الترك لهم والاحتياط . فإن أجره في قصد ذلك كأجره في المساكين ، فالمراعاة إنما هو الضعف فيجب أن يُمال معه .

ثم يقول القرطبي : قلت : وهذا التفضيل صحيح ، لقوله عليه الصلاة والسلام لسعد : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » . فإذا لم يكن للإنسان ولد ، أو كان وهو غني مستقل بنفسه وماله عن أبيه فقد أمن عليه ، فالأولى بالإنسان حينئذ تقديم ماله بين يديه حتى لا ينفقه من بعده فيما لا يصلح ، فيكون وزره عليه.

ثم يقول القرطبي : الثانية : قوله تعالى : ﴿ **وليقولوا قولاً سديداً** ﴾ : السديد : العدل والصواب من القول ، أي : مُروا المريض بأن يُخرِجَ من ماله ما عليه من الحقوق الواجبة ، ثم يوصي لقرابته بقدر لا يضر بورثته الصغار . وقيل : المعنى قولوا للميت قولاً عدلاً ، وهو أن يلقنه بلا إله إلا الله ، ولا يأمره بذلك ، ولكن يقول ذلك في نفسه حتى يسمع منه ويتلقَّن . هكذا قال النبي ﷺ : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » ولم يقل مروهم ، لأنه لو أمر بذلك لعله يغضب ويجحد . وقيل : المراد اليتيم ، أي لا تنهروه ولا تستخفوا به .

●● وأما عن العنصر السادس في الوصية ، وهو :

التولي يوم الزحف

فهو بالإضافة إلى أنه من الموبقات التي أُمرنا باجتنابها : من الكبائر .

●● فقد روى أحمد والنسائي أن النبي ﷺ سئل عن الكبائر ، فقال : « الإشراك بالله ، وقتل النفس المسلمة ، وفرار يوم الزحف » .

ولهذا فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يثبتوا عند لقاء الذين كفروا وألا يولوهم الأدبار فقال تعالى محذراً إياهم من فعل هذا :

●● ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً[1] فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فِئةٍ فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ الأنفال ١٥ ، ١٦ .

فالمعنى : إذا لقيتم أعداءكم في القتال زاحفين نحوكم ، ودانين متقاربين منكم ، فلا تنهزموا أمامهم ولكن اثبتوا لهم ، لأنه من يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ، إلا مستطرداً لقتال عدوه يريد العودة يفر خداعاً لعدوه ليكر عليه ، أو منضمًّا إلى جماعة المسلمين ليقاتل معهم ﴿**فقد باء بغضب من الله**﴾ أي رجع بغضب من الله ﴿ **ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ أي ومصيره يوم القيامة جهنم ، وبئس الموضع والمآل .

كما يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين في نفس السورة ــ الأنفال ــ بأن يثبتوا عند اللقاء فقال مُبَشِّراً إياهم بالفلاح إن فعلوا هذا :

●● ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ الأنفال : ٤٥ ، ٤٦ .

أي : إذا لقيتم جماعة من الكفار في الحرب ، فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا أمامهم ، وأكثروا من ذكر الله بقلوبكم وألسنتكم ، كيما تنجحوا وتفوزوا بالظفر بعدوكم ، وأطيعوا ربكم ورسولكم فيما أمركم ونهاكم ، ولا تختلفوا

---

(١) الزحف إلى ميدان القتال « معناه المشي إليه » .

فتضعفوا وتجبُنوا ، وتذهب قوتكم وبأسكم ، ويدخلكم الوهن والخلل ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ أي : واصبروا عند لقاء عدوكم فإني معكم .

فاحذر أخا الإسلام الفِرار من الزحف .. أي الهروب من ملاقاة العدو ، وكن على عكس هذا من المجاهدين الصابرين الذين يثبتون في مواجهة الأعداء طمعاً في إحدى الحسنيين ــ النصر أو الإستشهاد في سبيل الله .

مع ملاحظة : أن الجهاد(١) لم يشرع إلا بعد الهجرة ، فقد كان المسلمون في مكة مأمورين بأن يكفوا أيديهم ويقابلوا أذى المشركين بالعفو والصبر ، فلما هاجروا إلى المدينة وانضموا إلى إخوانهم الأنصار قويت شوكتهم واشتد جناحهم فأذن لهم حينئذ في القتال انتقاماً ممن ظلموهم بمكة ولكنه لم يُفرض عليهم فقال تعالى : ﴿ **أُذِنَ للذين يُقَاتَلُونَ بأنهم ظُلِمُوا وإنَّ الله على نصرهم لقدير** ﴾ ثم فُرض عليهم بعد ذلك قتال مَن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، قال تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ ثم فُرض عليم بعد ذلك قتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة .. فهذه هي مراتب مشروعية الجهاد .. كان أول الأمر محرماً ، ثم صار مأذوناً فيه ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين .. ولكن هذا الوجوب فرض عين أو كفاية ؟ المشهور الثاني . فقد أخرج أبو داود عن ابن عباس قال حول قول الله تعالى : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً** ﴾ و ﴿ **ما كان لأهل المدينة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يعملون** ﴾ : نسختها الآية التي تليها : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ وقد حسنه ابن حجر . قال الطبري : يجوز أن يكون : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً** ﴾ خاص ، والمراد به من استنفره النبي ﷺ فامتنع .. ومن الأدلة كذلك على أنه فرض كفاية أنه عليه الصلاة والسلام كان يغزو بنفسه تارة وتارة يرسل غيره ويكتفي ببعض المسلمين .. وقد كانت سراياه وبعوثه متعاقبة والمسلمون بعضهم في الغزو وبعضهم في المدينة .. وإلى كونه فرض

---

(١) هو مصدر جاهد جهاداً ومجاهدة بمعنى بذل وسعه وهو مأخوذ من الجهد بمعنى المشقة أو بمعنى الطاقة يقال بذل في الأمر جهده ، قال تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ .

كفاية ذهب الجمهور .. وقال الماوردي : إنه كان فرض عين على المهاجرين دون غيرهم .. وقال السهيلي : كان عيناً على الأنصار .. وقال ابن المسيب :إنه فرض .. والصحيح مذهب الجمهور .. وذهب ابن القيم إلى أن جنس الجهاد فرض عين ، أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية .. والله أعلم .

فليكن كل هذا معلوماً لك وسبباً في حرصك على الجهاد في سبيل الله بنفسك ، ونفيسك حتى تفوز بالخير الذي وعدك الله تعالى به في قرآنه وعلى لسان نبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه :

ففي القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

●● ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون(١) الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً * الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت(٢) فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾(٣) .

●● ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذين بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾(٤) .

●● ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص(٥) ﴾(٦) .

---

(١) أي يبيعون .
(٢) من الطغيان وهو مجاوزة الحد وسبيل الطاغوت هو طريق الباطل .
(٣) النساء : من الآية ٧٤ ــ ٧٦ .
(٤) التوبة : الآية ١١١ .
(٥) كناية عن قوتهم وثباتهم .
(٦) الصف : الآية ٤ .

● ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(1) .

● ﴿ انفروا(2) خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(3) .

●● ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(4) .

● ﴿ ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثباتٍ(5) أو انفروا جميعاً ﴾(6) .

● ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل(7) ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جنحوا(8) للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾(9) .

وفي السنة الشريفة :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(1) البقرة : الآية ١٩٠ .
وتدل الآية وما بعدها من الآيات على أن قتال الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم كان دفاعاً عن أنفسهم وحماية للدعوة الإسلامية .

(2) النفر بسكون الفاء الإنزعاج عن الشيء وإلى الشيء والمعنى : اخرجوا إلى الحرب خروج المنزعج إلى الشيء .

(3) التوبة : الآية ٤١ .

(4) آل عمران : الآية ١٧٠ .

(5) جماعات وفرقاً .

(6) النساء : ٧١ .

(7) اسم للمكان الذي يخص بإقامة حفظة فيه ، وربط الفرس شده بالمكان للحفظ .

(8) جنحوا : أي مالوا .

(9) الأنفال : ٦٠ ، ٦١

« مثل المجاهد في سبيل الله ــ والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ــ كمثل الصائم القائم وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفَّاه(١) أن يدخله الجنة أو يُرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة » رواه البخاري .

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحةٍ خير من الدنيا وما فيها » رواه البخاري .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سَرِيَّة(٢) تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددتُ أن أُقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل » رواه البخاري .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « والذي نفسي بيده لا يكلُمُ(٣) أحد في سبيل الله ــ والله أعلم(٤) بمن يُكلم في سبيله ــ إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك » رواه البخاري ومسلم .

● وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل لِيُرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » رواه البخاري .

● وروى مسلم وغيره عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من ماتَ ولم يغز ولم يُحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق » .

● وروى الطبراني بسند حسن عن رسول الله ﷺ قال : « ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله تعالى بالعذاب » .

---

(١) أي بسبب وفاته وقد بين الجزاء بعد ذلك بأن يدخله الجنة إذا هو مات أو يرجعه سالماً مع الأجر أو الغنيمة إذا هو لم يمت .

(٢) قطعة من الجيش يقال خير السرايا أربعمائة رجل .

(٣) أي يجرح .

(٤) أي أن الإخلاص في الجهاد ــ وغيره ــ موكول إلى الله تعال لا يعلمه غيره سبحانه .

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما قالَ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

● وعن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومَن خَلَفَ(١) غازياً في أهله بخيرٍ فقد غزا » متفق عليه .

● وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما أحد يدخل الجنة يُحِبُّ أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنَّى أن يرجع إلى الدنيا فيقتلَ عشرَ مراتٍ ، لما يرى من الكرامة » وفي رواية : « لما يرى من فضل الشهادة » متفق عليه .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر الله للشهيد كل شيء إلا الدَّين » رواه مسلم ، وفي رواية : « القتل في سبيل الله يُكفِّر كل شيء إلا الدَّينَ » .

● وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل: «أين أنا يا رسول الله إن قُتِلتُ ؟ قال : « في الجنة » فألقى تمراتٍ كُنَّ في يده ثم قاتل حتى قُتِلَ » رواه مسلم .

● وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله أرأيتَ إن قُتِلتُ في سبيل الله أتَكفَّرُ عني خطاياي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم إن قُتِلتَ في سبيل الله وأنت صابر مُحتَسِبٌ مُقبِلٌ غيرُ مُدبِرٍ » ثم قال رسول الله ﷺ : « كيف قُلتَ » قال : أرأيتَ إن قُتِلتُ في سبيل الله أتُكَفَّرُ عني خَطَايَايَ ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « نعم وأنت صابرٌ ، مُحتَسِبٌ ، مُقبِلٌ غيرُ مدبرٍ ، إلا الدينَ فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك » رواه مسلم .

فليكن كل هذا الذي وقفت عليه أخا الإسلام من القرآن والسنة من أهم

---

(١) أي قام بحوائجهم .

الأسباب التي ستجعلك حريصاً كل الحرص على الجهاد في سبيل الله حتى تكون بسبب هذا كما عرفت من الفائزين بإحدى الحسنيين النصر أو الاستشهاد .. الذي إن كنت مخلصاً فيه كنت من أهل الجنة إن شاء الله .

وحتى تكون شجاعاً لا جباناً ، إليك ما قاله خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » رضي الله عنه وهو : يحتضر على فراشه :

● « لقد شهدتُ كذا ، وكذا ، زحفاً وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة سيف . أو طعنة رمح .. أو رمية سهم .. ثم هأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ..!! » .

لأنه كان يتمنى أن يموت في الميدان شهيداً في سبيل الله ... ولكن الله تعالى لم يشأ له هذا .. حتى يكون موعظة لنا[1] .

واعلم أخا الإسلام أنك لن تستطيع الفرار من الموت إذا قضى الله فيك هذا .. لأن الله تعالى يقول : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾[2] .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يختم لي ولك ولجميع المسلمين والمسلمات بخاتمة السعادة ... آمين .

●● وأما عن العنصر الأخير في الوصية وهو :

قذف المحصنات الغافلات المؤمنات

فهو كذلك من الكبائر التي ينبغي على المؤمن الصادق أن يتنزه عنها .. وأن يكون مجتنباً لها حتى لا يكون من الفاسقين لأن الله تعالى يقول :

● ﴿ **والذين يرمون المحصنات[3] ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة وأولئك هم الفاسقون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا**

(١) وحتى نعلم أنه ليس بشرط إذا قاتل الإنسان في الميدان أن يموت فيه ..
(٢) النساء : ٧٨ .
(٣) جمع محصنة من أحصنت المرأة عفت أو تزوجت .

فإن الله غفور رحيم ﴾(١) .

فالمعنى : أن الذين يرمون العفائف من حرائر المسلمين بالزنى ، ثم لم يأتوا على ماروموهن به ، بأربعة شهداء عدول ، يشهدون عليهن أنهن يفعلن ذلك ، فاجلدوا الذين رموهن ثمانين جلدة ، جزاء شتمهن للعفيفات .. وأولئك الذين خالفوا أمر الله ، وخرجوا عن طاعته ففسقوا عنها .. إلا الذين تابوا من جرمهم بقذف المحصنات .. فإن الله ساتر على ذنوبهم بعفوه لهم عنها ، رحيم بهم بعد التوبة فاقبلوا شهادتهم ولا تسموهم فسقة ... وهذا القول قال به الأئمة الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الإستثناء في الآية إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق ويبقى القاذف مردود الشهادة لقوله تعالى : ﴿ أبداً ﴾ .

ثم بعد ذلك يقول سبحانه وتعالى في سورة النور :

● **﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهاداتٍ بالله إنه لمن الصادقين * والخامسةُ أنَّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذابَ أن تشهدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسَة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾**(٢) .

والمعنى : أن الرجال الذين يرمون أزواجهم بالفاحشة فيقذفونهنَّ بالزنى ، ولم يكن لهمْ أحد يشهد لهم بصحة ذلك .. أن يحلف أحدهم أربع أيمان بالله إنه لمن الصادقين فيما رمى زوجته به ، والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه حالَّةً ، إن كان فيما رماها به من أهل الكذب والإفتراء .. ويدفع عنها الحد أن تحلف بالله أربع أيمان ، أن زوجها الذي رماها بالفاحشة ، لمن الكاذبين فيما رماها به .. والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما رماها به من الزنى .

ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم ، وأنه عَوَّاد على خلقه

---

(١) النور : الآية ٤ ، ٥ .

(٢) النور : الآية ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

بلطفه ، حكيم في تدبيره إياهم ، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم وفضح أهل الذنوب .

ثم بعد ذلك ــ وفي سورة النور كذلك(١) ــ يشير الله سبحانه وتعالى إلى « حديث الإفك » الذي اتهمت فيه عائشة الصديقة رضي الله عنها ، وما قذفها به أهل النفاق : « عبد الله بن سلول » وجماعته .. فيقول الله تبارك وتعالى تبرئة لها من البهتان ، وتحذيراً للمؤمنين عن الخوض في أعراض المسلمات : :

● **﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولّى كِبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداءَ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هَيِّناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾** ، فالمعنى حسب ترتيب الفقرات :

أي : إن الذين جاءوا بالكذب والبهتان جماعة منكم .. لا تظنوا ما جاءوا به من الإفك ، شرًّا لكم عند الله وعند الناس .. بل ذلك خير لكم عند الله وعند المؤمنين .. لكل واحد منهم جزاء ما اجترم من الإثم .. والذي تحمل معظم الإثم منهم ، وبدأ الخوض فيه له عذاب عظيم يوم القيامة .. هلّا حين سمعتم ما قاله أهل الإفك في عائشة ، ظننتم بمن رُمي بذلك منكم خيراً !! وقالوا : هذا الذي سمعناه من رمى عائشة كذب وبهتان .. هلّا جاء هؤلاء العصبة بأربعة يشهدون على مقالتهم فيها !! **﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء ﴾** على حقيقة ما رموها به **﴿ فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾** فيما جاءوا به من الإفك ..

(١) سورة النور من الآية ١١ ــ ١٨ .

ولولا فضل الله عليكم أيها الخائضون في أمر عائشة ـــ بتركه تعجيل عقوبتكم ، ورحمته إياكم بقبول توبتكم .. لمسكم عاجلاً عذاب عظيم ، بسبب ما تكلمتم فيه من أمرها .. حين تتلقون خبر الإفك من أهله ، فتقبلونه على أنه حقيقة وتتكلمون بألسنتكم بما لا علم لكم به ، ولا تعلمون حقيقة ما ترونه .. وتظنون أن روايتكم له وتلقيه سهل ، لا إثم عليكم فيه ﴿ **وهو عند الله عظيم** ﴾ لما فيه من إيذاء رسول الله وزوجته ﴿ **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا** ﴾ أي : ما يحل ولا ينبغي لنا أن نتكلم بهذا ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ أي تنزيهاً لك يا رب ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء ، فهذا القول بهتان عظيم ﴿ **يَعِظُكُم الله أن تعودوا لمثله أبداً** ﴾ أي ينهاكم الله ويذكركم بآي كتابه ، لئلا تعودوا لمثل فعلكم في أمر عائشة أبداً ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي إن كنتم تتعظون بعظات الله ، وتنتهون عما نهاكم عنه ﴿ **ويبين الله لكم الآيات** ﴾ أي ويفصل الله لكم حججه ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي عليم بأفعالكم ، حكيم في تدبير خلقه .

ثم بعد ذلك يضع الله تعالى أسساً لا بد أن نكون على علم بها .. ومن الحريصين على تنفيذ امراد منها .. حتى لا نكون من هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ... وحتى لا نكون من الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات .. فيقول تبارك وتعالى :

● ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا** ﴾ أي : إن الذين يحبون أن ينتشر الزنى ويظهر في الذين صدقوا بالله ورسوله ﴿ **لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة** ﴾ أي : لهم عذاب وجيع في الدنيا بالحدِّ ، وفي الآخرة بعذاب جهنم ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ أي : والله يعلم كذب أهل الإفك ، وأنتم لا تعلمون ذلك لأنكم لا تعلمون الغيب ، فلا تتحدثوا بما لا علم لكم به من الإفك فتهلكوا ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم** ﴾ أي : ولولا أن الله تفضل عليكم أيها الناس ورحمكم ، وأن الله ذو رحمة بخلقه ، لهلكتم فيما أفضتم فيه ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ أي : ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله ، لا تسلكوا سبيل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره ، بإشاعتكم الفاحشة ﴿ **ومن يتبع**

خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ أي : ومن يقتف آثار الشيطان ، فإنه يأمر بالزنى والمنكر من القول ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً** ﴾ أي : ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم ، ما تطهر منكم أحد أبداً من دنس ذنوبه وشركه ﴿ **ولكن الله يُزَكِّي من يشاء** ﴾ أي : ولكنَّ الله يُطهِّرُ من يشاء من خلقه ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أي : والله سميع لما تقولونه بأفواهكم عليم بكل أموركم ، ومحصيها عليكم ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسَّعة** ﴾ أي : ولا يحلف بالله من كان ذا فضل من مال وسعة منكم[1] ﴿ **أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله** ﴾ أي : أن لا يعطوا ذوي قرابتهم ، وذوي الحاجة ، والذين هجروا ديارهم وأموالهم في جهاد أعداء الله ﴿ **وليعفوا وليصفحوا** ﴾ أي : وليعفوا عما كان منهم من جرم ، وليتركوا عقوبتهم على ذلك ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ أي : ألا تحبون أن يستر الله ذنوبكم ، بإفضالكم عليهم !! ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أي : والله غفورٌ لذنوب من أطاعه ، رحيم بهم أن يعذبهم .

ثم يواصل الله تبارك وتعالى بعد ذلك — في سورة النور — تحذيراته .. فيقول :

● ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات** ﴾ أي : إن الذين يتهمون بالزنى العفيفات ، الغافلات عن الفواحش ، المؤمنات بالله ورسوله ﴿ **لُعِنوا في الدنيا والآخرة** ﴾ أي : أبعدوا من رحمة الله ، في الدنيا ويوم القيامة ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ أي : ولهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد ، إلا أن يتوبوا قبل وفاتهم .. ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ أي : يوم القيامة حين يجحد أحدهم ما اكتسب في الدنيا من الذنوب يختم الله على أفواههم ، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بآثامهم ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** ﴾ أي : في ذلك اليوم يوفيهم الله حسابهم ، وجزاءهم الحق على أعمالهم ﴿ **ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ أي :

---

(1) كان مسطح بن أثاثة قريباً لأبي بكر رضي الله عنه ، وكان ممن تكلم بالإفك فحلف أبو بكر أن لا ينيله خيراً أبداً فنزلت الآية فأعاده أبو بكر إلى عياله وضاعف له العطية .

ويعلمون أن ما وعدهم الله به في الدنيا من العذاب حق ، ويزول حينئذ الشك ﴿ **الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات** ﴾ أي : أن القبيح من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، هم بها أولى لأنهم أهلها ﴿ **والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات** ﴾ أي : أن الحسن من القول للطيبين من الناس والطيبون من الناس للطيبات من القول ، لأنهم أهلها وأحق بها[1] ﴿ **أولئك مُبَرَّءون مما يقولون** ﴾ أي : الطيبون من الناس مبرءون من خبيثات القول ﴿ **لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ أي : لهم مغفرة من الله لذنوبهم ، ولهم الجنة عطية كريمة من الله .

وقد أشار الإمام الشيخ « محمود شلتوت » في كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » إلى موضوع عقوبة القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء ... فقال :

ويلاحظ هنا أنه لما نزلت الآيات الأولى ، وفيها أن عقوبة القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء ثمانون جلدة ، وفهم الأصحاب منها أن حكم قذف الزوجة وقذف الأجنبية سواء في هذه العقوبة — نشأت بينهم مشكلة تقدموا بها إلى الرسول ﷺ ، وهي : أرأيت لو وجد أحدنا امرأته على فاحشة كيف يصنع ؟ إن تكلم تكلم بأمر عظيم . وإن سكت سكت على مثل ذلك ، وإن ذهب ليأتي بالشهود انتهى كل شيء ، فسكت الرسول ﷺ ولم يجب عن هذه الشكوى .

فلما كان بعد ذلك أتاه السائل ، فقال : إن الذي سألتك عنه قد ابتليت به ، فأنزل الله قوله : ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ...** ﴾ ، وبها حُلَّت المشكلة ، وأقيمت الشهادات الأربع من الجانبين محل الشهود الأربع ، ودفع بها العقاب وكان الحكم بينهما بعد هذا : التفريق الأبدي . وكانت هذه الآية ناسخة أو مخصصة لعموم الآية الأولى ، وكانت أصلاً تشريعياً لما هو معروف في لسان الفقهاء باسم « اللعان » وقد تكفلت كتب الفقه ببيان أحكامه .

والذي يتصل من هذا بموضوع العقوبات ، تعيين المراد بالعذاب ، في

---

(١) قال المفسرون في معنى هذه الآية : « الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء » وهو أظهر مما فسره به الطبري .

قوله تعالى : ﴿ ويدرأ عنها العذاب أن تشهد .... ﴾ .

هل هو الحد الذي بين في الآية الأولى ، ويكون الفارق بين قذف الزوجة وقذف غيرها هو الإكتفاء عن الشهود الأربع بالشهادات ، فإذا امتنعت عن الشهادات أو امتنع ، أقيم الحد الأصلي ، وهو الجلد على الممتنع منهما ؟ .

أو أن العذاب المذكور في الآية شيء آخر غير الحد ، ويكون الفرق بين القذفين من جهة قيام الشهادات مقام الشهود ، ومن جهة قيام عقوبة أخرى مقام عقوبة الجلد ؟ .

رأيان للفقهاء ، الأول منهما للشافعية ، وثانيهما للحنفية والعقوبة عندهم التي عبر عنها في الآية بالعذاب ، هي الحبس والترجيح بين الرأيين مذكور في كتب الفقه .

وعلى مذهب الحنفية يكون للقذف عقوبتان : عقوبة الجلد في قذف الأجنبية وعقوبة الحبسْ في قذف الزوجة .

وبهذا يكون الحبس ، كعقوبة ، ذُكِر في القرآن ثلاث مرات في ثلاث جنايات :

إحداها : قذف الزوجة ، على فهم الحنفية .

والثانية : الفاحشة تقع بين المرأتين على فهم أبي مسلم الأصفهاني .

والثالثة : جناية الإفساد في الأرض في قوله تعالى : ﴿ أويُنفَوا ... ﴾[1] على رأي الحنفية كما تقدم .

ومن أجمل ما قرأت كذلك حول موضوع « قذف المحصنات » ، ما كتبه الإمام الشهيد « السيد قطب » في كتابه « في ظلال القرآن الكريم » حيث يقول في تفسير قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ﴾ .

---

(١) المائدة : من الآية ٣٣ .

إن ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات ــ وهن العفيفات الحرائر ثيبات أو أبكاراً ــ بدون دليل قاطع ، يترك المجال فسيحاً لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئاً بتلك التهمة النكراء ، ثم يمضي آمناً ! فتصبح الجماعة وتمسي ، وإذا أعراضها مجرحة ، وسمعتها ملوثة ، وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالإتهام ، وإذا كل زوج فيها شاك في زوجه ، وكل رجل فيها شاك في أصله ، وكل بيت فيها مهدد بالإنهيار .. وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق .

ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوث ، وأن الفعلة فيها شائعة ، فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة تردادها ، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها ! .

ومن ثم لا تجدي عقوبة الزنى في منع وقوعه ، والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجو الملوث الموحي بارتكاب الفحشاء .

لهذا وصيانة للأعراض من التهجم ، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تُصَبُّ عليهم .. شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنى .. ثمانين جلدة .. مع إسقاط الشهادة ، والوصم بالفسق .. والعقوبة الاولى جسدية . والثانية أدبية في وسط الجماعة ، ويكفي أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة ، وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشي بينهم متهماً لا يوثق له بكلام ! والثالثة دينية فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم .. ذلك إلا أن يأتي القاذف بأربعة يشهدون برواية الفعل ، أو بثلاثة معه إن كان قد رآه . فيكون قوله إذن صحيحاً . ويوقع حد الزنى على صاحب الفعلة . ثم يقول :

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الإتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ، ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة . وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء ، وفوق الآثار التي تترتب عليها في حياة الناس وطمأنينة البيوت :

وتظل العقوبات التي توقع على القاذف ، بعد الحد ، مُصَلَّتَةً فوق رأسه ، إلا أن يتوب : ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

وقد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء : هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها ، فيرفع عنه وصف الفسق ، ويظل مردود الشهادة ؟ أم إن شهادته تقبل كذلك بالتوبة ... فذهب الأئمة مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الإستثناء إلى الجملة الأخيرة ، فيرتفع بالفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة . وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته ، وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف ، فحينئذ تقبل شهادته .

ثم يقول :

وأنا أختار هذا الأخير لأنه يزيد على التوبة إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف . وبذلك : يمحى آخر أثر للقذف . ولا يقال : إنما وقع الحد على القاذف لعدم كفاية الأدلة ! ولا يحيك في أي نفس ممن سمعوا الإتهام أنه ربما كان صحيحاً ، ولكن القاذف لم يجد بقية الشهود .. بذلك يبرأ العرض المقذوف تماماً ، ويرد له اعتباره من الوجهة الشعورية بعد رده من الوجهة التشريعية ، فلا يبقى هنالك داع لإهدار اعتبار القاذف المحدود التائب المعترف بما كان من بهتان .

ذلك حكم القذف العام . ولكن استثنى منه أن يقذف الرجل امرأته . فإن مطالبته بأن يأتي بأربعة شهداء فيه إرهاق له وإعنات . والمفروض ألا يقذف الرجل امرأته إلا صادقاً لما في ذلك من التشهير بعرضه وشرفه وكرامة أبنائه . لذلك جُعل لهذا النوع من القذف حكم خاص :

● ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .**

ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾ .

وفي هذه النصوص تيسير على الأزواج ، يناسب دقة الحالة وحرج الموقف . ذلك حين يطلع الزوج على فعلة زوجته ، وليس له من شاهد إلا نفسه . فعندئذ يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق في دعواه عليها بالزنى ، ويحلف يميناً خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وتسمى هذه شهادات لأنه الشاهد الوحيد . فإذا فعل أعطاها قدر مهرها ، وطلقت منه طلقة بائنة، وحق عليها حد الزنى وهو الرجم.. ذلك إلا أن ترغب في درء الحد عنها فإنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات أنه كاذب عليها فيما رماها به ، وتحلف يميناً خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقاً وهي كاذبة .. بذلك يدرأ عنها الحد ، وتبين من زوجها بالملاعنة ، ولا ينسب ولدها — إن كانت حاملاً — إليه بل إليها . ولا يُقذف الولد ومن يقذفه يحد ..

وقد عقب على هذا التخفيف والتيسير ، ومراعاة الأحوال والظروف بقوله تعالى : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم** ﴾ ..

ولم يبين ما الذي كان يكون لولا فضل الله ورحمته بمثل هذه التيسيرات . وبالتوبة بعد مفارقة الذنوب .. لم يُبينه ليتركه مجملاً مرهوباً ، يتقيه المتقون . والنص يوحي بأنه شر عظيم ....

فلاحظ أخا الإسلام كل هذا وتذكره .. حتى لا تكون من الذين يقذفون المحصنات الغافلات المؤمنات .. وحتى تكون إن شاء الله تعالى بسبب اجتنابك لهذا الجرم الكبير من المؤمنين حقّاً .

وحسبك تحذيراً لك كذلك من الوقوع في هذا الجرم الكبير أن تقرأ معي هذه الأحاديث الشريفة :

● عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **من ذكر امْرَءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به(١) حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه** » رواه الطبراني بإسناد جيد .

---

(١) أي لينتقصه ويحط من قدره بين الناس .

أي : يستمر حبسه في النار ويمنع من دخول الجنة حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه وليس بقادر على ذلك ، فهو كناية عن شدة تعذيبه وطول مكثه في النار .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قذف مملوكه بالزنى[1] يقام عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال » رواها البخاري ومسلم والترمذي وكذلك رواه أحمد رحمه الله والبيهقي وأبوداود .

أي : يأخذ الله للعبد بحقه من سيده فيقيم عليه حَدَّ القذف وهو ثمانون جلدة .. إلا أن يكون صادقاً في اتهامه إياه .

ومرة أخرى وفي ختام هذا العرض السريع والنافع إن شاء الله أذكرك بالحديث الشريف الذي كنا ندور حوله والذي أرجو ألا تنساه ، وأن تعمل دائماً وأبداً على تنفيذ المراد منه ، وهو اجتناب السبع الموبقات .. فضلاً عن غيرها من المهلكات التي ينبغي عليك أن تقف عليها كمسلم يبحث عن أسباب النجاة في الدنيا والآخرة .. وحتى لا أطيل عليك ... إليك حديث البداية والختام :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولِّي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات » رواه البخاري ومسلم .

وفي هذا القدر كفاية .

والله ولي التوفيق .

---

(١) أي ما رماه واتهمه به .

الوصية الثالثة والسبعون

عن جابر رضي الله عنه .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

غَطُّوا الإِنَاءَ ، وَأَوْكِئُوا السِّقَاءَ ، وَأَغْلِقُوا البَابَ ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحُلُّ سِقَاءً ، وَلَا يَفْتَحُ بَابًا ، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ يَعْرُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا وَيَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فَلْيَفْعَلْ ، فَإِنَّ الفُوَيْسِقَةَ[1] تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ

الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ.

رواه مسلم

---

(١) الفويسقة: أى الفأرة. وتضرم: أى تحرق.

● وهذا الذى يوصى النبى صلى الله عليه وسلم به معناه أنه صلى الله عليه وسلم يعلمنا الحيطة والحذر ولاسيما فى بيوتنا التى فيها متاعنا وجميع أهلينا... وذلك حتى لانعرضهم ونعرض أنفسنا لما لايحمد عقباه. ولهذا كان من الخير أن ننفذ ماأوصانا به الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الوصية.

***

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لكل هذه التوجيهات المحمدية التي تؤكد ما أشار الله سبحانه وتعالى إليه في قوله :

● ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ .

فهو هنا صلوات الله وسلامه عليه — في نص هذه الوصية — يوصينا بأمور هامة تتعلق بسلامتنا وسلامة أهلينا في داخل بيوتنا .. بل وخارجها :

فإنه في هذا الحديث الصحيح يوصينا بخير كبير ينبغي علينا أن نتنبه له وأن نعمل على تنفيذه .. حتى نكون بهذا مع أهلينا في أمن وأمان حِسِّيٍّ ومعنوي .

ففي قوله صلوات الله وسلامه عليه :

● « غطوا الإناءَ ، وأوكئوا[1] السِّقاء ، وأغلقوا الباب ، وأطفئوا السراج .... » :

عدة فوائد منها الفائدتان اللتان وردتا في هذا الحديث — وغيره — وهما : صيانتهُ من الشيطان فإن الشيطان لا يكشف غطاء ، ولا يحل سقاء ، وصيانتهُ من الوباء الذي ينزل في ليلة من السَّنَة .

فقد ورد كذلك — في صحيح مسلم — عن جابر رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « غطوا الإناء ، وأوكئوا السِّقاء : فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء » .

وفي رواية ليث بن سعد بهذا الإسناد أنه قال : « فإن في السنة يوماً ينزل فيه وباء ، وزاد في آخر الحديث : قال الليث : فالأعاجم عندنا يتقون ذلك في كانون الأول » .

وهناك فائدة ثالثة[2] : صيانته من النجاسة والقاذورات . والرابعة :

---

(١) الوكاء شيء يربط به فم القربة وأمثالها .

(٢) كما جاء في شرح الإمام النووي لهذا الحديث .

صيانته من الحشرات والهوام ، فربما وقع شيء منها فيه فشربه وهو غافل ، أو في الليل فيتضرر به .

وفي قوله ﷺ :

● « فإن الشيطان لا يحلُّ سقاء ، ولا يفتح باباً ، ولا يكشف إناء ... » :

إشارة إلى جملة آداب من أهم أسباب السلامة من إيذاء الشيطان .. لأنه لا يقدر على كشف إناء ، ولا حل سقاء ، ولا فتح باب ، ولا إيذاء صبي وغيره إذا وجدت هذه الأسباب ، وهذا كما جاء في الحديث الصحيح : « إن العبد إذا سمى عند دخول بيته قال الشيطان : لا مبيت » أي لا سلطان لنا على المبيت عند هؤلاء ، وكذلك إذا قال الرجل عند جماع أهله : « اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا » كان سبب سلامة المولود من ضرر الشيطان ، وكذلك شبه هذا مما هو مشهور في الأحاديث الصحيحة .

وفي هذا الحديث : الحث على ذكر الله تعالى في هذه المواضع ، ويلحق بها ما في معناها ، قال أصحابنا : يستحب أن يذكر اسم الله تعالى على كل أمر ذي بال ، وكذلك يحمد الله تعالى في أول كل أمر ذي بال للحديث الحسن المشهور فيه .

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في نص حديث صحيح رواه مسلم يقول فيه : « إذا كان جُنح الليل(١) أو أمسيتم فكفوا صبيانكم فإن الشيطان ينتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من الليل فخلوهم وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، واذكروا اسم الله ، وخَمِّروا آنيتكم واذكروا اسم الله ، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً ، وأطفئوا مصابيحكم » .

---

(١) جنح الليل : بضم الجيم وكسرها لغتان مشهورتان وهو ظلامه ويقال : أجنح الليل ، أي أقبل ظلامه ، وأصل الجنوح الميل .

وفي حديث صحيح آخر — رواه مسلم — عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ترسلوا فواشيكم وصبيانكم إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء ، فإن الشياطين تنبعث إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء » .

قال أهل اللغة : « الفواشي » كل منتشر من المال كالإبل والغنم وسائر البهائم وغيرها ، وهي جمع فاشية ، لأنها تفشو أي تنتشر في الأرض ، وفحمة العشاء ظلمتها وسوادها ، وفسرها بعضهم هنا بإقباله وأول ظلامه ، وكذا ذكره صاحب نهاية الغريب ، قال : ويقال الظلمة التي بين صلاتي المغرب والعشاء : الفحمة ، والتي بين العشاء والفجر : العسعسة .

وفي قوله ﷺ :

● « فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرُض على إنائه عوداً ويذكر اسم الله فليفعل فإن الفويسقة — وهي الفأرة — تُضرم على أهل البيت بيتهم » :

إشارة إلى أنه ينبغي علينا أن نلاحظ ألا ننام إلا بعد أن نطفيء السراج أو النار التي في بيوتنا حتى لا تمر عليها الفويسقة وهي الفأرة فتضرم علينا بيوتنا ، أي تحرقها سريعاً ، قال أهل اللغة : ضرمت النار بكسر الراء وتضرمت وأضرمت أي التهمت ، وأضرمتها أنا وضرمتها .

فعن الزهري عن سالم عن أبيه — في حديث صحيح رواه مسلم — : عن النبي ﷺ قال : « لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون » .

وعن أبي بُردة عن أبي موسى قال : — كما ورد كذلك في نص حديث صحيح رواه مسلم — : احترق بيت على أهله بالمدينة من الليل فلما حُدِّثَ رسول الله ﷺ بشأنهم ، قال : « إن هذه النار إنما هي عدوٌّ لكم فإذا نمتم فأطفئوها عنكم » :

قال الإمام النووي في توضيح هذا : قوله ﷺ : « لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون » : هذا عام تدخل فيه نار السراج وغيرها ، وأما القناديل المعلقة في المساجد وغيرها فإن خيف حريق بسببها دخلت في الأمر بالإطفاء ،

وإن أمن ذلك كما هو الغالب فالظاهر أنه لا بأس بها لانتفاء العلة لأن النبي ﷺ علل الأمر بالإطفاء في الحديث السابق بأن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم ، فإذا انتفت العلة زال المنع .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، وأكثر من الصلاة والسلام على هذا النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، والذي لولاه لظل العالم أجمع إلى لحظتنا هذه في ضلال مبين .. كما كان الحال قبل أن يولد صلوات الله وسلامه عليه بل قبل أن يبعث .. وإلى هذا يشير رب العزة في قوله :

● **﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويُزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾**(١) :

فصلاة ربي وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله .. يا أفضل خلق الله .. يا من أخرجت الناس من الظلمات إلى النور .. وهديتهم إلى الصراط المستقيم : **﴿ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾**(٢) .

وشكراً لك يا الله على تلك المنة الكبرى التي أسألك ياالله أن تجعلنا جميعاً أهلاً لها .. آمين .



(١) آل عمران : الآية ١٦٤ .
(٢) الشورى : الآية ٥٣ .

الوصية الرابعة والسبعون

عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إِنَّ اللَّهَ خَتَمَ سُورَةَ البَقَرَة بِآيَتَيْنِ[1] أَعْطَانِيهِمَا مِنْ كَنْزِهِ الَّذِي تَحْتَ العَرْشِ، فَتَعَلَّمُوهُنَّ وَعَلِّمُوهُنَّ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، فَإِنَّهَا صَلَاةٌ وَقُرْآنٌ وَدُعَاءٌ.

أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري

---

(١) وهما من قوله تعالى: (آمن الرسول ...) إلى آخر السورة.

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذا الكنز الإلهي فتعلّمه وعلّمه كما أوصانا النبي ﷺ جميعاً بهذا :

مع ملاحظة : أن هاتين الآيتين اللتين أعطاهما الله لحبيبه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من كنزه الذي تحت العرش ، هما[1] :

● ﴿ آمن الرسول بما أُنزِل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يُكلِّف الله نفساً إلا وُسعها لها ما كَسَبَت وعليها ما اكْتَسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كَما حملته عِلى الذين من قبلنا ربنا ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنَّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ :

● وقد روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة (البقرة) في ليلة كفتاه » . قيل من قيام الليل .

● كما روى عن ابن عمر ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « أنزل الله عليَّ آيتين من كنوز الجنة ختم بهما سورة البقرة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألف عام من قرأهما بعد العشاء مرتين أجزأتاه من قيام الليل (آمن الرسول) إلى آخر البقرة » .

وقيل كفتاه من شر الشيطان فلا يكون له عليه سلطان .

● وأسند أبوعمرو الدانيٌّ عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام فأنزل منه هذه الثلاث آيات التي ختم بهن البقرة من قرأهن في بيته لم يقرب الشيطان بيته ثلاث ليال » .

● وروى أن النبي ﷺ ، قال : « أوتيتُ هذه الآيات من آخر سورة

---

(١) الآية ٢٨٥ ، ٢٨٦ من سورة البقرة .

البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبي قبلي » وهذا صحيح . كما ذكر القرطبي .

وحتى تفهم المراد من هاتين الآيتين وتقف على ما فيهما من النفحات ، إليك ما ذكره القرطبي في المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ :

روي عن الحسن ومجاهد والضحاك : أن هذه الآية كانت في قصة المعراج ، وهكذا روي في بعض الروايات عن ابن عباس ، وقال بعضهم : جميع القرآن نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ إلا هذه الآية فإن النبي ﷺ : هو الذي سمعها ليلة المعراج ، وقال بعضهم : لم يكن ذلك في قصة المعراج ، لأن ليلة المعراج كانت بمكة وهذه السورة كلها مدنية ، فأما من قال : إنها كانت ليلة المعراج ، قال : لما صعد النبي ﷺ وبلغ في السموات في مكان مرتفع ومعه جبريل حتى جاوز سدرة المنتهى فقال له جبريل : إني لم أجاوز هذا الموضع ولم يؤمر بالمجاوزة أحد هذا الموضع غيرك فجاوز النبي ﷺ حتى بلغ الموضع الذي شاء الله ، فأشار إليه جبريل بأن سلم على ربك ، فقال النبي صلوات الله وسلامه عليه : التحيات لله والصلوات والطيبات لله . قال الله تعالى : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فأراد النبي ﷺ أن يكون لأمته حظ في السلام ، فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فقال جبريل وأهل السموات كلهم : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال الله تعالى : ﴿ **آمن الرسول** ﴾ على معنى الشكر أي صدق الرسول ﴿ **بما أنزل إليه من ربه** ﴾ فأراد النبي ﷺ أن يشارك أمته في الكرامة والفضيلة ، فقال : ﴿ **والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ يعني يقولون آمنا بجميع الرسل ولا نكفر بأحد منهم ولا نفرق بينهم كما فرقت اليهود والنصارى ، فقال له ربه : كيف قبولهم بآيي الذي أنزلتها ؟ وهو قوله : ﴿ **إن تبدوا ما في أنفسكم** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ يعني المرجع . فقال الله تعالى عند ذلك : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ يعني طاقتها ، ويقال : إلا دون طاقتها . ﴿ **لها ما**

كسبت ﴾ من الخير ﴿ **وعليها ما اكتسبت** ﴾ من الشر ، فقال جبريل عند ذلك : سَل تُعطَهْ ، فقال النبي ﷺ : ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا** ﴾ يعني : إن جهلنا ﴿ **أو أخطأنا** ﴾ يعني : إن تعمدنا ، ويقال : إن عملنا بالنسيان والخطأ . فقال له جبريل : قد أعطيت ذلك قد رفع عن أمتك الخطأ والنسيان . فسل شيئاً آخر ، فقال : ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً** ﴾ يعني ثقلاً ﴿ **كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ وهو أنه حَرَّم عليهم الطيبات بظلمهم ، وكانوا إذا أذنبوا بالليل وجدوا ذلك مكتوباً على بابهم ، وكانت الصلوات عليهم خمسين ، فخفف الله عن هذه الأمة وحَطَّ عنهم بعدما فرض خمسين صلاة . ثم قال : ﴿ **ربنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به** ﴾ يقول : لا تثقلنا من العمل ما لا نطيق فتعذبنا ، ويقال : ما تشق علينا ، لأنهم لو أمروا بخمسين صلاة لكانوا يطيقون ذلك ولكنه يشق عليهم ولا يطيقون الإدامة عليه ﴿ **واعف عنا** ﴾ من ذلك كله ﴿ **واغفر لنا** ﴾ وتجاوز عنا ، ويقال : ﴿ **واعف عنا** ﴾ من المسخ ﴿ **واغفر لنا** ﴾ من الخسف ﴿ **وارحمنا** ﴾ من القذف ، لأن الأمم الماضية بعضهم أصابهم المسخ وبعضهم أصابهم الخسف وبعضهم القذف ، ثم قال : ﴿ **أنت مولانا** ﴾ يعني ولينا وحافظنا ﴿ **فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ فاستجيبت دعوته .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » ويقال : إن الغزاة إذا خرجوا من ديارهم بالنية الخالصة وضربوا الطبل وقع الرعب والهيبة في قلوب الكفار مسيرة شهر في شهر ، علموا بخروجهم أو لم يعلموا ، ثم إن النبي ﷺ لما رجع أوحى الله هذه الآيات ، ليعلم أمته بذلك . ولهذه الآية تفسير آخر ، قال الزجاج : لما ذكر الله تعالى في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة وبين أحكام الحج وحكم الحيض والطلاق والإيلاء وأقاصيص الأنبياء وبين أحكام الربا ، ذكر تعظيمه سبحانه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **لله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ ثم ذكر تصديق نبيه ﷺ ثم ذكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك ، فقال : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه** ﴾ أي صدق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها وكذلك المؤمنون كلهم صدقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وقيل سبب نزولها الآية التي قبلها وهي : ﴿ **لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ : فإنه لما أُنزل هذا على النبي ﷺ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الرُّكَبِ فقالوا : أي رسول الله ، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها . قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا ، بل قولوا ﴿ **سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ فقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما اقترأها القوم ذَلَّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رُسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لا يُكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ قال : نعم ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ قال : نعم ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ قال : نعم ﴿ **ربنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به** ﴾ قال : نعم ﴿ **واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ قال : نعم » أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام وكن متقرباً إلى الله تبارك وتعالى بهاتين الآيتين التي أرجو أن تستغنى بهما عن كل كنوز الدنيا ... وتعلمهن، وعلمهن زوجتك وأولادك كما أوصاك الرسول ﷺ في نص الوصية ... مع ملاحظة : أنهما صلاة ، وقرآن ، ودعاء .

الوصية الخامسة والسبعون

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ[1]، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ.

رواه البخاري ومسلم

---

(١) فاجتنبوه: أي لاتفعلوه ولاشيئاً منه. وهذا محمول على نهي التحريم.

فكن أخا الإسلام :

من المنتفعين بهذه الوصية العظيمة التي من الخير لنا جميعاً أن ننفذها حتى لا نهلك كما هلك الذين من قبلنا وأعني بهذا أنه من الخير لنا أن نقف على المراد من هذه الوصية حتى نكون من المنفذين له كما يُحِبُّ رسول الله ﷺ لأمته :

فقوله : « مانهيتكم عنه فاجتنبوه » معناه(١) : أي اجتنبوه جملة واحدة .. لا تفعلوه ولا شيئاً منه وهذا محمول على نهي التحريم ، فأما نهي الكراهة ، فيجوز فعله ، وأصل النهي في اللغة المنع .

وقوله ﷺ : « وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم » : فيه مسائل : منها : إذا وجد ماء للوضوء لا يكفيه فالأظهر وجوب استعماله ثم يتيمم للباقي ، ومنها : إذا وجد بعض الصاع في الفطرة فإنه يجب إخراجه ، ومنها : إذا وجد بعض ما يكفي لنفقة قريب أو الزوجة أو البهيمة فإنه يجب بذله . وهذا بخلاف ما إذا وجد بعض الرقبة فإنه لا يجب عتقه عن الكفارة لأن الكفارة لها بدل وهو الصوم وقوله « فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » .. يقول الإمام النووي : اعلم أن السؤال على أقسام : القسم الأول : سؤال الجاهل عن فرائض الدين كالوضوء والصلاة والصوم ، وعن أحكام المعاملة ونحو ذلك .. وهذا السؤال واجب ، وعليه حُمِلَ قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ولا يسع الإنسان السكوت عن ذلك .. قال الله تعالى : ﴿ .. **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾(٢) وقال ابن عباس رضي الله تعالي عنهما : إني أُعطيتُ لساناً سئولاً وقلباً عقولاً .. كذلك أخبر عن نفسه رضي الله تعالى عنه . والقسم الثاني : السؤال عن التفقه في الدين لا للعمل وحده مثل القضاء والفتوى .. وهذا فرض كفاية ، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين** .. ﴾(٣) الآية . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا فليُعلم الشاهد منكم الغائب » . القسم الثالث : أن يكون في

---

(١) كما يقول في شرح الأربعين النووية .

(٢) النحل : الآية ٤٣ .

(٣) التوبة : الآية ١٢٢ .

السؤال ترتيب مشقة بسبب تكليف يحصل . ولهذا أشار ﷺ إلى هذا بقوله : « وسكت عن أشياء رحمة لكم فلا تسألوا عنها » .

وعن علي رضي الله عنه لما نزلت ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً** ﴾[1] قال رجل أكُلَّ عام يا رسول الله ، فأعرض عنه حتى أعادها مرتين أو ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله سلم : « **يوشك أن** أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجَبت لما استطعتم ، **فاتركوني ما** تركتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم ، **فإذا** أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » **فأنزل الله** تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم** ﴾[2] أي لم أمركم بالعمل بها .. وهذا النهي خاص بزمانه صلى الله عليه وآله وسلم .. أما بعد أن استقرت الشريعة وأُمِنَ من الزيادة فيها زال النهي بزوال سببه ، وكره جماعة من السلف السؤال عن معاني الآيات المشتبهة .. سُئل مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[3] فقال : الإستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وأراك رجل سوء أخرجوه عني . وقال بعضهم : مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أعلم وهو السؤال .

هذا ، وقد قرأت حول شرح هذا الحديث العظيم .. توضيحاً آخر للشيخ محمد بن عبد الله الجرداني الدمياطي الشافعي[4] رحمه الله تعالى ، يقول فيه[5] : قوله ﷺ : « ما نهيتكم عنه » أي : منعتكم ، منع تحريم .. كقوله ﷺ : « لا تعذبوا بعذاب الله » أي بالنار . أو منع كراهة ، كقوله : « لا تأكل البصل النيىء» وقوله : « لا تأكل بالشمال » .

وقوله : « فاجتنبوه » أي اجعلوه في جانب وتباعدوا عنه ، وفي رواية : فدعوه ، أي اتركوه .. حتماً في الحرام .. وندباً في المكروه .. والمراد : اجتناب كله ، إذ الامتثال لا يحصل إلا بترك الجميع ، فتارك بعض المنهيات

---

(١) آل عمران : الآية ٩٧ . (٢) المائدة : الآية ١٠١ .
(٣) سورة طه : الآية ٥ . (٤) في كتابه « الجواهر اللؤلؤية في شرح الأربعين النووية » .
(٥) مع بعض التصرف التوضيحي .

لا يعد ممتثلاً .. بل يكون مرتكب الحرام عاصياً ، ومرتكب المكروه مخالفاً . نعم يباح المنهي عنه للضرورة كأكل الميتة للمضطر ، وشرب الخمر عند الإكراه .

وقوله : « وما أمرتكم به » أي : طلبته منكم طلب وجوب كقوله : « اكفلوا ـــ أي التزموا ـــ لي ستَّ خصال أكفل لكم الجنة قيل وما هي ؟ قال : الصلاة والزكاة ـــ أي الإتيان بهما ـــ والأمانة ـــ أي توفيتها لمستحقها ـــ والفرج والبطن واللسان ـــ أي منعهم عن الحرام » أو طلب ندب كقوله : « أكثروا ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ـــ أي يزيلها ـــ ويزهد في الدنيا .. فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه ، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم » .

وقوله : « فأتوا » وفي رواية فافعلوا « منه ما استطعتم » أي : ما أطقتم وقدرتم عليه وجوباً في الواجب ، وندباً في المندوب ، ومصداق ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾(١) المبين لقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾(٢) إذ حق تقاته هو امتثال أمره واجتناب نهيه ، ولم يأمر سبحانه وتعالى إلا بالمستطاع ، لقوله تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ... ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ .. **وما جعل عليكم في الدين من حرج** .. ﴾(٤) ويُستفاد مما ذكر أن مَن عجز عن بعض المأمور به لا يسقط عنه المقدور ، بل يجب عليه الإتيان به ، وهذا هوْ معنى قول الفقهاء : أن الميسور لا يسقط بالمعسور ، وإذا عجز عن صاع الفطرة : أتى بما قدر عليه منه ، وإذا عجز عن غسل بعض الأعضاء في الوضوء ، أو عن مسحها في التيمم : أتى بالممكن وصحت عبادته ، وإذا عجز عن القيام في الصلاة بأن حصل له به مشقة شديدة تذهب الخشوع أو كماله : صلى قاعداً ، فإن عجز عن القعود بهذا المعنى اضطجع على جنبه ، فإن عجز عن

---

(١) التغابن : الآية ١٦ .
(٢) آل عمران : الآية ١٠٢ .
(٣) البقرة : الآية ٢٨٦ .
(٤) الحج : الآية ٧٨ .

الإضطجاع كذلك استلقى على ظهره ، ثم إن قدر على الركوع والسجود فعلهما ، وإن عجز عنهما بهذا المعنى : أومأ ، أي : أشار إليهما برأسه ، وجعل سجوده أخفض من ركوعه ، فإن عجز عن الإيماء برأسه : أومأ بأجفانه ، فإن عجز : أومأ بقلبه : فإن اعتُقِل لسانه بضم التاء ، أي : حُبِسَ عن الكلام ، فلم يقدر عليه أجرى أركان الصلاة على قلبه .. ونُقل عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أنه قال : من خاف من الإيماء برأسه حصول مشقة شديدة له جاز له ترك الصلاة وإن كان عاقلاً لأن مجرد العقل لا يكفي في الخطاب وعليه عمل الناس سلفاً وخلفاً ، ثم إن كانت خمس صلوات فأقل وجب عليه قضاؤها إذا بريء ، وإن كانت أكثر سقطت عنه ، ولا قضاء عليه . ونُقل عنه أيضاً(١) : أن المريض إذا عجز عن فعل شرائط الصلاة بنفسه وقدر عليها بغيره لا تجب عليه .. لأن القدرة بالغير لا تعد قدرة عنده .. وعليه لو تيمم العاجز عن الوضوء بنفسه ، أو صلى بالنجاسة ، أو إلى غير القبلة مع وجود مَن يوضئه ، أو يزيل عنه النجاسة ، أو يحوله للقبلة ولم يأمره بذلك صحت صلاته .. وعند صاحبيه لا تصح لأن آلة غيره صارت كآلته .. ولا يخفى ما في كلام أبي حنيفة من التسهيل على المريض فلا بأس بتقليده عند اشتداد المرض وخشية ترك الصلاة والعياذ بالله تعالى .

وقوله : « فإنما أهلك الذين من قبلكم » أي : من الأمم السابقة : « كثرة مسائلهم » : أي التي لغير حاجة وضرورة ، فإنها تشعر بالتعنت .. كقولهم لسيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ **هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء** ﴾ فطلبها عيسى من ربه عز وجل .. فنزلت الملائكة بها من السماء عليها سبعة أرغفة ، وسبعة أحوات .. فأكلوا منها حتى شبعوا . قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . وفي حديث : أُنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً .. فأُمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد .. فخانوا وادخروا .. فمسخوا قردة وخنازير . وكقولهم لسيدنا موسى صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ **أرنا الله جهرة** ﴾ أي عياناً .. فأخذتهم الصاعقة .. أي عقب هذا السؤال .. وهي نار جاءت من السماء فأحرقتهم .. وكقولهم له أيضاً عليه السلام : ﴿ **ادع لنا ربك يبين لنا**

---

(١) أي عن أبي حنيفة رضي الله عنه .

ماهي ﴾ لما أُمروا بذبح بقرة .. ولو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لأجزأتهم.. ولكنهم شددوا على أنفسهم بكثرة السؤال عن حالها وصفاتها.. فشدد الله تعالى عليهم :

رُوي أن رجلاً فقيراً في بني إسرائيل قتل ابنَ أخيه أو أخاه أو ابن عمه لكي يرثه ، ثم رماه فى مجمع الطريق ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام .. فاجتهد موسى فى تعرف القاتل .. فلما لم يظهر قالوا له : سل لنا ربك حتى يبينه .. فسأله .. فأوحى الله تعالى إليه : **﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾** فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالإستفهام عن حالها حالاً بعد حال واستقصوا في طلب الوصف ، أي بلغوا الغاية فيه إلى أن تعينت البقرة .. التي لم يجدوها بهذا الوصف إلا عند إنسان معين .. فلم يرض ببيعها إلا بأضعاف ثمنها .. فاشتروها منه وذبحوها .. فأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القتيل .. ففعلوا .. فصار المقتول حيًّا .. فسألوه عن القاتل فعينه لهم .. وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قوداً أي قِصَاصاً .. يعني قتلوه به .. قيل : كانت هذه البقرة لولدٍ بارٍّ بوالديه خلفها له أبوه ، وكان هذا الولد يقسم الليل ثلاثاً : يصلي ثلثاً ، وينامُ ثلثاً ، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً .. فأمرته ــ أمه ــ ذاتَ يوم ببيع البقرة بثلاثة دنانير تحت مشورتها .. وكانت قميتها هذا القدر .. فانطلق بها إلى السوق .. فبعث الله إليه ملكاً فقال له بكم تبيع هذه البقرة ؟ قال : بثلاثة دنانير بشرط رضا أمي ، فقال له الملَك : أعطيك ستة دنانير ولا تشاورها . فقال له : لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضاها .. فردها إلى أمه فأخبرها بذلك .. فقالت له : ارجع فبعها بستة دنانير على رضاً مني .. فانطلق بها .. فأتاه الملك ، فقال له الولد : إنها أمرتني ألا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها .. فقال له الملك : أعطيك اثني عشر ديناراً ولا تستأمرها .. فأبى ورجع إلى أمه .. فأخبرها بذلك فقالت له : إن الذي يأتيك مَلَك في صورة آدمي ليختبرك فإذا أتاك فقل له : أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ؟ ففعل .. فقال له الملك : اذهب إلى أمك وقل لها : أمسكي هذه البقرة فإنك تبيعها بملء جلدها ذهبا .. فأمسكتها حتى وُجِد هذا القتيل فاشتروها بما ذكر .

ثم يقول بعد ذلك تحت عنوان « فائدة

روى البخاري أن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة : أكتب لي شيئاً سمعته من النبي ﷺ .. فكتب إليه : سمعت النبي ﷺ يقول : « إني أكره لكم ثلاثاً : قيل وَقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » .

ويروى أن أُبي بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهما من أفاضل الصحابة كان أحدهم إذا سئل عن مسألة يقول : أوقعت هذه ؟ فإن قيل : نعم . قال فيها بعمله ، أو أحالها على غيره . وإن قيل : لا . قال : فدعها حتى تقع .

وقوله : « واختلافهم » بضم الفاء لا بكسرها ، فهو معطوف على كثرة مسائلهم ، والتقدير وأهلكهم اختلافهم « على أنبيائهم » أي عصيانهم عليهم بتفرقهم في الدين ، وتخاصمهم فيه كاليهود .. عندما أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة وأخبرهم بفضله .. فأبوا إلا طائفة منهم ، وقالوا : لا نريد يوم الجمعة ونريد يوم السبت .. فشدد الله عليهم وحرم عليهم صيد السمك فيه وابتلاهم بأن ألهم السمك بأن يجتمع كله في هذا اليوم فلا يُرى الماء من كثرته .. فإذا مضى تفرق السمك ولزم قعر البحر .. فوسوس إلى بعضهم الشيطان بأنهم إنما نُهوا عن أخذها يوم السبت ولم يُنهوا عن أخذها في غيره ولو بالحيلة .. فحفروا في جانب البحر حفرة كبيرة وجعلوا لها أنهاراً من البحر فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج بالحيتان إلى الحفرة فيقع فيها ولا يقدر على الخروج منها لعمقها ، فإذا كان يوم الأحد أخذوها فشووا وأكلوا فشَمَّ جيرانهم فسألوهم فأخبروهم بالحيلة فقالوا : إن الله معذبكم .. ثم لما لم يعاجلوا بالعقوبة تبعهم جماعة ثم جماعة حتى صاروا قدر الثلث وتجارؤا على السبت وقالوا : ما نرى السبت إلا قد حلّ لنا .. وأمسك قدر الثلث عن الصيد ولم ينهوهم .. وأمسك الثلث الثالث ونهوهم ثم لعنهم داود في زمنه وغضب الله عليهم فمسخهم قردة وخنازير وكذا الثلث الساكت على خلاف فيه .. ومكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا .

وبهذا نكون قد عرفنا المراد من حديث الرسول ﷺ ، وهو :

« ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » :

فهو حديث عظيم من جوامع الكلم ، وقاعدة عظيمة من قواعد الدين ، وفيه إشارة إلى وجوب اتباعه ﷺ .. وتنفيذ ما جا به من الأحكام من غير معارضة ... قال تعالى :

- ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .. ﴾[١] .

وقال :

- ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾[٢] وقال :

- ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾[٣] .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعاً من أهل الإتباع لا من أهل الابتداع حتى نكون بهذا من المؤمنين الصادقين ... آمين .. آمين .. آمين .

***

(١) الحشر : الآية ٧ .
(٢) النور : الآية ٥٤ .
(٣) النساء : الآية ٦٩ .

الوصية السادسة والسبعون

عن أبى العبّاس سهل بن سعد الساعدى رضى الله تعالى عنه قال:

جاء رجل إلى النبى صلّى الله عليه وسلّم فقال: **يا رسول الله دلّنى على عمل إذا عملته أحبّنى الله وأحبّنى الناس.** فقال:

ازهد[1] فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبوك.

حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره

---

(١) الزهد: ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا وإن كان حلالاً.. والزهد فيما عند الناس: معناه الرضا بما قسم الله تعالى. وهذا هو الغنى الحقيقى.

فكن أخا الإسلام :

من المؤمنين الصادقين الذين فهموا المراد من هذه الوصية العظيمة التي إن نفذتها مثلهم كنت من كبار الأغنياء في الدنيا والآخرة .

وأعني بهذا أنهم فهموا حقيقة الزهد .. كما عرفوا كذلك حقيقة الزاهد الذي قال عنه العلماء : ليس الزاهد من لا مال عنده .. وإنما الزاهد من لم يشغل المال قلبه وإن أوتي مثل ما أوتي قارون .

فكانت الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم كما أشار الله تعالى إلى هذا في الحديث القدسي ــ الذي ورد في صحف إبراهيم وموسى ــ والذي يقول الله تعالى فيه مخاطباً الدنيا :

● « يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم .. إني قذفت في قلوبهم بغضك والصبر عنك .. ماخلقت أهون عليَّ منك .. إني قضيتُ عليكِ يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد ولا يدوم لكِ أحد » :

وهذا هو المعنى الكبير الذي لا بد أن نفهمه حتى نُخرِجَ حب الدنيا من قلوبنا .. وحتى تكون مطية لنا .. بدل أن نكون نحن مطيةً لها .. فتشغلنا عن الله .. وتنسينا الدار الآخرة التي ينبغي أن لا تُشغل عنها بحطام الدنيا الزائل .

● **﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾** ــ أي لهي الحياة الحقيقية **﴿ لو كانوا يعلمون ﴾**(١) .

وحسبنا إذا أردنا أن ننفذها ... بل إذا أردنا أن نعرف حقيقة الدنيا حتى نزهد فيها زهداً حقيقيًّا .. أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى :

● **﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حُطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾**(٢) .

---

(١) العنكبوت : الآية ٦٤ .

(٢) الحديد : الآية ٢٠ .

يقول الإمام علي كرم الله وجهه لعمّار رضي الله عنه : لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء : مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح ، فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذُبابة(1) ، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان ، وأفضل ملبوسها الديباج(2) وهو نسيج دودة ، وأفضل المشموم المسك وهو دم فأرة ، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال ، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال ، والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد بها أقبحها .

وحسبي أن أُلخص كذلك ما جاء في كتاب « الجواهر اللؤلؤية »(3) حول شرح هذا الحديث الشريف الذي ندور حوله ، فقد قال :

« جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله دُلّني » بضم الدال المهملة وفتح اللام المشددة ، أي أرشدني « على عمل » أي صالح جامع للفضائل ومانع من الرذائل « إذا عملته » بكسر الميم « أحبني الله » أي رضي عني وأحسن إلى « وأحبني الناس » أي حصل لهم الشفقة عليَّ وأرادوا منفعتي ، والرواية في أحبني بفتح التحتية وإن كان يجوز إسكانها عربية واعلم أن محبة الناس لشخص تابعه لمحبة الله تعالى فإذا أحبه الله ألقى محبته في قلوب خلقه ، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض » « فقال » رسول الله ﷺ للرجل : « ازهد في الدنيا » أي اعرض عنها ولا تبال بإقبالها وإدبارها ولا تأخذ منها إلا ما لا بد منه من الحلال « يحبك الله » بفتح الموحدة المشددة لأن الله يحب من أطاعه ومن طاعة الله عز وجل عدم الإلتفات إلى الدنيا بل هو الطاعة التامة ، وقد كان رسول الله ﷺ على غاية من الإعراض عنها مع تمكنه من التوسع فيها، فقد روي أنه كان يلبس المرقع والصوف ويأكل خشن الطعام ويجلس على الأرض بلا حائل ويأكل عليها ويقول : « إنما أنا آكل كما يأكل

(1) يعني : النحلة .

(2) يعني الحرير الطبيعي .

(3) للإمام محمد بن عبد الله الجرداني ـــ رحمه الله .

العبد وأجلس كما يجلس العبد » وكان يمر عليه شهران ولا يوقد في بيوته مصباح ولا نار لطبخ ، وإنما كان طعامهم التمر والماء ، وكان له جيران لهم غنم فيرسلون له من لبنها ، وكان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله لا يجدون عشاء ، ودخل عليه عمر رضي الله عنه وهو مضطجع على حصير قد أثرت في جنبه الشريف متكيء على وسادة من جلد حشوها ليف وليس عليه إلا إزار .. فبكى عمر رضي الله عنه .. فقال له رسول الله ﷺ : « ما يُبكيك يا عمر »؟

فقال : ذكرت كسرى وقيصر ، عدوّى رسول الله في الخز والقز والحرير والديباج وأنت رسول الله وخيرته من خلقه على هذا !! فقال : « أفي شك أنت يا ابن الخطاب .. أما ترضى لهم الدنيا ولنا الآخرة » قال : بلى . قال : « فهو كذلك .. أولئك عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا » . وفي الشفاء[1] : أن جبريل قال له ﷺ : إن الله يقول لك أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهباً وتكون معك حيث ما كنت ؟ فأطرق ـــ النبي ﷺ ـــ ساعة ثم قال : « يا جبريل مالي وللدنيا .. دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، وقد يجمعها من لا عقل له » فقال له جبريل : ثبتك الله بالقول الثابت . وفي رواية : « أريد أن أجوع يوماً فأصبر وأشبع يوماً فأشكر » .

وورد عنه ﷺ أنه قال : « لو كانت الدنيا تساوي » وفي رواية : « تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » .

وما ألطف قول بعضهم :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن إذاً لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبعت فيها بطون البهائم

وفي الحديث : « إذا أحب الله عبداً حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء » . وقال يحيي بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى : ترك الدنيا شديد ، وترك الجنة أشد ، وإن مهر الجنة ترك الدنيا .

---

(١) وهو اسم كتاب حول أحوال المصطفى ﷺ .

وقال بعض السلف : لو كانت الدنيا لؤلؤة تفنى والآخرة خرقة تبقى لكان ينبغي للعاقل أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى ، فكيف والأمر بالعكس.

وقال الفضيل بن عياض رحمة الله تعالى عليه : جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد ... وهو كما قال سفيان بن عيينة : ثلاثة أحرف زاي ، وهاء ، ودال .. فالزاي : ترك الزينة ، والهاء : ترك الهوى ، والدال : ترك الدنيا بجملتها ... ثم إن الحامل على الزهد فيها أشياء منها استحضار أن لذاتها شاغلة للقلوب عن الله تعالى ، ومنقصة للدرجات عنده .

كما صح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال : لا يصيب أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله .

ولهذا كان بعض العارفين إذا رأى في مطبخه أسباب المعيشة حزن .. وإذا قلّ شيء فيه أو عدم فرح .

ومنها أنها موجبة لطول الحبس والوقوف في الموقف العظيم ، والسؤال عن شكر نعيمها ، وأن حلالها حساب ، وحرامها عذاب .

ومنها : كثرة الذل والتعب في تحصيلها ومزاحمة الأراذل في طلبها .

ومنها : كثرة غبوتها أي خداعها وسرعة نقلتها وفنائها .

ومنها : حقارتها عند الله تعالى وبغضه لها .

ومن ثَمَّ قال الفضيل بن عياض نفعنا الله تعالى به : لو أن الدنيا بحذافيرها ــ أي بجملتها أي جميعها ــ عُرضَت عليَّ حلالاً لا أُحاسب بها .. لتقذرتها كما تتقذر الجيفة .

ومنها أن تركها موجب لرفع الدرجات ، وحلول رضوان الله تعالى الأكبر في دار الكرامات .

وذكر العلماء أنه يحرم الفرح بالدنيا لأجل المباهاة والتفاخر والكبر ،

ويحرم الحزن على فواتها إن أدى إلى الإعتراض على الله تعالى أو الوقوع في عرض أحد .

وورد مرفوعاً : من أسف أو حزن على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة ألف سنة ، ومن أسف على آخرة فاتته اقترب من الجنة مسيرة ألف سنة .

وقال بعضهم لما أخذت الدنيا من إبليس اغتم لها فصار ملعوناً ، ولما أعطيها قارون فرح بها فصار تحت الأرض مسجوناً ، ونبينا ﷺ لماعرضت عليه لم يأخذها ، ولمَّا ردها لم يغتم لها فصار إلى ما صار .

وحكي أن عيسى ﷺ خرج سائحاً وأخذ معه رغيفاً فتبعه يهودي ومعه رغيفان .. فقال له عيسى : تشاركني في طعامي ؟ قال : نعم .. ثم لما رأى معه رغيفاً واحداً ندم ، ولما أراد الأكل جاء برغيف .. فقال له عيسى ما فعلت بالآخر ؟ قال : ما كان معي إلا رغيف واحد .. فأكلا ثم سارَا فوجد عيسى رجلاً أعمى فدعى له فرد الله عليه بصره .. فقال : يا يهودي بحق الذي أراك الأعمى بصيراً .. ما فعلت برغيفك ؟ فقال : ما كان معي إلا واحد . ثم مَرَّ بمُقْعَدٍ أي مكسح .. فدعا له فإذا هو صحيح .. فقال : بحق الذي أراك المقعد صحيحاً .. من أكل الرغيف الثالث ؟ قال : ماكان معي إلا واحد . ثم وجدا نهراً فأخذ بيد اليهودي ومر به على الماء .. فقال : بحق الذي أمشاك على الماء من أكل الرغيف ؟ فقال : والله ما كان معي إلا واحد . ثم مرًّا بظبي ترعى .. فدعا عيسى غزالة فأقبلت فذبحها فأكلا منها ثم دعا لها بالحياة فقامت . فقال : يا يهودي بحق الذي أحياها من أكل الرغيف ؟ قال : ما كان معي إلا واحد . ثم دخلا قرية فنزل عيسى فى أعلاها .. ونزل اليهودي في أسفلها .. وكان قد سرق عصا عيسى فقال : الآن أحيي الموتى بها .. ونادى : أنا الطبيب أنا الطبيب .. فأدخلوه على الملك وهو مريض فضربه بالعصا فقتله .. فقال : الآن أحييه فضربه ثانياً وقال : قم ، فلم يقم .. فأخذوا اليهودي وصلبوه .. فبلغ عيسى خبره فأدركه .. فقال : أنا أحيي لكم صاحبكم واتركوا لي صاحبي .. فدعا للملك بالحياة فأحياه الله تعالى .. فقال لليهودي : بحق من أحيا الملك من أكل الرغيف ؟ فقال : والله ما كان معي إلا واحد . ثم سارا .. فدخلا قرية خربة فوجدا فيها ثلاث لَبِنَات من ذهب .. فقال عيسى : نقسم ذلك على عدد

ما كان معنا من خبز .. واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحدة للذي أكل الرغيف الثالث .. فقال : أنا أكلته وأنت تصلي .. وصار كلما أراد أخذ لبنة ثقلت عليه .. فقال له عيسى : دعه . فسار ونفسه تطالبه به .. ثم مر باللبنات ثلاثة أنفس فذهب أحدهم ليأتي بطعام فجعل فيه سُمًّا ليأخذ اللبنات كلها .. فلما جاء قتله الإثنان ثم أكلا الطعام فماتا .. ثم مر عليهم عيسى واليهودي .. فقال عيسى : أنظر يا يهودي هكذا الدنيا تصنع بأهلها .. ثم دعا لهم فأحياهم الله تعالى وتابوا عن حب الدنيا .. وأما اليهودي فقال : أُعطى المال .. قال : خذه فهو حظك من الدنيا والآخرة فخسف الله به وبالذهب .

نعم : هكذا الدنيا تفعل بأهلها :

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركمـوا منى ابـتسام فقولي مضحك والفعل مبكي

وورد في الحديث : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » والله لا يحب الخطايا ولا أهلها .

ونقل عن ابن المنكدر رحمه الله تعالى أنه قال : تجيء الدنيا يوم القيامة تتبختر في زينتها فتقول : يا رب اجعلني لأَخَسِّ عبادك داراً . فيقول الله تعالى : لا أرضاك له .. اذهبي فكوني هباءً منثوراً .

وفي رواية : فيقول لها : اذهبي إلى النار . فتقول : ياربي ومن يحبني معي .. فيقول لها : ومن يحبك .. فتأخذهم جميعاً إلى النار .

واعلم أن محبتها المذمومة هي الميل إلى شهواتها المحرمة والمكروهة وهي وإن كانت محبوبة للإنسان بطبعه تصير عند من وفقه الله تعالى وَبَصَّرَه بآفاتها كالجيفة ، وأما عند غيره فهي مُزخرفة مزينة ، ومثَّل هذا الغزالي رحمه الله تعالى بإنسان صنع حلواً من أعلى السكر وعجنه بالسم القاتل .. وأبصر ذلك رجل ولم يبصره آخر ووضعه بينهما ، فمن أبصر ذلك زهده ، وغيره يغتر بظاهره فيحرص عليه ، أي فيأخذه ويأكله فيهلكه ، وأما الميل إلى مباحاتها وتحصيلها لفعل الخير فليس مذموماً ، فقد ورد : « نعم المال الصالح للرجل الصالح يصل رحماً ويصنع معروفاً » وقد اختلف العلماء : هل الأفضل طلب الدنيا لفعل

الخير أو تركها ؟ فرجحت طائفة : الأول ، وطائفة الثاني .. وجمع بينهما بحمل الأول : على من وثق بجمعها من الحلال وصرفها في الخير ، والثاني : على مَن لم يثق بذلك .

وما ألطف قول عيسى ﷺ : يا طالب الدنيا لِتبر تركك للدنيا أبر .

وانقسم الصحابة رضي الله تعالى عليهم قسمين .. الأول وهو الأكثر ترك تحصيلها واشتغل بالعلم والعبادة ، والثاني حصلها وكان خازناً لله تعالى فيها كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما .. وروي أن عثمان جهز غزوة تبوك بألف بعير وسبعين فرساً .. وأتى إلى المصطفى ﷺ بعشرة آلاف دينار فَصَبَّها بين يديه فجعل ﷺ يقلبها بيده ويقول : « غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة » . ولما قدم النبي ﷺ المدينة لم يكن بها ماء عذب إلا بئر رومة فاشتراها عثمان رضي الله تعالى عنه بعشرين ألف درهم .. وفي رواية : بخمسة وثلاثين ألف درهم ووقفها لله تعالى . وأعتق عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألفاً .. وتصدق على عهد المصطفى ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف دينار ثم بمثلها ثم بخمسمائة فرس ثم بألف وخمسمائة راحلة .. وكان أهل المدينة عيالاً عليه : ثلث يقرضهم ، وثلث يقضي ديونهم ، وثلث يَصِلُهم خيره .. وأوصى لأمهات المؤمنين بحديقة أي بستان فبيعت بأربعمائة ألف .. وأوصى بخمسين ألف دينار وألف فرس في سبيل الله تعالى .

ثم يقول : « وازهد فيما عند الناس » أي اعرض عما في أيديهم من الدنيا « يحبك الناس » أي لأنهم منهمكون على محبتها بالطبع فمن زاحمهم عليها أبغضوه ، ومن زهد فيها وتركها لهم أحبوه .

وقال الحسن : لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دنياهم .. فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه .. وقال بعضهم :

الناس إخوانك ما لم تكن ... تطمع فيما عندهم من حُطام
فإن تعرضت لأموالهم ... كنت عدوًّا لهم والسلام

وقال أعرابي لأهل البصرة : مَن سيدكم ؟ قالوا : الحسن . قال : بم

سادكم ؟ قالوا : احتاج الناس إلى علمه ، واستَغنى هو عن دنياهم . فقال : ما أحسن هذا .

وسأل كعب الأحبار عبد الله بن سلام بحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم : ما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعدما حفظوه وعقلوه ؟ فقال : يذهبه الطمع وشَرَهُ النفس وطلب الحاجات إلى الناس . فقال : صدقت .

وقال أبو الحسن الشاذلي نفعنا الله تعالى به : دخل على المغرب بعض الكبراء فقال : ما أرى لك كبير عمل ... فبم فقت الناس وعظموك ؟ فقلت : بخصلة واحدة .. تمسكت بالإعراض عنهم وعن دنياهم .. وقال بعضهم :

تورع عن سؤال الخلق طُرًّا(١) وسل ربًا كريماً ذا هباتِ (٢)
ودع زهرات دنياك اللواتي تراها لا محالة ذاهبات

وقال آخر :

أرى الزهاد في روح وراحة قلوبهم عن الدنيا مُزاحَة
إذا أبصرتَهم أبصرتَ قوماً ملوك الأرض سمتهم سماحة

●● فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، واعلم أنه :

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها
النفس ترغب في الدنيا وقد علمت أن الزهادة فيها ترك ما فيها
فاغرس أصول التقى ما دمت مجتهداً واعلم بأنك بعد الموت لاقيها

* * *

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غروراً وباطلاً كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وماهي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فدع عنك فضلات الأمور فإنها حرام على نفس التقى ارتكابها

(١ ، ٢) قوله طُرًّا : أي جميعاً ، وقوله : ذا هبات أي صاحب عطايا .

ونفذ كذلك قول القائل :

كن زاهداً فيما حوت أيدي الورى تضحى إلى كل الأنام حبيبًا
أو ماترى الخطاف حرم زادهم فغدا رئيساً في الجحور قريبًا

وبهذا نكون قد عرفنا المراد من هذا الحديث العظيم الذي هو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام ، وهو حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للعمل على تنفيذه حتى نكون من أغنى الناس في هذا العالم الدنيوي .. بل والأخروي بالحسنات إن شاء الله ... آمين .

والله ولي التوفيق .



الوصية السابعة والسبعون

عن سليمان بن يسار رضي الله عنه . عن رجل من الأنصار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

قَالَ نُوحٌ لِابْنِهِ : إِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ وَقَاصِرُهَا لِكَيْ لَا تَنْسَاهَا أُوصِيكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ : أَمَّا اللَّتَانِ أُوصِيكَ بِهِمَا : فَيَسْتَبْشِرُ اللَّهُ بِهِمَا ، وَصَالِحُ خَلْقِهِ ، وَهُمَا يُكْثِرَانِ الْوُلُوجَ[1] عَلَى اللَّهِ :

أُوصِيكَ : بِلَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ،

فَإِنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضَ لَوكَانَتَا
حَلقَةً قَصَمَتهُمَا[٢] ، وَلَوكَانَتَا فِي
كِفَّةٍ وَزَنَتهُمَا[٣] ، وَأُوصِيكَ
بِسُبحَانَ اللّٰهِ وَبِحَمدِهِ ، فَإِنَّهُمَا صَلَاةُ
الخَلقِ ، وَبِهِمَا يُرزَقُ الخَلقُ ،
وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ
وَلٰكِنْ لَا تَفقَهُونَ تَسبِيحَهُم
إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .
وَأَمَّا اللَّتَانِ أَنهَاكَ عَنهُمَا
فَيَحتَجِبُ اللّٰهُ مِنهُمَا ، وَصَالِحُ

خَلْقِهِ ،
أَنْهَاكَ عَنْ ، الشِّرْكِ[4] وَالكِبْرِ[5] .

---

(١) الولوج ، أى الدخول .
(٢) قصمتهمَا ، أى كسرتهمَا .
(٣) وزنتهمَا ، أى رجحتهمَا فى الميزان .
(٤) أى أن تجعَل لله شريكًا له فى العبَادة .
(٥) وَهو بطر الحق وَغمط الناس .

***

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي يوصي فيها سيدنا نوح عليه السلام ابنه باثنتين ، وينهاه عن اثنتين :

يوصيه : أولاً : بلا إله إلا الله ، ثم يقول : فإن السموات والأرضَ لو كانتا حلقة قصمتها ، ولو كانتا في كفة وزنتها .

ولا إله إلا الله هي : كلمة التوحيد التي معناها : لا معبود بحق إلا الله .

وقد ورد في فضلها :

● عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « عبد الله بن عمرو » أن النبي ﷺ ، قال : أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » أخرجه مالك والترمذي واللفظ له ، وقال : حديث غريب .

● وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « أفضل الذكر : لا إله إلا الله وأفضل الدعاء : الحمد لله » أخرجه أحمد والنسائي والترمذي ، وقال : حسن غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه .

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « قال موسى عليه الصلاة والسلام : يا رب علمني ما أذكرك به . وأدعوك به . فقال : يا موسى قل : لا إله إلا الله . قال موسى عليه السلام : يارب كل عبادك يقولون هذا . قال : قل : لا إله إلا الله . قال : لا إله إلا أنت . إنما أريد شيئاً تخصني به . قال : يا موسى لو أن السموات السبعَ ، والأرضين السبعَ في كفة ولا إله إلا الله في كفة ، لمالت بهن لا إله إلا الله » أخرجه النسائي وابن حبان .

● وعن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه » أخرجه الترمذي .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « جددوا إيمانكم . قيل : يا رسول الله : وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول : لا إله إلا الله » رواه أحمد والطبراني ، وإسناد أحمد حسن ، وقال شارح الجامع « إسناد أحمد صحيح » .

● وعن عمرو رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقًا من قلبه فيموت على ذلك إلا حُرِّم على النار : لا إله إلا الله » .

رواه الحاكم : وقال : صحيح على شرطهما ، ورروياه بنحوه .

وأخرج الشيخان من حديث عتبان بن مالك :

● « فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله . يبتغي بذلك وجه الله » .

ولهما من حديث أنس :

● « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه على النار » .

ولمسلم عن عبادة مرفوعاً :

● « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله حرم الله عليه النار » .

وله أيضاً من حديث أبي هريرة :

● « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى عبد بهما غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة » .

وللشيخين أيضاً من حديث أبي ذر :

● « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

قال : « إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كلُّ سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : أفلكَ عذر ؟ فقال : لا يارب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنةً ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه في صحيحه ، والحاكم والبيهقي ، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم .

وعلى هذا ، فإن لا إله إلا الله ـــ كما عرفت ـــ هي كلمة التوحيد التي بعث الله من أجلها الرسل ، وأنزل الكتب وجعلها فارقة بين الإيمان والكفر ، وبين أهل السعادة وأهل الشقاوة ، فهي الأساس الذي لا يقبل الله من أحد عملاً إلا إذا بُنِيَ عليها وهي القطب الذي لا تدور رحى الشريعة إلا به ، وهي زبدة رسالات الرسل ، وخلاصة دعوتهم ، ومفتتح كلامهم .. فما أرسل أحد منهم إلى قومه إلا كان التوحيد أول ما يدعوهم إليه .. وهي كلمة التقوى التي ألزمها الله حزبه وأولياءه ، وحرَمَ منها أعداءه .

وقد جمعت هذه الكلمة العظيمة التي هي عنوان الإسلام بين النفي والإثبات فنفت بصدرها الإلهية عن كل ما سوى الله عز وجل وأعلنت البراءة من كل معبود باطل ، وأثبتت بعَجزها الإلهية لله وحده . ولهذا قالوا في تفسيرها : لا معبود بحقٍّ في الوجود كله إلا الله ، في معنى قول مؤسس الحنيفية إبراهيم خليل الرحمن لقومه : ﴿ **إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين** ﴾ .

ولهذا ، فقد قال العلماء كما جاء في الدين الخالص ج ١ تحت عنوان :

حكم النطق بكلمة التوحيد

يجب على من نشأ مؤمناً ، أن يذكرها في العمر مرة ناوياً أداء الواجب ،

وإلا فهو عاص . ثم ينبغي الإكثار من ذكرها عارفاً معناها مستحضراً ما احتوت عليه لينتفع بذكرها دنيا وأخرى . فتتفجر ينابيع الحِكم من قلبه ، ويرى لها من الأسرار والعجائب إن شاء الله تعالى ما لا يدخل تحت الحصر .

وأقول : إن معنى أن يستحضر معناها في قلبه ... أن يعتقد أنه لا خالق ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا محيي ولا مميت إلا الله ... وهذا الإعتقاد الصحيح يتطلب منه تأكيداً .. وهو أن لا يسأل إلا الله ، ولا يخاف إلا من الله ، ولا ينحني إلا لله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يعتمد إلا على الله ... إلخ .

إنه إن كان هكذا سيكون مُوحداً بمعنى الكلمة .. أما إذا كان العكس هو الصحيح .. فإنه سيكون كاذباً في اعتقاده وسيكون بهذا غير موحد .. والعياذ بالله :

لك ألف معبود مطاع أمره دون الإله وتدعي التوحيدا

ويقول في الدين الخالص : « وأما الكافر » الذي يريد الدخول في الإسلام ، فذكره لها ــ أي لكلمة التوحيد ــ ليس شرطاً في صحة إيمانه ولا جزءاً من مفهومه « وإنما جعل » الشرع النطق بالشهادتين « شرطاً » لازماً لإجراء الأحكام الدنيوية على المؤمن كالصلاة خلفه ، والصلاة عليه ، ودفنه في مقابر المسلمين ، وتزوجه مسلمة « فإذا لم ينطق » بهما العذر « كالخرس » ، أو لم يتمكن من النطق بهما ، بأن مات عقب إيمانه بقلبه ، أو اتفق له عدم النطق بهما بعد الإيمان بقلبه « فهو مؤمن » عند الله وناج في الآخرة « وأما من امتنع » عن النطق بهما عناداً بعد أن عرض عليه ذلك « فهو كافر » والعياذ بالله تعالى ، ولا عبرة بتصديقه القلبي مع هذا الإمتناع .

ثم يقول تحت عنوان :

ما تضمنته من العقائد

كل ما تقدم من العقائد يندرج في كلمة التوحيد . وذلك أن معنى لا إله

إلا الله : « لا معبود بحق إلا الله » « ويلزم » هذا المعنى أن يكون غنياً عن كل ما سواه ، وأن يفتقر إليه كل ما عداه .

« ويلزم » كونه غنياً عن كل ما سواه ، « أ » وجوب الوجود له والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والسمع والبصر الكلام ، وعدم الغرض في فعل مًّا أو حكم مًّا ، وعدم التأثير بالقوة المودعة ، وعدم وجوب فعل عليه تعالى (ب) واستحالة العدم والحدوث ، والفناء ، والمماثلة للحوادث ، والاحتياج لموجد أو ذات يقوم بها ، والصمم ، والبكم ، والتأثير بالقوة المودَعة ، والغرض في فعل مًّا أو حكم مًّا ، واستحالة وجوب فعل عليه تعالى .

فهذه اثنتان وعشرون عقيدة .. منها الواجب له تعالى .. ومنها المستحيل في حقه تعالى .

« ويلزم » كونه مفتقراً إليه كل ما عداه (أ) وجوب الوحدانية له تعالى في الذات والصفات والأفعال ، والحياة والعلم والإرادة والقدرة ، وحدوث العالم ، وعدم التأثير بالعلة والطبع والتولد . (ب) واستحالة التعدد في الذات والصفات والأفعال اتصالاً وانفصالاً على ما تقدم ، والموت والجهل والكراهية والعجز وقدم العالم والتأثير بالعلة والطبيعة والتولد .

فهذه أربع عشرة عقيدة ما بين واجب له تعالى ومستحيل عليه تعالى .

« ومعنى » محمد رسول الله : ثبوت الرسالة له صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ويندرج تحته (أ) وجوب الأمانة والتبليغ والصدق ، واتصافه بما لا نَقص فيه سواء أكان واجباً كالفطانة وعدم دناءة الآباء والأمهات ، أم جائزاً كالمرض والجوع . (ب) وإيماننا بجميع الأنبياء والكتب والملائكة واليوم الآخر ، والقضاء والقدر . (جـ) واستحالة الخيانة والكتمان والكذب ، واتصافه بما فيه نقص كالبلادة والجنون والعمى . فهذه أربع عشرة عقيدة[1] تضم لما

(١) أربع برقم (أ) وست برقم (ب) وأربع برقم (جـ) .

تقدم لتكون جملتها خمسين عقيدة .

ويوصي سيدنا نوح ابنه ، ثانياً : بسبحان الله وبحمده . ثم يقول : فإنها صلاة الخلق ، وبهما يرزق الخلق ، ﴿ .. **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾(١) :

وقد ورد في السنة الشريفة الترغيب في هذا :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ،ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » رواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه .

وقد اختلف في معني « سبحان الله وبحمده » : فقيل : الباء للملابسة ، والتقدير : أسبحه متلبساً بحمدي له من أجل توفيقه إياي للتسبيح وقيل للإستعانة ، والمعنى : أسبحه بما علمني من محامده التي حمد بها نفسه . قال الخطابي : معناه ، وبمعونتك التي هي نعمة توجب على حمدك سبحتك لا بحولي وقوتي .

وفي هذا الحديث من علم البديع المقابلة بين « خفيفتان على اللسان » وبين « ثقيلتان في الميزان » ومن علم البيان الإستعارة في قوله « خفيفتان » . قال الطيبي: « الخفة مستعارة للسهولة .. شبه سهولة جريان هذا الكلام على اللسان بما يخف على الحامل من بعض المحمولات فلا يشق عليه .. فذكر المشبه وأراد المشبه به ، وأما الثقل فعلى حقيقته لأن الأعمال تتجسم » .

وفي هذا الحديث الحث على المواظبة على هذا الذكر والتحريض على ملازمته لأن جميع التكاليف شاقة على النفس ، وهذا سهل .. ومع ذلك يثقل في الميزان .. ففيه تنبيه على سعة رحمة الله تعالى حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل .

● وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك

---

(١) الإسراء : الآية ٤٤ .

بأحب الكلام إلى الله[1] ؟ قلت : يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده » رواه مسلم والنسائي والترمذي إلا أنه قال : « سبحان ربي وبحمده » :

وقال حديث حسن صحيح :

● وفي رواية لمسلم : أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته ، أو لعباده : سبحان الله وبحمده » :

قال تعالى حكاية عن الملائكة ﴿ .. **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** .. ﴾[2] وكما قال : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به** .. ﴾[3] الآية . وكما قال : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم** .. ﴾[4] .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ومن قال سبحان الله وبحمده ، في يوم مائة مرة غُفِرت له ذنوبه ، وإن كانت مثلَ زبد البحر »[5] رواه مسلم والترمذي ، والنسائي ...

وفي رواية للنسائي من قال :

● « سبحان الله وبحمده حَطَّ عنه ذنوبه ، وإن كانت أكثَر من زَبد البحر» لم يقل في هذه في يوم ، ولم يقل مائة مرة، وإسنادهما متصل . ورواتهما ثقات .

● وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « من قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، قال الله : أسلم عبدي واستسلم » رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

---

(١) أي بأقربه إلى نفسه سبحانه وأشده إرضاء له .
(٢) البقرة : من الآية ٣٠ .
(٣) غافر : من الآية ٧ .
(٤) الزمر : الآية ٧٥ .
(٥) وهو ما يعلوه عند هياج أمواجه من الرغوة .

ومن الأحاديث العظيمة التي قرأتها في كتاب « الترغيب والترهيب » تحت عنوان :

الترغيب : في جوامع من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

● عن جويرية رضي الله عنها[١] : أن النبي ﷺ خرج من عندها[٢] ثم رجع بعد أن أضحى[٣] وهي جالسة[٤] ، فقال : « ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت : نعم . قال النبي ﷺ : لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاثَ مراتٍ لو وُزِنتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهنّ[٥] : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »[٦] رواه مسلم ، وأبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي .

وفي رواية لمسلم :

● « سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضاء نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مِداد كلماته » . زاد النسائي في آخره : « والحمد لله كذلك » .

أي : مثل : سبحان الله ، بأن يقول : الحمد لله عدد خلقه ، الحمد لله رضاء نفسه ، الحمد لله زنة عرشه ، الحمد لله مداد كلماته .. ثلاث مرات .

وفي رواية للنسائي كذلك : « سبحان الله وبحمده ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » .

هذا ، مع ملاحظة أن التسبيح من أعظم القربات إلى الله تبارك وتعالى ،

---

(١) هي بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها .
(٢) يعني من بيتها بعد صلاة الصبح .
(٣) يعني دخل في الضحى وهو ارتفاع النهار .
(٤) أي تسبح وتذكر الله والجملة حالية .
(٥) أي لرجحت بهن .
(٦) المراد ما لا يحصيه عدد لأن كلمات الله لا تحصى ، قال تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ الكهف : الآية ١٠٩ .

وحسبك أن تعلم أنه كان سبباً في نجاة سيدنا يونس عليه السلام .. من بطن الحوت .. قال تعالى مشيراًإلى هذاومذكراً به :

● ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾[1] ، كما قال تعالى :

● ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾[2] .

وقد قرأت : أن سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب البساط الذي كان يحمله الريح ذات يوم .. فمر بموكبه هذا فوق حقل فلاح يحرث في أرضه .. فنظر الفلاح إلى أعلى .. فلما رأى موكب سيدنا سليمان عليه السلام فوق رأسه وبين الأرض والسماء ، قال : سبحان من أعطاكم ملكاً يا آل داود .. فنقل الريح الكلمة هذه ووضعها في أُذُنَيْ سليمان عليه السلام الذي أمر الريح بأن ينزل بالبساط في حقل هذا الفلاح .. الذي فوجيء بالموكب في حقله .. فارتعدت فرائصه .. فناداه سيدنا سليمان .. فلما كان بين يديه سأله : ماذا قلتَ ؟ فقال الفلاح : ما قلتُ إلا خيراً .. فقال سيدنا سليمان : أسمعني إياه مرة أخرى .. فقال قلت : سبحان من أعطاكم ملكاً يا آل داود .. فقال له سيدنا سليمان : أما علمتَ يا هذا .. أن تسبيحة واحدة منك[3] خير من ملك آل داود .

مع ملاحظة : أن سيدنا سليمان عليه السلام عندما يقول كلاماً كهذا .. فإنه لا يقوله من فراغ .. لأن النملة لقنته فيه درساً يوم أن خرج بجنوده متجهاً بهم إلى ميدان مَا ، يوماً مَّا .. وعلى بعد ثلاثة أميال من وادي النمل سمع النملة تقول لبني جنسها :

● ﴿ ... **يأأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده**

---

(١) الصافات : الآية ١٤٣ .
(٢) الأنبياء : الآية ٨٧ .
(٣) أو من غيره من خلق الله .

وهم لا يشعرون . فتبسَّم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾[1] :

ثم أمر الجند بأن يعسكروا بعيداً عن وادي النمل حتى يدخل النمل مساكنه .. وفعلاً فعل الجند هذا .. ثم ذهبت النملة بعد هذا وقد كانت عرجاء بجناحين إلى سليمان لكي تشكره ــ حملتها الرياح تيسيراً لمهمتها ثم ألقتها بين يدي سليمان عليه السلام ــ وهناك عاتبها قائلاً لها : لِمَ حذرتِ النمل .. أخفتِ من ظلمي .. أما علمتِ أنّي نبي عدل ؟ فقالت له : أما سمعت قولي : **﴿ وهم لا يشعرون ﴾** ، ثم قالت بعد ذلك كلاماً كبيراً ينبغي أن يكون سبباً في إيقاظنا من غفلاتنا .. قالت : مع أني لم أُرِد حطْم النفوس .. وإنما أردتُ حطم القلوب خشية أن يتمنين مثلَ ما أُعطيتَ ، ويفَتَتِنَّ بالدنيا .. ويشتغلن بالنظر إليك عن التسبيح والذكر ...[2] .

فلنذكر جميعاً كل هذا حتى نتعظ به وحتى نكون من المسبِّحين كبقية خلق الله .. كما يشير إلى هذا رب العزة في قوله :

● **﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته .. ﴾**[3] .

أي : ويمجد ويعظم الرعد ربه ، وينزهه عن صفات النقص ، وتسبح الملائكة ربها من خيفته ورهبته .

● **﴿ تسبح له السمواتُ السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾**[4] :

قال ابن كثير : أي : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات وتنزهه وتعظمه ، وتشهد له بالوحدانية في ألوهيته وربوبيته ، وما من شيء إلا يسبح بحمده ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ، وقيل : ما كان فيه روح من حيوان ونبات .

---

(١) سورة النمل : الآية ١٩ .
(٢) إرجع إلى تفسير الآية في سورة النمل .
(٣) الرعد : الآية ١٣ .
(٤) الإسراء : الآية ٤٤ .

وذكر القرطبي حول تفسير هذه الآية كلاماً نافعاً أرى من الخير أن ننتفع به ، فقال :

قوله تعالى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن** ﴾ : أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل ، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح وقوله : « ومن فيهن » : يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ : واختلف في هذا العموم ، هل هو مخصص أم لا ، فقالت فرقة : ليس مخصوصاً والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل مُحَدَث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : ﴿ **لا تفقهون** ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الإعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء . وقالت فرقة : قوله : ﴿ **من شيء** ﴾ عموم ، ومعناه الخصوص في كل حَيٍّ ونامٍ ، وليس ذلك في الجمادات . ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والإسطوان لا يسبح . وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قُدِّم الخِوان : أيسبِّح هذا الخِوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرة ، يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبح ، وأما الآن فقد صار خواناً مدهوناً .

ثم يقول :

قلت : ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ مَرَّ على قبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أمَّا أحدهما : فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر : فكان لا يستبريء من البول » قال : فدعا بعسيب[1] رطب فشقه اثنين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ، ثم قال : « لعله : يُخَفَّفُ عنهما ما لم ييبسا» . فقوله عليه الصلاة والسلام : « ما لم ييبسا » إشارة إلى أنهما ما دامَا رطبين يسبحان ، فإذا يبسا صارا جماداً . والله أعلم . وفي مسند أبي داود الطيالسي : فوضع على

---

(١) وهو سعف النخل أو جريده الأخضر .

أحدهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً ، وقال : « لعله أن يهون عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شيء » قال علماؤنا : ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور ، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بينا هذا المعنى في « كتاب التذكرة » بياناً شافياً ، وأنه يصل إلى الميت ثوابُ ما يُهدى إليه . والحمد لله على ذلك . وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك ، فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدل لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشيء والإشراق** ﴾[1] . وقوله : ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾[2] ــ على قول مجاهد ــ وقوله : ﴿ **وتخر الجبال هدًا . أن دَعوْا للرحمن ولدًا** ﴾[3] . وذكر ابن المبارك في « دقائقه » : أخبرنا مسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله ، قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إن الجبل يقول للجبل : يا فلان ، هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل ؟ فإن قال : نعم سُرَّ به ثم قرأ عبد الله : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً** ﴾ الآية . قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير . وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضاً : ياجاراه ، هل مرَّ بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك ؟ فمن قائلة : لا ، ومن قائلة : نعم ، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلاً عليها .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولاشيء إلا شهد له يوم القيامة » رواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطئه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ــ وخرَّج البخاري عن عبد الله رضي الله عنه ، قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . في غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفي صحيح مسلم

---

(١) سورة ص : الآية ١٧ .
(٢) البقرة : الآية ٧٤ .
(٣) سورة مريم : الآية ٩٠ .

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » قيل : إنه الحجر الأسود ، والله أعلم . والأخبار في هذا المعنى كثيرة ، وقد أتينا على جملة منها في اللّمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية للفاداري رحمه الله . وخبر الجذع أيضاً مشهور في هذا الباب خرجه البخاري في مواضع من كتابه . وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات ، ولااستحالة في شيء من ذلك ، فكل شيء يسبح للعموم . وكذا النخعي وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب . واحتجوا بالأخبار التي ذكرنا . وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تُلقي بتسبيحة من حيث ما انصرفت وتستقر حشا الرائي بترعاد

أي يقول من رآها : سبحان خالقها .

فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأي تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصت السُّنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخلف « تفقهون » بالتاء لتأنيث الفاعل . والباقون بالياء، واختاره أبو عبيد ، قال : للحائل بين الفعل والتأنيث « إنه كان حليماً » عن ذنوب عباده في الدنيا « غفوراً » للمؤمنين في الآخرة .

●● ثم بعد ذلك ننتقل إلى الخصلتين الذميمتين اللتين نهى سيدنا نوح ابنه عنهما :

فقد نهاه أولاً عن :

الشرك

وهو عدم إفراد الله تبارك وتعالى في العبادة .. وهو الشرك الأكبر الذي حذرنا الله تبارك وتعالى منه فقال :

● ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. ﴾[1] .

وفي الحديث القدسي :

● عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « قال الله تعالى : يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي ، يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك ، يابن آدم إنك لو أتيتني بقُرابِ الأرض خطايا ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئاً لاتيتُك بقرابها مغفرةً » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

ففي الآية القرآنية ، والحديث القدسي يشير الله تبارك وتعالى إلى خطورة الشرك الأكبر .. الذي ينبغي على كل مسلم ومسلمة أن يحذراه حتى لا يكونا من الهالكين والعياذ بالله .. كما ينبغي عليهما أن يعبدا الله تبارك وتعالى وحده ، لأنه : لا إله إلا الله .. أي : لا معبود بحق إلا الله .. مع ملاحظة أن هذا حق لله تبارك وتعالى على جميع عباده من الجن والإنس .. قال تعالى :

● ﴿ وماخلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[2] .

وقد ورد في نص حديث صحيح أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ذات يوم : « يا معاذ : أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله . يقول معَاذ : قلت الله ورسوله أعلم . فقال : إن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً .. » الحديث الذي وقفنا عليه قبل هذا .

● وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحْل قال : «يا معاذ.. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك.. قال يا معاذ.. قال: لبيك

---

(١) النساء : الآية ٤٨ ، ١١٦ .

(٢) الذاريات : الآيات : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

يا رسول الله وسعديك .. ثلاثاً .. قال : ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلّا حرَّمه الله على النار .. قال : يا رسول الله أفلا أُخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يتكلوا .. فأخبر بها معاذ عند موته تأثّماً » أي : خوفاً من الإثم في كتم هذا العلم . متفق عليه .

● وعن جابر رضي الله عنه ، قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال : « من مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يُشرك به شيئاً دخل النار » رواه مسلم .

وأما الشرك الأصغر ، وهو الرياء .. فقد قال الله تعالى محذراً منه ، ومشيراً إليه :

● ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ..** ﴾ الآية[١] ... وقال تعالى :

● ﴿ **يُراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ..** ﴾[٢] .

وقد ورد كذلك في السنة الشريفة :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك .. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » رواه مسلم .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك[٣] حتى استشهدتُ .. قال : كذبتَ .. ولكنك قاتلتَ لأن يقال جريء فقد قيل .. ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار ، ورجل تَعَلَّمَ ٱلعِلمَ وعَلَّمَه وقرأ القرآن فَأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها .. قال : فما عملتَ فيها .. قال : تعلمتُ العِلمَ وعلمتُه وقرأتُ فيك القرآن .. قال : كذبتَ ولكنك تعلمتَ ليقال عالمٌ وقرأت القرآن

---

(١) البقرة : الآية ٢٦٤ .　　(٢) النساء : الآية ١٤٢ .
(٣) أي في سبيلك .

ليقال قارئ فقد قيل .. ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار .. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال .. فأُتِي به فعرفه نعمه فعرفها .. قال : فما عملتَ فيها .. قال : ما تركتُ من سبيل تُحبُّ أن ينفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك .. قال : كذبت ولكنك فعلتَ ليقال جَوادٌ فقد قيل .. ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار » . رواه مسلم .

● وعن جندبُ بن عبد الله بن سفيان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به .. ومَن يُرائي يرائي الله به » متفق عليه ، ورواه مسلم أيضاً من رواية ابن عباس رضي الله عنهما .

ومعنى : « سَمَّعَ » بتشديد الميم : أي أظهر عمله للناس رياءً « سَمَّع » الله به ، أي : فضحه يوم القيامة .. ومعنى : « من راءى راءى الله به » أي : من أظهر للناس العمل الصالحَ ليعظُم عندهم راءى الله به أي أظهر سريرته على رءوس الخلائق .

وقد قال العلماء : مثل الذي يعمل للرياء والسمعة .. كمثل رجل خرج إلى السوق وملأ كيسه حصاة — أي : بدل أن يضع فيه دراهم أو دنانير — ثم خرج إلى السوق — يحمل الكيس هذا — فأخذ الناس يقولون : ما أملأ كيس هذا الرجل !! — لأنهم لم يعرفوا ما فيه — ولكنه إذا أراد أن يشتري به شيئاً لا يُعطى به شيء .. قال العلماء : وكذلك الذي يعمل للرياء والسمعة لا منفعة له سوى مقالة الناس ولا ثواب له في الآخرة .

وقد قرأت حديثاً ، في « رياض الصالحين » أرى من الخير كذلك أن تقف عليه حتى تعرف المراد من الرياء .. وحتى تستبشر إذا كان العكس هو الصحيح :

● عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قيل لرسول الله ﷺ : أرأيت الذي يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم .

وأحب بعد ذلك أن أذكر بحديث شريف صحيح متفق عليه .. وهو أهم حديث في هذا الموضوع الذي هو أهم ما ينبغي علينا أن نلاحظه حتى

يتقبل الله منا أعمالنا .. وهو :

● « عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله .. ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » رواه البخاري ومسلم .

فقد دل هذا الحديث(١) على أن النية معيار لتصحيح الأعمال فحيث صلحت النية صلح العمل وحيث فسدت فسد العمل .. وإذا وُجد العمل وقارنته النية فله ثلاثة أحوال :

الأول : أن يفعل ذلك خوفاً من الله تعالى .. وهذه عبادة العبيد .

الثاني : أن يفعل ذلك لطلب الجنة والثواب وهذه عبادة التجار .

الثالث : أن يفعل ذلك حياءً من الله تعالى وتأدية لحق العبودية وتأدية للشكر ويرى نفسه مع ذلك مقصراً ويكون مع ذلك قلبه خائفاً لأنه لا يدري هل قبل عمله مع ذلك أم لا ، وهذه عبادة الأحرار ، وإليها أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قالت له عائشة رضي الله تعالى عنها حين قام من الليل حتى تورمت قدماه : يا رسول الله تتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » . فإن قيل : هل الأفضل العبادة مع الخوف أو مع الرجاء ؟ قيل : قال الغزالي رحمه الله تعالى : العبادة مع الرجاء أفضل لأن الرجاء يورث المحبة ،.والخوف يورث القنوط .. وهذه الأقسام الثلاثة في حق المخلصين .

واعلم أن الإخلاص قد يعرض له آفة العجب ، فمن أعجب بعمله حبط عمله وكذلك من استكبر حبط عمله .

الحال الثاني : أن يفعل ذلك لطلب الدنيا والآخرة جميعهما.. فذهب بعض أهل العلم إلى أن عمله مردود « واستدل » بقوله صلى الله عليه وآله وسلم في

---

(١) كما جاء في الأربعين النووية .

الخبر الرباني ، يقول الله تعالى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه »وإلى هذا ذهب الحارث المحاسبي في كتاب الرعاية ، فقال : الإخلاص أن تريده بطاعته ولا تريد سواه .

والرياء نوعان : « أحدهما » لا يريد بطاعته إلا الناس « والثاني » يريد الناس ورب الناس وكلاهما محبط للعمل . ونقل هذا القول الحافظ أبو نعيم في الحلية عن بعض السلف « واستدل » بعضهم على ذلك أيضاً بقوله تعالى : ﴿ **الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون** ﴾ فكما أنه تكبر عن الزوجة والولد والشريك تكبر أن يقبل عملاً أشرك فيه غيره .. فهو تعالى أكبر وكبير ومتكبر . وقال السمرقندي رحمه الله تعالى : ما فعله لله تعالى قُبل وما فعله من أجل الناس رُدَّ ... وسئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عمن صلى فطول صلاته من أجل الناس ؟ فقال : أرجو ألا يحبط عمله هذا كله إذا حصل التشريك به في صفة العمل . فإن حصل في أصل العمل بأن صلى الفريضة من أجل الله تعالى والناس فلا تقبل صلاته لأجل التشريك في أصل العمل ، وكما أن الرياء في العمل ، يكون في ترك العمل .. قال الفضيل بن عياض : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما .. ومعنى كلامه رحمه الله تعالى : أن من عزم على عبادة الله وتركها مخافة أن يراها الناس فهو مراء لأنه ترك العمل لأجل الناس أما لو تركها ليصليها في الخلوة فهذا مستحب إلا أن تكون فريضة أو زكاة واجبة أو يكون عالماً يقتدى به ، فالجهر بالعبادة في ذلك أفضل . وكما أن الرياء محبط للأعمال كذلك التسميع وهو أن يعمل لله تعالى في الخلوة ثم يحدث الناس بما عمل .. قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من سمَّع سَمَّع الله به ومَن راءى راءى الله به » . قال العلماء : فإن كان عالماً يُقتدى به وذكر ذلك تنشيطاً للسامعين ليعملوا به فلا بأس . قال المرزباني رحمة الله تعالى عليه : يحتاج المصلي إلى أربع خصال حتى ترتفع صلاته : حضور القلب ، وشهود العقل ، وخضوع الأركان ، وخشوع الجوارح .. فمن صلى بلا حضور قلب فهو مُصَلٍّ لاهٍ ، ومن صلى بلا شهود عقل فهو مُصَلٍّ سَاهٍ ، ومن صلى بلا خضوع الأركان فهو مصل جاف ، ومن صلى بلا خشوع الجوارح فهو مصل خاطيء ، ومن

صلى بهذه الأركان فهو مصل وافٍ .

وحول قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » ، يقول الإمام محمد بن عبد الله الجرداني ، في شرح الأربعين النووية :

أي : إنما صحتها بنياتها .. فلا يصح العمل بدون نية .. وقيل لا حاجة إلى تقدير هذا المضاف وهو صحة الأعمال لأن المراد نفي حقيقة العمل بانتفاء ركنه أو شرطه وهو النية ، والتقدير : إنما وجود الأعمال شرعاً كائن بالنيات .. فإذا انتفت النية انتفى العمل بمعنى أنه غير معتبر شرعاً . ثم إن الحصر المستفاد من « إنما » أكثري لا كلي إذ قد يصح العمل بلا نية كالأذان والقراءة وغسل الميت وإزالة النجاسة « وإنما لكل امرىء » أي إنسان « ما نوى » أي جزاء ما نواه في عمله من خير أو شر فهذه الجملة أفادت غير ما أفادته التي قبلها لأن تلك أفادت أن العمل لا يكون معتبراً شرعاً إلا بالنية .. وهذه أفادت أن الإنسان يعود عليه من نفع عمله وضرره بحسب نيته : كما حكى أن أخوين كان أحدهما عابداً والآخر عاصياً فجاء إبليس يوماً إلى العابد وقال : وأسفاً عليك ضيعت عمرك في حصر نفسك(١) وإتعاب بدنك .. فأطلِق نفسك في شهواتها .. فقال في نفسه : لعلي أنزل إلى أخي في أسفل الدار وأوافقه على ما هو فيه من اللذات ثم أتوب .. وأما العاصي فإنه استيقظ من سُكره فوجد نفسه في حالة رديئة قد بال على ثيابه وهو مطروح على التراب ، فقال : قد أفنيتُ عمري في المعاصي وأخي يتلذذ بطاعة ربه .. ثم تاب ونوى الخير .. ثم طلع ليوافق أخاه على الطاعة .. ونزل أخوه على نية المعصية فسقط على أخيه .. فوقعا ميتين .. فيحشر العابد على نية المعصية ويحشر العاصى على نية الطاعة .

وقيل : إنها تفيد تخصيص الألفاظ بالنية في الزمان والمكان وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي ذلك .. كمن حلف لا يدخل دار فلان وأراد في شهر كذا أو سنة كذا .. أو حلف لا يكلم فلاناً وأراد كلامه بالقاهرة مثلاً دون غيرها .. فإنه له ما نوى ولا كفارة عليه .. وقيل : إنها تفيد أن الأعمال العادية تصير طاعة يثاب عليها فاعلها إذا نوى بها القربة كالأكل والشرب إذا

---

(١) أي حبسها والتضييق عليها .

قصد بهما التقوى على العبادة والنوم إذا قصد به الاستراحة لأجل الاستيقاظ لصلاة الصبح أداء ، والوطء إذا أراد به العفة عن الزنى وحصول النسل والتنظف إذا نوى به دفع الروائح المؤذية لعباد الله ، والإنفاق على الزوجة والرقيق والدابة إذا قصد به امتثال أمر الشارع .

وقيل : إنها تدل على أن من نوى شيئاً يُحصِّل له وإن لم يعمله لمانع شرعي .. كمريض تخلف عن الجماعة وكان قصده . فعلها لولا المرض .. وقد ورد أن الله تعالى يقول للحفظة يوم القيامة : « أكتبوا لعبدي كذا وكذا من الأجر .. فيقولون : يا ربنا لم نحفظ ذلك منه ولا هو في صحيفته .. فيقول الله تعالى : إنه نواه » وقيل : أنه يؤتى بالعبد يوم القيامة فيدفع له كتاب فيأخذه بيمينه فيجد فيه حجًّا وجهاداً وصدقة .. وما فعلها .. فيقول : هذا ليس بكتابي ... فإني ما فعلتُ شيئاً من ذلك .. فيقول الله تعالى : « هذا كتابك لأنك عشتَ عمراً طويلاً وأنت تقول : لو كان لي مال حججتُ منه .. لو كان لي مال تصدقتُ منه .. فعرفتُ ذلك من صدق نيتك وأعطيتك ثواب ذلك كله » .. وفي الحديث : « نية المؤمن أبلغ من عمله ، ونية الفاجر شر من عمله » وفي رواية : « وإن الله عز وجل ليعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله » أي : لأن النية لا رياء فيها ... ولأنها تحتمل التعدد والتكثر في العمل الواحد .. فيتضاعف أجره بقدر النيات فيه .. كما إذا جلس شخص في المسجد بنية الإعتكاف وانتظار الصلاة والعزلة والقراءة للقرآن ، وحفظ السمع والبصر واللسان عما لا يعنيه وعمارة المسجد بالذكر .. فينبغي للعاقل أن يكثر من النيات الصالحة ليحوز ثوابها .. حُكي أن جماعة دخلوا على بعض الصوفية يعوده في مرضه .. فقال لهم : انووا بنا حجًّا .. انووا بنا كذا وعدَّد لهم أنواعاً من البر .. فقالوا له : كيف وأنت على هذه الحالة ؟ فقال : إن عشنا وفَّينا .. وإن متنا حصل لنا أجر النية .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام .. واعمل على تحقيقه ـــ إن شاء الله ـــ حتى تكون من المخلصين .

وأما عن الخصلة الذميمة الثانية التي نهى سيدنا نوح ابنه عنها وهي :

الكبـــر

فإنني أرجو كذلك أن تكون مجتنباً له .. وذلك لأن الكبر والعياذ بالله من الصفات الذميمة التي نهينا ــ كمؤمنين بصفة خاصة ــ عنها .. وكذلك عن صفة العجب والخيلاء :

وقد قال الله تعالى مشيراً إلى هذا وناهياً عنه :

● **﴿ولاتمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرضَ ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾**(1) . وقال :

● **﴿ ولا تُصعِّر**(2) **خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد**(3) **في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾**(4) . وقال :

● **﴿ ويل لكل أفّاك**(5) **أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يُصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾**(6) . وقال :

● **﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾**(7) .

وفي السنة الشريفة :

● عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » رواه مسلم .

---

(1) الإسراء : الآية ٣٧ ، ٣٨ .
(2) صعر خده تصعيراً : أماله من الكبر .. والمرح : شدة الفرح .. والمختال : المتكبر .
(3) أي توسط فيه بين الدبيب والإسراع وعليك السكينة والوقار .. واغضض : أي اخفض .
(4) لقمان : الآية ١٨ ، ١٩ .
(5) أي كثير الإفك وهو الكذب .
(6) الجاثية : الآية ٧ ، ٨ .
(7) النحل : الآية ٢٢ ، ٢٣ .

« بطر الحق » : دفعه ورده على قائله ، « غمط الناس » أي : احتقارهم .

● وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله ، فقال : « كل بيمينك » قال : لا أستطيع . قال : « لا استطعتَ .. مامنعه إلا الكبر . قال : فما رفعها إلى فيه »(١) رواه مسلم .

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « احتجت الجنةُ والنار فقالت النار : فِيَّ الجبارون والمتكبرون . وقالت الجنة : فِيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم . فقضى الله بينهما : إنكِ الجنةُ رحمتي أرحم بكِ من أشاء ، وأنك النار عذابي أعذب بكِ مَن أشاء ولِكليْكُما عليَّ ملؤها » رواه مسلم .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَن جَرَّ إزاره بطراً »(٢) . متفق عليه .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزكِّيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملكٌ كذابٌ ، وعائل مستكبر » . رواه مسلم . والعائل : أي الفقير .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال الله عز وجل : « العِزُّ إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني في واحد منهما فقد عذبته » رواه مسلم .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشي في حُلّةٍ تُعجبُه نفسه ، مُرجِّلٌ رأسَهُ ، يختال في مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » متفق عليه . و « مرجِّلٌ رأسه » أي : ممشطه و « يتجلجل » بالجيمين ، أي : يغوص وينزل .

---

(١) أي بعد ذلك ، لأنه شل والعياذ بالله .
(٢) أي : كبراً وخيلاء .

● وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيُصيبُه ما أصابَهم». رواه الترمذي وقال : حديث حسن . و « يذهب » بنفسه ، أي : يرتفع ويتكبر .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، حتى لا تكون من المتكبرين المستكبرين لأن الله تعالى يقول :

● ﴿ ... **فبئس مثوى المتكبرين** ﴾[1] .

وحسبك أن تعلم تحذيراً لك : أن اللعين إبليس ما طرد منْ الجنة إلا بسبب الكبر .. كما أشار الله تعالى إلى هذا في قوله .. عندما سأله :

﴿ .. **ما منعك ألّا تسجُد إذ أمرتك . قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته مْن طين . قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ الأعراف : الآية ١٢ ، ١٣ .

فقد جهل عدو الله ـــ لشقاوته وخسرانه ـــ وجه الصواب وأخطأ القياس ، فظن أن النار أفضل من الطين ، لأن النار لطيفة والطين كثيف ، وما درى الأحمق أن الفضل ليس بالعنصر والجوهر ، وإنما هو بالطاعة والإنقياد ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[2] ثم إن جوهر النار فيه الخفة والطيش والإضطراب ، وجوهر الطين فيه الأناة والحلم والرزانة ، فقد أخطأ إبليس أيضاً في القياس ، ويا له من شقي غبي !! .

واعلم أخا الإسلام : أنه ليس من الكبر أن تكون حسن الهيئة لأن الله تعالى يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده .. وقد قال تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾[3] ولكن على شريطة أن يكون كل هذا بعيداً عن الإسراف والكبر . كما قال ابن عمر رضي الله عنهما :

---

(١) الزمر : الآية ٧٢ .
(٢) الحجرات : الآية ١٣ .
(٣) أي ما دمت مبتعداً عن الإسراف والكبر .. فإنه لا جُناح عليك .

« كُلْ ما شئتَ والبس ما شئتَ من الحلال .. ما أخطأتك خصلتان : سَرَفٌ ومَخيلة »[1] ، والمخيلة : أي الكبر .

ومن أجمل ما قرأت في هذا المعنى للإمام مالك رضي الله عنه :

حسن ثيابك ما استطعتَ فإنها زَينُ الرجال بها تُعز وتُكرم
ودع التَّخَشُّنَ في الثياب تواضعاً فالله يعلم ما تُكِنُّ وتكتم
فرثيث ثوبك لا يزيدك رفعة عند الإله وأنت عبد مجرم
وجديد ثوبك لا يضرك بعد أن تخشى الإله وتتقي ما يحرم

وتأمل معي كذلك قول القائل الذي أرجو إن شاء الله أن تكون أهلاً لتنفيذه ، وهو :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظره على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجو وهو وضيع

●● وفي ختام هذا العرض السريع للمراد من هذه الوصية العظيمة التي أوصى بها سيدنا نوح ولده .. والتي هي أيضاً من مشكاة النبوة :

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للعمل بما فيها من التوجيهات النافعة في الدنيا والآخرة .

والله ولي التوفيق .



(١) أي ما دمت متعداً عن الإسراف والكبر .. فإنه لا جُناح عليك .

الوصية الثامنة والسبعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ[1]، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ[2]، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ.

رواه البخاري ومسلم وغيره

وفى رواية لمسلم :

إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا.

---

(١) استوصوا بالنساء : أى ليوص بعضكم بعضاً بحسن معاملة النساء والرفق بهن .

(٢) أعلاه : إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي يوصيك النبي ﷺ فيها بأن تحسن معاملة زوجتك ، والرفق بها .

وذلك لأنها كما قال النبي ﷺ خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ... إلى آخر هذا الوصف الدقيق لأدق أضلاع المرأة الذي خلقت منه .

وحسبي حتى أوضح لك هذا أن أدور معك حول قول الله تعالى :

● **﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾** النساء : الآية ١ .

فقد قال مجاهد ــ كما ذكر القرطبي ــ حول قوله تعالى : **﴿ وخلق منها زوجها ﴾** : أن أمنا حواء عليها السلام : خلقت من قُصَيرى آدم ، وهو أسفل الأضلاع . وقيل : الضلع التي تلي الشاكلة بين الجنب والبطن .

وقال ابن كثير : « خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته فأنس إليها وأنست إليه » يعني آدم وحواء عليهما السلام .

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأنس والرحمة في قوله :

● **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**(١) .

قال ابن كثير : « أي خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً ، وذلك من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنس آخر ، لماحصل هذا الائتلاف بينهم ، وهذا القول أظهر ، والله أعلم » .

وهذا هو المراد من قوله ﷺ : «استوصوا بالنساء» أي : ليوص بعضكم بعضاً بحسن معاملة النساء والرفق بهن . « فإن المرأة خلقت من ضِلع » أي :

---

(١) الروم : الآية ٢١ .

فهي عوجاء مثله لكون أصلها منه ، فإنهن بنات حواء وهي خلقت من ضلع أعوج « وإن أعوج ما في الضلع أعلاه » أي أنها[1] خلقت من أعوج أجزاء الضلع مبالغة في إثبات هذه الصفة لهن ويحتمل أن يكون ضرب ذلك مثلاً لأعلى المرأة لأن أعلاها رأسها .. وفيه لسانها .. وهو الذي منه الأذى » « فإن ذهبت تقيمه كسرته » الضمير للضلع ويحتمل أن يكون للمرأة ، أي إن حاولت تقويمه وتعديله لا يتم لك ذلك إلا بكسره « وإن تركته لم يزل أعوج » فيه إشارة إلى تقويمه برفق بحيث لا يبالغ فيه فيكسر ، ولا يتركه فيستمر على عِوجه « فاستوصوا بالنساء » : تأكيد للجملة الأولى في الحديث ، والفاء واقعة في جواب شرط محذوف تقديره : إذا علمتم ذلك من أحوال النساء وأنهن ضعيفات وأن العنف يضرهن فاستوصوا بهن .

وقد أورد البخاري « هذا الحديث » في باب المداراة مع النساء بمعنى المجاملة والملاينة . فلاحظ أخا الإسلام هذا .

وفي رواية مسلم : « إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة » أي : لا يمكن أن ينتفي عنها العوج أو أن تثبت على حالة واحدة من الكمال والاستقامة . « فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » أي : ولكن لا ينبغي أن تترك وتهمل بل يعمل على تقويمها برفق ويهذب من طباعها الناقصة « وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها » قال في الفتح : « وفي الحديث الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتألف القلوب ، وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهن والصبر على عوجهن وأن من رام تقويمهن فاته الإنتفاع بهن مع أنه لا غنى للإنسان عن المرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه فكأنه قال الاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها » .

● **وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المرأة خلقت من ضِلع ، فإن أقمتها كسرتها فدارها تعش بها » رواه ابن حبان في صحيحه .**

أي : إن حاولت أن تعدل اعوجاجها وتقومها لن تقدر على ذلك إلا بكسرها ... فعاملها بالمداراة والملاطفة وحسن السياسة لكي يبقى لك الإستمتاع بها .

(١) أي المرأة .

وهذا هو المطلوب منا نحن الأزواج الصالحين الذين يوصيهم النبي ﷺ بنسائهم خيراً .. كما كان صلوات الله وسلامه عليه قدوة لنا في هذا :

● فعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » رواه ابن حبان في صحيحه .

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » رواه ابن ماجه . والحاكم إلا أنه قال : « خيركم خيركم للنساء » ، وقال : صحيح الإسناد .

كما ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه الترغيب في هذا :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً » : أي : أكملهم عملاً . بمقتضى الإيمان وذلك لأن الإيمان يزيد بالعمل الصالح وينقص بنقصه . « أحسنهم خلقاً » أي : أكثرهم برًّا ولطفاً وتواضعاً وحلماً وجميل عشرة وكريم مودة إلخ ، ولهذا كان نبينا ﷺ أحسن الناس لكونه أكملهم إيماناً ، وقال : إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق . وقال : أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق . « وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذي ، وابن حبان في صحيحه ، وقال الترمذي : حديث صحيح[1] .

قال في النهاية : « هو إشارة إلى صلة الرحم والحث عليها » وقيل : المراد بالنساء الحلائل وهو أن يعامل زوجته بطلاقة الوجه وكف الأذى ، والإحسان إليها ، والصبر على أذاها ، وحفظها عن موقع الريب ، وقيل : المراد بهن ما يشتمل الأصول والفروع وهو أتم فينبغي معاملة جميع النساء حتى خوادمه بالحلم والملاطفة وعدم التشديد لعوجهن ونقص عقلهن .

قال الحسن البصري : « حقيقة حسن الخلق : بذل المعروف ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه » .

فعلى الأخ الزوج الصالح أن يلاحظ هذا .. حتى ينفذه مع زوجته التي هي :

---

(١) وكذلك في شارح الجامع : « إسناده صحيح » .

بالإضافة إلى أنها زوجته ولهاحقوق عليه : طباخة لطعامه ، خبازة لخبزه ، مرضعة لأولاده ، غاسلة لثيابه .. وبقدر صبره عليها سيكون ثوابه إن شاء الله ... كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

● فقد قرأت أن أعرابيًّا كان يعاتب زوجته فعلا صوتها صوته ، فساءه ذلك منها ، وأنكره عليها ، ثم قال : والله لأشكوك إلى أمير المؤمنين .. وما أن كان بباب أمير المؤمنين ينتظر خروجه ، حتى سمع امرأته تستطيل عليه ، وتقول : اتق الله يا عمر فيما ولّاك ، وهو ساكت لا يتكلم . فقال الرجل في نفسه وهو يهم بالإنصراف : إذا كان هذا هوحال أمير المؤمنين ، فكيف حالي ؟ وفيما هو كذلك ، خرج عمر ، ولما رآه قال له : ما حاجتك يا أخا العرب ؟ فقال الأعرابي : يا أميرَ المؤمنين ، جئتُ إليك أشكُو خلق زوجتي ، واستطالتها عليَّ ، فرأيتُ عندك ما زَهَّدني ، إذ كان ما عندك أكثر مما عندي ، فهممتُ بالرجوع ، وأنا أقول : إذا كان هذا هو حال أمير المؤمنين مع زوجته ، فكيف حالي ؟ فتبسم عمر رضي الله عنه وقال :

« يا أخا الإسلام ، إني احتملتها لحقوقٍ لها عليَّ : إنها طباخة لطعامي ، خبازة لخبزي ، مرضعة لأولادي ، غاسلة لثيابي ، وبقدر صبري عليها يكون ثوابي »

وقد قال شاعر حكيم مشيراً إلى دور المرأة الصالحة في حياة زوجها الصالح :

وزوجةُ المرءِ عون يستعين بها ... على الحياةِ ونور في دياجيها
مِسلاة فكرته إن بات في كَدَرٍ ... مَدَّت له لتواسيه أياديها
في الحزن فرحته تحنو فتجعله ... ينسى بذلك آلاماً يعانيها
كم زوجة ذات عقل غير مسرفة ... تدبر الدار تدبيراً ينجيها
تعامل الزوج في أحوال عسرته ... وفي اليسار بما في النفس يشقيها
والزوج يدأب في تحصيل عيشته ... دأباً ويجهد منه النفس يشقيها
إن عاد للبيت يلقى ثغر زوجته ... يفتر عما يسر النفس يُحييهَا
هذه القرينة هذي مَن تَحِنُّ لها ... نفس الأبِيِّ ولكن أين نلفيها
وزوجها مَلِكٌ والدار مَملكة ... والصفو والسعد يجري في نواحيها

هذا ، وإذا كنت قد أشرت قبل هذا إلى حق الزوجة عليك ... فإنني أرى أن أذكرك وأذكرها بحديث شريف يتحدث فيه الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عن حق كل منكما على الآخر .. حتى تؤديانه إن شاء الله .. وحتى تدوم المودة والرحمة بينكما كما يرد الله ورسوله .

● فعن عمرو بن الأحوص الجُشَمِيِّ رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول : بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكّر ووعظ . ثم قال : « ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هنَّ عوانٌ عندكم ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مُبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلاً ، ألا إنَّ لكم على نسائكم حقًّا ، ولنسائكم عليكم حقًّا ، فحقكم عليهن: أن لا يوطئن فُرُشكم مَن تكرهون ، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقُّهُنَّ عليكم : أن تحسنوا إليهنَّ في كسوتهن وطعامهنَّ » رواه ابن ماجه والترمذي . وقال : حديث حسن صحيح .

● وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمتَ ، وتكسوها إذا اكتسيتَ ، ولا تضرب الوجه ، ولا تُقَبِّح ، ولا تهجر إلا في البيت » .

رواه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه إلا أنه قال :

إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : ما حق المرأة على الزوج فذكره .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق الأزواج والزوجات لتنفيذ هذه الحقوق المشتركة والمتبادلة بينهما حتى تدوم المودة والرحمة بينهما إلى ما شاء الله على أساس من هذا التوجيه المحمدي .. الذي أرجو أن نكون قد فهمناه ، وعرفنا المراد منه .

والله ولي التوفيق .

الوصية التاسعة والسبعون

عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنكم تدعون[1] يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم

رواه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه

---

(١) تدعون ، أي تنادون .
(٢) أي سموا أبناءكم وبناتكم بأسماء حسنة تتضمن معاني كريمة .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذا التوجيه المحمدي الذي يشير – في نص الوصية – إلى موضوع من أهم المواضيع التي ينبغي عليك كمسلم أن تكون على علم بها .. حتى لا تقع في هذا الخطأ الشنيع الذي وقع فيه بعض الآباء قبل هذا .. أعني سمّوا أبناءهم – الذين لسنا منهم والحمد لله – بتلك الأسماء الرخيصة أو المستوردة التي لا تمت إلى كرامة المسلمين بصلة ... تلك الأسماء التي منها :

«الجحش، والثور ، والحلوف، وفجلة ، ونكلة ، ومليم ، وخيشة ، وفلفل ... وشوشو ، وسوسو ، وتوتو ، وميري ، وميمي ، وزيزي ، وشيرين .. » إلخ .

ولا شك أن هذا معناه أن هؤلاء الآباء أو الأمهات الذين سموا أبناءهم بهذه الأسماء الرخيصة المضحكة إلى غابر الأزمان ... يجهلون أنه من أهم حقوق الأبناء على الآباء أن يحسنوا اختيار أسمائهم ...

فقد قرأت أن رجلاً ذهب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو له عُقُوقَ ولده ... فأرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الولد فجاءه .. فلما جاءه سأله : لم عققتَ أباك ؟ فقال الإبن لأمير المؤمنين : أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : نعم . قال : وما هي ؟ قال :

أن يحسن اختيار أمه ، وأن يحسن اختيار اسمه ، وأن يعلمه القرآن .

فعند ذلك قال الابن : إنه لم يعطني حقّاً واحداً من تلك الحقوق :

فأمّي قبيحة المنظر وكانت جارية لمجوسي ، وسماني جُعلاً – أو جعراناً – ولم يعلمني حرفاً واحداً من القرآن .

فعند ذلك قال أمير المؤمنين لوالد هذا الإبن غاضباً : اذهب يا رجل لقد عققته قبل أن يعقك .

وهكذا نرى أن من أهم حقوقَ الأبناء على الآباء أن يحسنوا اختيار

أسمائهم .. وذلك بأن يسموهم ــ مثلاً ــ بالأسماء الحسنة المحمودة التي تحمل في مضمونها تاريخاً مجيداً لأصحابها الذين تسموا بها قبل ذلك :

كأسماء الأنبياء الذين في أولهم : محمد صلوات الله وسلامه عليه .. وكذلك جميع الأنبياء والمرسلين .. إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وزكريا ، ويحيى ، وإدريس ، وصالح ، وسليمان ، وداود ، وإسماعيل ، ويوسف .. إلخ .

وكذلك أسماء الصحابة والصالحين والأئمة الأعلام وأبطال الإسلام الذين فتحوا الأمصار ، ورفعوا لواء الإسلام في كل مكان .. والذين منهم على سبيل المثال لا الحصر :

أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وياسر ، وعمار ، وبلال ، وحمزة ، وخالد ، وطارق ، وعمرو ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، ومحمود ، ومالك ، والشافعي ، وأبوحنيفة ، وابن حنبل ... وصلاح الدين الأيوبي ، نصر الدين ... إلخ .

ثم ما العيب في أسماءأبناء النبي محمد ﷺ ــ ذكوراً وإناثاً ــ تلك الأسماء التي كنا نحفظها في الكتاتيب المباركة(١) ، وهي :

أبناء النبي سبعة : عبد الله ، والقاسم ، وإبراهيم ، وفاطمة ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم .. وكلهم من السيدة خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية .

وعلى هذا ، فإن معنى الحديث الذي ندور حوله ، وهو :

« إنكم تدعون(٢) يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم » :

أي : سموا أبناءكم بأسماء حسنة تتضمن معاني كريمة .

قال ابن القيم رحمه الله : لما كانت الأسماء قوالب للمعاني ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينها ارتباط وتناسب ، وأن لا يكون المعنى

---

(١) التي نسأل الله تعالى أن يعيدها مرة أخرى حتى نرى حفاظاً للقرآن الكريم .. آمين .
(٢) أي تنادون .

معها بمنزلة الأجنبي المحض الذي لا تعلق له بها فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك والواقع يشهد بخلافه بل للأسماء تأثير في المسميات وللمسميات تأثر عن أسمائها في الحسن والقبح والخفة والثقل ، واللطافة والكثافة ، كما قيل :

وقلّ إن أبصرت عيناك ذا لقب ... إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أحب الأسماء إلى الله تعالى : عبد الله ، وعبد الرحمن » رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه .

قال ابن القيم رحمه الله : « ولما كان الإسم مقتضياً لمسماه ومؤثِّراً فيه كان أحب الأسماء إلى الله ما اقتضى أحب الأوصاف إليه كعبد الله ، وعبد الرحمن ، وكان إضافة العبودية إلى اسم « الله » واسم « الرحمن » أحب إليه من إضافتها إلى غيرهما كالقاهر والقادر .. فعبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر ، وعبد الله أحب إليه من عبد ربه .. وهذا لأن التعلق الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة فبرحمته كان وجوده وكمال وجوده ، والغاية التي أوجده لأجلها أن يتأله له وحده محبة وخوفاً ورجاءً وإجلالاً وتعظيماً فيكون عبد الله وقد عبده بما في اسم « الله » من معنى الإلهية التي يستحيل أن تكون لغيره ، ولما غلبت رحمته غضبه وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر » أ هـ .

● وعن أبي وهبٍ الجشَمِيِّ ، وكانت له صحبةٌ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تَسَمَّوا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله : عبد الله ، وعبد الرحمن ، وأصدقها : حارثٌ ، وَهَمَّام ، وأقبحُها : حرب ، وَمُرَّة » رواه أبو داود ، واللفظ له ، والنسائي : وإنما كان حارث وهَمَّام أصدق الأسماء لأن الحارثَ هو الكلَيب ، والهمام هو الذي يهم مرة بعد أخرى ، وكل إنسان لا ينفك عن هذين .

قال ابن القيم رحمه الله : « ولما كان الأنبياء سادات بني آدم وأخلاقهم أشرف الأخلاق ، وأعمالهم أصح الأعمال كانت أسماؤهم أشرف الأسماء ..

فندب النبي ﷺ أمته إلى التسمي بأسمائهم .

وإن لم يكن في ذلك من المصالح إلا أن الإسلام يذكر بمسماه ويقتضي التعلق بمعناه لكفى به مصلحة مع ما في ذلك من حفظ أسماء الأنبياء وذكرها وأن لا تنسى وأن تذكر أسماؤهم بأوصافهم وأحوالهم » .

ثم قال ابن القيم : « ولَمَّا كان كل عبد متحركاً بالإرادة والهم مبدأ الإرادة ويترتب على إرادته حركته وكسبه كان أصدق الأسماء اسم « همام » واسم « حارث » إذ لا ينفك مسماهما عن حقيقة معناهما » .

ثم يقول ابن القيم : « ولما كان مسمى الحرب والمرة أكره شيءٍ للنفوس وأقبحها عندها كان أقبح الأسماء : « حرباً ومرة » وعلى قياس هذا : « حنظلة وحزن » وما أشبههما وما أجدر هذه الأسماء بتأثيرها في مسمياتها كما أثراسم حزن الحزونة في سعيد بن المسيب وأهل بيته » أ هـ .

● وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أحبُّ الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأتَ(١) ، لا تُسَمِّيَنَّ غلامك يساراً ، ولا رباحاً ، ولا نجيحاً ، ولا أفلح ، فإنك تقول : أثَمَّ هو فلا يكون فيقول : لا إنما هُنَّ أربع فلا تزيدن عليَّ » رواه مسلم . واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه مختصراً ، ولفظه قال :

نهانا رسول الله ﷺ : أن نسمى رقيقنا أربعة أسماء : أفلح ، ونافع ، ورباح ، ويسارٍ .

قال ابن القيم رحمه الله : « وأما النهي عن تسمية الغلام بيسار وأفلح ونجيح ورباح فهذا لمعنىً آخر قد أشار إليه في الحديث وهو قوله : « فإنك تقول أثمت هو ؟ فيقول : لا، والله أعلم هل هذه الزيادة من تمام . الحديث المرفوع أو مدرجة من قول الصحابي . وبكل حال فإن هذه الأسماء لما كانت قد توجب نظيراً تكرهه النفوس ويصدها عما هي بصدده كما إذا قلت لرجل

---

(١) يعني لا يجب مراعاة الترتيب بينهن بل يجوز البدء بأية واحدة منهن .

أعندك يسار أو رباح أو أفلح؟ فإذا قال : لا . تطيرت[1] أنت ، وهو من ذلك ، وقد تقع الطيرة ولا سيما على المتطيرين اقتضت كحكمة الشارع الرءوف بأمته الرحيم بهم أن يمنعهم من أسباب توجب لهم سماع المكروه أو وقوعه » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخنع اسمٍ عند الله عز وجل رجلٌ تَسمَّى ملك الأملاك » .

زاد في رواية : لا ملك إلا الله . قال : سفيان : مثل شاهنشاه ، وقال أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو ، يعني الشيباني : عن أخنع ، فقال : أوضع .

رواه البخاري ومسلم .

ولمسلم : أغيظ رُجُلٍ على الله يوم القيامة وأخبثه[2] : رجل كان تَسمَّى ملك الأملاك .. لا مَلِك إلا الله .

قال ابن القيم رحمه الله : « ولما كان الملك الحق الله وحده ولا ملك على الحقيقة سواه .. كان أخنع اسم وأوضعه عند الله وأغضبه عند الله وأغضبه له اسم شاهنشاه ، أي : ملك الملوك ، وسلطان السلاطين ، فإن ذلك ليس لأحد غير الله فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل والله لا يحب الباطل . وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا : « قاضي القضاة» وقال : ليس قاضى القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين الذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويلي هذا الاسم في الكراهة والقبح والكذب : سيد الناس ، وسيد الكل .. وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة كما قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ، فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره إنه سيد الناس ، وسيد الكل ، كما لا يجوز أن يقول : « إنه سيد ولد آدم » أ . هـ .

ولهذا ، فإن النبي ﷺ كان يغَير الأسماء التي يراها مخالفة لتلك الأساسيات العقائدية :

---

(١) أي تشاءمت بسبب هذا ..

(٢) هو أفعل تفضيل من الخبث بمعني الرداءة والقذارة .

● فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يغير الإسم القبيح . رواه الترمذي ، وقال أبو بكر بن نافع : وربما قال عمر بن على في هذا الحديث هشام بن عروة عن أبيه عن النبي ﷺ مرسل ، ولم يذكر فيه عائشة .

لأن عروة لم يسمع من رسول الله ﷺ ، وإنما أكثر سماعه من خالته عائشة رضي الله عنها .

قال ابن القيم رحمه الله : « وكان ﷺ يستحب الإسلام الحسن وأمر «إذ أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الإسلام حسن الوجه» وكان يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة كما روى « أنه وأصحابه في دار عقبة بن نافع فأتوا برطب من رطب ابن طاب فأوله بأن لهم العاقبة في الدنيا والرفعة في الآخرة ، وأن الدين الذي قد اختاره الله لهم قد أرطب وطاب » وتأول سهولة أمرهم يوم الحديبية من مجيء سهيل بن عمرو إليه و « ندب جماعة إلى حلب شاة فقام رجل يحلبها فقال ما اسمك ؟ قال مرة . فقال : اجلس . فقام آخر ، فقال : ما اسمك ؟ قال : أظنه حرب . فقال : اجلس . فقام آخر . فقال : ما اسمك ؟ فقال : يعيش . فقال : احلبها » .

وكان ﷺ يكره الأمكنة المنكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها ، كما مر في بعض غزواته بين جبلين فسأل عن آسميهما ، فقالوا : فاضح ومخز .. فعدل عنهما ولم يجز بينهما .

● «وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن ابنة لعمر كان يقال لها عاصية ، فسمَّاها رسول الله جميلة » رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : حديث حسن ، ورواه مسلم باختصار قال : إن رسول الله ﷺ : غيَّر اسم عاصية ، قال : أنت جميلة .

قال بعضهم : لعله لم يسمها : مطيعة مع أنها ضد العاصية كراهة التزكية .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنهُ أن زينب بنت سلمة كان اسمها

برَّة(١) . فقيل : تُزكّي نفسها : فسماها رسول الله ﷺ : زينب » رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه وغيرهم .

● وعن محمد بن عطاء رضي الله عنه ، قال : سميتُ ابنتي برة ، فقالت زينب بنتُ أبي سلمة : إن رسول الله ﷺ : نهى عن هذا الإسم ، وسُمِّيتُ برةَ ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تزكوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البر منكم ، فقالوا : بِمَ نُسمِّيها ؟ فقال : سموها زينب » رواه مسلم وأبو داود .

قال أبو داود : وغيَّر رسول الله ﷺ اسم العاصي ، وعزيزٍ ، وعَتِلة ، وشيطان ، والحكم ، وغرابٍ ، وحُبابٍ ، وشهابٍ ، فسماه : هشاماً ، وسمي حرباً : سلماً ، وسَمَّى المضطجع : المنبعثَ ، وأرضاً تُسمَّى عَفْرةً ، سماها : خضرةً ، وشِعْبَ الضلالة ، سماه : شعب الهدي ، وبني الزَّنْيَة ، سماهم : بنى الرِّشْدَة ، وسمِّى بني مغوية بني رِشْدَةَ .

قال أبو داود : تركت أسانيدها اختصاراً .

«قال الخطابي»: أما العاصي، فإنما غيره كراهية لمعنى العصيان، وإنما سِمة(٢) المؤمن: الطاعة: والاستسلام، والعزيز: إنما غَيَّره لأن العزة لله، وشعار العبد الذلة، والاستكانة. وعتلة: معناها الشدة والغلظ. ومنه قولهم: رجل عُتُلٌ: أي شديد غليظ. ومن صفة المؤمن اللين والسهولة وشيطان: اشتقاقه من الشَّطن(٣)، وهو البعد عن الخير، وهو اسم المارد الخبيث من الجن والإنس، والحكم(٤): هو الحاكم الذي لايرد حكمه، وهذه الصفة لاتليق إلا بالله تعالى، ومن أسمائه الحكم وغراب(٥): مأخوذ من الغَرْب، وهو البعد، ثم هو حيوان خبيث المطعم أباح رسول الله ﷺ قتله في الحلّ والحرم (٦). وحُباب: يعني بضم الحاء المهملة، وتخفيف الباء الموحدة: نوع من الحيات، وروى أنه اسم

---

(١) بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء المهملة من البر بكسر الباء بمعنى فعل الخير والطاعة.
(٢) يعني علامته وشعاره فهو من الوسم بمعنى العلامة .
(٣) وقيل من شط بمعنى أفرط وتجاور قدره وتباعد عن الحق وقيل من شاط بمعني هلك .
(٤) يعني بفتحتين كما قال تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ وهو اسم من أسماء الله الحسنى .
(٥) قال أهل اللغة ويضرب بالغراب المثل في السواد والبعد والبكور والحذر .
(٦) فهو أحد الفواسق الخمسة التي هي الغراب ، والحدأة ، والحية ، والعقرب ، والكلب العقور .

شيطان[1] والشهاب : الشعلة من النار ، والنار عقوبة الله ، وأما عَفِرة : يعني بفتح العين ، وكسر الفاء ، فهي نعت الأرض التي لا تنبت شيئاً ، فسماها خضرة على معنى التفاؤل حتى تخضر . انتهى .

●● فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تختار لأبنائك الأسماء الحسنة التي يسعدون بها في الدنيا ، والتي سينادون بها يوم القيامة .

وحسبك عندما ستفعل هذا أنك ستكون قد أديت لأبنائك بل وأحفادك أهم حقوقهم عليك .

والله ولي التوفيق .

***

(١) ويقال للدنيا : أم حُباب .

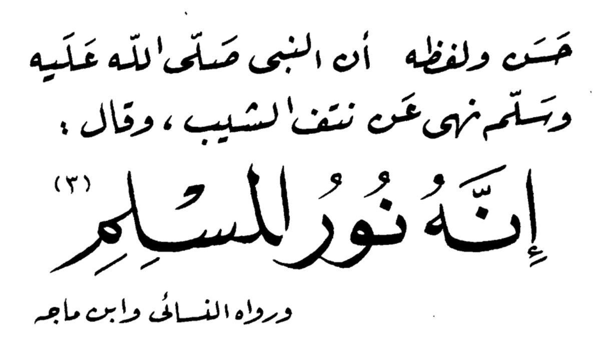
الوصية الثمانون

عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لَا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ (١) ، مَا مِنْ
مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ (٢)
إِلَّا كَانَتْ لَهُ
نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وفى رواية :
إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً ،
وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً .

رواه أبو داود والترمذى ، وقال حديث



---

(١) الشيب : أى الشعر الذى يبيض من اللحية أو الرأس.

(٢) أى يدركه الشيب وهو مسلم .

(٣) هذه الجملة تعليل للنهى المتقدم .

● وحسب العاقل هذا الذى اشتعل رأسه شيبًا أن يذكر أن الشيب هذا رسول من رسل الموت ، وأنه معناه أن نهايته قد قربت ، حتى يكون مستعدًا للقاء الله تعالى أكثر من غيره من الشباب .

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذا النهي المحمديّ الذي جاء فيه كما عرفتَ أنه إذا شاب المسلم في الإسلام .. فإن شيبة هذا سيكون له نوراً يوم القيامة ، هذا بالإضافة إلى ما أشار إليه النبي ﷺ في الرواية الأخرى ، وهو : أن الله تعالى سيكتب له بها حسنة ، وسيحط عنه بها خطيئة .

ولهذا ، فقد نهى النبي ﷺ — كما في رواية الترمذي عن نتف الشيب[1] ، وقال معللاً هذا : إنه نور المسلم .

وحسبك هذا التعبير الأخير الذي أنت في أشد الحاجة إليه في دنياك[2] وأخراك .

لأنه سيكون من جملة النور الذي سيسعى بين يديك وعن يمينك يوم القيامة ، إن كنت منفذاً لهذا كمسلم إن شاء الله .

وقد ورد بالإضافة إلى الحديث الذي ندور حوله :

● عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة ، فقال له رجل عند ذلك : فإن رجالاً ينتفون الشيب[3] ؟ فقال رسول الله ﷺ : مَن شاء فلينتف نوره »[4] . رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط من رواية ابن لهيعة وبقية رواته ثقات .

● وعن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « مَن شاب شيبةً في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة » رواه النسائي في حديث ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

● وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) وظاهر النهي التحريم ، ولكن حمله الجمهور على الكراهة .

(٢) لأنه بهذه الشيبة التي يحترمها سينظر إليه بكل إجلال واحترام من هؤلاء الذين هم في أعمار أولاده وأحفاده ...

(٣) أي يزيلونه من لحاهم ويستأصلونه .

(٤) والمقصود من هذا التحذير عن فعل ذلك .

« مَن شاب شيبة في سبيل الله(١) : كانت له نوراً يوم القيامة » رواه ابن حبان في صحيحه .

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، «كان يكره أن ينتف الرجل الشعرة البيضاء من رأسه ولحيته »(٢) رواه مسلم .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « لا تنتفوا الشيب ، فإنه نور يوم القيامة . من شاب شيبة في الإسلام كتب الله له بها حسنة، وحطّ عنه بها خطيئة ، ورفع له بها درجة » رواه ابن حبان في صحيحه .

قال(٣) في الترغيب والترهيب معلقاً على هذا(٤) :

ولا شك أن هذه الأحاديث وقد وردت من طرق متعددة يقوى بعضها بعضاً : تفيد كراهة ذلك ، وأنه لاينبغي لمؤمن أن يعمد إلى ما ابيض من شعره ولحيته فينزعه ليبدو في أعين الناس صغيراً .

وقد روى أن أول من شاب إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا وعلى سائر النبيين أفضل الصلاة والتسليم ، فلما نظر في المرآة قال : ما هذا يا رب ؟ قال : وقار يا إبراهيم . فقال : إبراهيم اللهم زدني وقاراً .

ولهذا فقد ورد في شأن هؤلاء الذين يدهنون ما شاب من رءوسهم أو لحاهم بالسواد ليبدو سنهم صغيراً :

● عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون قوم يخضبون في آخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

---

(١) أي في الجهاد ولإعلاء كلمة الله ، يعني أدركه الشيب وهو يجاهد .

(٢) والتعبير بلفظ يكره : يقوي مذهب من يحمل النهي على الكراهة .

(٣) وهو فضيلة الشيخ محمد خليل الهراس ــ رحمه الله تعالى ــ .

(٤) في الهامش ...

وحول هذا الموضوع يقول الإمام الشيخ محمود خطاب السبكي رحمه الله تعالى ، في الجزء الأول من الدين الخالص ، تحت عنوان :

نتف الشيب

هو مكروه عند الأئمة الأربعة والجمهور ، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « لا تنتفوا الشيب فإنه نور المسلم ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام إلا كتب الله له بها حسنة ، ورفعه بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة »أخرجه أحمد والأربعة وابن حبان في صحيحه بأسانيد حسنة وحسنه الترمذي .

وقال أنس بن مالك : كنا نكره أن ينتف الرجل الشعرة البيضاء من رأسه ولحيته . رواه مسلم .

وعن طارق بن حبيب أن حجَّاماً أخذ من شارب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرأى شيبة في لحيته ، فأهوى بيده إليها ليأخذها ، فأمسك صلى الله عليه آله وسلم يده وقال : من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة .

أخرجه الخلال في جامعه(١) .

وذهبت الظاهرية : إلى تحريم نتف الشيب ، لأنه مقتضى النهي حقيقة .

« قال النووي » : لو قيل يحرم النتف للنهى الصريح الصحيح لم يبعد ، ولا فرق بين نتفه من اللحية والرأس والشارب والحاجب والعذار ، ومن الرجل والمرأة « وفي تعليله » بأنه نور المسلم ترغيب بليغ في إبقائه ، وترك التعرض لإزالته « وتعقيبه » بقوله : ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام « والتصريح » بكتب الحسنة ، ورفع الدرجة ، وحط الخطيئة « نداء » بشرف الشيب وأهله ، وأنه من أسباب كثرة الأجور ، وإيماء إلى أن الرغبة عنه بنتفه إعراض عن الثواب العظيم .

« قال » ابن العربي : وإنما نهى عن النتف دون الخضب ، لأن فيه تغييراً

---

(١) أنظر ص ٧٥ ج ١ مغني ابن قدامة .

للخلقة من أصلها بخلاف الخضب ، فإنه لا يغير الخلقة على الناظر إليه .

وإلى هذا الموضوع يشير الإمام السبكي ، كذلك ، فيقول تحت عنوان :

تغيير الشيب

يستحب خضاب شعر الرأس واللحية بالصفرة والحمرة عن الأئمة الأربعة ويحرم بالسواد عند أبي حنيفة ومحمد وهو الصحيح عند الشافعية ، وصوبه النووي قال : يمنع المحتسب(١) الناس من خضاب الشيب بالسواد إلا المجاهد(٢) . ودليل تحريمه حديث جابر بن عبد الله قال : أُتِي بأبي قحافة يوم الفتح ورأسه ولحيته كالثغامة(٣) بياضاً ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «غَيِّروا هذا بشيء واجتنبوا السواد» أخرجه أحمد والأربعة إلا الترمذي .

« وعن أبي الدرداء » أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من خضَّب بالسواد ، سَوَّد الله وجهه يوم القيامة » أخرجه الطبراني في الكبير وفي سنده الوضين بن عطاء وثقه أحمد وابن معين وابن حبان وضعفه من هو دونهم في المنزلة وبقية رجاله ثقات(٤) .

« وعن » ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة » أخرجه أبو داود والنسائي .

« قالت المالكية » والحنابلة : يكره الخضاب بالسواد ، وهو قول للشافعية ما لم يكن لغرض شرعي كإرهاب العدو . وإلا فلا كراهة بل يؤجر عليه : لحديث صهيب أن النبي ﷺ قال : « إن أحسن ما اختضبتم به لهذا السوادُ

---

(١) شخص يعين من قبل الوالي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو نظام يسمى «الحسبة في الإسلام» .
(٢) أنظر ص ٢٩٤ ج ١ مجموع النووي .
(٣) أبو قحافة هو عثمان والد أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، و « الثغامة » بثاء مفتوحة وغين معجمة مخففة : نبت أبيض الزهر والثمر ، يشبه بياض الشيب .
(٤) أنظر ص ١٦٣ ج ٥ مجمع الزوائد : الشيب والخضاب .

أرغبُ لنسائكم فيكم[1] وأهيبُ لكم في صدور عدوكم » أخرجه ابن ماجه بسند حسن .

ولإطلاق الحديث قال أبو يوسف : يجوز الخضاب بالسواد مطلقاً . وروى عن عثمان والحسن وعقبة بن عامر .

واتفق الأئمة على جواز خضاب الشعر بالحناء والصفرة والكتم[2] .

وهل الأفضل الترك أو الفعل ؟ روايتان عن مالك ، وقال غيره الفعل أفضل لحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون ـ يعني شعورهم ـ فخالفوهم » أخرجه الشيخان والنسائي وأبو داود وابن ماجه وكذا الترمذي بلفظ : غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود .

« وحديث أبي ذر » أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن أحسن ما غُيِّر به هذا الشيب الحناءُ والكتم » أخرجه أحمد والأربعة وحسنه الترمذي .

« وعن » ابن عمر أنه كان يصبغ لحيته بالصفرة ، ويقول : « رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصبغ بها ، ولم يكن أحبَّ إليه منها ، وكان يصبغ بها ثيابه » أخرجه أبو داود والنسائي .

« قال » القاضي عياض : اختلف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنسه . فقال بعضهم : ترك الخضاب أفضل . وروي حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النهي عن تغيير الشيب . ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يغير شيبه . روى هذا عن عمر وعلى وأبي بكر وآخرين « وقال » : آخرون : الخضاب أفضل . وخضب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، للأحاديث الواردة في ذلك « ثم اختلف » هؤلاء فكان أكثرهم يخضب بالصفرة . منهم على وابن عمر وأبو هريرة وآخرون .

وخضب جماعة منهم بالحناء والكتم وبعضهم بالزعفران ، وخضب جماعة

---

(١) « لهذا » بفتح اللام و « أرغب الخ » بيان لكون السواد أحسن فإنه يصير به المرء كالشاب الجميل فترغب فيه امرأته ويهابه العدو . انظر ص ٩٩ ج ٢ سنن ابن ماجه .

(٢) نبت يخلط بالوسمة يختضب به .

بالسواد .

« قال » الطبري : الصواب أن الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتغيير الشيب وبالنهي عنه كلها صحيحة وليس فيها تناقض . بل الأمر بالتغيير لمن شيبه كشيب أبي قحافة . والنهي لمن له شمط فقط . واختلاف السلف في فعل الأمرين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك ، مع أن الأمر والنهي في ذلك ليس للوجوب بالإجماع . ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه .

وما تقدم من النهي عن التخضيب بالسواد ، عام في الرجال والنساء . وحكى عن إسحاق بن راهويه أنه رخص فيه للمرأة لتتزين به لزوجها .

هذا ، وللخضاب فائدتان : إحدهما تنظيف الشعر مما يعلق به . الثانية مخالفة أهل الكتاب .

وأما المرأة إذا نبتت لها لحية فإنه يجب عليها إزالتها عند الحنفيين ومالك ، وقال الشافعي يستحب لها إزالتها .

●● فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ونفذه على أساس هذا الفقه الذي وقفت عليه .. حتى تفوز بهذا النور المعنوي المشار إليه في نص الوصية .

والله ولي التوفيق .



الوصية الواحد والثمانون

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

اكْتَحِلُوا بِالإِثْمِدِ (١)، فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ، وَيُنْبِتُ الشَّعَرَ (٢).

وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم كانت له مُكْحُلَةٌ يكتحل بها كل ليلة ثلاثة فى هذه، وثلاثة فى هذه.

رواه الترمذى، وقال : حديث حسن، وأبو داود، وابن حبان فى صحيحه فى حديث، ولفظهما : قال :

إِنَّ مِنْ خَيْرِ أَكْحَالِكُمُ الإِثْمِدَ : يَجْلُو الْبَصَرَ، وَيُنْبِتُ الشَّعَرَ.

(١) الإثمد بكسر الهَمزة وَالميم : حَجَر أسود مَعروف يضرب إلى الحمرة . يكون ببلاد الحجَاز وأجوَده يؤتى به من أصبهَان ، وَفى روَاية : (عَليكم بالإثمد) أى الزموا الاكتحَال به .

(٢) أى يَزيد نور العَين ويقويه ، وَينبت شعر هدب العَين .

● هذا وإن كان الأخ المسلم سينفذ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم هذه من أجل هذا الهدف المشار إليه في الحديث ، فإنه من الأفضل أن يكون هذا ليلاً ودون قصد التزين وإظهار المحاسن .. والله أعلم ..

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية المحمدية التي يوصيك فيها النبي ﷺ بأن تكتحل بالإثمد بكسر الهمزة والميم ، وهو حجر أسود معروف يضرب إلى الحمرة يكون ببلاد الحجاز وأجوده يؤتى به من أصبهان .

وحسبك قوله ﷺ بعد ذلك معللاً الحكمة من وصيته : « فإنه يجلو البصر ، وينبت الشعر » ، أي : يزيد نور العينين ويقويه[١] ، وينبت شعر هدب العين[٢] .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خير أكحالكم الإثمد : ينبت الشعر ، ويجلو البصر » رواه البزار ، ورواته رواة الصحيح .

فالاكتحال بالإثمد يحفظ صحة العين لا سيما عند المشايخ والصبيان لكنه لا يوافق الرمد الحار ، وخاصته النفع للجفون ذوات الفضول الغليظة .

● وعن على بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالإثمد ، فإنه منبتة للشعر ، مَذهبة لِلقَذَى[٣] ، مِصفاة للبصر[٤] » . رواه الطبراني بإسناد حسن[٥] .

والأحاديث دالة على استحباب الاكتحال بالإثمد .

مع ملاحظة أنه من الأفضل أن يكون هذا ليلاً ودون قصد التزين وإظهار المحاسن .. والله أعلم .

وقد أشار الإمام الشيخ محمود خطاب السبكي رحمه الله إلى ما ورد في كيفية الاكتحال فقال في الجزء السابع من الدين الخالص[٦] : تحت عنوان :

---

(١) وذلك بدفعه المواد الرديئة المنحدرة من الرأس (٢) لأنه يقوي طبقاتها ...
(٣) جمع قذاة وهو ما يقع في العين من تبن ونحوه .
(٤) أي يصفيه من سائر الرطوبات المؤذية له .
(٥) قال شارح الجامع : إسناده جيد .
(٦) ص : ٤٢ ج ٧ .

الإثمـــد

هو بكسر فسكون : حجر معروف أسود يضرب إلى الحمرة يوجد ــ كما أشرتُ قبل هذا ــ في بلاد الحجاز يكتحل به ، وهو دواء نافع للرمد(١) ، ويُستحب الاكتحال به « لحديث » ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « إن خير ما تداويتم به اللَّدود ، والسَّعوط ، والحجامة ، والمَشِي ، وخير ما اكتحلتم به الإثمد فإنه يجلو البَصر وينبت الشعر ، قال : وكان رسول الله ﷺ له مُكحلةٌ يكتحل بها عند النوم ثلاثاً في كل عين » أخرجه الترمذي وقال حديث حسن(٢) .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « عليكم بالإثمد فإنه من خير أكحالكم : يجلو البصر وينبت الشعر ، وكان ﷺ إذا اكتحل يكتحل في اليمني ثلاثاً يبتديء بها ويختم بها وفي اليسرى اثنتين » أخرجه أبوالحسن رزين بن معاوية (٣) .

ما ورد في كيفية الاكتحال

ثم يقول بعد ذلك في الدين الخالص :

وحاصل ما ورد في كيفية الاكتحال أنه يكون ثلاثاً في كل عين أواثنتين في كل عين ، وواحدة بينهما ، أو في اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنتين وأرجحهما الأول(٤) . وهذا ويعالج الرمد بالسكون وترك الحركة . والحِمية مما يهيج الرمد ، وقد حَمَى النبي ﷺ صُهيباً من الثمر وأنكر عليه أكله وهو أرمد ، وحمى عليًّا من الرُّطب لما أصابه الرمد . وكان ﷺ إذا رمدت عين امرأة من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عينها ... إلخ .

●● فانتفع بكل هذا أخا الإسلام ونفذه كما عرفت من هدي الرسول ﷺ ، فيه .

والله ولي التوفيق .

---

(١) الرمد بفتحتين : ورم حار يعرض في بياض العين .

(٢) أنظر ص ١٦١ ج ٣ تحفة الأحوذي . (٣) أنظر ص ٣٦٦ ج ٢ تيسير الوصول .

(٤) أنظر ص ١٢١ ج ١٠ فتح الباري .

الوصية الثانية والثمانون

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر الله لكم ، ويل لأقماع القول[1] ، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون .

رواه أحمد بإسناد جيد

---

(١) ويل لأقماع القول : أي الذين يستمعون القول ولا يعملون به .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي يوصيك الحبيب صلوات الله وسلامه عليه في أولها : بضرورة أن تَرحم حتَّى تُرحم ، وأن تَغفِر حتى يُغفر لك .

ثم يحذرك بعد ذلك من أن تكون من أقماع القول ، أي الذين يستمعون القول ولا يعملون به ، وأن تكون من الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون .

وهذا الموضوع في جملته كما رأيت من أهم المواضيع التي ينبغي أن نقف جميعاً على أبعادها .. والمراد منها .. حتى نكون بذلك إن شاء الله من أهل الرحمة ومن أهل الغفران ، ومن الذين يستمعون القول ويعملون به ، ومن الذين لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون .

وحسبي أولاً ــ وبعد هذا الإجمال السريع ــ أن أقف معك على المعنى المراد من الرحمة التي ينبغي أن تكون متخلقاً بها كمسلم حتى تُرحم إن شاء الله .

● فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » رواه البخاري ومسلم والترمذي ، ورواه أحمد وزاد : « ومن لا يغفر لا يُغفر له » وهو في المسند أيضاً من حديث أبي سعيد بإسناد صحيح .

يعني : أن من قسا على عباد الله فلم يرحم من يحتاج إلى الرحمة من الضعفاء والأرامل واليتامى والبؤساء والمرضى وذوي العاهات ونحوهم .. فهذا لا تناله رحمة الله يوم القيامة .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « من لم يرحم الناسَ لم يرحمه الله » رواه الطبراني بإسناد حسن .

● وعن جرير رضي الله عنه ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء » رواه الطبراني بإسناد جيد قوي .

يعني : من لا يرحم عباد الله الذين في الأرض لا يرحمه الله الذي في السماء .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه أبو داود والترمذي بزيادة ، وقال : حديث حسن صحيح .

قوله « يرحمكم » بالجزم جواب الأمر ، أي : إن ترحموا من في الأرض يرحمكم الله الذي في السماء .

● وعن أبي موسى رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ ، يقول : « لن تؤمنوا حتى تَرحموا . قالوا يا رسول الله : كلنا رحيم ؟ قال : إنه ليس برحمة أحدِكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح .

يعني : لن يكمل إيمانكم حتى يرحم بعضكم بعضاً ، كما قال تعالى في وصف أصحاب نبيه ﷺ : ﴿ **والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[1] ، وأن الرحمة هذه لا تتحقق إذا رحم أحدكم صديقه أو قريبه فحسب .. وإنما إذا رحم كل من يحتاج إلى الرحمة من خلق الله .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعتُ الصادق المصدوقَ صاحبَ هذه الحجرة أبا القاسم ﷺ ، يقول : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » رواه أبو داود واللفظ له ، والترمذي وابن حبان في صحيحه ، وقال الترمذي : حديث حسن ، وفي بعض النسخ حسن صحيح .

قال العلقمي : « إلا من قلب شقي ، وهو ضد السعيد ، وهو إشارة إلى الشقاء في الآخرة ، وقد يكون في الدنيا .. رواية الترمذي : « من لم يرحم الناس لا يرحمه الله ، ومن لم يرحمه فهو شقي » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن أو الحسين بن علي ، وعنده الأقرعُ بن حابس التميميُّ ، فقال الأقرع : إن لي عشرةً من الولد ما قبلتُ منهم أحداً قطُّ ، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « **من لا يَرحم لا يُرحم** » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

وهذا المعنى ينسحب حتى على الحيوانات والطيور :

• فعن معاوية بن قرة عن أبيه رضى الله عنه أن رجلًا ، قال : يا رسول الله إنى لأرحم الشاة أن أذبحها (١) ، فقال : « **إن رحمتها رحمك الله** »(٢) رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، والأصبهانى :

ولفظه قال : يا رسول الله إنى آخذ شاة وأريد أن أذبحها فأرحمها ، قال : « **والشاة إن رحمتها رحمك الله** » .

يعنى أن الله يُثيب على رحمة الحيوان كما يثيب على رحمة الإنسان .

• وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« **دخلت امرأة النار فى هِرة ربطتها** (٣) ، **فلم تطعمها ، ولم تدعها** (٤) **تأكل من خشاش الأرض** » .

وفى رواية : (عُذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت ، لا هى أطعمتها وسقتها ، إذ هى حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض) رواه البخارى وغيره .

(خشاش الأرض) مثلثه الخاء المعجمة ، وبشينين معجمتين : هو حشرات الأرض والعصافير ونحوهما .

• وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « **ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها** (٥) **بغير حقها إلا يسأل الله عنها يوم القيامة** (٦) قيل : يا رسول الله وما حقها ؟ قال : « **حقها أن تذبحها فتأكلها** (٧) . **ولا تقطع رأسها فترحى يه** » (٨) رواه النسائى والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

• وعن الشريد رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من قتل عصفوراً عبثاً** (٨) **عجَّ إلى الله يوم القيامة يقول : يارب إن فلاناً قتلنى**

---

(١) يعنى لا أجرؤ على ذبحها رحمة بها .

(٢) وفى هذا دليل على وجوب رحمة الحيوان .

(٣) أى بسبب هرة ربطتها وأرادت تعذيبها بذلك ، وفى رواية للبخارى : (حبستها) .

(٤) أى تتركها .

(٥) أى فما هو أكبر حجماً منها كالحمامة ونحوها .

(٦) أى يسأله الله سبحانه عن سبب قتلها .

(٧) فإنها إنما خلقت من أجل الإنتفاع بلحمها . (٨) أى تلقيها ولا تنتفع بها .

عبثاً ، ولم يقتلني منفعة » رواه النسائي وابن حبان في صحيحه .

وهكذا ، أخا الإسلام ترى : أن الإسلام هو دين الرحمة ، وأن محمداً صلوات الله وسلامه على هو نبي الرحمة الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، حتى قال عن نفسه كما ورد عنه : « إنما أنا رحمة مهداة » .

فكن متخلقاً بخلق الإسلام ، ونبي الإسلام حتى تكون إن شاء الله أهلاً لرحمة الله يوم العرض عليه سبحانه وتعالى فالراحمون كما عرفت يرحمهم الرحمن .

وكن كذلك من العافين عن الناس ، أي : الذين يغفرون للمسيئين إساءاتهم .. لأن هذا كذلك من من خلق الإسلام ونبي الإسلام .

ففي القرآن الكريم يقول الله تبارك وتعالى في وصف المتقين :

● **﴿ ... والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾**[1] :

وقد قرأت في القرطبي أنه روي عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة[2] فيها مرقة حارة ، وعنده أضياف فعثُرت فصبَّت المرقة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يا مولاي استعمل قول الله تعالى : **﴿ والكاظمين الغيظ ﴾** . فقال لها : قد فعلتُ . فقالت الجارية : اعمل بما بعده : **﴿ والعافين عن الناس ﴾** . فقال : قد عفوت عنك . فقالت الجارية : **﴿ والله يحب المحسنين ﴾** . قال ميمون : قد أحسنتُ إليكِ ، فأنت حرةٌ لوجه الله تعالى .

وروي عن الأحنف مثله .

وقال زيد بن أسلم : **﴿ والعافين عن الناس ﴾** ، أي : عن ظلمهم وإساءتهم . وهذا عام ، وهو ظاهر الآية . وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال عند ذلك : « إن هؤلاء من أمتي قليل إلا من

---

(١) آل عمران : الآية ١٣٤ .

(٢) الصحفة كالقصعة والجمع : صحاف .

عصمه الله وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت » . فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال : ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾(١) ، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله : ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾(٢) ، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك ... ثم يقول القرطبي :

ووردت في كظم الغيظ والعفو عن الناس وملك النفس عند الغضب أحاديث . وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس ، فقال ﷺ : « ليس الشديد بالصُّرعة(٣) ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وقال عليه السلام : « ما من جُرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجراً من جُرعة غيظ في الله » . وروى أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما أشد من كل شيء ؟ قال : « غضب الله » . قال : فما ينجي من غضب الله ؟ قال : « لا تغضب » .

● قال العَرْجي :

وإذا غضبتَ فكن وقوراً كاظماً ... للغيظ تُبصِرُ ما تقول وتسمعُ
فكفى به شرفاً تَصَبُّر ساعةٍ ... يرضى بها عنك الإله وتُرفَعُ

● وقال عروة بن الزبير في العفو :

لن يبلغ المجدَ أقوام وإن شَرفُوا ... حتى يُذَلُّوا وإن عَزُّوا لأقوام
ويُشتَمُوا فترى الألوانَ مُشرقَةً ... لا عَفوَ ذُلٍّ ولكن عفو إكرامِ

وروى أبو داود ، وأبو عيسى الترمذي عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنيِّ عن أبيه عن النبي ﷺ ، قال : «من كظم وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء » قال : هذا حديث غريب .

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ

---

(١) الشورى : الآية ٣٧ .

(٢) آل عمران : الآية ١٣٤ .

(٣) الصُّرعة « بضم الصاد وفتح الراء » : المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب ، فنقله إلى الذي يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها .

من كان أجره على الله فليدخلِ الجنة . فيقال : من ذا الذي أجره على الله ؟ فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب » ذكره الماوردي .

وقال ابن المبارك : كنت عند المنصور جالساً فأَمَر بقتل رجل ، فقلت : يا أمير المؤمنينَ ، قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ بين يدي الله عز وجل : من كانت له يدٌ عند الله فليتقدم . فلا يتقدم إلا من عَفَا عن ذنب » ، فأمر بإطلاقه .

ثم يقول القرطبي بعد ذلك مشيراً إلى معنى قوله تعالى : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ : أي : يثيبهم على إحسانهم . قال سَرِيُّ السَّقَطِي : الإحسان أن تُحسِنَ وقتَ الإمكان ، فليس في كل وقت يمكنك الإحسان ، قال الشاعر :

بادر بخير إذا ما كنتَ مقتدراً   فليس في كل وقتٍ أنت مقتدر

وقال أبو العباس الجُمَّاني فأحسن :

ليس في كل ساعةٍ وأوانِ   تَتَهيَّا صنائِعُ الإحسانِ
وإذا أمكَنَتْ فبادر إليها   حذراً من تعذر الإمكانِ

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، حتى تكون إن شاء الله تعالى من : « العافين عن الناس » ، وحتى تستحق بذلك مغفرة الله لك .. كما قال صلوات الله وسلامه عليه في نص الوصية : « واغفروا يُغفر لكم » .

●● واحذر أخا الإسلام أن تكون من : « أقماع القول » ، وهم الذين يستمعون القول ولا يعملون به .. حتى لا تكون بسبب هذا من أهل « الويل » ، وهو العذاب الأليم ، في واد بجهنم — يسمى بالويل(١) — لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حره .. والعياذ بالله .

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من هذا العلم الذي لا ينفع صاحبه :

● فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : **« اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس**

---

(١) مختار الصحاح ص ٧٣٨ .

لا تشبع ، ومن دعوة لا يُستجاب لها » رواه مسلم والترمذي والنسائي ، وهو قطعة من حديث .

ويدخل في هذا العلم ــ الذي لا ينفع ــ كل علم لا يزيد الإنسان معرفة بربه ، ولا بأحكام دينه ، ولا يقوم على أساس صحيح .. بل على جهالات وأوهام .. كعلوم الفلسفة والكلام .. أو يكون ضارًا مؤذياً ومفضياً إلى الشرك كعلوم السحر والتنجيم والكهانة والشعوذة والحيل والطلمسات .. أو يكون حشواً لا فائدة فيه كتفريعات الفقهاء ، وغرائب الأخبار .

● وعن أبي برزةَ الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزولُ قدما عبد حتى يُسأل : عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل فيه(١) ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه البيهقي وغيره من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ ، قال : « ما تُزال قَدَمَا عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمِل فيه ؟ » .

●● فلا تكن إذن من هؤلاء الناس الذين يعلمون ولا يعملون .. لأنه كما يقول الشاعر الحكيم :

عالم لم يعملـــن بعلمــــه معذب في النار قبل عباد الوثن

هذا بالإضافة إلى أن العلم هذا سيكون حجة عليك لا لك .. لأنه لن يكون لك إلا إذا عملت به .

وكن إذا أردت أن لا تكون من « أقماع القول » من المشار إليهم في قول الله تعالى :

● **﴿ ... فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾(٢)** .

---

(١) يعني هل عمل بعلمه فنفعه علمه ، أم كان ممن يقول ما لا يفعل .
(٢) سورة الزمر : الآية ١٧ ، ١٨ .

أي : فبشر يا محمد عبادي ، الذين يستمعون القول فيتبعون أرشده وأهداه إلى الحق ، وأدله على توحيد الله ، ويتركون ما سوى ذلك ﴿ **أولئك الذين هداهم الله** ﴾ أي الذين وفقهم للرشاد ، وإصابة الصواب ﴿ **وأولئك هم أولو الألباب** ﴾ ، أي : أولو العقول ، لا الذين يعرضون عن سماع الحق ، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع .

وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم ، وتمييزهم بين الأحسن من كل شيء ، وإنما وضع الظاهر ﴿ **فبشر عباد** ﴾ بدل الضمير « فبشرهم » تشريفاً لهم وتكريماً بإضافتهم إلى نفسه .

فكن أخا الإسلام أهلاً لهذا الشرف الذي إن فزت به كنت من أولي الألباب كما أشارت الآية .. وكنت أيضاً في نفس الوقت من الذين عملوا بما علموا .. وانتفت عنك صفة « أقماع القول » الذين لا هَمَّ لهم إلا أن يطلبوا العلم فحسب دون أن يعملوا به .. ومَثَلُهم في هذا : ﴿ .. **كمثل الحمار يحمل أسفاراً** .. ﴾(1) .

إنه لشرف عظيم لك أن تكون قد انتفت عنك هذه الصفة الذميمة .

●● واحذر كذلك أن تكون من : « المصرين الذين يصرون على ما فعلوا » أي : من المعاصي ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ : حتى لا تكون كذلك من أهل الويل .

وكن على عكس هذا من المتقين الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

● ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾(2) :

وحسبك أن تكون بهذا من الفائزين بهذا الجزاء المشار إليه بعد ذلك في

---

(1) سورة الجمعة : الآية ٥ .

(2) سورة آل عمران : الآية ١٣٥

قوله تعالى :

● ﴿ **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين**﴾(١) .

وقد قرأت في القرطبي ، حول قوله تعالى : ﴿ **ولم يُصِرُّوا** ﴾ ، اي : ولم يثبتوا ويعزموا على ما فعلوا .. وقال قتادة : الإصرار : الثبوت على المعاصي ... وقال سهل بن عبد الله : الجاهل ميت ، والناسي نائم ، والعاصي سكران ، والمصر هالك .

وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينوي ألا يتوب فإن نوى التوبة خرج عن الإصرار وقول سهل أحسن . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا توبة مع الإصرار » .

ثم قال القرطبي بعد ذلك في المسألة الثالثة : قال علماؤنا : الباعث على التوبة وحل الإصرار : إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفار وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين ، وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين ، وداوم على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه فدعا الله رغباً ورهباً ، والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء ، يخاف من العقاب ويرجو الثواب ، والله الموفق للصواب .

وقد قيل : إن الباعث على ذلك تنبيه إلهي ينبه به من أراد سعادته ، لقبح الذنوب وضررها إذ هي سموم مهلكة .

ولهذا ، فإنني أذكرك بضرورة أن تكثر من الإستغفار .. ومن سيد الإستغفار بصفة خاصة .. الذي فيه أنك إذا اعترفت بذنبك واستغفرت الله تعالى .. فإنه تعالى سيغفر لك :

● فعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « سيد الإستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ أعوذ بك من شر ما صنعتُ أبوء لك

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٦ .

بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي[1] فاغفر لي فإن لا يغفر الذنوب إلا أنت .

من قالها في النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يُمسيَ فهو من أهل الجنة .. ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة » رواه البخاري .

وحسبك في النهاية وفي ختام هذا العرض السريع أن أبشرك بقول الله تبارك وتعالى :

- **﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا ﴾**[2] .. وقوله تعالى :
- **﴿ واستغفِرِ الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾**[3] .. وقوله تعالى :
- **﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾**[4] .

والله ولي التوفيق .



(١) أبوء : بياء مضمومة ثم واو وهمزة ممدودة ومعناه : أقر وأعترف .
(٢) النساء : الآية ١١٠ .
(٣) النساء : الآية ١٠٦ .
(٤) سورة النصر : الآية ٣ .



الوصية الثالثة والثمانون

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أَضمن لكم

الجنة

- اصدُقوا إذا حدَّثتُم .
- وأَوفُوا إذا وَعدتُم .
- وأَدُّوا إذا ائتُمِنتُم .
- وَاحفَظُوا فُروجَكم .

◉ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ.

◉ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ[1].

رواه احمد وابن أبى الدنيا وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

---

(١) كفوا أيديكم : أى عن الشر .

● وَحسب العاقل أن يعلم أنه بتنفيذه لهذه الوصية الجامعة وتخلقه بهذه الخصال الحميدة سيكون من المؤمنين حقاً ، وسيكون كذلك من الذين قال الله تعالى فيهم :
(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) .
وحسبه أن يذكر دائماً وأبداً أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ضمن له هذا .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية الجامعة لخصال الخير .. والتي إن نفذتها .. أو نفذناها جميعاً ــ نحن المؤمنين الصادقين ــ كنا من أهل الجنة إن شاء الله .. لأن النبي ﷺ قد تكفل لنا بدخولها .. وضمن لنا ذلك على الله ــ أو عند الله ــ سبحانه وتعالى ، وهو صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ .. **لا ينطق عن الهوى** .. ﴾ .

هذا ، وإذا كان النبي ﷺ ، قد بدأ وصيته بالصدق الذي ينبغي أن يتميز به المؤمن عن غيره من الناس .. فضلاً عن بقية الصفات التي وردت بعد ذلك في نص الوصية .. والتي هي كذلك من أهم الصفات المميزة للمؤمن .. فقال صلوات الله وسلامه عليه ، بعد قوله :

« اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة » :

● « اصدقوا إذا حدثتم » : فإن هذا معناه أن الصدق هو أهم صفة من الصفات الموصلة إلى الجنة :

● فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل[1] يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كَذَّاباً » رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي وصححه ، واللفظ له .

ومعنى : عليكم بالصدق ، أي : التزموه وتمسكوا به ، والصدق هو الإخبار عن الشيء بما هو عليه في الواقع .

والصِّدِّيقِيَّةُ : مرتبة قبل مرتبة النبوة مباشرة .. وقد أشار الله تعالى إلى هذا مرتين في سورة مريم ، فقال تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً** ﴾[2] ، وقال : ﴿ **واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً**

---

(١) والمرأة في ذلك كالرجل تماماً .

(٢) سورة مريم : الآية ٤١ .

نبيًّا ﴾(١) .

وأيضاً ، لأن الصدق يرقى بصاحبه إلى مرتبة الخيرية المشار إليها في الحديث الشريف الذي ورد :

● عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : قال : يا نبي الله مَن خير الناس ؟ قال : « ذو القلب المخموم ، واللسان الصادق » قال : يا نبي الله قد عرفنا اللسان الصادقَ فما القلب المخموم ؟ قال : « النَّقي التَّقِي الذي لا إثم فيه ، ولا بغي ولا حسد » قال : قلنا : يا رسول الله ، فمن على أثره(٢) ؟ قال : « الذي يشنأ الدنيا(٣) ، ويحب الآخرة » قلنا : ما نعرف هذا فينا إلا رافع مولى رسول الله ﷺ ، فمن على أثره ؟ قال : « مؤمن في خلق حسن »(٤) قلنا : أما هذه ففينا » . رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

أما الكذب فريبة .. أي : يقلق له القلب ويضطرب :

● « فعن الحسن بن علي رضي الله عنهما ، قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وحول معنى : « دع ما يريبك » ، قال في النهاية : « يروى بفتح الياء وضمها » قال المناوي : وفتحها أكثر ، والمعنى : دع ما تشك فيه إلى ما لا تشك فيه من الحلال البين .. لأن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

وصفة الكذب كذلك من الصفات المميزة للمنافقين :

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث(٥) : إذا حَدَّثَ كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر »

---

(١) مريم : الآية ٥٦ .
(٢) يعني : فمن الذي يليه في الخيرية .
(٣) يبغضها ، قال تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ .
(٤) يعني : جمع من الإيمان حسن الخلق ، وهو حسن معاشرة الناس وتحمل أذاهم .
(٥) أي العلامات التي تميزه وتدل عليه ثلاث خصال .

رواه البخاري ومسلم .

وزاد في رواية له : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » : يعني ما دامت فيه واحدة من هذه الخصال ، فهو منافق حتى ولو كان يقوم بالعبادات الظاهرة من صلاة وصيام أو كان يدعي الإسلام .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ، قال : « أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً[١] ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها[٢] : إذا ائتمن خان ، وإذا حَدَّثَ كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي .

ولهذا ، فقد أوصانا النبي ﷺ بالصدق الذي هو ضد الكذب حتى لا نكون من المنافقين .. الذين هم : « في الدرك الأسفل من النار » .

وقد قرأت[٣] أن للصدق ثمرات طيبة يجنيها الصادقون في الدنيا والآخرة .. من هذه الثمرات :

١ ـــ راحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، لقول الرسول ﷺ : « الصدق طمأنينة » .

٢ ـــ البركة في الكسب، وزيادة الخير ، لقول الرسول ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » رواه البخاري .

٣ ـــ الفوز بمنزلة الشهداء ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » رواه مسلم .

٤ ـــ النجاة من المكروه : فقد حكى أن هارباً إلى أحد الصالحين[٤]

---

(١) أي : كامل النفاق .

(٢) أي : يتركها .

(٣) في كتاب « منهاج المسلم » للشيخ أبو بكر الجزائري ـــ أكرمه الله .

(٤) وهو سيدي علي الخواص .. رحمه الله .. كما سمعنا من علمائنا الصالحين رحمهم الله .

وقال له : أخفني عن طالبي . فقال له : نَم هنا ، وألقى عليه حُزْمة من خوص ، فلما جاء طالبوه وسألوا عنه ، قال لهم : ها هو ذا تحت الخوص ، فظنوا أنه يسخر منهم فتركوه ، ونجا ببركة صدق الرجل الصالح .

ثم يقول : بعد ذلك ، في « منهاج المسلم » : هذا ، وللصدق مظاهر يتجلى فيها ، منها :

١ ــ في صدق الحديث ، فالمسلم إذا حدث لا يحدث بغير الحق والصدق ، وإذا أخبر فلا يخبر بغير ما هو الواقع في نفس الأمر ، إذْ كذب الحديث من النفاق ، وآياته ، قال ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » متفق عليه .

٢ ــ صدق المعاملة ، فالمسلم إذا عامل أحداً صدقه في معاملته فلا يغش ولا يخدع ، ولا يزور ، ولا يغرر بحال من الأحوال .

٣ ــ صدق العزم ، فالمسلم إذا عزم على فعل ما ينبغي فعله لا يتردد في ذلك ، بل يمضي في عمله غير ملتفت إلى شيء ، أو مبال بآخر حتى ينجز عمله .

٤ ــ صدق الوعد ، فالمسلم إذا وعد أحداً أنجز له ما وعده به ، إذ خلف الوعد من آيات النفاق كَما سبق في الحديث الشريف .

٥ ــ صدق الحال ، فالمسلم لا يظهر في غير مظهره ، ولا يظهر خلاف ما يبطنه ، فلا يلبس ثوب زور ، ولا يرائي ، ولا يتكلف ما ليس له ، لقول رسول الله ﷺ : « المتشبه بما لم يُعطَ كلابس ثوبَي زور »[١] . ومعنى هذا أن المتزين والمتجمل بما لا يملك لِيُرى أنه غني كمن يلبس ثوبين خَلِقَين[٢] ليتظاهر بالزهد وهو ليس بزاهد ولا متقشف .

●● وأما عن الخصلة الثانية التي يوصينا بها النبي ﷺ بعد أن أوصانا بالصدق في الحديث .. فهي الوفاء بالوعد .. كما يشير إلى هذا قوله صلوات

---

(١) رواه مسلم .

(٢) أي : اقديمين .. أو مرقعين .

الله وسلامه عليه في نص الوصيّة :

● « وأوفوا إذا وعدتم » :

فقد أمر الله تبارك وتعالى به في قرآنه فقال :﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً** ﴾(١) ، وقال :

● ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ..** ﴾(٢) ، وقال :

● ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ..** ﴾(٣) .

وقد مدح الله تعالى بهذه الخصلة العظيمة بعض رسله ، فقال في إسماعيل عليه السلام :

● ﴿ .. **إنه كان صادق الوعد** ﴾(٤) :

وقد قال القرطبي ، حول « صدق الوعد » في المسألة الثانية ، والثالثة — في سورة مريم — :

صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضده وهو الخلف مذموم ، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين .. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد . واختلف في ذلك ، فقيل : إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فُدي . هذا في قول مَن يرى أنه الذبيح(٥) . وقيل : وعد رجلاً أن يلقاه في موضع فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان في اليوم الآخر جاء ، فقال له : ما زلتُ هاهنا في انتظارك منذ أمس . وقيل : انتظره ثلاثة أيام . وقد فعل مثله نبينا ﷺ قبل بعثه ، ذكره النقاش وأخرجه الترمذي وغيره : عن عبد الله بن أبي الحمساء ، قال : بايعتُ النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبَقِيتْ له بَقيَّةٌ فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، فجئتُ فإذا هو في مكانه ، فقال :

---

(١) الإسراء : الآية ٣٤ .
(٢) النحل : الآية ٩١ .
(٣) المائدة : الآية ١ .
(٤) سورة مريم : الآية ٥٤ .
(٥) وهو الحق ...

« يا فتى لقد شققتَ عليَّ أنا هَاهُنا منذ ثلاث أنتظرك » لفظ أبي داود . وقال يزيد الرقاشي : انتظره إسماعيل اثنين وعشرين يوماً ، ذكره الماوردى . وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة . وذكره الزمخشري عن ابن عباس أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة . وذكره القشيري ، قال : فلم يبرح مكانه سنة حتى أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : إن التاجر الذي سألك أن تقعد له حتى يعود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له . وهذا بعيد ولا يصح . وقد قيل : إن إسماعيل لم يَعِد شيئاً إلا وفَّى ، وهذا قول صحيح ، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية ، والله أعلم .

ثم يقول القرطبي في المسألة الثالثة : من هذا الباب قوله ﷺ : « العِدةُ دَينٌ » . وفي الأثر : « وَأْيُ(١) المؤمن واجب » أي : في أخلاق المؤمنين . وإنما قلنا إن ذلك ليس بواجب فرضاً لإجماع العلماء على ما حكاه أبو عمر أن مَن وعد بمال ما كان ليضرب به مع الغرماء ، فلذلك قلنا إيجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضي به . والعرب تمتدح الوفاء ، وتذم بالخلف والغدر ، وكذلك سائر الأمم ، ولقد أحسن القائل :

متى ما يقل حُرٌّ لصاحب حاجةٍ   نعم يقضها والحر للوأْي ضامن

ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر وعلى الخلف الذم . وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صَدَقَ وعده ، ووفَّى بنذره ، وكفى بهذا مدحاً وثناءً ، وبما خالفه ذمًّا .

ثم يقول القرطبي في المسألة الرابعة : قال مالك : إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له : نعم ، ثم يبدو ألا يفعله فما أرى يلزمه . قال مالك : ولو كان ذلك في قضاء دَين فسأله أن يقضيه عنه فقال : نعم ، وثَمَّ(٢) رجال يشهدون عليه فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان . وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي والشافعي وسائر الفقهاء : إن العِدَةَ لا يلزم منها شيء لأنها منافع لم يقبضها في العارية لأنها طارئة ، وفي غير العارية هي أشخاص

---

(١) الوأى : الوعد .

(٢) أي : وهناك رجال يشهدون ..

وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها . وفي البخاري ﴿ **واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد** ﴾ ، وقضى أشوع بالوعد ، وذكر ذلك عن سمرة بن جندب . قال البخاري : ورأيت إسحاق ابن إبراهيم يحتج بحديث بن أشوع .

ثم يقول القرطبي بعد ذلك في المسألة الخامسة : ﴿ **وكان رسولاً نبيًّا** ﴾ ، قيل : أرسل إسماعيل إلى جرهم . وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا ، وخُصَّ إسماعيل بالذكر تشريفاً له . والله أعلم .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، حتى تكون من أهل الوفاء بالوعد .

●● وأما عن الخصلة الثالثة ، وهي أداء الأمانة التي يوصينا النبي ﷺ بها في نص الوصية ، فيقول :

● « وأدوا إذا ائتمنتم » :

فهي أيضاً من أجل الصفات التي ينبغي نحن المؤمنين بصفة خاصة أن نحرص على أدائها .. لأنها مرتبطة بالإيمان الذي لا يتأكَّد إلا بها :

● فعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهر له » رواه الطبراني .

● وعن علي رضي الله عنه ، قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فطلع علينا رجل من أهل العالية فقال يا رسول الله أخبرني بأشد شيء في هذا الدين وألينه ، فقال : « ألينه أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأشده ــ يا أخا العالية ــ الأمانة إنه لا دين لمن لا أمانة له ، ولا صلاة له ، ولا زكاة له » الحديث رواه البزار .

ولهذا ، فإن الله تعالى يأمرنا بأن نؤدي الأمانات إلى أهلها ، فقال :

● ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** .. ﴾ النساء : الآية ٥٨ .

فقد قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا**

الأمانات ... ﴾ هذ الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع وقد اختلف مَن المخاطبِ بها ، فقال على بن أبي طالب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب وابن زيد : هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة ، فهي للنبي ﷺ وأمرائه ، ثم تناول من بَعدهم . وقال ابن جريج وغيره : ذلك خطاب للنبي ﷺ خاصة في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة بن أبي طلحة الحَجبي العَبْدرِي من بني عبد الدار ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وكانا كافرين وقت فتح مكة ، فطلبه العباس بن عبد المطلب لتضاف له السِّدَانة إلى السقاية ، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان ، وأخرج مقام إبراهيم ونزل عليه جبريل بهذه الآية ، وما كنت سمعتُها قبلُ منه ، فدعا عثمان وشيبة ، فقال : « خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم » وحكى مَكِّيٌّ : أن شيبة أراد ألا يدفع المفتاح . ثم دفعه ، وقال للنبي ﷺ : خذه بأمانة الله . وقال ابن عباس : الآية في الولاة خاصة في أن يعظوا النساء في النشوز ونحوه ويردوهن إلى الأزواج . والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل في الحكومات . وهذا اختيار الطبري وتتناول مَن دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك ، كالرجل يحكم في نازلة مَّا ونحوه ، والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى . وروى هذا المعنى مرفوعاً من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها » أو قال : « كل شيء إلا الأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الحديث وأشد ذلك الودائع » ذكره أبو نعيم الحافظ في الحلية . وممن قال إن الآية عامة في الجميع البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب قالوا : الأمانة في كل شيء في الوضوء والصلاة والزكاة والجنابة والصوم والكيل والوزن والودائع . وقال ابن عباس : لم يرخِّص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة .

ثم يقول : قلت : وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها الأبرار منهم والفجار ، وقال ابن المنذر . والأمانة مصدر بمعنى المفعول فلذلك جُمع . ووجه النظم بما تقدم أنه تعالى أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد ﷺ ،

وقولهم : إن المشركين أهدى سبيلاً ، فكان ذلك خيانة منهم فانجرَّ الكلام إلى ذكر جميع الأمانات ، فالآية شميلة بنظمها لكل أمانة وهي أعداد كثيرة كما ذكرنا . وأمهاتها في الأحكام : الوديعة واللُّقطة والرهن والعارية . وروى أُبيُّ ابن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » . أخرجه الدارقطني . ورواه أنس وأبو هريرة عن النبى ﷺ وقد تقدم في سورة البقرة معناه . وروى أبو أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبة عام حجة الوداع : « العارية مؤداة والمنحة مردودة ، والدين مُقضى ، والزعيم غارم » صحيح أخرجه الترمذي وغيره . وزاد الدارقطنى : « فقال رجل : فعهد الله ؟ قال : عهد الله أحق ما أُدِّي » وقال بمقتضى هذه الآية والحديث في رد الوديعة وأنها مضمونة ـــ على كل حال كانت مما يغاب عليها أو لا يغاب تُعِدِّي فيها أو لم يُتَعَدَّ ـــ عطاء والشافعي وأحمد وأشهب . وروي أن ابن عباس وأبا هريرة ضمنا الوديعة . وروى ابن القاسم عن مالك أن من استعار حيواناً أو غيره مما لا يُغاب عليه فتلف عنده فهو مصدق في تلفه ولا يضمنه إلا بالتعدي . وهذا قول الحسن البصري والنخعي ، وهو قول الكوفيين والأوزاعي ، قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : « العارية مؤدَّاة » : لم يلزم المؤتمن غرمها لأنه مصدق ، فكذلك العارية إذا تلفت من غير تَعَدٍّ ، لأنه لم يأخذها على الضمان ، فإذا تلفت بتعديه عليها لزمه قيمتها لجنايته عليها . وروي عن على وعمر وابن مسعود أنه لا ضمان في العارية . وروى الدارقطني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا ضمان على مؤتمن » واحتج الشافعي فيما استدل به بقول صفوان للنبي ﷺ لما استعَار منه الأدراع : أعاريه مضمونة أو عارية مؤداة ؟ فقال : « بل مؤداة » .

وقد قرأتُ كذلك في « ظلال القرآن » حول هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً** ﴾ : كلاماً جامعاً ، قال فيه رحمه الله[١] .

---

(١) وهو الإمام الشهيد السيد قطب ـــ رحمه الله ـــ .

«هذه هي تكاليف الجماعة المسلمة، وهذا هو خُلُقُهَا: أداء الأمانات إلى أهلها . والحكم بين « الناس » بالعدل . على منهج الله وتعاليمه .

والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى .. الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان ، والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها « الإنسان » .. أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه . فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة . فكل ما عدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به ، والإهتداء إليه ، ومعرفته ، وعبادته ، وطاعته . وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا اتجاه . والإنسان وحده هو الذي وكل إلى فطرته ، وإلى عقله ، وإلى معرفته ، وإلى إرادته ، وإلى اتجاهه ، وإلى جهده الذي يبذله للوصول إلى الله ، بعون من الله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا** ﴾ .. وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات .

ومن هذه الأمانة الكبرى ، تنبثق سائر الأمانات التى يأمر الله أن تؤدى :

ومن هذه الأمانات : أمانة الشهادة لهذا الدين .. الشهادة له في النفس أولاً بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له . ترجمة حية في شعورها وسلوكها . حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس . فيقولوا : ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه ، وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال ! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون .. والشهادة له بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيته — بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية — فيما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه . إذ هو لم يدع إليها الناس كذلك ، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان . وهي إحدى الأمانات .. ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض ، منهجاً للجماعة المؤمنة ، ومنهجاً للبشرية جميعاً .. المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة ، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة، فإقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات ، بعد الإيمان الذاتي . ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة .. ومن ثَمَّ فـ « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » على هذا الأساس .. أداء لإحدى الأمانات ..

ومن هذه الأمانات ـــ الداخلة في ثنايا ما سبق ـــ أمانة التعامل مع الناس ، ورد أماناتهم إليهم : أمانة المعاملات ، والودائع المادية . وأمانة النصيحة للراعي والرعية . وأمانة القيام على الأطفال الناشئة . وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها ... وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالات الحياة على وجه الإجمال .. فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدَّى ، ويجملها النص هذا الإجمال ... » .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تكون إن شاء الله أهلاً لتنفيذ هذا الأمر الإلهي على هذا الأساس الذي وقفت عليه .. وحسبك إن فعلت هذا أنك لن تكون منافقاً خالصاً :

● فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « أربع مَن كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخاري ومسلم .

وادع الله تعالى معي بهذا الدعاء المحمدي الذي ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ ، يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة » رواه أبو داود ، والنسائي .

●● وأما عن الصفة الحميدة الرابعة التي أوصانا بها النبي ﷺ بعد ذلك في نص الوصية ، وهي حفظ الفروج ، كما يشير إلى هذا قوله صلوات الله وسلامه عليه :

● « واحفظوا فروجكم » :

فهذا أيضاً من أهم الصفات الحميدة التي ينبغي على المؤمن بل يجب عليه أن ينفذها .. لأنها من صفاته المميزة له عن غيره من الفساق الذين ينتهكون أعراض الناس .

وقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين الذي أرجو أن نكون جميعاً منهم

حتى يكون هناك أمن وأمان على الأنفس والأعراض والأموال :

● ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ : أي : حافظون فروجهم من الزنى :

﴿ **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ : أي : إلا من أزواجهم بالنكاح ، أو إمائهم بملك اليمين : ﴿ **فإنهم غير ملومين** ﴾ : أي : غير مُوبَّخين على ذلك ، ولا مذمومين : ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك** ﴾ : أي : فمن التمس لفرجه منكحاً ، سوى زوجته وملك يمينه : ﴿ **فأولئك هم العادون** ﴾ : أي : فأولئك هم المجاوزون ما أحل الله لهم ، إلى ما حرَّم عليهم . « من الآية ٥ ــ ٧ من سورة المؤمنون : الطبري » .

قال في « التفسير الوسيط » :

تضمنت هاتان الآيتان[1] الكريمتان صفة رابعة للمؤمنين الذي يفوزون بجنة الفردوس ، وهي حفظهم لفروجهم من الزنى ، والفرج يشمل سوأة الرجل والمرأة ، فالمراد به عضو التناسل من كل منهما ، ولفظ « على » في قوله : ﴿ **إلا على أزواجهم** ﴾ بمعنى : « من » كما قاله الفراء وغيره ، أي : حافظون لفروجهم إلا من أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، والأزواج جمع زوج ، وهو يطلق على كل من الرجل والمرأة المتزوجَين ، فكلاهما زاوج الآخر أي ثاناه ، بأن جعله مع نفسه اثنين ، والمراد مما ملكت أيمانهم السُّرِّيات وهن الإماء المأخوذات في غنائم الحرب ، دون المختطفات من أهلهن ، فلا يحل بيعهن ولا شراؤهنَّ ، ولا الاستمتاع بهن عن طريق ملك اليمين ، فهن حرائر مغتصبات فلا سبيل إلى تملكهن ، ومن اشتراهن وهو يعلم بحالهن فشراؤه غير صحيح ، والاستمتاع بهن زنى .

وقد أفادت الآية الكريمة أنه لا لوم ولا إثم على المؤمنين في غشيان زوجاتهم وإمائهم ، ولا على المؤمنات في مباشرة أزواجهن لهن ، أما عبيدهن فلا حق لهم في الاستمتاع بهن بالإجماع ، لأنه مملوك لها وليس مالكاً فهى قوامة عليه ، بخلاف استمتاع السيد بأمته فإنه مالك لها وقَوَّام عليها .

---

(١) يعني الآية ٥ ، ٦ من سورة « المؤمنون » فحسب .

روى معمر عن قتادة قال : تسررت امرأة غلامها(١) ، فذُكر ذلك لعمر فسألها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لي بملك يميني ، كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ، فاستشار عمر في رجمِهَا أصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا : تأولت كتاب الله على غير تأويله فلا رجم عليها ، فقال عمر : لا جرم . والله لا أُحِلُّكِ لحُرٍّ بعده أبداً ، عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد أن لا يقربها .

وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز ، حين جاءته امرأة بغلام لها وضيء ، فقالت : إني استسررته فمنعني بنو عمى من ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ، فانه عني بني عمي ، فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت : نعم ، فقال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها .

● ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾(٢) : أي : فمن طلب سوى الزوجات والإماء لقضاء شهوته ، فأولئك المجاوزون الحد في الإثم والعدوان .

وبهذه الآية حرم إتيان الذكور والبهائم ، كما حرم نكاح المتعة ، وهو نكاح المرأة إلى أجل بمقابل ، وكان مباحاً في الجاهلية ، فلما نزلت هذه الآية حرمته ، وهذا يقتضي أن تحريمها كان قبل الهجرة لأن السورة مكية ، لكن ورد تحريمها بعد الهجرة ثلاث مرات ، « إحداها » يوم خيبر(٣) . « وثانيتها » يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ، وكان قد أحلها يومئذ ثلاثة أيام ثم حرمها(٤) . « وثالثتها » كانت في حجة الوداع وكان التحريم فيها أبديًّا . أخرجه أبو داود(٥) .

---

(١) أي جعلته يجامعها ويستمتع بها ، من السر بمعنى الجماع .

(٢) الآية : ٧ من سورة المؤمنون

(٣) وقد اتفقت عليه روايتا البخاري ومسلم .

(٤) رواه مسلم .

(٥) انظره في شرح النووي لمسلم .

ويرجع تحليلها في بعض الغزوات ، إلى الترخيص لهم بما ألفوه قبل الإسلام في سفرهم وحروبهم ، تأليفاً لهم وتدرجاً معهم في التشريع ، فلما تشبعت نفوسهم بدينهم ، حرمه الله إلى الأبد .

وقد علق الإمام النووي على الحديث الأول من حديث المتعة عند مسلم — علق عليه — بكلام نفيس ، ثم قال : قال القاضي(١) : واتفق العلماء على أن هذه المتعة كانت نكاحاً إلى أجل لا ميراث فيها ، وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق ، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلا الروافض ، وكان ابن عباس — رضي الله عنه — يقول بإباحتها ، وروى عنه : أنه رجع عنه .

قال(٢) : وأجمعوا على أنه متى وقع نكاح المتعة الآن ، حكم ببطلانه ، سواء كان قبل الدخول أو بعده إلى آخر ما قال .. فارجع إن شئتَ إلى باب نكاح المتعة في كتاب النكاح تعليق الإمام النووي على الإمام مسلم ، وقد أسهب الألوسي في الكتابة على هذه الآية ، فمن شاء المزيد فليرجع إليه .

ومما ذكر فيها : أن الأئمة اختلفوا في استمناء الرجل بيده ، وأن جمهور الأئمة على تحريمه ، لدخوله تحت عموم قوله تعالى : ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ . وذكر أن الإمام أحمد يجيزه ، لأن المني فضلة في البدن فجاز إخراجها عند الحاجة ، كالفصد والحجامة . وعزز بعض العلماء رأي الجمهور بحديث عن رسول الله ﷺ ، قال : « ناكح اليد ملعون » كما عززه بقوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا** ﴾ وهذا الاستمناء يقرب صاحبه من الزنى ، فلهذا يكون منهياً عنه ومحرماً أ . هـ .

●● وللأمانة العلمية أضيف إلى هذا ما جاء في حاشية الصاوي على الجلالين ، والذي ذكر فيه الشروط التي اشترطها الإمام أحمد لجواز الاستمناء باليد :

الإستمناء باليد حرام عند مالك والشافعي وأبي حنيفة ، وقال الإمام :

---

(١) يعني القاضي « عياض » .

(٢) أي : قال القاضي عياض .

أحمد : يجوز بشروط ثلاثة : أن يخاف الزنى ، وأن لا يجد مهر حرة أو ثمن أمَة ، و أن يفعله بيده لا بيد أجنبي أو أجنبية .

●● وأنا شخصيًّا أشك في هذا الرأي من أساسه .. وأميل إلى الآراء القائلة بحرمة الاستمناء باليد .. لأن النبي ﷺ قد ترك لنا الرأي ، أو الحل الدليل له : فقال في نص حديث(١) شريف صحيح رواه البخاري ومسلم واللفظ له .. مخاطباً الشباب بصفة خاصة :

● « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة(٢) فليتزوج فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء »(٣) .

وقد ورد الترغيب في الصيام التطوع فضلاً عن الصيام الذي فرضه الله علينا ، وهو صوم رمضان :

● فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : الصومُ جُنَّة(٤) ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار .. » الحديث رواه الترمذي وصححه .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصيام نصف الصبر » . رواه ابن ماجه .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام .. حتى تنفذ إن شاء الله تعالى ما أوصاك به الرسول ﷺ ، فتحفظ فرجك من التلوث بالحرام .. حتى يحفظك الله تعالى .. وحتى تكون بسبب هذا إن شاء الله تعال أهلاً لدخول الجنة .. مع الوارثين : ﴿ **الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾(٥) .

●● وأما عن الخصلة الخامسة التي أوصانا بها النبي ﷺ في نص

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) الباءة : أي المنزل والنفقة وأعباء الزواج .
(٣) الوجاء : أي مضعف لشهوته .
(٤) جُنَّة : بضم الجيم وفتحة وشدة على النون : أي وقاية .
(٥) المؤمنون : الآية ١١ .

الوصية ، وهي : غضُّ البصر .. فيقول :

● « وغضوا أبصاركم » :

فإن الله تعالى قد أمرنا بهذا مؤمنين ومؤمنات — في سورة النور — فقال تعالى لحبيبه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حتى يبلغنا ، « بما بين القوسين »(١) :

● ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ أي، قل: للمؤمنين بالله يكفوا عن النظر إلى ما يشتهون مما نهوا عن النظر إليه ﴿**ويحفظوا فروجهم**﴾: أن يراها من لا يحل له رؤيتها ، بلبس ما يسترها عن أبصارهم(٢) ﴿**ذلك أزكى لهم**﴾: أي : الغض والحفظ أطهر لهم عند الله وأفضل. ﴿**إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ : أي، إن الله مطلع على ما تصنعون من غض البصر، وحفظ الفروج ﴿**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن**﴾: أي، وقل للمؤمنات من أمتك، يغضضن من أبصارهن عما يكره الله النظر إليه ﴿**ويحفظن فروجهن**﴾ : أي، عن أن يراها من لا يحل له رؤيتها، بلبس ما يسترها ﴿**ولا يبدين زينتهن**﴾ : للناس، الذين ليسوا لهن بمحرم ﴿**إلا ما ظهر منها** ﴾ أي : إلا الوجه والكفين(٣) ﴿**وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ : أي، وليلقين خمرهن على جيوبهن(٤)، ليسترن بذلك شعورهن ، وأعناقهن(٥) ﴿**ولا يبدين زينتهُنَّ**﴾ : أي، ولا يُظهرن الزينة الخفية غير الظاهرة ﴿ **إلا لبعولَتِهِنَّ**﴾ : أي، إلا لأزواجهن ﴿**أو آبائهنَّ أو آباء بعولتهنَّ أو أبنائِهِنَّ أو أبناء بعولتهن أو إخوانهنَّ أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن**﴾ أو لأحد من هؤلاء المذكورين

---

(١) سورة النور : من الآية ٣٠ ، ٣١ . والشرح من مختصر الطبري .

(٢) قول ابن جرير هذا مستلزم لحفظ الفروج من الزنى ، لأن من سترها عن النظر سترها عما هو أبعد منه ، وقد رجح القرطبي أن المراد بالآية ستر الفروج عن الأبصار وحفظها من الزنى لعموم اللفظ .

(٣) رأي ابن جرير هذا مبناه على أن الوجه والكفين ليسا بعورة ، والصحيح الذي تؤيده النصوص ، ويتمشى مع روح الإسلام أن الوجه من العورة التي يجب سترها فلا يجوز إبداؤها إلا لضرورة أو حاجة كما بينه العلماء ، لأن الوجه أصل الجمال ومصدر الفتنة والإغراء وأن المراد بالآية : ما ظهر من غير قصد ، وليس الإظهار بكشف الوجه .

(٤) جيوبهن : أي صدورهن ، وأصل الجيب في اللغة فتحة الثوب من جهة الصدر .

(٥) في هذه الآية دليل على تغطية الوجه لأن الخمار هو الذي تغطي به المرأة رأسها فإذا أنزلته على صدرها لتغطيه ، غطت ما بينهما وهو الوجه .

﴿ **أو نسائهن** ﴾ : أي ، أو نساء المسلمين[١] ﴿ **أو ما ملكت أيمانُهنَّ** ﴾ من الإماء المشركات ﴿ **أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال** ﴾ أي ، أو الذين يتبعونكم لطعام يأكلونه عندكم ، ممن لا حاجة له في النساء ﴿ **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ﴾ : أي ، أو الطفل الذين لم يكشفوا على عورات النساء لصغرهن ﴿ **ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يُخفين من زينتهنَّ** ﴾ : أي ، ولا يجعلن في أرجلهِنَّ من الحليِّ — كالخلخال الذي يوضع في القدم — ما إذا مشين ، أو حركنهنَّ علم الناس ما يخفين من ذلك ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون** ﴾ : أي ، وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله ، فيما أمركم ونهاكم ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ : أي ، لتفلحوا وتدركوا طلباتكم لديه ، بطاعتكم لأوامره ونواهيه .

وحول هاتين الآيتين الكريمتين جاء في التفسير الوسيط ، ما مضمونه :

شرع الله في الآيات السابقة[٢] وجوب الإستئذان على البيوت توقيراً لحرمات أهلها ، وستراً لعوراتهم عمن يدخلونها فجأة ، وجاء بهذه الآية والتي بعدها تتميماً لما قبلها من الآداب التي تحمي الأعراض ، وتحفظ في المؤمنين والمؤمنات مكارم الأخلاق ، فقد أمر الله فيهما بغض البصر عن المحرمات ، وعدم إبداء الزينة لغير من يحل إبداؤها له ، إلى غير ذلك من الآداب والأحكام التي سنبيِّنُها .

والبصر : هو الباب الموصل إلى القلب ، وأشد الحواس تنبيهاً له ، وعن طريقه غالباً يكثر السقوط والإنغماس في أوحال الفتنة فهو بريد الزنى ورائد الفجور ، قال الشاعر :

كل الحوادث مبداهَا من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السِّهام بلا قوسٍ ولا وتر

فلهذا عُنِيَ الشارع بإيجاب غض البصر وكَفِّه عن المحرمات ، والتحذير من الفتنة عن طريقه ، كما جاء في هاتين الآيتين ، وكما في قوله ﷺ : « إياكم

---

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال آخرون : إن المراد جميع النساء ، وقول السلف محمول على الأولى والأحب
(٢) يعني : الآية ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من سورة النور .

والجلوس على الطرقات ، فقالوا : ما لنا بُدٌّ إنما هي مجالسنا نتحدثِ فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق ، قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر » أخرجه البخاري .ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري ، واللفظ للبخاري .

والأمر فيها موجه إلى النبي ﷺ لإيذائه بمتابعته لهم في هذا الشأن وهيمنته عليهم فيه حتى يكفوا عما اعتادوه في الجاهلية من نظر الرجال إلى النساء والنساء إلى الرجال .

هذا ، وقد قيل : إن سبب نزول الآية : ما أخرجه ابن مردويه بسنده عن علي بن أبي طالب ، قال : مر رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ، ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر إليها ، إذا استقبله الحائط فشق أنفه ، فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأخبره أمري ، فأتاه فقصَّ عليه قصتَه ، فقال النبي ﷺ : « هذا عقوبة ذنبك » وأنزل الله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ أنظر الألوسي .

وغض البصر : خفضه كفًّا له عن النظر ، ولفظ « من » في قوله تعالى : ﴿ **من أبصارهم** ﴾ إما لابتداء الغاية — كما قال ابن عطية — وإما أن تكون للتبعيض ، فالمراد : غض البصر عما يحرم والإقتصار به على ما يحل كالنظر إلى الزوجة والمَحْرَم ، ويجب أن يتجرد نظره المَحْرَم عن الشهوة ، بل لقد كره الشعبي أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ، وزمانه خير من زماننا ، فإذا نظر إليها بشهوة فإثمه شديد وعقابه عنيف ، نسأل الله العصمة لعباده المؤمنين .

ونقل كثير عن السلف أنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل النظر إلى الأمرد ، وشدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان .

أما نظرة الفجاءة إلى الأجنبية فلا إثم فيها ، فقد أخرج أبو داود وغيره عن بريدة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تتبع النظرةَ النظرةَ ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة » .

والمراد بحفظ الفروج أمران ، أحدهما : حمايتها من الزنى واللواط ، وثانيهما : سترها عمن لا يحل له النظر إليها من الأجانب والأقارب ، إلا في حالات جراحتها أو علاجها أو الكشف عن مرضها ، فإنه يجوز كشفها للطبيب الأمين[1] عند الضرورة .... إلى أن يقول :

والمعنى الإجمالي للآية : قل أيها الرسول للمؤمنين : يخفضوا من أبصارهم كفًّا لها عن رؤية ما لا تحل رؤيته من النساء والرجال ، ويحفظوا فروجهم بمنعها عن الزنى ، وسترها عن غير زوجاتهم وإمائهم ، ذلك الغض للبصر وحفظ الفرج أظهر لهم في الدين ، وأبعد عن دنس الإثم ، إن الله عليم بما يصنعون من امتثال أمره أو عصيانه ، فيجازي كلاًّ على ما كسب ، إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر .

ثم يقول حول قوله تعالى : ﴿ **وقل للمؤمنات يغضُضْنَ من أبصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ ولا يبدين زينتهنَّ إلا ما ظهر منها ...** ﴾ الآية .

أمر الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن يبلغ النساء المؤمنات ، أنهن مكلفات بغض أبصارهن وحفظ فروجهنَّ ، مع أنهن داخلات في حكم الآية السابقة للتأكيد ، فإنه قوله ﴿ **قل للمؤمنين** ﴾ يعم حكمه الذكور والإناث حسب كل خطاب في القرآن ، فإن النساء شقائق الرجال في الأحكام إلا ما خَصَّ كلاًّ منهم بدليل أو قرينة .

وقد فهم من الآيتين أنه كما يحرم نظر الرجال إلى النساء غير المحارم ، يحرم نظرهن إليهم كذلك ، أخرج أبو داود والترمذي بسندهما عن أم سلمة : « أنها كانت عند رسول الله ﷺ ، قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ : « احتجبا منه » فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله

---

(١) ويشترط حضور من يمنع حضوره الخلوة إذا كان المريض امرأة ، كالزوج والأب .

ﷺ : « أوعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟ » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ومنه عرف أن نظر المرأة ولو لرجل أعمى حرام ، وكما يحرم على الرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها(١) ، يحرم على المرأة أن ترى منه سوى وجهه وكفيه ، وكما يجب على الولي منع الفتى المراهق من نظر المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها ، يجب على ولي الفتاة المراهقة أن يمنعها من نظر ما عداها من الرجل الأجنبي ولو مراهقاً(٢) .... إلخ(٣) .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، وأنتِ أيتها الأخت المسلمة .. حتى تنفذَ أمر الله فتحفظا فَرجَيْكُما .. على أساس من هذه التوجيه القويم الذي لا بد وأن يكون دائماً وأبداً نُصب أعيننا جميعاً حتى نكون بسببه من أهل النجاة في الدنيا والآخرة .. والله ولي التوفيق .

●● وأما عن الصفة الأخيرة من الصفات الحميدة التي أوصانا بها الرسول ﷺ في نص الوصية ، وهي : كف الأيدي عن إيذاء الناس ، فقال :

● « وكفُّوا أيديكم » :

فهي أيضاً من أهم الصفات الإيمانية التي ينبغي على كل مسلم ومسلمة أن يكونا من المتخلقين بها ..لأنه لا يكمل الإسلام إلا بها :

● فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » متفق عليه .

● وعن أبي موسى رضي الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله : أي المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » رواه البخاري ومسلم ، والنسائي .

يعني أن أفضل خصال الإسلام هو حفظ اللسان واليد من التعرض

---

(١) وهو رأي المحققين من الشافعية .

(٢) المراهق : من قارب بلوغ الحلم من الذكور والإناث .

(٣) فارجع إلى هذا الموضوع بتوسع في التفسير الوسيط وإن شئت ففي القرطبي ، وفي تفسير الألوسي .

بالأذى للمسلمين ، فلا يغتاب أحداً ، ولا يمشي بنميمة ، ولا يشهد زوراً ، ولا يقول هجراً ، ولا يسب أحداً ، ولا يضرب بيده إنساناً ، ولا يسرق بها مالاً ، ولا يشير بها استهزاء ... إلخ .

وهو حديث عظيم يدل على مدى عناية الإسلام بسلامة المجتمع من مظاهر الإعتداء ، وأنواع الشر والإيذاء التي من شأنها أن تجعل الأفراد مهددين لا يطمئنون على نفس ولا على مال .. فحبذا لو راعى المسلمون هذا التوجيه النبوي الكريم .. فاحترم بعضهم حقوق بعض .. واعتبر كل منهم عدوانه على أخيه كأنه عدوان على نفسه .. قال الخطابي : « المراد أن أفضل المسلمين مَنْ جمع إلى أداء حقوقه تعالى أداء حقوق المسلمين » .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام .. وعامل أخاك المسلم بما تحب أن يعاملك به .. حتى تكون إن شاء الله من المزحزحين عن النار .. وتدخل الجنة :

● فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن أحبَّ أن يُزحزَحَ عن النار ويدخلَ الجنة فلتأته منيتُه وهو يؤمُن بالله واليوم الآخِرِ وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يُؤْتَى إليه » رواه مسلم .

ولتكن دائماً وأبداً أداة خير لا شر حتى تجد إن شاء الله عند الله خيراً لا شرًّا ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره** ﴾[1] ، ﴿ **.. يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ..** ﴾[2] .

● فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس[3] ، قيل : يا رسول الله من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ فقال : إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتهليل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصمَّ[4] ، وتهدي الأعمى[5] ،

---

(١) سورة الزلزلة : الآية ٧ ، ٨ . (٢) سورة النبأ : الآية ٤٠ .

(٣) أي ليس من عضو من أعضائه الاواجب عليه صدقة في صبيحة كل يوم .

(٤) أي ترفع صوتك له حتى يَسمعك .

(٥) أي تدله على الطريق وتقوده إلى حيث يريد .

وتدل المستدِل علي حاجته ، وتسعى بِشِدَّةِ ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك » رواه ابن حبان في صحيحه ،والبيهقي مختصراً ، وزاد في رواية :

« وتبسمك في وجه أخيك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن طريق الناس صدقة ، وهديك الرجل في أرض الضَّالَّة لك صدقة » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوكٍ فأخَّره[1] ، فشكر الله له[2] ، فغفر الله له »[3] رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم : قال : « لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين » .

وفي أخرى له : « مَرَّ رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق[4] ، فقال : والله لأُنَحِّيَنَّ هذا[5] عن المسلمين لا يؤذيهم[6] ، فأدخل الجنة[7] » .

رواه أبو داود ، ولفظه : قال رسول الله ﷺ : « نزع رجل[8] لم يعمل خيراً قطُّ غصن شوك عن الطريق : إما قال كان في شجرة فقطعه ، وإما كان موضوعاً ، فأماطه عَن الطريق ، فشكر الله ذلك له ، فأدخله الجنة » .

فليكن كل هذا سبباً في كف يدك .. بل وجميع جوارحك عن إيذاء الناس والمؤمنين والمؤمنات بصفة خاصة ... وحسبك تحذيراً لك قول الله تبارك وتعالى :

● **﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ﴾ أي :**

---

(١) أي أبعده عن الطريق .
(٢) أي رضي عمله هذا وقبله منه .
(٣) أي حط عنه ذنوبه وخطاياه .
(٤) أي من وسطه .
(٥) أي لأبعدنه .
(٦) أي حتى لا يسبب لهم أذى .
(٧) يعني كان هذا العمل القليل الذي شكر الله له سبباً في دخوله الجنة .
(٨) النزع هو الأخذ بشدة .

والذين يعيبون المؤمنين والمؤمنات طلباً لشينهم ، بغير ما عملوا ﴿ **فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾[1] أي : فقد احتملوا زوراً وكذباً ، وفِريةً شنيعة :

نعوذ بالله من البهتان والإثم المبين .. ونسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للعمل بهذه الوصية العظيمة .. التي بها سنكون إن شاء الله تعالى من أهل الجنة .

والله ولي التوفيق .



(١) الأحزاب : الآية ٥٨ .

الوصية الرابعة والثمانون

عن أبي هريرة رضي الله عنه.
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

مَن كَانَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ
فَليُكرِم ضَيفَهُ
وَمَن كَانَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ
فَليَصِل رَحِمَهُ
وَمَن كَانَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَليَقُل خَيرًا أَو
لِيَصمُت

رواه البخاري ومسلم

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذه الوصية العظيمة التي إن نفذتها إن شاء الله .. كنتَ فعلاً من المؤمنين بالله واليوم الآخر .. وكنت أيضاً في نفس الوقت من المؤمنين الصادقين الذين عرفوا ما لهم وما عليهم نحو إخوانهم .. ونحو أنفسهم من الحقوق والواجبات .. التي ينبغي على كل مؤمن ومؤمنة بالله واليوم الآخر أن يكون حريصاً على تنفيذها في حدود طاقته المشار إليها في قول الله تعالى :

- ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾[1] وقوله :
- ﴿ **اتقوا الله ما استطعتم** ﴾ .

وقد بدأ النبي ﷺ وصيته بقوله :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

وهذا يشير إلى أهمية الكرم أو الإكرام ، الذي هو من أهم صفات المؤمن المميزة له .. والتي لا بد أن تكون متأصِّلة فيه .. فقد ورد في الأثر :

« خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » .

ولا سيما بالنسبة للضيف الغريب الذي زارك لله .. لأنه صاحب حق عليك :

- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال : دخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فقال : « ألم أُخْبَرْ أنك تقوم الليل ، وتصوم النهارَ ؟ قلتُ بلى ، قال : **فلا تفعل ، قُمْ ونَمْ وصُمْ وافطر ، فإن لجسدك عليك حَقًّا ، وإن لعينك عليك حقًّا ،** وإن لزَوْرِكَ عليك حقًّا ، وإن لزوجك عليك حقًّا » الحديث رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم وغيرهما .

وقوله : « وإن لِزَوْرِكَ عليك حقًّا » : أي : **وإن لزوارك وأضيافك عليك حقًّا ، يقال للزائر : زَوْر بفتح الزاء سواء فيه الواحد والجمع .**

ومن الأمثلة العظيمة الواردة في السنة في إكرام الضيف وإيثاره على

---

(١) البقرة ، الآية ٢٨٦ .

النفس والأهل « ولو كان بهم خَصاصة » ، ما ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إني مجهود[١] .. فأرسل النبي ﷺ إلى بعض نسائه ، فقالت : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء . ثم أرسل إلى أخرى .. فقالت مثل ذلك .. حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، فقال : « من يضيف هذا الليلة رحمه الله » ، فقام رجل من الأنصار ، فقال : أنا يا رسول الله ، فانطلق به إلى رَحْلِهِ[٢] ، فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت : لا إلا قوتُ صبياني[٣] قال : فَعلِّليهم بشيءٍ[٤] ، فإذا أرادُوا العشاءَ فنَوِّميهم[٥] ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراجَ ، وأريه أنا نأكل[٦] .

وفي رواية : فإذا أهوى[٧] ليأكل ، فقومي إلى السراج حتى تطفئيه . قال : فقعدوا وأكل الضيف ، وباتا طاويين[٨] ، فلما أصبح[٩] غَدَا على رسول الله ﷺ ، فقال : « قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما » :

زاد في رواية ، فنزلت هذه الآية : ﴿ .. ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[١٠] .. ﴾[١١] . رواه مسلم وغيره ... وكذا رواه البخاري ، قال : « حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير حدثنا أبو أسامة حدثنا فضيل بن غزوان حدثنا أبو حازم الأشجعي عن أبي هريرة قال : ثم روى الحديث .

---

(١) يقال جهد عيشه بالبناء للمجهول : صعب واشتد ونكد .
(٢) يطلق الرحل ويراد به مطلق المنزل وهو في الأصل للبيت من الخيام .
(٣) يعني ليس عندي من الطعام إلا ما يكفي عشاء الأولاد .
(٤) أي ألهيهم وأشغليهم به .
(٥) أي أرقديهم وأحمليهم على النوم .
(٦) وذلك برفع الأيدي إلى الفم خالية من الطعام .
(٧) أي مد يده .
(٨) أي : جائعين .. والطوى : الجوع .
(٩) أي : دخل في الصباح واستيقظ لصلاة الفجر .
(١٠) أي مجاعة وحاجة إلى هذا الطعام .
(١١) سورة الحشر الآية ٩ .

وكذا رواه البخاري في موضع آخر ، ورواه مسلم والنسائي من طرق عن فضيل بن غزوان ، وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه .

وفي هذا الحديث إثبات صفة العُجب لله عز وجل كما في الحديث الآخر « عجب ربك من قنوط عباده وقرب خيره ينظر إليكم أزلّين قانطين يظل يضحك يعلم أن فَرَجَكُم قريب » : فمذهب السلف إثبات ذلك على حقيقته بدون تأويل مع تنزيهه سبحانه عن مماثلة خلقه .

● وعن أبي شُريح خُويلد بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة ، ولا يَحِلُّ له أن يُثوِيَ عنده حتى يُحْرِجَه » رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

قال الترمذي : ومعنى لا يثوى : لا يُقيم حتى يشتد على صاحب المنزل ، والحرج : الضيق : انتهى .

« وقال الخطابي » : معناه لا يحل للضيف أن يقيم عنده بعد ثلاثة أيام من غير استدعاء منه يضيق صدره ، فيبطل أجره . انتهى .

« قال الحافظ » : وللعلماء في هذا الحديث تأويلان : أحدهما أنه يعطيه ما يجوز به ويكفيه في يوم وليلة إذا اجتاز به ، وثلاثة أيام إذا قصده ، والثاني يعطيه ما يكفيه يوماً وليلة يستقبلهما بعد ضيافته .

واستدل بجعل ما زاد على الثلاث صدقة على أن الذي قبلها واجب ، واستدل ابن بطال لعدم الوجوب بقوله « جائزته » لأن الجائزة تفضل وإحسان ليست واجبة .. وهو استدلال ضعيف فإن الجائزة قد تكون حقًّا واجباً وقد صرح في الأحاديث بذلك .

وقال في الفتح : « قال ابن بطال : سئل عنه مالك ، فقال مالك : يكرمه ويتحفه يوماً وليلة وثلاثة أيام ضيافةً . وقال أبو عبيد : يتكلف له في اليوم

الأول بالبر والإلطاف ، وفي الثاني والثالث يقدم له ما حضره ولا يزيده على عادته ، ثم يعطيه ما يجوز به(١) مسافة يوم وليلة .. وتسمَّى الجيزة ، وهي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل ، ومنه الحديث الآخر : « أجيزُوا الوفد بنحو ما كُنتُ أُجيزُهم » وقال الخطابي : معناه إذا نزل به الضَيف أن يُتحفه ويزيد في البِر على ما بحضرته يوماً وليلة .. وفي اليومين الأخيرين يقدم له ما يحضره ، فإذا مضى الثلاث فقد قضى حقه ، فما زاد عليه مما يقدمه له يكون صدقة » أ . هـ .

وتأكيداً لهذا الحق الذي للضيف عليك .. إليك أيضاً هذه الأحاديث :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « أيُّما(٢) ضيفٍ نزل بقوم ، فأصبح الضيفُ محروماً(٣) ، فله أن يأخذ بقدر قِراه(٤) ، ولا حرج عليه(٥) » رواه أحمد ، ورواته ثقات ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

● وعن أبي كريمة وهو المقدام بن معديكرب الكنديُّ رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة الضيف(٦) حقٌّ على كل مسلم ، فمن أصبح بفنائه(٧) فهو عليه دِينٌ(٨) إن شاء قضى ، وإن شاء ترك » رواه أبو داود ، وابن ماجة .

قال ابن ماجة « حدثنا علي بن محمد ثنا وكيع ثنا سفيان عن منصور عن الشعبي عن المقدام أبي كريمة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة الضيف واجبة فإن أصبح بفنائه فهو دين عليه فإن شاء اقتضى وإن شاء ترك » .

● وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أيُّما رجلٍ أضاف

---

(١) أي ما يكفيه من العطاء ...
(٢) أي اسم شرط وما زائدة ، وضيف مضاف إليه وجملة « نزل » في محل جر صفة لضيف .
(٣) أي لم يجد منهم من يضيفه ويقدم له قِراه .
(٤) يعني فمن حقه أن يأخذ من أموالهم ما يساوي قيمة قراه ، والقِرى بكسر القاف ، ما يقدم للضيف .
(٥) أي لا إثم عليه في ذلك ولا عقوبة .
(٦) أي واجب لازم .
(٧) يعني فمن أصبح الضيف بفناء داره .
(٨) أي : فحق الضيف أصبح ديناً في ذمته .

قوماً[1] ، فأصبح الضيف محروماً[2] ، فإن نصره حقٌّ على كل مسلم حتى يأخذ بِقِرى ليلته[3] ، من زرعه وماله[4] » رواه أبو داود ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

فلاحظ أخا الإسلام كل هذا ، حتى تكون مؤمناً ، وحتى تكون سَخِيًّا لا بخيلاً ، و :

قم إذا ما الضيف جاءك	وامنـــح الضيـــف غذاءك
واجـل من وجــهك مرآة	يرى فيها صفـــــــاءك
إن يهن عنـــدك ضيـــف	يكـــــــن الهون جزاءك

●● وأما عن المراد من قول الرسول ﷺ : في نص الوصية :

● « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه » :

فإن المراد بهذا : أن يُحسن إلى ذوي قرابته ، فيعطي محتاجهم ، ويزور مريضهم ، ويواسي منكوبهم ... إلخ .

وقد رغب النبي ﷺ في هذا الخير ، فقال في حديث شريف ، ورد :

● عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « من أحب أن يبسط له[5] في رزقه ويُنسأ له في أثره[6] : فليصل رحمه » رواه البخاري ومسلم .

« ويُنسَأ » : بضم الياء وتشديد السين المهملة مهموزاً : أي يؤخر له في أجله .

قال ابن التين : « ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاء أجلهم**

---

(١) أي : أنزلهم ضيوفاً عليه .
(٢) يعني لم يقدم له ما يجب من القرى .
(٣) أي : بقدر قِرى ليلته .
(٤) أي : من زرع من أضافه وماله .
(٥) أي يوسع له ويزاد في رزقه .
(٦) الأثر : أي الأجل ، وسمى الأجل أثراً لأنه يتبع العمر .

لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ والجمع بينهما من وجهين أحدهما أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة وصيانته عن تضييعه في غير ذلك .. ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده ، والصدقة الجارية عليه ، والخلف الصالح .

ثانيهما : أن الزيادة على حقيقتها ، وذلك بالنسبة إلى علم الملَك الموكل بالعمر ، وأما الأول الذي دَلَّت عليه الآية .. فبالنسبة إلى علم الله تعالى والوجه الأول أليق بلفظ حديث الباب ، فإن الأثر ما يتبع الشيء فإذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « مَن سَرَّهُ أنْ يُبسَطَ له في رزقه ، وأن يُنَسَّأَ له في أثره ، فليصل رحمه » رواه البخاري والترمذي ، ولفظه :

« قال : تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم مَحَبَّةٌ في الأهل ، مَثراةٌ في المال ، مُنَسَّأَةٌ في الأثر » وقال : حديث غريب ..

ومعنى هذا : أن العلم بالأنساب يعين على صلة الأرحام .. لأن الجهل بالأنساب يؤدي إلى قطع الرحم بين ذوي النسب الواحد .. وكم من قرابات قد أهملها أهلها ، وتقاطع أفرادها بسبب جهلهم بالنسب الذي يجمعهم .

وأن صلة الرحم تزيد المحبة وتوثق الألفة بين الأفراد في الأسرة الواحدة .

وأنها : مجلبة للخير الواسع ، والمال الكثير .

● وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « من سره أن يُمَدَّ له في عمره ، ويُوَسَّعَ له في رزقه ، ويدفع عنه ميتة السوء : فليتق الله ، وليصل رحمه » رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده ، والبزار بإسناد جيد والحاكم .

أي : فليتق الله .. بمعنى أن يجعل التقوى شعاره في كل أحواله .. فلا يقصر في واجب ، ولا يتعدى حَدًّا ، ولا يرتكب محرماً ولا يظلم أحداً ..

وليصل رحمه حتى يدفع الله عنه ميتة السوء .. وهي ما تكون بسببٍ شنيع كحرق وغرق ونحوهما ...

● وعن أبي أيوب رضي الله عن أن أعرابيًّا عرضَ(١) لرسول الله ﷺ ، وهو فى سفر ، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال : يا رسول الله أو يا محمد : أخبرنى بما يقربنى من الجنة ، ويباعدنى مِن النار ؟ قال : فكف النبى ﷺ ، ثم نظر في أصحابه ، ثم قال : « لقد وُفِّق أو لقد هدي » ، قال : كيف قلت ؟ قال : فأعادها ، فقال النبي ﷺ : « تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم ، دع الناقة » .

وفي رواية : وتصل ذا رحمك ، فلما أدبر(٢) قال رسول الله ﷺ : « إن تَمسَّكَ بما أمرتُهُ به دخل الجنة » رواه البخاري ومسلم واللفظ له .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن الرحم شَجنة(٣) من الرحمن ، تقول : يارب إني قُطِعتُ ، يا رب إني أُسيءَ إِلَيَّ ، يا رب إني ظُلِمتُ يا رب ، فيُجيبُهَا : ألا تَرضَين أن أصِلَ مَن وصلك ، وأقطع مَن قطعَكِ » رواه أحمد بإسناد جيد قوي ، وابن حبان في صحيحه .

ومعنى الحديث : أن الرحم اشتق اسمها من الرحمن ، فلها به تعلق وارتباط وليس معناه أنها من ذات الله .. تعالى الله عن ذلك .

قال القرطبي : « الرحم التي توصل عامة وخاصة ، فالعامة : رحم الدين .. وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة .. وأما الرحم الخاصة : فتزيد النفقة على القريب ، وتفقد أحوالهم ، والتغافل عن زلاتهم » .

وقال ابن أبي جمرة ، « تكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجة ،

---

(١) أي اعترضه ووقف في طريقه .
(٢) أي انصرف الرجل .
(٣) أصل الشجنة : الشعبة من كل شيء .

وبدفع الضرر ، وبطلاقة الوجه ، وبالدعاء .. والمعنى الجامع : إيصال ما أمكن من الخير ، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة . وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا كفاراً أو فُجاراً .. فمقاطعتهم في الله هي صلتهم .. بشرط بذل الجهد في وعظهم ، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق .. ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى » .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق[١] حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم[٢] ، فقالت : هذا مقام العائذ بِكَ من القطيعة . قال : نعم ، أما تَرضَينَ أن أصل مَن وصَلَكِ ، وأقطعَ من قطعكِ ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لكِ ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأوا إن شئتم : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم**[٣] **أن تفسدوا في الأرض وتُقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ رواه البخاري ومسلم .

وحول معنى أن الرحم قامت بين يدي الله جل شأنه ، فقالت ... إلخ .

قال ابن أبي جمرة : « يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن يكون بلسان المقال .. قولان مشهوران ، والثاني أرجح .. وعلى الثاني : فهل تتكلم كما هي أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلاً .. قولان أيضاً مشهوران والأول أرجح لصلاحية القدرة العامة لذلك » .

وقال في الفتح : « قال عياض : يجوز أن يكون الذي نسب إليه القول مَلكاً يتكلم على لسان الرحم » وهو بعيد ، وأبعد منه قول القرطبي : « أي لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم ، لقالت كذا .. فمقصود هذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم ، وأنه تعالى أنزلها منزلة من استجار به فأجاره فأدخله في حمايته » .

---

(١) أي جميع المخلوقات .

(٢) أي مثلت بين يدي الله جل شأنه .

(٣) أي تعودوا إلى ماكنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام .

وحول معنى الوصل والقطع ، المشار إليهما في الحديث :

قال ابن أبي جمرة : « الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه سبحانه وتعالى على عبده وإسعافه بما يريد ومساعدته على ما يرضيه ، والقطع كناية عن الحرمان من الإحسان » .

وحول الآية الكريمة المشار إليها كذلك في نص الحديث :

قال ابن كثير : « وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً .. بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض ، وصلة الأرحام وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال » .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، ونفذه حتى تكون بسبب كل هذا إن شاء الله تعالى من المؤمنين بالله واليوم الآخر .. ومن أهل الجنة إن شاء الله .

●● وأما عن المراد من قول الرسول ﷺ بعد ذلك في ختام الوصية :

● « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » : فإن هذا العنصر بالذات من أهم ما يجب علينا نحن المؤمنين والمؤمنات بصفة خاصة تنفيذه لأن اللسان هو الموصل غالباً إلى النار :

● فقد ورد في نص حديث شريف رواه الترمذي وقال عنه أنه حديث حسن صحيح : أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « وهل يكب الناسَ في النار على وجوههم . أو قال : على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » .

● وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله حدثني بأمرٍ أعتصم[1] به ؟ قال : « قل : ربي الله ثم استقم » . قال : قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ[2] ؟ فأخذ بلسان نفسه[3] ، ثم قال: «هذا» . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

---

(١) أي أتمسكُ وأتثبت به .
(٢) أي ما الذي تخافه عليَّ من الذنوب أكثر من غيره .
(٣) أي أمسك بطرفه .

● وعن سهل بن سعد رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن يضمنُ لي ما بين لحييْهِ(١) ، وما بين رجليه(٢) : أضمنُ له الجنة » رواه البخاري والترمذي .

فالمعنى : من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يفيد ، أو الصمت عما لا يعنيه ، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام .

قال ابن بطال : « دل الحديث على أن عظم البلاء على المرء في الدين : لسانه وفرجه .. فمن وقى شرهما وُقِي أعظم شر » .

● وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله : أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الصلاة على ميقاتها » . قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : « أن يسلم الناس من لسانك » رواه الطبراني بإسناد صحيح ، وصدره في الصحيحين . وتمامه في الصحيحين : قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » .

وقد قرأت حول قول النبي ﷺ : « .. فليقل خيراً أو ليصمت » في شرح الأربعين النووية « للجرداني » ، قوله :

المعنى : فليفعل أفعال المؤمنين الكاملين في إيمانهم من قول الخير ، وهو ما فيه ثواب ، والصمت ، أي السكوت عما لا خير فيه ، وهو شامل للصمت عن الحرام والمكروه ، بل وعن المباح أيضاً لأنه لا خير فيه ، وربما جر إلى مكروه أو حرام وعلى تقدير أنه لا يجر إليهما ففيه ضياع للوقت فيما لا يعني .. وقد قال النبي ﷺ : « من حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، وقيل : أن الإنسان إما أن يتكلم أو يسكت ، فإن تكلم فإما بخير ربح ، وأمَّا بِشَرٍّ فهو خسران ، وإن سكت ، فإمَّا عن شر فربح ، وإما عن خير فخسران .. فله في كلامه وسكوته ربحان ينبغي تحصيلهما ، وخسارتان ينبغي التخلص منهما .

---

(١) أي اللسان .
(٢) أي الفرج .

وذكر بعضهم أن الكلام أربعة أقسام : ضرر محض ، ونفع محض ، وضرر ومنفعة ، ولا ضرر ولا منفعة :

فالضرر المحض لا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة ، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر ، فهو فضول ، والإشتعال به تصييع للزمان ، وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ، أي : وهو النفع المحض ، وفيه خطر ، إذ قد يجر ما فيه إثم من الرياء والعجب ونحوهما .. فينبغي التفطن لذلك ، وفي الحديث : « ألا أنبئكم بأمرين خفيفين لم يلق الله بمثلهما : الصمت وحسن الخلق » وقال لقمان لابنه : « لو كان الكلام من فضة كان السكوت من ذهب » ومعناه كما قال ابن المبارك : « لو كان الكلام في طاعة الله من فضة لكان السكوت عن معصية الله من ذهب » وما أحسن قول بعضهم :

قالوا سكوتك حرمان فقلت لهم ما قدر الله يأتيني بلا نصب[1]
ولو يكون كلامي حين أنشره من اللجين[2] لكان الصمت من ذهب

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : أحسن الناس لنفسه أملكهم للسانه .

وقال أيضاً : بينما أسير في نواحي الشام إذ ظهرت لي روضة خضراء وفي وسطها شاب قائم يصلي تحت شجرة تفاح ، فتقدمت إليه وسلمت عليه ، فلم يرد علي السلام ، فسلمت عليه ثانياً ، فأوجز ، أي أسرع في صلاته ثم كتب في الأرض بأصبعه :

مُنِع اللسانُ من الكلام لأنه هدف البلاء وجالب الآفات
فإذا نطقتَ فكن لربك ذاكراً لا تنس واحمده في الحالات

قال ذو النون : فبكيت طويلاً وكتبت بأصبعي في الأرض :

وما من كاتب إلا سيبلي ويفنى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

---

(١) النَّصَب : أي التعب . (٢) اللجين : أي الفضة .

قال : فصاح الشاب صيحة فارق الدنيا فيها ، فقمت لآخذ في غسله وتكفينه ، وإذا بقائل يقول : خل عنه أي اتركه فإن الله عز وجل وعده أن لا يتولى أمره إلا الملائكة . قال ذو النون : فملت إلى شجرة فركعت عندها ركعتين ، ثم أتيت إلى الموضع الذي مات فيه فلم أجد له أثراً ولا عرفت له خَبراً .

وقيل : إن أدنى نفع الصمت السلامة ، وأدنى ضرر النطق الندامة .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني إذا افتخر الناس عليك بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك .

وقد ورد في الحديث : « من صمت نجا » .

وقال سفيان رضي الله عنه : الصمت أمان من تحريف اللفظ ، وعصمة من زيغ النطق ، وسلامة من فضول القول ، وهيبة لصاحبه .

وقيل لبعضهم : أوصني ، فقال : إن شئتَ جمعت لك علم العلماء وحكم الحكماء وطب الأطباء في ثلاث كلمات : أما علم العلماء : فإذا سئلتَ عما لا تعلم .. فقل : لا أعلم . وأما حكم الحكماء : فإذا كنتَ جليس قوم فكن أسكتهم .. فإن أصابوا كنتَ من جملتهم ، وإن أخطأوا سلمتَ من خطئهم . وأما طب الأطباء : فإذا أكلتَ طعاماً فلا تقم إلا ونفسك تشتهيه فإنه لا يلم بجسدك أي لا ينزل به غير مرض الموت .

وقال الحسن البصري رضي الله عنه : من كثر كلامه : كثر سقطه ، ومن كثر ماله : كثر إثمه ، ومن ساء خلقه : عذب نفسه .

ومن وصايا بعض الأكابر : إياك وكثرة الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن ، ويحركُ من عدوك ما سكن .

وقيل : إنما جُعل لك لسان واحد ، وأذنان ليكون ما تسمع أكثر مما تقول .

وقال الأصمعي : بلغني أن رجُلاً قال لآخر : والله لئن قلت لي كلمةً واحدة لتسمعن عشراً ، فقال : لكنك لو قلت عشراً ، فقال : لكنك لو قلت

عشراً لم تسمع واحدة ، وأنشد بعضهم :

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن أني ... عييتُ[1] عن الجواب وما عَيِيتُ
ولكني اكتسيتُ بثوب حِلم ... وجنبت السفاهة[2] ما بقيتُ

وأنشد الأصمعي :

وما شيء أحب إلى لئيم ... إذا شتم الكريم من الجواب
متاركة اللئيم بلا جواب ... أشد على اللئيم من السِّباب

وحكى : أن زين العابدين رضي الله عنه خرج يوماً من المسجد فلقيه رجل فسبه فتبادر إليه العبيد والموالي ، فقال لهم زين العابدين : مهلاً عن الرجل ، ثم أقبل عليه وقال له : ما ستر عليك من أمرنا أكثر .. ألك حاجة نعينك عليها . فاستحيا الرجل .. فألقى عليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم .. فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنك من أولاد الرسول ﷺ ـــ والخميصة ثوب خز أو صوف معلم ، وقيل : لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة وكانت من لباس الناس قديماً .

وقال في حلية الأولياء : لا ينبغي للإنسان أن يخرج من كلامه إلا ما يحتاج إليه ، كما أنه لا ينفق من كسبه إلا ما يحتاج إليه .

وقال أيضاً : لو كنتم تشترون الورق للحفظة[3] لأمسكتم عن كثير من الكلام .

وقيل لبعضهم : لم لزمتَ السكوت ؟ فقال : إني لم أندم على السكوت قط ، وقد ندمت على الكلام مِراراً .

وقال الغزالي رحمه الله : لا تبسُطنَّ لسانك فيفسدن عليك شأنك .

وقال علي كرم الله وجهه في وصية لابنه الحسن رضي الله تعالى عنهما :

---

(١) عييتُ : أي عجزت .
(٢) وجنبت السفاهة : أي تباعدت عنها .
(٣) أي للحفظة الكرام الكاتبين من الملائكة الكرام .

يا بني أمسك عليك لسانك فإن إتلاف المرء في منطقه .

وقال بعضهم رحمة الله تعالى عليه :

احفظ لسانك واستعذ من شره إن اللسان هو العدو الذابح
وزنِ الكلام إذا نطقتَ بمجلس وزناً يلوح به الصواب اللائح
فالصمت من سعد السعود بمطلع يحمي الفتى والنطق سبع ذابح

فينبغي للعاقل أن يقلل كلامه ما استطاع خصوصاً فيما نهى عن الكلام فيه كبعد صلاة العشاء فإنه يكره إذا لم يتعلق به مصلحة دينية كتعليم العلوم الشرعية ، وتلاوة القرآن ، أو الذكر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإصلاح بين الناس ، وكلمة حق عند من له شوكة ، والكلام مع الحليلة ، والضيف ، أو مصلحة دنيوية مما يتعلق بضرورة الإنسان : كقم ، وخذ ، وكل ، ونحو ذلك ومن وصايا بعض العارفين : أترك الكلام إلا فيما لا بد منه ، واترك طلب الدنيا إلا فيما لا بد منه ، واترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه .

وفي هذا القدر كفاية .

والله ولي التوفيق .





الوصية الخامسة والثمانون

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَيُوَسَّعَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُدْفَعَ عَنْهُ مِنيَّةَ السُّوءِ[1]

فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ .

رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند ، والبزار بإسناد جيد ، والحاكم .

وعن ابن عبَّاس رضى الله عنهما عن النبى صلّى الله عليه وسلّم أنه قال :

مَكتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ : مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَطُولَ حَيَاتُهُ (٢) وَيُزَادَ فِي رِزْقِهِ

فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ.

رواه البزار بإسناد لا بأس به والحاكم وصححه

---

(١) مَنية السوء : أى حَالة الموت وَهيئته، وَالمراد، مَاتكون بسبب شنيع كحرق وَغرق .

(٢) أى يبقى له الذكر الجَميل بعد مَوته فكأنه لم يَمت.

● وفى الحديث عن عائشة رضى الله عنها قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة البغى وقطيعة الرحم). رواه ابن ماجه .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية التي لا شك كما جاء في مضمونها أنك ــ بل ونحن جميعاً ــ في أشد الحاجة إلى نتائجها .

وإذا كنتُ في الوصية السابقة قد درت حول موضوعها .. فإنني أرى أن أعود إليها هنا من خلال آيات قرآنية يتحدث الله تبارك وتعالى فيها مُرغباً في صلة الرحم ، ومحذراً من قطيعته ، فيقول :

● ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ وهم الفاسقون الذين نقضوا عهد الله الذي أخذه عليهم في التوراة ، من الإقرار بمحمد ﷺ ، وتبيين نبوته للناس ، وعدم كتمهم لآيات الله ، وهم : أحبار اليهود ومن كان على سبيلهم ومنهاجهم ، من جميع الخلق وأصناف الأمم ، وقوله ﴿ **من بعد ميثاقه** ﴾ أي : من بعد توثق الله فيه بأخذه عهودهم بالوفاء بذلك ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ أي : ويقطعون الأرحام التي أمر الله عز وجل بوصلها والإحسان إليها ﴿ **ويفسدون في الأرض** ﴾ أي : يفسدون فيها بالكفر والمعاصي وانتهاك الحرمات ، والتكذيب لرسول الله ﷺ ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾(١) أي : الخاسرون رحمة الله ، الذين نقضوا أنفسهم حظوظها ، كما يخسر الرجل في تجارته من رأس ماله .

ويرى الطبري : أن الآية وإن نزلت في أحبار اليهود ، إلا أنها تشمل كل من كان على طريقتهم ومنهاجهم من جميع الخلق والأمم ، وكل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال .

● ﴿ ... **واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام** ﴾ أي : وخافوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً به فيقول الرجل : أسألك بالله ، وأنشدك بالله ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾(٢) . أي : حفيظاً على أعمالكم ، يحصيها عليكم ، ويعلمها ويعرفها .. ووصف تعالى نفسه بأنه المتفرد بخلق جميع الأنام ، معرفاً عباده أن جميعهم بَنُو رَجُلٍ واحد وأُمٍّ واحدةٍ ،

---

(١) ما بين القوسين : الآية ٢٧ من سورة البقرة .

(٢) ما بين القوسين : الآية رقم ١ من سورة النساء .

ليتناصفوا ولا يتظالموا ، وليبذل القوي نفسه للضعيف ، وختم الآية بأنه لم يزل عليهم رقيباً ، يحصي عليهم أعمالهم ، ويتفقد رعايتهم لحرمة الأرحام .

● ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ أي : من بعد ما عاهدوا الله على الطاعة ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ أي : ويقطعون الرحم التي أمرهم الله بوصلها ﴿ **ويفسدون في الأرض** ﴾ بالعمل بمعاصي الله ﴿ **أولئك لهم اللعنة** ﴾ أي الطرد من رحمته سبحانه وتعالى ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾[1] أي : ولهم ما يسوءهم في الآخرة .

● ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً** ﴾[2] أي : وأعط قرابتك حقهم من الصلة والبر ، وكذلك ذو الحاجة المسكين ، والمسافر المنقطع في سفره ، ولا تنفق المال وتفرقه في معصية الله . ﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ..** ﴾ .

● ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم** ﴾ أي : فلعلكم أيها القوم ، إن أدبرتم عن محمد ﷺ وعما جاءكم به ﴿ **أن تفسدوا في الأرض** ﴾ أي : أن تعصوا الله في الأرض ، فتكفروا به ، وتسفكوا الدماء ﴿ **وتقطعوا أرحامكم** ﴾[3] أي : وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم ، من التشتت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف بين قلوبكم .

ومن الأحاديث الشريفة التي أحب أن أضيفها هنا كذلك ، ما ورد :

● عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققتُ لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته ــ أو قال : بَتته » رواه أبو داود والترمذي .

● وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ ، قال : « الرحم متعلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله » رواه البخاري ومسلم .

---

(١) ما بين القوسين : الآية ٢٥ من سورة الرعد .
(٢) الآية ٢٦ من سورة الإسراء .
(٣) ما بين القوسين : الآية ٢٢ من سورة محمد .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً ، قال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأُحسِنُ إليهم ويسيئون إليَّ ، وأحلُم عليهم ويجهلون عليَّ ! فقال : « إن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » رواه مسلم .

المَلُّ : أي الرماد الحار الذي : يُحمى ليدفن فيه الخبز .. أراد : إنما تجعل المَلَّ سفوفاً يستفونه .. يعني إن عطاءك لهم حرام عليهم ونار في بطونهم .

والظهير : أي المعين .

● وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « أسرع الخير ثواباً : البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغي وقطيعة الرحم » رواه ابن ماجه .

هذا ، وإذا كان النبي ﷺ قد رغب في كثير من الأحاديث الشريفة في أن يكون المؤمن بارًّا بأخيه المؤمن ــ بصفة عامة ــ إذا ما كان في كُربَةٍ من كُرب الدنيا ، فقال في حديث ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « من نَفَّس عن مؤمن كُربةً من كُرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربةً من كُرب يوم القيامة ، ومَن يَسر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومَن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ... » الحديث رواه مسلم .

فمعنى (١) : نَفَّس بتشديد الفاء ، أي : فرج وكشف وأزال بنفسه أو ماله أو جاهه أو دعائه « عن مؤمنٍ كربة » أي : شدة ومصيبة « من كرب الدنيا » أي : شدائدها ومصائبها « نفَّس الله عنه كربة من كُربِ يوم القيامة » أي : منعها عنه ، وحفظه منها مجازاة ومكافأة له على فعله بجنسه .. وورد مرفوعاً :

● « من أجرى الله على يديه فرجاً لمسلم فرَّج الله عنه كرب الدنيا

---

(١) كما جاء في الأربعين النووية للجرداني « بتصرف » .

والآخرة » وورد أيضاً :

● « من فرج عن مسلم كربة جعل الله تعالى له يوم القيامة شعبتين من نور على الصراط ليستضيء بضوئهما عالم لا يحصيهم إلا رب العزة » . وفي الحديث :

● « من سره أن ينجيه الله من كُرب يوم القيامة فلينفِّس عن مُعسر أو يضَع عنه » وفيه أيضاً :

● « من أشبع جائعاً أو كسا عرياناً أو آوى مسافراً : أعاذه الله من أهوال يوم القيامة » . وفيه أيضاً :

● « من قضى لأخيه المسلم حاجة في الدنيا قضى الله له سبعين حاجة من حوائج الآخرة أدناها المغفرة » .

وأخرج البخاري في الأدب : عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قال : « من نَزلَ به هَمٌّ أو غَمٌّ أو كَرب ، أو خاف من سلطان فدعا بهؤلاء استُجيبَ له : أسألك بلا إله إلا أنت رب السموات السبع ، ورب العرش الكريم ، وأسألك بلا إله إلا أنت رب السموات السبع والأرضين السبع ومَا فيهن إنك على كل شيء قدير : ثم يسأل الله حاجته » .

« ومن يسر على معسر » ، وهو من يركبه الدين وتعسَّر عليه قضاؤه .. والتيسير عليه يكون : بصدقة ، أو قرض ، أو إبراء ، أو إنظار إلى ميسرة « يَسَّر الله » تعالى « عليه في الدنيا والآخرة » ، أي : سهل عليه أموره ومطالبه فيهما مجازاة ومكافأة له بجنس عمله ، كما مر ، وقد جاء في الحديث الشريف :

● « من أراد أن تُستجاب دعوته وتُكشَفَ كُربته : فليفرج عن معسر » ، وروى :

● « من أنظر معسراً ، أو وضع عنه : أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » وفي رواية : « وقاه الله من فيح جهنم » أي شدة غليانها وحرها . وورد :

● « لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة » .

وروى الشيخان : أن رجلاً كان يُداين الناسَ وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا .. فلقي الله عز وجل فَتجاوز عنه .

وقيل : إن المراد بالمعسر ما هو أعم من المدين .. ليشمل كل من وقع في صعوبة أو شدة وتعسر عليه الخلاص منها .. وحينئذ يدخل في التيسير السعي في تخليص مَن حُبِسَ ظُلماً ، والإفتاء لمن يُضايقه أمر بما يخلصه منه ولو من غير مذهبه .

« ومن ستر مسلماً » ، أي : ستر عورته ، أو عيوبه ، وزلاته خصوصاً من ليس معروفاً بالفساد والشر « ستره الله » تعالى « في الدنيا والآخرة » : بأن لا يفضحه ولا يعاقبه على ما فرط منه ... وفي الحديث :

● « من كَسَا مسلماً عارياً كساه الله من خضر الجنة » أي : من ثيابها الخضر . وفيه أيضاً :

● « لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه : إلا دخل الجنة » . وورد :

● « من ستر عورة أخيه المسلم : ستر الله عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه المسلم : كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته » .

وحُكي أن رجُلاً نام ليلة فرأى النبي ﷺ في منامه ، فقال له : يا فلان ، قم من منامك فسافر إلى بلدة كذا فاسأل بها عن فلان المعداوى فأقرئه مني السلام .. وقل له : أنت رفيق رسول الله ﷺ في الجنة .. فلما استيقظ من منامه سافر إليه فوجده لم يعمل خيراً في نهاره .. فأعلمه بذلك ، وسأله عن عمله ؟ فقال له : تزوجت امرأة .. فلما دخلت بها ولدت عندي ولداً من أول ليلة فسترت عليها ولم أفضحها .. وأخذت الولد .. وجئت به للجامع .. وجلست أنتظر الناس .. فلما حضروا لصلاة الصبح تسارعوا إلى أخذ الولد .. فحلفتُ بالطلاق ما يأخذه إلا أنا .. فأخذته ورددته إلى أمه .. فربّته .. وسترتُ عليها .

« والله في عون العبد » الواو للإستئناف ، وفي زائدة في الخبر، وعون

بمعنى معين ، والإضافة بمعنى اللام ، والمعنى : والله معين للعبد ، أي : إعانة كاملة ، وذلك بأن يؤيده ويُيَسِّر عليه قضاء حوائجه « ما كان العبد » وفي نسخة : ما دام العبد ، أي : مدة كونه أو مدة دوامه « في عون أخيه » ، أي : في الدين .. والإعانة تكون : بالقلب ، أو البدن ، أو المال ، أو الجاه .. قال بعضهم :

فرضت عليَّ زكاة ما ملكت يدي وزكاة جاهي أن أُعِينَ وأشفعَا

وفي الحديث الشريف :

● « من سعى في حاجة أخيه المسلم قُضِيتْ له أم لم تُقضَ غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكُتِبَت له براءتان : براءةٌ من النار ، وبراءةٌ من النفاق » .

وحُكِيَ أن الحسن البصري رحمه الله تعالى بعث جماعة من أصحابه في حاجة لرجل وقال لهم : مُرُّوا بثابت البناني فخذوه معكم .. فأتوا ثابتاً ، فقال : إني معتكف .. فرجعوا إلى الحسن فأخبروه .. فقال : قولوا له : يا أعمش .. أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم : خير لك من حجة بعد حجة .. فرجعوا إلى ثابت فأخبروه .. فترك اعتكافه وذهب معهم .

وروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً :

● « أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس ، وأن أحبَّ الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على كل مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه دَيناً ، أو تطرد عنه جوعاً .. ولأن أمشِيَ مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً ، ومَن كفَّ غضبه ستر الله عورته ، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يُمضيَه لمضاه : ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتهاله : أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

وحكى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعاهد الأرامل فيستقي لهن الماء بالليل .. ورآه طلحة داخلاً بيت امرأة ليلاً .. فدخل

عليها[1] نَهاراً .. فإذا هي عجوز عمياء .. مقعدة ــ أي مكسحة ــ فقال لها : ما يصنع هذا الرجل عندك ؟ قالت له : منذ كذا وكذا يتعاهدني بما يصلح شأني ، ويخرج الأذى عني ، ويُقِمُّ لي بيتي ــ أي يكنسه ــ .

وروى عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً :

● « إذا أراد الله بعبد خيراً : صير حوائج الناس إليه » ــ أي : جعله ملجأً لحاجاتهم الدنيوية والأخروية ، ووفقه للقيام بها ، وكساه ثوب المهابة والقبول ، وسدده فيما يفعل ويقول .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، وكن منفذاً له .. مع كل إخوانك المؤمنين .. أقرباء وغير أقرباء[2] .. لأن الله تعالى يقول :

● ﴿ **إنما المؤمنون إخوة ..** ﴾[3] .

والرسول ﷺ ، يقول :

● « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » رواه مسلم .

« والأقربون أولى بالمعروف »[4] .

والله ولي التوفيق .

★★★

---

(١) أي طلحة رضي الله عنه ليعرف أحوالها ...

(٢) أي : بصفة عامة ..

(٣) الحجرات : الآية ١٠ .

(٤) كما ورد في الأثر .



الوصية السادسة والثمانون

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : أوصاني خليلي صلى الله عليه بخصال من الخير :

أوصاني : بأن لا أنظر إلى من هو فوقي(1)، وأن أنظر إلى من هو دوني(2).

وأوصاني : بحب المساكين والدنو منهم(3).

وأوصاني : أن أصل رحمي وإن أدبرت(4).

وأوصاني : أن لا أخاف في الله لومة لائم(5).

وأوصاني: أَنْ أَقُولَ الحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا.[٦]

وأوصاني: أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ.[٧]

رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له، وكذلك رواه الإمام أحمد.

---

(١) أي إلى من هو أكثر مني غنى وصحة وعافية.

(٢) أي إلى من هو أقل مني في ذلك.

(٣) أي مجالستهم والقرب منهم.

(٤) أي وإن قطعت مودتها وجفت.

(٥) أي لا يردني عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله راد ... ولا لوم لائم.

(٦) أي شديدًا ثقيلاً على النفوس.

(٧) أي أنك إن أكثرت منها كنت من الوارثين لها في الجنة.

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي أوصى بها النبي ﷺ حبيبه أبا ذر .. الذي قال ــ كما قرأت ــ في أولها : أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير ...

وحسبك هذا التقديم الذي لا بد أن تلتفت إليه بقلبك قبل جوارحك .. إذا كنت ــ إن شاء الله ــ من أهل الخير الذين يحبون المزيد منه .. والحرص كل الحرص على تحصيله في كل لحظة من لحظات حياتهم حتى يكونوا بسببه إن شاء الله تعالى من أهل الجنة .. التي ما خلقها الله تعالى وما أعدها إلا لأهل الخير المشار إليهم في قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي : الذين صدقوا بالله ورسوله محمد ﷺ ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى ﴿ **أولئك هم خير البرية** ﴾ أي : أولئك هم خير خلق الله ﴿ **جزاؤهم عند ربهم جناتُ عدنٍ** ﴾ أي ثوابهم يوم القيامة بساتين إقامة ﴿ **تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ أي : تجري من تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها لا يخرجون عنها ، ولا يموتون فيها أبداً ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ أي : رضي الله عنهم بطاعتهم ، وعملهم للخلاص من عقابه ، ورضوا عنه ، بما أعطاهم من الثواب وجزاهم من الكرامة ﴿ **ذلك لمن خشي ربه** ﴾(١) أي : ذلك الخير لمن خاف الله في الدنيا في سره وعلنه ، فأدى الفرائض ، واجتنب المعاصي .

والله تعالى يقول كذلك :

● ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾ أي : فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثوابه هناك ، ﴿ **ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره** ﴾ أي : ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شَرٍّ ، يرى جزاءه هنالك .

وفي الحديث الشريف يقول حبيبنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله ، قيل : وكيف يستعمله يا رسول الله ؟

---

(١) ما بين القوسين من سورة البينه الآية ٧ ، ٨ ، والشرح من مختصر تفسير الطبري .

قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه » .

وتوضيحاً لهذا الحديث ، بل وتأكيداً له .. أريد هنا وفي هذا ـ الخير الذي أرغب فيه ــ أن أسجل مشهداً عايشته وشاركت فيه ، وهو أن أخاً مؤمناً ــ ولا أزكيه على الله ، وأحسبه كذلك ــ وهو من الإخوة الأصفياء المجاهدين في نشر الدعوة الإسلامية بكل جد واجتهاد ــ تطوعاً ــ ظَلَّ يجاهد ويجاهد ــ مع ما كان به من مرض ــ إلى أن حدث في يوم الجمعة التي كان يخطب فيها في مسجد كبير(١) في منطقته التي كان يعيش فيها مع أهله :

خطب الجمعة في هذا اليوم .. ثم نزل وصلى بهم الجمعة .. وفي السجدة الأخيرة مات(٢) .

وقد أكرمني الله تعالى .. فصليت عليه الجنازة في نفس الموقع الذي مات فيه ... ودعوت الله هناك وفي المقابر وأنا ألقي موعظة بعد دفنه : أن يجعل خاتمتي كخاتمته .. لأنها خاتمة سعيدة .. إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الرجل كان على صلة بالله تعالى .. وحسبه أنه سيبعث ساجداً لله رب العالمين . ــ كما ورد في السنة المطهرة ــ .

ولهذا فإنه ينبغي علينا جميعاً أن نعمل من جانبنا على أن نكون من هؤلاء الصالحين المبشرين في الدنيا والآخرة .. كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ أي : الذين صَدَّقوا الله ورسوله ، واتقوا ربهم بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه : ﴿ **لهم البشرى في الحياة الدنيا** ﴾ أي : لهم البشارة من الله في الدنيا ، بالرؤيا الصالحة ، وتبشير الملائكة لهم عند قبض أرواحهم برحمة الله ورضوانه ﴿ **وفي الآخرة** ﴾(٣) : أي : وفي الجنة.. وقيل : المراد بالآخرة هنا القبر ، لأنه أول منازل الآخرة ، وفيه يُبشَّر المؤمن برضوان الله عند سؤال الملكين ، والله أعلم .

---

(١) وهو مسجد العوادلي أكرمه الله .

(٢) وهو الأخ الفاضل / محمد أبو سعيد .. من أهالي كفر الجبل بمنطقة الهرم ــ وكان هذا في يوم الجمعة ١٧ ذو القعدة ١٤٠٨ هـ الموافق أول يوليو ١٩٨٨ م .

(٣) ما بين القوسين : الآية ٦٣ ، ٦٤ من سورة يونس .

وحسبنا إذا أردنا أن نفوز بهذا الخير الذي نرجوه لأنفسنا في دنيانا وأخرانا : أن ننفذ وصية الرسول صلوات الله وسلامه عليه .. التي أوصانا فيها جميعاً ــ في شخص أبي ذر ــ وفي أولها : أن لا ننظر إلى من هو فوقنا ، وأن ننظر إلى من هو دوننا .

وهذا : معناه : أن النبي ﷺ يريد منا أن نبقى أعزة لا أذلة .. وأعني بهذا .. أنه يوجهنا توجيهاً قويماً إلى أهم أسباب الحياة السعيدة .. التي من شأنها أن تجعل صاحبها مرفوع الهامة .. موفور الكرامة .. بين أقرانه .. وذلك لن يكون إلا بالتغاضي عن الذي في أيدي غيره من الأغنياء الذين يملكون ما لا يملك من حطام الدنيا الزائل .. لأنه إن استغنى عنهم ــ ولو بهذا التغاضي ــ لن يعذب نفسه .. ولن يكون مهموماً أو محزوناً .. بل سيكون عكس هذا راضياً بما قسم الله تعالى له .. وحسبه إن فعل هذا أنه سيكون من الأغنياء الحقيقيين المشار إليهم في قول الرسول ﷺ :

● « ليس الغنى عن كثرة العَرض ، ولكنَّ الغِنى غنى النفس » متفق عليه .

والعَرض بفتح العين والراء : هو المال .

● « قد أفلح مَن أسلم ورُزِق كَفَافاً وقنَّعهُ الله بما آتاه » . رواه مسلم .

فمن الخير إذن للإنسان المؤمن : أن ينظر إلى ما تحته ــ أي ما دونه مالاً ــ لا أن ينظر إلى ما فوقه مالاً : حتى يحتقر نعمة الله عليه .. وحتى يكون راضياً بما أعطاه الله تبارك وتعالى .. سواء كان العطاء هذا قليلاً أم كثيراً .. لأنه بهذا سيكون راضياً وشاكراً في نفس الوقت .. وهو بهذا كذلك سيكون من المستغنين بالله الذين لا بد أن يغنيهم الله عن كل شيء .. وذلك بالإستغناء عن سؤال الناس بالأخذ بالأسباب تنفيذاً لأمر الله تعالى في قوله : ﴿ .. **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[1] .

وهذا أفضل من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه :

---

(١) سورة الملك : الآية ١٥ .

● فعن أبي عبد الله الزبير بن العوام رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبلَ فيأتي بحزمةٍ من حطب على ظهره فيبيعها فيكفَّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناسَ أعطوْه أو منعوه » . رواه البخاري .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يحتطب أحدكم حزمةً على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه » متفق عليه .

● وعن المقداد بن معديكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً قَطُّ خيراً من أن يأكلَ من عمل يديه ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » رواه البخاري .

وهذا ، هو ما يريده النبي ﷺ من الأخ المؤمن حتى يكون متعفّفاً عن المسألة ولو كان مسكيناً .. كما يشير إلى هذا قول الله تعالى :

● **﴿ ... يحسبهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾**(١) .

وكما يشير إلى هذا أيضاً قول الرسول ﷺ :

● « ليس المسكين الذي يُطَوِّف على الناس ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنىً يُغنيه ، ولا يُفْطَنُ له فيتَصدَّق عليه ، ولا يقوم فيسائل الناس » رواه البخاري .

وقد كان النبي ﷺ يُرهِّب من سؤال الناس ، ويكره من يفعل هذا :

● فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزْعَةُ لحم » . متفق عليه . والمزعة بضم الميم وإسكان الزاي وبالعين المهملة : القطعة .

● وعنه : أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر وذكر الصدقة

---

(١) البقرة : الآية ٢٧٣ .

والتعفُّف عن المسألة : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة » متفق عليه .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الناس تكثُّراً فإنما يسأل جمراً : فليستقِلَّ أو ليستكثر » . رواه مسلم .

● وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تكفَّل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكفل له بالجنة ؟ فقلت : أنا ، فكان لا يسأل أحداً شيئاً » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تكون عزيزاً — كمؤمن — وحتى تكون بهذا من أغنى الناس .. وإذا أردت أن تنظر إلى من هو فوقك .. فليكن هذا إلى مَن فوقك علماً ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ : لأنك إن نظرت إليه سيتبين لك أنك مازالت في حاجة إلى المزيد من العلم حتى ولو كنت من كبار العلماء .. وحسبك أن تقرأ معي قول الله تعالى لأعلم خلقه صلوات الله وسلامه عليه :

● ﴿ وقل رب زدني عِلماً ﴾(1) .

والعلم كما يقول الإمام على كرم الله وجهه : « أفضل من المال .. العلم يحرسك وأنت تحرس المال » .

●● وأما عن العنصر الثاني الذي أوصانا النبي ﷺ فيه : بحب المساكين والدنو منهم :

فإن المراد من هذا العنصر : أن تكون متواضعاً .. وأن تعمل من جانبك على أن تكون من المبتعدين عن الكبر الذي غالباً ما يكون من أسباب العزلة والانقطاع عن عامة المسلمين الذين ينبغي علينا نحن المؤمنين حتى ولو كنا من كبار الأغنياء أن نقترب منهم وأن نجالسهم .. حتى لا يُفهم أننا لسنا من طينتهم .. أو أننا لسنا من إخوانهم الذين ينبغي عليهم أن يكونوا جميعاً متعاطفين ومتراحمين ومتعاونين معهم كما أشار النبي ﷺ إلى هذا في قوله :

---

(1) سورة طه : آيه ١١٤ .

● « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه مسلم .

مع ملاحظة : أن يدرك المؤمن تماماً أن الإسلام قد أذاب الفوارق .. وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

ولهذا : ورد أن أبا ذر رضي الله عنه عندما قال لبلال رضي الله عنه : يا ابن السوداء .. وعلم النبي ﷺ بهذا .. حزن حزناً شديداً .. ثم قال لأبي ذر : « أعيَّرتَه بأمه .. إنك امرؤ فيك جاهلية » .

إنه يريد أن يذكره بأن « الناس سواسية كأسنان المشط »(١) وأنه : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى »(٢) . فما كان من أبي ذر بعد أن عاتبه الرسول ﷺ .. وبعد أن لقنه هذا الدرس .. إلا أن وضع خده على الأرض .. ثم طلب من بلال أن يطأ خده بقدمه تأديباً له .. ولكن بلالاً أبى وعفا عن صاحبه .

إن درساً كهذا لا بد أن يظل درساً لجميع المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. حتى لا يتسرب الكبر إلى قلوبهم .

ولهذا نرى أن الحبيب المصطفى ﷺ ، كان يحرص دائماً وأبداً على إزالة حَواجز الجاهلية من قلوب أصحابه ومن صفوفهم .. حتى يكون هناك تواضع بينهم ، بل وكان في كثير من أحاديثه الشريفة يشير إلى حب الله تعالى لعباده الضعفاء والمساكين .

● فعن أبي العباس سهل بن سعد الساعِدِيِّ رضي الله عنه قال : مرَّ رجلٌ على النبي ﷺ ، فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك في هذا ؟ » فقال رجل من أشراف الناس : هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكَحَ وإن شَفَع أن يُشَفَّعَ .. فسكت رسول الله ﷺ .. ثم مر رجل آخر .. فقال له رسول الله ﷺ : « ما رأيك في هذا ؟ » فقال : يا رسول الله .. هذا رجل من فقراء المسلمين : هذا حَرِيٌّ إن خطب أن لا يُنكَحَ .. وإن شَفَعَ أن لا يُشَفَّعَ .. وإن قال

(١ ، ٢) حديثان شريفان .

لا يسمع لقوله .. فقال رسول الله ﷺ : « هذا خير من ملء الأرضِ مثلَ هذا » متفق عليه .

قوله : حَرِيٌّ بفتح الحاء وكسر الراء وتشديد الياء : أي حقيق .

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « احتجت الجنة والنار .. فقالت النار : فِيَّ الجبارون والمتكبرون .. وقالت الجنة : فِيَّ ضعفاء الناس ومساكينُهم .. فقضى الله بينهما : أنك الجنة رحمتي أرحم بك مَن أشاء .. وأنكِ النار عذابي أُعذبُ بك من أشاء .. ولَكليكما عليَّ ملؤها » رواه مسلم .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رُبَّ أشعث أغبر مدفوع الأبوابِ لو أقسم على الله لأبره » رواه مسلم .

● وعن أُسامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قمتُ على باب الجنة فإذا عامة مَن دخلها المساكينُ .. وأصحاب الجدِّ محبوسون غير أن أصحاب النار قد أُمِر بهم إلى النار .. وقمتُ على باب النار فإذا عامة مَن دخلها النساء » متفق عليه .

والجدُّ بفتح الجيم : الحظ والغِنى .. وقوله : محبوسون ، أي : لم يؤذن لهم بعدُ في دخول الجنة .

فكن أخا الإسلام ــ بعد كل هذا ــ مُحبًّا للمساكين .. واقترب منهم بعطفك وحنانك ووصلك لهم مِمَّا أعطاك الله :

● فعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأحسبه قال : وكالقائم الذي لا يفتُر ، وكالصائم الذي لا يُفطر » متفق عليه .

● وعنه عن النبي ﷺ ، قال : « شر الطعام طعام الوليمة يمنعها مَن يأتيها .. ويُدعِى إليها من يأباها .. ومَن لم يُجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله » رواه مسلم ، وفي رواية في الصحيحين عن أبي هريرة من قوله : « بئس الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويُترك الفقراء » .

فلاحظ كل هذا أيضاً أخا الإسلام حتى تكون من المؤمنين حقًّا :

● ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾[1] .

● ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ..** ﴾[2] .

جعلني الله تعالى وإياك من المتواضعين المحبين للمساكين المؤمنين الذي نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في الجنة إن شاء الله .. مع الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي ورد أنه قال :

● « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » .

●● وأما عن العنصر الثالث الذي يوصينا الحبيب صلوات الله وسلامه عليه بتنفيذه وهو : أن نَصِلَ أرحامنا وإن قطعوا عنا مودتهم :

فإن هذه الوصية أيضاً من التوجيهات الهامة — التي كما عرفنا قبل هذا — ينبغي علينا جميعاً كمؤمنين بصفة خاصة أن نعمل على تنفيذها حتى يظل الحبل مَتيناً ومتصلاً بكل فرد من أفراد هؤلاء الأقارب الذين لو اتحدوا على أساس من الإيمان الصادق .. لكانوا قوة يُخشى بأسها .. ولكانوا حرباً على من عاداهم من المجرمين المعتدين .. وهذا المعنى ينسحب أساساً على الأسرة المسلمة التي ينبغي أن تكون قوة واحدة في مواجهة أعداء الله في كل مكان .. حتى لا يكونوا كغثاء السيل بتلك الصورة المشينة والمهينة[3] التى لا بد أن نفيق منها حتى نعود إلى مجدنا التالد الذي كان أساساً لجميع الحضارات الصحيحة التي أسسها سيد الخلق المصطفى الأمين صلوات الله وسلامه عليه المنزل عليه :

● ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ : أي : عن دينه وعن الائتلاف والإجتماع على طاعته ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ أي اذكروا

---

(١) سورة الحجر : ٨٨ .

(٢) سورة الكهف : ٢٧ .

(٣) التي أصبحنا بسببها أمة نامية أو عالماً ثالثاً ... إلخ .

فضل الله ونعمته عليكم ﴿ **إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم** ﴾ حين كنتم أعداء في جاهليتكم ، يقتل بعضكم بعضاً ، فألف الله بين قلوبكم بالإسلام ﴿ **فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾[1] أي : فأصبحتم بالإسلام إخواناً متصادقين ، لا ضغائن ولا تحاسد .... إلخ .

ولهذا ، لكي تعود الأسرة الإسلامية إلى قوتها وصلابتها لا بد أن يكون هناك تواصل وتراحم بين جميع أفرادها على المستوى العام والخاص .. بصرف النظر عن الشواذ التي لن تعاملنا بالمثل .. والتي نستطيع بصبرنا وودنا لها — رغم قطيعتها — أن نعيدها إلى المجموعة المترابطة ... والمنفذة لتوجيهات الرسول ﷺ .

●● وأما عن العنصر الرابع الذي أوصانا به النبي ﷺ بعد ذلك ، وهو : أن لا نخاف في الله لومة لائم :

فإن معناه أن تكون شجاعاً لا جباناً ، وأن تكون من الذين لا يخافون إلا من الله .. ولا ينحنون إلا لله .. وهذا ، معناه أنك تؤمن بقول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **قل لن يُصيبنا إلا ماكتب الله لنا ..** ﴾ .

وقول الرسول صلوات لله وسلامه عليه :

● « .. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك .. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ... » الحديث رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

● وعن أبي الوليد عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : بايعنا رسول الله ﷺ : على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشَطِ والمكرهِ وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلَّا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنَّا لا نخاف في الله لومة لائم » .

---

(١) ما بين القوسين ، الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

متفق عليه .

و « المنشط » والمكره بفتح الميم أي : في السهل والصعب ، والأثرة الاختصاص بالمشترك .. وبواحاً : بفتح الباء الموحدة وبعدها واو ثم ألف ثم حاء مهملة ، أي : ظاهراً لا يحتمل تأويلاً .

● وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها .. وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَن فوقنا .. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً .. وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعاً » رواه البخاري .

ومن أجل هذا أوصانا النبي ﷺ .. حتى لا تغرق السفينة : بأن نقول الحق لله وفي الله ونحن لا نخشى في الله لومة لائم : وإلا كنا والعياذ بالله كبني إسرائيل الذين كفروا ... والذين تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله :

● **﴿ لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داودَ وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾**(1) .

فلا تكن كهؤلاء أخا الإسلام :

● **﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾** .

وحسبك ترغيباً لك في هذا ، قول الله تبارك وتعالى :

﴿ والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾(2) .

●● وأما عن العنصر الخامس الذي يوصينا به النبي ﷺ بعد ذلك

---

(1) سورة المائدة : ٧٨ .

(2) سورة العصر كاملة .

وهو : أن نقول الحق ولو كان مُرًّا :

فإن هذا العنصر يشير — فعلاً — إلى أن الحق مُرٌّ عند غير المؤمنين الذين لا هَمَّ لهم إلا أن يشبعوا رغباتهم حتى ولو كان هذا على حساب الحق وأهله .. وحتى أصبحوا بسبب هذا يحاربون أهل الحق لأنهم يواجهونهم دائماً وأبداً بقول الحق خوفاً من عقاب الله :

● فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : ياأيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾(١) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ منه » رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة .

● وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهُنَّ عن المنكر أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

فليكن كل هذا — بالإضافة إلى ما وقفت عليه قبل هذا — سبباً في حرصك على قول الحق مهما كلفك هذا ما دمت على حق ... وقد ورد في الأثر :

● « إن الله تعالى هو الحق .. فمن كره الحق فقد كره الله » كما ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول :

● « يا حق ما أبقيت لي حبيباً » .

فما دمت سترضى الله تبارك وتعالى : حسبك هذا .. كما يشير أحدهم إلى هذا في قوله :

ليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

---

(١) المائدة : الآية ١٠٥ .

● وعن رجل من أهل المدينة ، قال : كتب معاوية إلى عائشة أن اكتُبي إليَّ كتاباً توصيني فيه ولا تكثري عليَّ .. فكتبت عائشة إلى معاوية : سلام عليك ، أما بعد ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس(١) ، ومنَ التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » والسلام عليك . رواه الترمذي ولم يُسمِّ الرجل .

● وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أرضى سلطاناً بما يُسخط به ربه : خرج من دين الله » رواه الحاكم .

● وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن أسخط الله في رضا الناس : سَخِط الله عليه، وأسخط عليه من أرضاه في سَخطه .. ومن أرضي الله في سخط الناس : رضي الله عنه وأرضى عنه من أسخطه في رضاه حتى يُزَيِّنه ويزين قوله وعمله في عينه » رواه الطبراني بإسناد جيد قوي .

● وعن عبد الرحمن بن عبيد الله بن مسعود عن أبيه عن رسول الله ﷺ ، قال : « مثل الذي يُعين قومَه على غير الحق كمثل بعير تردَّى في بئر فهو ينزع(٢) منها بذنبه » رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ، وعبد الرحمن لم يسمع من أبيه . قال الحافظ المنذري : ومعنى الحديث أنه قد وقع في الإثم وهلك كالبعير إذا تردَّى في بئر فصار ينزع بذَنَبِه ولا يقدر على الخلاص .

وأخيراً : إليك هذه الآيات القرآنية التي أرجو أن تنتفع بها في هذا الموضوع :

● ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ التوبة : ١٣ .

● ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ المائدة : ٤٤ .

● ﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ الأحزاب : ٣٧ .

---

(١) أي عصمه منهم وحفظه ، وقوله : وكله الله إلى الناس : تركه لهم ، وكف عنه مؤونته .. وكفاه بذلك عقاباً .. والسخط : الغضب وضد الرضا .

(٢) تردَّى ، أي : سقط .. وينزع ، أي : يخرج .

● ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يُبيِّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً** ﴾ النساء : ١٠٨ .

●● وأما عن العنصر السادس والأخير الذي يوصينا به النبي ﷺ في ختام الوصية ، وهو : أن نكثر من : لا حول ولا قوة إلا بالله ...

فإنني أحب أولاً : أن تفهم أن معناها الاستسلام والتفويض المطلق لله والإعتراف بفضله فيما يمد به العبد من الحول والقوة .. ولولا ذلك لكان له العجز المطلق عن أي تصرف .

وتوضيحاً لهذا ، فقد ورد :

● عن محمد بن إسحاق رضي الله عنه قال : جاء مالك الأشجعي إلى النبي ﷺ ، فقال : أُسِر بن عوف ، فقال : « أرسل إليه أن رسول الله ﷺ يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله » .. فأتاه الرسول وأخبره . فأكبَّ(١) عوف ، يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .. وكانوا قد شدوه بالقِدِّ(٢) فسقط القِدُّ عنه فخرج ، فإذا هو بناقة لهم فركبها فأقبل ، فإذا هو بسرح(٣) القوم فصاح بهم .. فأتبع آخرها أولها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة ، فقالت أمه : واسوأتاه وعوف كئيب بألم ما فيه من القِدِّ .. فاستبق الأب والخادم إليه ، فإذا عوف قد ملأ الفِنَاء إبلاً .. فقصَّ على أبيه أمره وأمرَ الإبل ، فأتى أبوه رسولَ الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اصنع بها ما أحببت وما كنت صانعاً بإبلك » ، ونزل : ﴿ .. **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه**(٤) .. ﴾(٥) » . رواه آدم بن أبي إياس في تفسيره .. وكذا رواه ابن أبي حاتم في تفسيره .

---

(١) أكب على الشيء إذا داوم عليه وأقبل .

(٢) القِد : بكسر القاف : السير القد من جلد .

(٣) أي : ماشيتهم .

(٤) يعني : ومن يفوض أمره إلى الله ويثق في كفايته فهو كافيه .

(٥) سورة الطلاق : الآية ٣ .

وهذا كله ، ما كان إلا ببركات : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، التي هي أيضاً من غِراسِ الجنة :

● فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ليلة أُسري به مَرَّ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال : من معك يا جبريل ؟ قال : هذا محمد ، فقال له إبراهيم عليه السلام : يا محمد : مر أمتك فليكثروا من غِراسِ الجنة ، فإن تربتها طيبة ، وأرضها واسعة . قال : « وما غِراس الجنة ؟ » قال : « لاحول ولاقوة إلا بالله » رواه أحمد بإسناد حسن ، وابن أبي الدنيا ، وابن حبان في صحيحه .

ورواه ابن أبي الدنيا في الذكر ، والطبراني من حديث ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من غِرَاسِ الجنة ، فإنه عذب ماؤها ، طيب ترابها ، فأكثروا من غراسها . قالوا يا رسول الله وما غراسها ؟ قال : « ما شاء الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله » .

بل هي : كَنز من كنوز الجنة كما قال النبي ﷺ في نص الوصية : أي : من الكلمات التي توجب لصاحبها الجنة .

● فعن أبي موسى ــ الأشعري رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال له : « قل : لاحول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة » رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والترمذي ، والنسائي وابن ماجه .

● وعن أبي ذرّ رضي الله عنه ، قال : كنت أمشي خلف النبي ﷺ فقال لي : « يا أبا ذر ، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ » قلت : بلى ، قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » . رواه ابن ماجه ، وابن أبي الدنيا وابن حبان في صحيحه .

وشاهد هذا ، قوله تعالى :

● **﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .. ﴾**(1) .

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لتنفيذ كل هذا الخير .. حتى نكون به أهلاً لدخول الجنة .

والله ولي التوفيق .

---

(1) سورة الكهف : الآية ٣٩ .

الوصية السابعة والثمانون

عن أبي هريرة رضي الله عنه :

أن رجلاً شكا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قسوة قلبه ، فقال :

امسح رأس اليتيم[1]

وأطعم المسكين[2]

رواه أحمد

---

(١) اليتيم : من مات أبوه وهو دون البلوغ . ومن الحيوانات : من ماتت أمه .

(٢) والمسكين : هو الذي يحصل على لقمة العيش بشق الأنفس .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذا التوجيه المحمدي الذي لا شك أننا جميعاً في أشد الحاجة إليه .. لأن قلوبنا ــ فعلاً ــ قد قست حتى أصبحت كالحجارة بل أشد قسوة كهؤلاء المشار إليهم في قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ أي : ثم غلظت وصلبت قلوبكم ــ يا كفار بني إسرائيل ــ من بعد رؤية الآية الباهرة[١] ﴿ **فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ أي : فهي كالحجارة صلابة ويُبساً ، وبعضها أشد صلابة من الحجارة ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار** ﴾ أي : من الحجارة ما يتفجر بالأنهار ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ أي : ومن الحجارة ما يتردَّى من رأس الجبل إلى الأرض من خوف الله وخشيته .. ضرب الله تعالى ذلك مثلاً لقلوبهم ، فأخبر أن من الحجارة ما هو ألين من قلوب هؤلاء الذين أراهم من الآيات والعبر ، وعاينوا من عجائب الأدلة والحجج ، وأعطاهم من صحة العقول وسلامة النفوس ما لم يعطها الحجر ، ومع ذلك كذبوا سيد البشر ، فالحجارة ألين من قلوبهم لما يُدعون إليه من الحق ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾[٢] أي : ليس الله بغافل عن أفعالهم الخبيثة ، ولا ساهٍ عنها ، بل هو لها محصٍ وحافظ ، وسيعاقبهم عليها في الآخرة .

وهذا الذي أشار الله تعالى إليه في هذه الآية الكريمة : ينسحب على أكثر هؤلاء الذين أصبحوا الآن كما هو واضح لنا من أفعالهم من القاسية قلوبهم .. حتى أصبحوا .. بل وأصبحنا تبعاً لهم ــ للأسف الشديد ــ ندعوا الله تعالى فلا يستجيب لدعائنا .. كما أشار إلى هذا إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه .. يوم أن مر بسوق البصرة فاجتمع الناس حوله ، ثم سألوه : يا أبا إسحاق .. ما لنا ندعو الله تعالى فلا يستجيب لدعائنا ؟ فقال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء[٣] :

---

(١) وهي الآية المتعلقة بقصة بقرة بني إسرائيل كما تشير إليها الآيات من الآية ٦٧ ــ ٧٣ في سورة البقرة .. فارجع إليها .. إن شئت .

(٢) ما بين القوسين الآية ٧٤ من سورة البقرة ، والتفسير من « مختصر تفسير الطبري » .

(٣) ولو كان من أهل هذا الزمان الذي انتشر فيه الفساد وذاع وشاع على المستوى العام والخاص .. لقال بآلاف الأشياء .. نسأل الله تعالى العفو والعافية .

١ ـ عرفتم الله فلم تؤدوا حقوقه .

٢ ـ زعمتم أنكم تحبون رسوله ﷺ وتركتم سنته .

٣ ـ قرأتم القرآن ولم تعملوا به .

٤ ـ أكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها .

٥ ـ قلتم إن الشيطان عدوكم ولم تخالفوه .

٦ ـ قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها .

٧ ـ قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها .

٨ ـ قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له .

٩ ـ انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم .

١٠ ـ دفنتم موتاكم .. ولم تعتبروا بهم .. فأنّى يستجاب لكم ؟ .

أي : كيف يستجيب الله تعالى لكم مع وجود كل تلك المخالفات التي وضعت كالمتاريس في طريق التضرع إلى الله .. كما يشير أحدهم إلى هذا في قوله :

كيف ندعو الإله في كل كرب ثم ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجو إجابة لدعاء قد سددنا طريقها بذنوب

ولهذا : فإنني أخشى أن يحدث لنا ما حدث للأمم السابقة التي تحدث الله سبحانه وتعالى عنها وعن الذي حدث لها في قوله :

● ﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك** ﴾ أي : ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً فكذبوهم ﴿ **فأخذناهم بالبأساء والضراء** ﴾ أي : فامتحناهم بالبأساء وهي شدة الفقر في العيش ، والضراء .. وهي الأمراض والأسقام ﴿ **لعلهم يتضرعون** ﴾ أي : ليتضرعوا إلى الله ، ويخلصوا له العبادة بالذلة والإستكانة ﴿ **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا** ﴾ أي : فهلّا حين جاءهم العذاب تضرعوا لربهم ، وخضعوا له بالطاعة حتى يصرف عنهم العذاب ؟

﴿ **ولكن قست قلوبهم** ﴾ أي : ولكن أصروا على تكذيبهم للرسل ، استهانة بعقاب الله واستخفافاً بعذابه ، لقساوة قلوبهم ﴿ **وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾ أي : وحسَّن لهم الشيطان سوء أعمالهم ، التي يكرهها ويسخطها الله منهم ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أي : فلما تركوا العمل الذي أمرناهم به على ألسن رسلنا ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شيء** ﴾ أي : ففتحنا عليهم أبواب السعة في المعيشة ، والصحة في الأجسام وبدلناهم مكان البأساء والضراء السعة والرخاء استدراجاً منَّا لهم ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** ﴾ أي : حتى إذا فرحوا بذلك النعيم ﴿ **أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾ أي : أخذناهم بالعذاب فجأة من حيث لا يشعرون ، فإذا هم هالكون ، نادمون على ما سلف منهم ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ أي : استؤصلوا فلم يُفلت أحد منهم من العذاب ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾(١) أي : والثناء الكامل لله رب العالمين ، على انتقامه من أعداء رسله .

●● ولهذا ، حتى لا يحدث لنا مثل هذا ــ الذي لا بد أن نتعظ به ــ كان لا بد أن نعود إلى الله تبارك وتعالى سريعاً بالتوبة الصادقة المقترنة بالأعمال الصالحة .. وكان لا بد أن نكثر كذلك من الإستغفار .. لأنه تعالى يقول :

● ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾(٢) .

هذا بالإضافة إلى نتائج الإستغفار الأخرى التي أشار إليها رب العزة على لسان سيدنا نوح ، في قوله تعالى :

● ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾(٣) .

إننا إن نفذنا هذا إن شاء الله : ستلين قلوبنا وستكون مهيأة لهدي الله

---

(١) ما بين القوسين : من الآية ٤٢ ــ ٤٥ من سورة الأنعام والتفسير من « مختصر التفسير للطبري » .
(٢) الأنفال : الآية ٣٣ .
(٣) سورة نوح الآية ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

وهدي رسوله الذي به ستحيا وستكون سبباً في صلاح الجسد كله كما يشير إلى هذا الرسول ﷺ في قوله :

● « .. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحَت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله .. ألا وهي القلب » من حديث رواه البخاري ومسلم .

وقد ورد في الحديث الشريف :

● « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه » .

ومعنى استقامته كونه ممتلئاً من محبة الله ومحبة طاعته ، وكراهة معصيته .

وقد ذكر العلماء أن صلاح القلب في تسعة أشياء : أحدها : قراءة القرآن بالتدبر ، ثانيها : خلاء البطن بتقليل الأكل ، ثالثها : قيام الليل بالعبادة ، رابعها : التضرع عند السَّحَر ، خامسها : مجالسة الصالحين ، سادسها : الصمت عما لا يعني . سابعها : العزلة عن أهل الجهل ، ثامنها : ترك الخوض في الناس ، تاسعها : أكل الحلال ، وهو رأسها ، فإنه ينور القلب ، ويصلحه : فتزكو بذلك الجوارح ، وتدرأ المفاسد ، وتكثر المصالح .. وأكل الحرام والشبهات : يصدىء القلب ويظلمه ويقسيه .. وقد قيل : يُخاف على آكل الحرام والشبهة أن لا يقبل له عمل ، ولا يرفع له دعاء .. لقوله تعالى : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ وآكل الحرام والمسترسل في الشبهات : ليس بمتق على الإطلاق .. وقال أبو ذر رضي الله عنه : تمام التقوى أن يتقي الله العبد بترك بعض الحلال مخافة أن يكون حراماً .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، ونفذ جميع أسباب صلاح القلب .. بالإضافة إلى ما أوصاك به الرسول ﷺ ــ في شخص هذا الصحابي الذي شكا إليه قسوة قلبه ــ فقال :

●● امسح رأس اليتيم ــ وهو : من مات أبوه وهو دون البلوغ[١] ــ :

---

(١) وهو كذلك من ماتت أمه من الحيوانات .

لأنك إن فعلت هذا ــ إن شاء الله ــ ستُلين قلبك الذي سيرق .. وسيكون سبباً في عطفك وكفالتك لهذا اليتيم الذي ينبغي أن تتصور ولدك مكانه .. لأن دوام الحال من المحال .. ولأننا جميعاً في سفر إلى الله .. وسنترك خلفَنَا أموالاً وذرية ــ إن وجد كل هذا ــ إلى حين .. وقد ورد في الأثر :

« لا بد للمرء من ثمانية : عسر ، ويسر ، وحزن ، وفرح ، واجتماع ، وفُرقَةٍ ، ثم : سقَم ، وعافية » .

ولهذا : حسبك أن تفهم هذا ، حتى تعطف على يتيم أخ لك في الله سبقك إلى الله بالإيمان .. حتى تجد أو يجد ولدك من يعامله بمثل هذا مستقبلاً .. وقد ورد في الأثر :

● « اعمل ما شئت .. كما تدينُ تُدان » .

مع ملاحظة : أنك عندما ستمسح على رأس اليتيم ستشعره بالحنان الذي فقده .. والذي كان يتمنى أن يفوز به مع بقية الأبناء الذين مازالوا يستمتعون بحنان آبائهم وأمهاتهم الذي لا يضارعه شيء عند الأبناء .

وأيضاً : عندما ستمسح رأس اليتيم ، ستأخذ ثواباً عظيماً .. جاء فيه أنك ستأخذ بعدد شعر رأسه حسنات .

●● وأما عن إطعام المسكين الذي يوصينا به الرسول ﷺ كذلك ، بقوله : « وأطعم المسكين » :

فإن المراد به كذلك ــ كما عرفتَ قبل هذا ــ أن تكون وَصُولاً له ببرك كما يشير الله تعالى إلى هذا في آية « البر » التي يقول فيها :

● ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب** ﴾ أي : ليس البر ــ يا معشر اليهود والنصارى ــ أن يولي بعضكم وجهه قِبَلَ المشرق ، وبعضكم قبل المغرب ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ أي : ولكن البرَّ ، برُّ من صدَّق بالله ، وبالآخرة ، وآمن بالملائكة ، والكتب ، والرسل ﴿ **وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين** ﴾ أي : وأعطى ماله وهو محبٌّ له ، حريص على جمعه ، شحيح

به ، لذوي القرابة ، ولليتامى الذين مات آباؤهم ، ولأصحاب الحاجة والفاقة ﴿ **وابن السبيل** ﴾ أي : وللمسافر الذي انقطع في سفره(١) ، سمي ابن السبيل لملازمته الطريق ﴿ **والسائلين** ﴾ أي الطالبين للعون ﴿ **وفي الرقاب** ﴾ أي : وفي فك الرقاب من العبودية ، وهم المكاتبون ﴿ **وأقام الصلاة وآتى الزكاة** ﴾ أي : وأدى الصلاة بحدودها ، وأعطى الزكاة كما فرضها الله عليه ﴿ **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا** ﴾ أي : ولا ينقضون عهد الله بعد المعاهدة ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء** ﴾ أي : وأمدح الصابرين ، وقت البؤس والضُّر ﴿ **وحين البأس** ﴾ أي : والصابرين وقت شدة القتال ، في الحرب ﴿ **أولئك الذين صدقوا** ﴾ أي : صدقوا الله في إيمانهم ، وحققوا أقوالهم بأفعالهم ﴿ **وأولئك هم المتقون** ﴾(٢) أي : الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

وقد كان النبي ﷺ يرغب في إطعام الطعام .. لأنه من أعظم القربات إلى الله تبارك وتعالى :

● فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة » متفق عليه .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يُصبحُ العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » متفق عليه .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : أيُّ الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفتَ ومن لم تعرف » متفق عليه .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام واجعله زاداً لك يدفعك إلى أن تكون من المؤمنين الصادقين الذين يعطفون على اليتامى والمساكين بكل تلك المقاييس الإيمانية التي وقفتَ عليها .. والتي أرجو أن تكون حجة لك لا عليك .

والله ولي التوفيق .

---

(١) الذي هو سفر طاعة .. لا سفر معصية .

(٢) ما بين القوسين الآية ١٧٧ من سورة البقرة ، والتفسير من « مختصر تفسير الطبري » .



الوصية الثامنة والثمانون

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:
أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أراد سفرًا،(١)
فقال: يا نبي الله أوصني، فقال:

اعبد الله لا تشرك به شيئًا(٢)

قال يا نبي الله زدني، قال:

إذا أسأت فأحسن(٣)

قال يا نبي الله زدني، قال:

استقم ولتحسن خلقك.

رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد

وروى مالك عن معاذ قال : كان آخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رجلي في الغرز[4] أن قال :

أحسن خلقك للناس يا معاذ[5]

---

(١) لعل ذلك حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ليكون قاضيًا ومفتيًا لأهلها.

(٢) وهذه أعظم وصية لأن التوحيد هو الأساس في العبادة.

(٣) أي إذا عملت سيئة فاتبعها بحسنة لتمحو الحسنة السيئة وتذهبها.

(٤) الغرز : هو ركاب كور الجمل إذا كان من الجلد . أو خشب وقيل : الكور مطلقًا مثل الركاب للسرج .

(٥) وقد ورد في حديث شريف رواه مسلم والترمذي : (.. البر حسن الخلق ..) .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذا الزاد المحمدي الذي زود به الرسول ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أراد سفراً ، فطلب من النبي ﷺ أن يوصيه بوصية تنفعه وتكون نوراً حَقِيقيًّا له في غدوه ورواحه .. فقال له الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه :

●● « اعبد الله لا تشرك به شيئاً » :

وهو بهذه الأولى يضع له أساساً لا بد أن يلاحظه ويحققه دائماً وأبداً في كل عباداته .. وهو أن تكون العبادات هذه خالصة لله رب العالمين .. أي : خالية من الشرك الأكبر والأصغر لأنه ــ والعياذ بالله ــ إن عبد مع الله غيره .. سيكون قد أشرك بالله شركاً أكبر .. وإن كان يعمل الأعمال الصالحة .. طلباً للمحمدة والثناء من جانب الناس .. فإنه بهذا سيكون قد أشرك بالله شركاً أصغر .

وكلاهما منهي عنه ــ كما عرفنا قبل هذا في الوصايا السابقة ــ .. بل إنهما أَوَائل جميع محبطات الأعمال .. بل وَأوائل الأسباب المؤدية إلى النار والعياذ بالله .

وحسبي أن أذكر هنا بقول الله تبارك وتعالى :

● **﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ... ﴾**(١) .

● **﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾**(٢) .

وبالحديث الشريف الذي ورد :

---

(١) النساء : الآية ٤٨ .

(٢) البقرة : ٢٦٤ .

● عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رجل يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يُرى موطني(١) .. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزل : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « قال الله عز وجل : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك »(٢) رواه ابن ماجة ورواته ثقات .

● وعن أبي سعيد بن أبي فضالة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة .. ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمله لله أحداً .. فليطلب ثوابه من عنده .. فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » رواه الترمذي في التفسير من جامعه وابن ماجه .

ثم قال معاذ للنبي ﷺ ــ في نص الوصية ــ : يا نبي الله زدني ، فقال له :

●● « إذا أسأت فأحسن » :

أي : إذا فعلت سيئة ، فأتبعها بحسنة تمحها .. كما قال النبي ﷺ في نص وصية أخرى :

● « .. وأتبع السيئة الحسنة تمحها .. »(٣) .

وكما أكَّد الله تبارك وتعالى هذا ، في قوله :

● ﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار** ﴾ أي : وصلِّ يا محمد بالغداة والعشي ــ أي في الصباح والمساء ، صلاة الفجر وصلاة المغرب ، فهما طرفا النهار ــ ﴿ **وزلفاً من الليل** ﴾ أي : وساعات من الليل وهي صلاة العشاء ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ أي : إن الصلوات الخمس يذهبن السيئات ــ

---

(١) الموطن المتشهد من مشاهد الحرب .

(٢) أي : إن عمله للذي أشركه مع الله .. لأن الله بريء منه ..

(٣) من حديث رواه الترمذي .. وهو الوصية السابعة والثلاثون .. فارجع إليها .

وهذا أرجح الأقوال عند الطبري ، أن المراد بالحسنات : الصلوات الخمس المكتوبات ، واختار ابن كثير : أن المراد بالحسنات الأعمال الصالحة ﴿ **ذلك ذِكرى للذاكرين** ﴾(١) أي : ذلك تذكرة للمتقين الذين يرجون ثواب الله ، ويخافون عقابه .

وقد ورد أن هذه الآية نزلت في رجل قبل امرأة ثم ندم ، فجاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يطهره من الذنب .. فنزلت الآية .

وأحب أن أضيف كذلك أن المراد بالسيئات هنا : أي الصغائر التي منها : اللهو واللعب ، والنظرة الثانية ، وما فعله الرجل الذي بسببه نزلت الآية ...

وأن الصغائر هذه يكفرها كل عمل صالح .. ويكفرها تلاوة القرآن ، وذكر الله تعالى بصفة عامة ... بل إن الوضوء فضلاً عن الصلوات الخمس يكفر الصغائر :

● **فعن عبد الله الصُّنابحي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا** توضأ العبد فمضمض : خرجت الخطايا من فيه ، **فإذا استنثر** : خرجت الخطايا من أنفه ، فإذا غسل وجهه : خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت **أشفار عينيه ، فإذا غسل يديه : خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت** أظفار يديه ، فإذا مسح برأسه : خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من **أذنيه ، فإذا غسل رجليه : خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة(٢) له»** رواه مالك وأحمد والنسائي والحاكم وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين .

مع ملاحظة أن الله سبحانه وتعالى لن يمحو السيئات بفعل الحسنات ـــ بصفة عامة ـــ إلا إذا اجتُنبَت الكبائر .. لأن الله تعالى قد اشترط هذا في قرآنه فقال :

● ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم**

---

(١) ما بين القوسين الآية ١١٤ من سورة هود .

(٢) أي : زائدة .

مُدخلاً كريماً ﴾(١) .

وفي الحديث الشريف الصحيح يقول صلوات الله وسلامه عليه :

● « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وقد يسأل الأخ المسلم عن الكبائر ؟ فأذكره بأنها كما جمعها أبو طالب المكي رحمه الله تعالى :

● أربع في القلب ، وهي : الشرك بالله تعالى ، والإصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

● وأربع في اللسان ، وهي : شهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، واليمين الغموس ، والسحر .

● وثلاث في البطن ، وهي : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلم .

● واثنتان في اليدين ، وهما : القتل ، والسرقة .

● واثنتان في الفرج ، وهما : الزنى، واللواط .

● وواحدة في الرجل ، وهي : الفرار من الزحف .

● وواحدة في جميع البدن ، وهي : عقوق الوالدين .

مع ملاحظة كذلك : أن هذه الكبائر لا يكفرها إلا التوبة الصادقة المقترنة بالأعمال الصالحة التي تؤكدها كما قال تعالى مشيراً إلى هذا :

● **﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾**(٢) .

وقبل هذه الآية مباشرة قال تعالى في سورة الفرقان :

● **﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم**

---

(١) سورة النساء : الآية ٣١ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٧١ .

حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(١) .

بعد قوله تبارك وتعالى في وصف عباده الذين يستحقون رحمته :

● **﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يُضاعف له العذابُ يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً ﴾**(٢) .

وقد يكون المعنى المراد من قول الرسول ﷺ : « وإذا أسأت فأحسن » :

أن تكون بالنسبة لمن أسأت إليه معتذراً له عن إساءتك إليه .. واطلب منه مسامحتك .. وحسِّن الخلق معه بعد ذلك .. وهذا أشمل لأن النبي ﷺ يقول :

● « .. البر حسن الخلق » . رواه مسلم والترمذي .

ولهذا ، فقد قال النبي ﷺ بعد ذلك ــ في نص الوصية ــ عندما قال معاذ له : يا نبي الله زدني :

●● « استقم وليحسن خُلُقك » ، وفي الرواية الأخرى التي رواها مالك عن معاذ :

●● « أحسن خلقك للناس » :

لأنك بحسن خلقك ، أولاً : ستؤكد إيمانك .. لأن الإيمان لن يكون حقيقة إلا بحسن الخلق .. ، فقد ورد :

● عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : قال : « الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » رواه البخاري .

والحياء : انكماش يعرض للرجل عند ظهور شيء يُعاب عليه ، وهو ممدوح ، وأما الذي يُضيِّع حقًا أو يجر باطلاً فممقوت .

كما ورد كذلك في نص حديث شريف :

---

(١) الفرقان : الآية ٧٠ .

(٢) الفرقان : الآية ٦٩ .

● « الحياء والإيمان قرناء جميعاً ، فإذا رُفع أحدهما رفع الآخر » رواه الحاكم والطبري .

● وعن أسامة بن شريك قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ كأنما على رءوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذا جاءه أناس فقالوا : من أحب عباد الله إلى الله تعالى ؟ قال : « أحسنهم خُلقاً » رواه الطبراني .

● وفي رواية : « ما خير ما أُعطي الإنسان ؟ قال : « خلق حسن » رواه ابن حبان .

● وقال : « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء ، وإن أحسن الناس إسلاماً ، أحسنهم خلقاً » رواه الترمذي .

● وَسُئِل : « أي المؤمنين أكمل إيماناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً » رواه الطبراني .

● وعن عبد الله بن عمرو : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ألا أخبركم بأحبكم إليَّ ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ؟ فأعادها مرتين أو ثلاثاً ــ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : أحسنكم خُلقاً » رواه أحمد .

● وقال : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، إن الله يكره الفاحش البذيء ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » رواه أحمد .

فمن كل هذه الأحاديث الشريفة يتبين لنا جميعاً أهمية حسن الخلق الذي به سَنُحافظ كذلك : على رصيدنا أو أرصدتنا من الحسنات يوم القيامة ، فقد ورد أن الحبيب صلوات الله وسلامه عليه سأل أصحابه ذات يوم :

● « أتدرون من المفلس ! » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : « المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا .. فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في

في النار » رواه مسلم .

فليكن كل هذا أخا الإسلام سبباً في حسن خلقك ، وأساساً في استقامتك التي ينبغي أن تكون أساساً في سلوكك الإيماني إلى الله تبارك وتعالى :

● فعن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » رواه مسلم .

والإستقامة معناها : **ملازمة الطريق** بفعل الواجبات ، وترك المنهيات ، كما يشير إلى هذا رب العزة سبحانه وتعالى لحبيبه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في سورة هود :

● ﴿ **فاستقم كما أمرتَ** ... ﴾(1) ، أي : كما أمرتَ ونهيتَ .. ولهذا ورد أن الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قال مشيراً إلى هذه الآية :

● « شيبتني آيةُ هود » .

وبهذا تكون قد فهمتَ المراد من قول الرسول ﷺ : « استقم وليحسن **خلقك** » . **وتكون قد فَهمتَ المراد من الوصية كلها .. تلك الوصية العظيمة التي أرجو أن تفوز بتنفيذها مع بقية أخواتها من الوصايا التي وقفتَ عليها والتي ستقف عليها بعد إن شاء الله .**

والله ولي التوفيق .



(1) سورة هود من الآية ١١٢ .

الوصية التاسعة والثمانون

عن أنسٍ رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لَا تَقَاطَعُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ .

رواه مالك والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي ، ورواه مسلم أخصر منه والطبراني وزاد فيه :

يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَـذَا ، وَيُعْرِضُ

هَـذَا وَخَـيْرُهُـمَا الَّذِى يَبْـدَأُ بِالسَّلَامِ ، وَالَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ يَسْـبِقُ إِلَى الْجَنَّـةِ .[1]

قال مالك : لا أحسب التدابر إلا الإعراض عن أخيك المسلم فتدبر عنه بوجهك .

---

(١) وَهذا مَعناه أنه لابد لكى يكون إسْلامًا بالمعنى الصحيح أن يكون هناك تعاطف وتراحم بَين المسْلمين دون هجر أو عـدوَان .

- وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يوصى بهذا ، فإنه يريد به أن نكون دائماً وأبدًا متحابين فى الله حتى نكون جميعاً من المعتصمين بحبل الله المتين .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي معناها إجمالاً ، أنه لا بد لكي يكون هناك إسلام مُبرهن على وجوده وتأكيده في التعامل المتبادل بين المسلمين : أن يكون هناك تعاطف وتراحم بينهم دون هجر أو عدوان .

لأنه إذا تحقق هذا بينهم : فإنه سيكون هناك كذلك في قلوبهم الحب الصادق الذي لن يتذوقوا حلاوة الإيمان إلا به .

ولهذا ، فإنني أرى أن أبدأ بعد هذه المقدمة الموجزة في توضيح المراد من هذه الوصية العظيمة التي عليها كما عرفت ــ إجمالاً ــ مدار الإسلام والإيمان .

ففي بداية هذا الحديث الشريف : يوصي النبي ﷺ بأهم ما ينبغي على المسلمين جميعاً أن يلاحظوه وينفذوه ،،وهو ألا يَكون هناك تقاطع بينهم .. فيقول ناهياً إيانا جميعاً نحن المسلمين الصادقين :

●● « لا تقاطعوا » .

وذلك حتى نظل قوة متماسكة لا يستطيع الشيطان التحريش بها أو السيطرة عليها بكل الأساليب الشيطانية التي كانت ولا تزال من حادثة « قابيل وهابيل » أساساً في فساد الفاسدين ، وهلاك الهالكين بتلك الصورة المشينة التي لا شك أننا جميعاً نعرف عنها الكثير والكثير بسبب ما نلمسه في عالمنا الإسلامي ــ المعاصر ــ الذي نرى فيه كيف يتحرش المسلم بأخيه المسلم .. وهو يحرص كل الحرص على سفك دمه .. والإستيلاء على حقوقه ومتطلبات حياته .

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في قوله ، الذي ورد في نص حديث صحيح رواه مسلم :

● عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم » ، والتحريش ، هو : الإغراء ، وتغيير القلوب ، والتقاطع .

ولهذا ، فقد أمرنا الله تعالى بالإتحاد والترابط ، فقال :

﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ... »** .

كما كان النبي ﷺ في حياته يطفيء كل نار للفتنة :

● فعن جابر قال : اقتتل غلامان : غلام من المهاجرين ، وغلام من الأنصار .. فنادى المهاجر أو المهاجرون : يا لَلمهاجرين ، ونادى الأنصاري : ياللأنصار ، فخرج رسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا ؟ دعوى أهل الجاهلية » قالوا : لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع(١) أحدهما الآخر ، قال : « فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره » رواه مسلم .

إنه بهذا صلوات الله وسلامه عليه يبين لنا أنه ينبغي علينا ألا نجعل للشيطان ثغرة بين صفوفنا حتى لا يوقع بيننا ، ويكون سبباً في تقاطعنا وعدم تماسكنا وتراحمنا المشار إليه في الحديث الشريف الذي ورد :

● عن النعمان بن بشير ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه مسلم .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله » رواه مسلم .

وهذا هو المعنى الذي ينبغي أن يكون متحقّقاً فينا حتى يكون كل مؤمن منا لأخيه المؤمن : « .. كالبنيان يشد بعضه بعضاً » الحديث رواه مسلم .

●● وأما عن التدابر المنهي عنه بعد ذلك في قول الرسول ﷺ :

●● « ولا تدابروا » :

فإن معناه ألا تتكلموا فى أدبار(٢) إخوانكم بالغيبة والبهتان ، أي

---

(١) كسعه : ضرب دبره بيده ، وهو بكاف ثم سين .

(٢) أي من خلف ظهورهم .

الكذب والإفتراء .. وقيل : إن المعنى لا يدبر بعضكم عن بعض معرضاً عنه ، وتاركاً إعانته ونصره ، لأن ذلك يؤدي إلى المعاداة والتقاطع والهجران ...

وقد ورد في حديث أخرجه مسلم وغيره ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئاً إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء ـ أي : عداوة ـ يقول : اتركوا هذين حتى يصطلحا » .

● وأخرج الطبراني وغيره : « يطلع الله تعالى إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن » .

مع ملاحظة أنه يجوز الهجر لغرض شرعي : كفسق ، وابتداع ، وإيذاء ، وزجر ، وإصلاح دين الهاجر أو المهجور .

●● وأما عن التباغض المنهي عنه كذلك ، وهو المشار إليه في قول النبي ﷺ في نص الوصية :

●● « ولا تباغضوا » ، فإن المراد به ، أي : لا يبغض بعضكم بعضاً بتعاطي أسباب البغض كالشتم والضرب ، ومنع النفع .. إلخ .

فالبغض حرام إذا كان لغير الله تعالى .. أما إذا كان لله تعالى .. وهو ما يكون لأجل المعصية فليس بحرام .. بل هو واجب ومن كال الإيمان .. لخبر : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله : فقد استكمل الإيمان » ، ولا ينبغي احتقار العاصي ، وإنما المطلوب الإنكار عليه ، ونهيه عن ارتكاب ما يخالف الشرع .. ونُقِل عن سيدي على الخواص رحمه الله تعالى أنه قال : عداوتنا لأفعال من أمرنا الحق تعالى بعداوته عداوة شرعية، وعداوتنا لذاته عداوة طبيعية ، والسعادة في الشرعية لا في الطبيعية .. والظاهر أن مراده بالعداوة الكراهة ... وقال سيدي عبد القادر الجيلي نفعنا الله تعالى به : إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة .. فإن كانت مكروهة فيهما : فاكرهه .. وإن كانت محبوبة فيهما : فأحبه .. لئلا تحبه بهواك ، وتبغضه بهواك .. قال الله تعالى : ﴿ ... **ولا تتبع الهوى فيضلك**

عن سبيل الله ... ﴾(١) . وقال الشعراني رحمه الله تعالى : حقيقة الحب في الله ألا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء .. وقال الغزالي رحمة الله عليه : من أحب عالماً أو عابداً أو أحب شخصاً راغباً في علم أو عباده أو خير : فإنما أحبه لله وفي الله ، وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه .. وقيل : معنى لا تباغضوا ، لا توقعوا العداوة والبغضاء بين المسلمين ، فيكون نهياً عن النميمة ، وهي نقل كلام بعض الناس إلى بعض على جهة يترتب عليها الإفساد بينهم ، وهي محرمة إجماعاً ، ويجب كما قال الغزالي على كل من حملت إليه نميمة ستة أمور :

الأول : ألا يصدقه ، أي النمام .

الثاني : أن ينهاه عن ذلك .

الثالث : أن يبغضه في الله .

الرابع : ألا يظن بالمنقول عنه السوء .

الخامس : ألا يتجسس على تحقيق ذلك .

السادس : ألا يحكي ما نَمَّ له به .

وقال الشاذلي نفعنا الله بعلمه : إذا نقل إليكَ أو إليكم أحد كلاماً في عرضكم عن أحد ، فازجروه ، أي الناقل ، ولو كان أعز إخوانكم ..وقولوا له : إن كنت تعتقد فينا هذا الأمر فأنت ومن نقلت عنه سواء ، بل أنت أسوأ حالاً منه لأنه لم يسمعنا ذلك وأنت أسمعته لنا ، وإن كنت تعتقد أن هذا الأمر باطل في حقنا وبعيد عنا فما فائدة نقله إلينا .

وقال رجل لوهب بن منبه رضي الله تعالى عنه : شتمك فلان .. فقال له : أما وجد إبليس رجلاً يرسله غيرك .

●● وأما عن التحاسد المنهي عنه بعد ذلك في نص الوصية ، وهو قوله ﷺ :

---

(١) سورة ص : الآية ٢٦ .

●● « ولا تحاسدوا(١) » : فإن معناه : لا يحسد بعضكم بعضاً ، فإن الحسد حرام ومن الكبائر ، وهو تمني زوال نعمة الغير سواء تمنى انتقالها إليه أم لا .. وقد تطابقت الملل وتوافقت على ذمه وقبحه .. وجاء في عدة أخبار وآثار : أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وورد : أنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال بعضهم : ليس شيء أضر من الحسد ، يصل بسببه إلى الحاسد خمس عقوبات :

غم لا ينقطع ، ومصيبة لا يؤجر عليها ، ومذمة لا يُحمد بها ، ويسخط عليه الرب ، ويغلق عنه أبواب التوفيق .

وقيل : إن الله تعالى أمر بالإستعاذة من شر الحاسد كما أمر بها من شر الشيطان .

وحُكي أن إبليس أتى باب فرعون فقرعه فقال فرعون : مَن هذا ؟ فقال إبليس : أنا ، ولو كنتَ إلهاً ما جَهِلتني .. فقال له فرعون : ادخل يا ملعون .. فلما دخل عليه قال له فرعون : أتعرف على ظهر الأرض أحداً شراً منك ومني ؟ قال : بلى ، قال : مَن هو ؟ قال : الحاسد .. وبالحسد وقعت في هذه المحنة .. إن لي صديقاً أجابني إلى كل ما دعوته من الشر فقلت له : وجب عليَّ حقك .. فاسأل مني الحاجة .. فقال : يا إبليس إن لجاري بقرة فأمتها .. فقلت : لا قوة لي على ذلك .. أتريد أن أعطيك عشر بقرات مكانها ؟ فقال : لا أريد إلا هلاكها .. فعلمت أن الحاسد شر مني ومنك .

وقال بعضهم : الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد .. وفي معنى ذلك قيل :

ألا قل لمن بات لي حاسداً ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله ... كأنك لم ترض لي ما وهب

ومن الحكمة : الحسود لا يسود أبداً ، والبخيل تأكل أمواله العِدا ،

---

(١) أصله تتاءين « أي لا تتحاسدوا » حذفت إحداهما تخفيفاً ، وكذا ، بقية المنهي عنه في نص الوصية ....

والكريم لا يُضام أبداً ، أي : لا يحصل له ضيم أي ضرر ومشقة .

وحُكي أنه كان للإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه حُسَّاد فأرادوا إبطال كلمته ، فجعلوا لامرأة جُعلاً على أن تدخله دارها ليلاً وتظهر للناس أنه أرادها بفاحشة .. فتعرضت له وقت السَّحَر ، وهو ذاهب يريد صلاة الفجر في الجامع ، وقالت له : إن زوجي يريد الوصية وهو مريض وأخاف عليه الموت قبل ذلك .. فدخل معها ، فغلقت الأبواب وصاحت .. فجاء الحساد وأخذوا الإمام والمرأة إلى الوالي فأمر بسجنهما حتى تطلع الشمس .. فاشتغل الإمام بصلاته في السجن .. فندمت المرأة على ما صنعت معه ، وأخبرته بما قيل لها .. فقال لها الإمام : قولي للسجان إن لي حاجة وأريد أن أخرج وأعود إليك .. فإذا خرجت فاذهبي إلى أم حماد يعني زوجته وأخبريها بالقصة وأرسليها إلي وامضي أنت إلى شأنك .. ففعلت .. ولما حضرت زوجته وطلع النهار ـ طلبهما الوالي وقال للإمام : أيحل لك أن تخلو بأجنبية ؟ عليَّ بفلان .. يعني أبا زَوجته[1] .. فلما حضر قيل له : مَن هذه ؟ فكشف وجهها فإذا هي ابنته .. فقال : هذه ابنتي زوجتها لهذا الإمام .. فعند ذلك أظهر الله تعالى حجته وأعلى كلمته ، فقال في ذلك :

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسِدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهم ... ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

وقال بعضهم :

دع الحسود وما يلقاه من كمده ... يكفيك منه لهيب النار في كبده
إن لمتَ ذا حسد فرجتَ كربته ... وإن سكتَّ فقد عذبته بيده

وقال آخر :

إصبر على حسد الحسو ... د فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

---

(١) يعني والد زوجة الإمام

وهذا كله في الحسد الحقيقي ، وأما الحسد المجازي فهو غير مذموم وعرفوه بأنه تَمَنى مثل ما لأخيه من النعمة من غير أن تزول عنه ، والمبادرة إلى الكمال الذي شاهده في غيره ليلحقه أو يجاوزه ، ويسمى غبطة .. وعليه حُمِل حديث : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس » ، يعنيَ ليس بشيء من الدنيا حقيقاً بالغبطة عليه إلاهاتان الخصلتان : العلم ، وإنفاق المال في سبيل الله تعالى ، وهي أي الغبطة مباحة في الأمور الدنيوية وسنة في الدينية .

●● والمراد من قوله صلوات الله وسلامه عليه :

●● « وكونوا عباد الله إخواناً » : أي : كونوا يا عباد الله « إخواناً » أي : اكتسبوا ما تصيرون به إخواناً من حسن المعاشرة ، وفعل المؤلِّفات ، وترك المنفرات .

وقال القرطبي : كونوا كإخوان النسب في الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة والمعاونة والنصيحة .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : من شرط الصدق في الأخوة أن يكرم الشخص أخاه إذا افتقر أكثر مِمَّا كان حال الغنى .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا حتى يحرص على أن يكون وصولاً لإخوانه في الله .. لأن هذا سيكون معناه أنه سيفوز بهذا فوزاً عظيماً .. وسيكون بسببه من المشار إليهم في نص هذا الحديث الشريف الذي ورد :

● عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكَانتهم من الله تعالى » قالوا : يا رسول الله تُخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح من الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذ خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » وقرأ هذه الآية : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم**

يحزنون ﴾ . رواه أبو داود .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي[١] ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » رواه مسلم[٢] .

هذا ، وإذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، قد ختم الوصية بعد ذلك بقوله :

●● « ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » : أي : بغير سبب شرعي .. وهي مكروهة في الثلاثة ، وفيما زاد : حرام إلا لضرورة .

وحكى أن رجلاً هجر أخاه فوق ثلاثة أيام فكتب إليه هذه الأبيات :

يا سيدي عندك لي مظلمة	فاستفت فيها ابن أبي خيثمة
عن ابن عباس عن المصطفى	ما قد روى الضحاك عن عِكرمة
إن صدود الإلف عن إلفه	فوق ثلاثٍ رَبُّنَا حَرَّمَه

وفي الرواية الأخرى التي وردت كذلك في نص الوصية :

●● « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » .

وفي رواية لأبي داود قال النبي ﷺ :

● « لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، فإن مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه ، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر ، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم[٣] وخرج المسلِّمُ[٤] من الهجرة » .

قال الحافظ المنذري قال أبو داود : إذا كانت الهجرة لله فليست من هذا

---

(١) الجلال : العظمة ، ويقولون : فعلته من جلالك ، أي من أجلك .

(٢) ورواه الترمذي ، ولفظه : قال الله عز وجل : « المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » .

(٣) باء بالإثم : أي رجع .

(٤) أي الذي ألقى السلام .

بشيء ، فإن النبي ﷺ هجر بعض نسائه أربعين يوماً ، وابن عمر هجر ابناً له إلى أن مات . أ . هـ .

ومنه : هجر الزوج الزوجة إذا تحقق نشوزها ، قال تعالى : ﴿ **واهجروهن في المضاجع** ﴾ ، ومنه : هجرة أهل المعاصي في المكان والكلام ، وجواب السلام وابتداؤه ، ومنه : هجرة ما نهى الله عنه وهي أعم الهجرة .

وإذا كان النبي ﷺ قد ختم الوصية بقوله :

●● « والذي يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة » .

فإنني أرجو أن تنتفع بهذا الختام المسك الذي أرجو أن يكون سَبباً في تسابقك مع إخوانك المسلمين إلى الجنة .. إن لم تكن فعلاً من السابقين إليها بتسامحك وعفوك .

وحسبك في الختام أن تكون من الفائزين بتنفيذ هذه الوصية العظيمة ... والله ولي التوفيق .



الوصية التسعون

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي أيوب :

أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى تِجَارَةٍ [1] ؟

قَالَ بَلَى ، قَالَ :

صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا [2]

وَقَرِّبْ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا [3] .

رواه البزار ، ورواه الطبراني من حديث أبي أمامة بلفظ :

أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى عَمَلٍ يَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ قَالَ بَلَى .

قَالَ : صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا

تَفَاسَدُوا، وَقَرِّبْ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا.

وَرَواه الطبراني أيضاً والأصبهاني عن أبي أيوب، قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

يَا أَبَا أَيُوبَ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَبَاغَضُوا وَتَفَاسَدُوا.

وللأصبهاني بلفظ: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّ اللَّهُ مَوْضِعَهَا ؟ قَالَ : قُلْتُ : بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى ، قَالَ : تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ يُحِبُّ اللَّهُ مَوْضِعَهَا.(٤)

---

(١) أى تجارة عظيمة تربحك النجاة من عذاب الله والفوز برضاه وثوابه .

(٢) أى إذا حصل بينهم فساد وشقاق فحاول إزالة أسباب ذلك لتعود المودة بينهم .

(٣) أى اجتهد فى التقريب بينهم إذا حصل بينهم جفاء وتنافر .

(٤) موضعها ، أى مكانها .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي هي في مجموعها ، وجميع رواياتها : تدعو إلى أمر من أهم الأمور التي لا بد أن يهتم المسلمون بها .. حتى يظلوا أقوياء أعزاء .. ألا وهو : الإصلاح بين الناس إذا ما استطاع الشيطان أن يدخل بين صفوفهم وينزغ بينهم بتلك الصورة المؤسفة التي كثيراً ما كانت ولا تزال سبباً في كثير من الفساد والإفساد الذي انتشر بين أكثر الناس .. فكان سبباً في تناحرهم وحروبهم التي أكلت الأخضر واليابس .. كما كانت سبباً في ضعف شوكتهم وتمكن الأعداء منهم في كثير من المواقع التي أصبحوا فيها لا يأمنون على أنفسهم ولا على ممتلكاتهم ليلاً ونهاراً .

ولهذا كان لا بد أن ننفذ المراد من هذه الوصية العظيمة التي نحن دائماً ــ حاضراً ومستقبلاً ــ في أشد الحاجة إلى تنفيذها .. والعمل على تنْميتها بالمودة والمحبة .. والتواصل المستمر بين الأمم والشعوب الإسلامية التي ينبغي أن تكون أمة واحدة .. تحت لواء واحد ، وهو لواء الإسلام الذي يجمعهم والذي كان سبباً في كل ما حققه آباؤهم وأجدادهم من مجد وفخار .

وقد قرأت أن هارون الرشيد ــ رحمه الله ــ كان ينظر إلى السحابة ويقول لها : أمطري في أي مكان شئتِ .. فأينما كنت يأتينا خَرَاجِك !!!

وهذا يشير إلى اتِّساع رقعة الإسلام في عصره ... بل هذا يدعونَا جميعاً إلى ضرورة أن ننفذ وصية الرسول ﷺ حتى نصحح مسارنا ونستعيد أمجادنا .. حَسيًّا ومعنويًّا .

وحسبي أن أشير هنا ، وبعد هذا التقديم الذي يوضح إجمالاً المراد من هذه الوصية العظيمة : إلى بعض الآيات القرآنية التي يشير الله سبحانه وتعالى فيها إلى ضرورة الإصلاح بين الناس ، فيقول :

● **﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء (١) إلى أمر الله ، فإن فاءت**

---

(١) أي ترجع .

فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا(١) **إن الله يحب المقسطين** ﴾ الحجرات : ٩ .

ففي هذه الآية الكريمة : **يأمرنا الله** سبحانه وتعالى جميعاً كمؤمنين في أي موقع إسلامي على وجه الأرض ، أن ننفذ أمره هذا ، الذي مضمونه كما تشير الآية : أنه إن جماعتان من أهل الإيمان اقتتلوا ، فأصلحوا ــ أيها المؤمنون ــ بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه .. فإن أبت إحدى الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ما جعله عدلاً بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما .. فقاتلوا التي تعتدي ، وتأبى الإجابة إلى حكم الله .. حتى ترجع إلى حكم الله ، الذي حكم به في كتابه بين خلقه .. فإن رجعت الطائفة الباغية ، إلى الرضا بحكم الله ، فأصلحوا بينهما وبين الطائفة الأخرى ، بالإنصاف بينهما وبالعدل .. واعدلوا في حكمكم بين من حكمتم بينهم ، إن الله يحب العادلين في أحكامهم ، القاضين بين خلقه بالعدل .

ثم يقول الله تبارك وتعالى بعد ذلك في سورة الحجرات مؤكداً أهمية هذا الأمر :

● ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾(٢) .

وقد روى البخاري ومسلم ، عن أنس رضي الله عنه أنه قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبي سلول !! ــ وهو رأس المنافقين ــ فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق معه المسلمون يمشون ، فلما أتاه النبي ﷺ قال له(٣) : إليك عني ــ أي تنح وابتعد عني ــ فوالله لقد آذاني حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك !! فغضب لعبد الله بن سلول رجل من قومه ، وغضب للأنصاري آخرون من قومه ، فكان بينهم ضرب بالأيدي والجريد والنعال ، فأنزل الله : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ... ﴾ الآية .

---

(١) وأقسطوا : أي اعدلوا .　　(٢) **الحجرات : ١٠ .**
(٣) أي قال رأس المنافقين لرسول الله ﷺ .

ومن الملاحظات المفيدة التي قرأتها كذلك حول الآية الكريمة[1] : أن الله تبارك وتعالى قال : ﴿ **وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ ولم يقل : يحب القاسطين ، لأن « المقسطين » اسم فاعل بمعنى العادل ، وما ضيه أقسط أي : عدل ، وأما القاسط ، فهو الظالم الجائر ، قال تعالى : ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾[2] ، وماضيه قسط بمعنى ظلم .

● ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ النساء : ١١٤ .

فمعنى هذه الآية بإيجاز مفيد : أنه لا خير في كثير من نجوى الناس ــ وهو حديثهم الذي يتحدثون بينهم ــ إلا إذا كان التناجي بأعمال البر والخير ، من الصدقة والمعروف ، والإصلاح بين الناس المتخاصمين .. وأن من يفعل ذلك ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته سبحانه وتعالى .. سيعطيه الله جزاء عمله .. ثوابا جزيلاً لا يعلم قدره إلا الله .

● ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حَكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يُريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليماً خبيراً** ﴾ النساء : ٣٥ .

أي : إن علمتم العداوة والشقاق بين الزوجين ، فأرسلوا حكمين عدلين واحداً من أقربائه ، وواحداً من أقربائها ، لينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة .. وإن قصد الحكَمان إصلاحاً بين الزوجين ، وفقهما الله تعالى للحق والصواب .. فإن الله عالم بما أراد الحكمان خبير بنياتهما .

وقد قرأت في هذا ما خلاصته أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد أرسل حكمين في قضية كهذه .. فلم يُوفقا .. فلما عادا إليه وأخبراه بما حدث .. ضربهما بالسوط وهو يقول لهما : لو أردتما إصلاحاً لوفقكما الله تعالى .. لأن الله تعالى صادق في قوله : ﴿ **إن يريدا إصلاحاً يوفق الله**

---

(١) في مختصر « تفسير الطبري » بالإضافة إلى الشرح الموجز .

(٢) سورة الجن : الآية ١٥ .

بينهما ﴾ أو كما قال عليه رضوان الله .

● **﴿ وإن امرأةخافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جُناحَ عليهما أن يُصلحَا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تُحسِنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾** النساء : ١٥٨ .

أي : وإن خافت امرأة من زوجها استعلاء بنفسه عنها ، لبغض لها لدمامتها أو كبر سنها ، أو إعراضاً بصرف وجهه عنها .. فلا حرج على الرجل والمرأة أن يتصالحا بينهما على شيء(١) ، بترك بعض الحق استدامة لعقد النكاح .. والصلح خير من طلب الفرقة والطلاق .. وأُحضرت نفس النساء الشُّحَّ بحقوقهِنَّ من أزواجهن(٢) في القسم والنفقة ، والشح : الإفراط في الحرص .. وإن تحسنوا إلى نسائكم ، وتتقوا الله فيهن بترك الجوْر ، والنفقة والعشرة بالمعروف ، فإن الله عالم بما تعملون ، وسيجازيكم عليها : المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

● **﴿ .. وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾** الأنفال : ١ .

أي : فخافوا الله واتقوه بامتثال أوامره ، واجتناب معاصيه ، وأصلحوا الحال التي بينكم .. وانتهوا إلى أمر الله ورسوله .. إن كنتم مصدقين بما جاءكم من عند ربكم .

عن عبادة بن الصامت ، قال : نزلت فينا أصحاب بدر ، حين اختلفنا في النُّفُل(٣) ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى رسوله ﷺ ، فقسمه ﷺ بين المسلمين على السواء . رواه أحمد .

وقد ورد في الترغيب في السنة في الإصلاح بين الناس :

---

(١) قالت عائشة : هذا الرجل يكون له امرأتان ، إحداهما قد عجزت أو هي دميمة ، فتقول : لا تطلقني وأنت في حِلٍّ من شأني .

(٢) وقيل : إن المعنى : أحضرت نفس كل واحد من الرجل والمرأة الشح بحقه قِبَلَ صاحبه ، واختار الطبري الأول .

(٣) المراد : الغنائم التي كانت تجمع من ميدان القتال في سبيل الله بعد المعركة .

● عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ سُلامى من الناس عليه صدقة ، كُلَّ يوم تطلع فيه الشمس : يعدل بين الإثنين صدقة ، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة ، وتُميط الأذى عن الطريق صدقة » رواه البخاري ومسلم .

والسُّلامى : جمع سلامية بضم السين وهي الأنملة من أنامل الأصابع ، وقيل : مفرد جمعه سلاميات وهي التي بين كل مفصلين من أصابع الإنسان ، وقيل : كل عظم مجوف من صغار العظام .

● وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ » . قالوا : بلى ، قال : « إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة » رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث صحيح. قال : وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام وكن منفذاً لهذه الوصية العظيمة حتى تكون بها قد تاجرت مع الله تبارك وتعالى .. وتكون أيضاً قد قدمتَ لنفسك صدقة يحب الله موضعها — أي مكانها — .

والله ولي التوفيق .

★★★

الوصية الواحدة والتسعون

عن أسود بن أصرم رضي الله عنه، قال:

قلت يا رسول الله أوصني قال:

تَملِكُ يَدَكَ[1]. قُلتُ: فماذا أَملِكُ إذا لَم أملِكْ يدِي؟ قَالَ: تملِكُ لِسَانَك. قُلتُ: فَمَاذَا أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَملِكْ لِسَانِي؟ قَالَ: لَاتَبْسُطْ يدَكَ إِلَّا إِلَى خيرٍ، وَلَاتقُلْ بِلسَانِكَ إِلَّا مَعرُوفًا[2].

رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني بإسناد حسن، والبيهقي.

---

(١) أي تكفها فلا تبسطها لأحد بسوء، وهو خبر بمعنى الأمر.

(٢) أي قولاً حسنًا جميلاً.

فكن أخا الإسلام :

حريصاً كل الحرص على تنفيذ هذه الوصية العظيمة التي إن نفذتها على الدوام ، كنت من أهل التوفيق والسعادة في الدارين .. وكنت أيضاً في نفس الوقت قد حصنتَ نفسك من الضياع بسبب يدك ولسانك .

وأعني بهذا : أنه من الخير لك بل ولنا جميعاً أن تكف يدك عن الشر الذي إن حدث والعياذ بالله ــ سينعكس علينا جميعاً بعد أن يعصف بك أو بفاعله .. لأن الله تعالى يقول :

- ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ..** ﴾(١) .

والإنسان العاقل هو الذي يملك يده .. فلا يبسطها لأحد بسوء .. وهو الذي يقدم بها خيراً .. حتى يجده عند الله تبارك وتعالى :

- ﴿ .. **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ..** ﴾(٢) .
- ﴿ .. **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ....** ﴾(٣) :

سواء كان هذا الخير كثيراً أم قليلاً :

- ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره** ﴾(٤) .

وإلى هذا يشير الحكيم في قوله :

قدم لنـــــــــفسك خيراً وأنت مالكُ مالِك
من قبـــل تصبـــح فرداً ولـــــــونُ حالك حالك
ولستَ والله تدري أي المسالك سالك
إمـــــا لجنـــــة عدن أو في المهـــــالك هالك

وإلا فإنك ستندم يوم القيامة ندماً ما بعده ندم .. بل ستقول ما يشير

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٠ .
(٢) النبأ : الآية ٤٠ .
(٣) المزمل : الآية ٢٠ .
(٤) الزلزلة : الآية ٧ ، ٨ .

الله تعالى إليه في قوله :

● **﴿ .. رب ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت .. ﴾[1] .**

● **﴿ .. رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ... ﴾[2] .**

فسارع إلى الله تبارك وتعالى باستعمال يدك في الخير لا في الشر .

وكذلك بالنسبة للسانك الذي لا بد أن تستعمله في الخير لا في الشر .. وأعني بهذا ما أشار الله تعالى إليه في قوله :

● **﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس .. ﴾[3]** . وقوله :

● **﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى .. ﴾[4] .**

وحسب الأخ العاقل إذا أراد أن يقف على خطورة هذا اللسان أن يعلم أو يذكر نفسه بأن الله تبارك وتعالى قد جعل اللسان هذا داخل قفصين : قفص داخلي : وهو الأسنان : وخارجي : وهو الشفتان .. حتى يكون اللسان هذا مملوكاً لصاحبه .. فلا ينطق به إلا بعد أن يفكر كثيراً في الكلمة التي يريد أن يقولها .. فإن كانت خيراً نطق بها وإلا أمسكها .. وهذا هو الذي يعنيه الرسول ﷺ بقوله : « تملك لسانك » .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه دعا لمن يفعل هذا ، فقال :

● « رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم » .

ومن الحكم المأثورة عن الإمام علي كرم الله وجهه ، قوله :

● **« لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه »** . وقوله :

---

(١) المؤمنون : الآية ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) المنافقون : الآية ١٠ .

(٣) النساء : الآية ١١٤ .

(٤) البقرة : الآية ٢٦٣ .

● « المرء مخبوء تحت لسانه ، فإذا ما تكلم ظهر » . وقوله :

● « من كثر كلامه : كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه : قل حياؤه ، ومن قل حياؤه : قل ورعه ، ومن قل ورعه : مات قلبه ، ومن مات قلبه : دخل النار » .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ونفذه حتى تكون مالكاً ليدك ولسانك إن شاء الله .. كما أوصاك رسول الله ﷺ الذي يقول : « .. من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

والله ولي التوفيق .



الوصية الثانية والتسعون

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةُ الْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الْقَلْبُ الْقَاسِي (١).

رواه الترمذي والبيهقي ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب . وعن مالك رضي الله عنه بلغه أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول :

لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ[2]، فَإِنَّ الْقَلْبَ الْقَاسِي بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ[3] وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ، وَلَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ[4] وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ[5]، فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلًى[6] وَمُعَافًى، فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ.

ذكره مالك في الموطأ بلاغاً.

(١) أى الذى لايرِقُّ لموعظة وَلايلين لنصيحة ولايتأثر بشىءٍ مِن الحَادثات .

(٢) أى تجمَّد وتغلظ .

(٣) أى لاينظر الله إليه وَلايحبه .

(٤) أى كأنكم مهيمنون عليهم تملكون حسَابهم عَليها .

(٥) أى فقراء أذلاء خاضعون لله .

(٦) أى ممتحن بالوقوع فى المعَاصى ، وَمعافىً ؛ أى سَالم من ذلك .

★★★

فكن أخا الإسلام :

متأملاً في هذه الوصية العظيمة مرة أخرى ـــ بل مرات ومرات ـــ حتى تفهم المراد من قول الرسول ﷺ بعمق .. وحتى تكون أيضاً في نفس الوقت منفذاً لأبعادها التي إن نفذتها إن شاء الله كنت من أصحاب القلوب المطمئنة دائماً وأبداً بذكر الله .. لأن الله تعالى يقول :

● ﴿ .. **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾(١) .

هذا بالإضافة إلى أن ذكر الله تعالى ، هو : طب القلوب ودواؤها ، وعافية الأبدان وشفاؤها ، ونور الأبصار وضياؤها به تطمئن القلوب ، وتنفرج الكروب ، وتغفر الخطايا والذنوب ..

ولهذا فقد أمر الله تعالى به وحثَّ عليه ، ورغَّب فيه ، ومدح أهله ، وبين ما لهم عنده من رفيع الدرجات ... فقال تعالى :

﴿ .. **والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾(٢) ، وقال :

● ﴿ **فاذكروني أذكركم** .. ﴾(٣) .

وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى بأنه يذكر من يذكره .

كما قال تبارك وتعالى في حديث قدسي رواه البخاري ومسلم :

« أنا عند ظن عبدي بي(٤) وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلي شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »(٥) .

---

(١) الرعد : الآية ٢٨ .

(٢) الأحزاب : الآية ٣٥ .

(٣) البقرة : الآية ١٥٢ .

(٤) أي إن ظن أن الله يقبل دعاءه وهو يدعوه قبله ، ومن استغفره وظن أن الله يغفر له .. وهكذا .

(٥) أي أنه كلما زاد إقبال العبد على ربه كان الله إليه بكل خير أسرع .

وقد اختص الله تبارك وتعالى أهل الذكر بالتفرد والسبق ، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ : « سبق المُفَرِّدُون » . قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » رواه مسلم .

● وفي حديث آخر أخبر النبي ﷺ ، أن الذاكرين هم الأحياء على الحقيقة ، فعن أبي موسى : أن النبي ﷺ ، قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت » رواه البخاري .

● وأن الذكر هو رأس الأعمال الصالحة .. ولهذا كان رسول الله ﷺ **يذكر الله على كل أحيانه .. ويوصي الرجل الذي قال له : إن شرائع الإسلام قد** كثُرت عليَّ ، فأخبرني بشيء أتشبث به(١) ؟ فيقول له : « لا يزال فوك رطباً من ذكر الله » ، ويقول لأصحابه :

« ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق(٢) ، وخير لكم من أن تَلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال: « ذكر الله » . رواه الترمذي وأحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وأن الذكر هو سبيل النجاة .. فعن معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما عمل آدمي عملاً قطُّ أنجى له من عذاب الله ، من ذكر الله عز وجل » رواه أحمد .

● وعند أحمد : أنه ﷺ : قال : « إن ما تذكرون من جلال الله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش ، لهن دوي كدوي النحل يذكِّرن بصاحبهن ، أفلا يُحبُّ أحدكم أن يكون له ما يذكِّر به ؟ » . أي : عند ربه سبحانه وتعالى .

فمن كل هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يتأكد لنا أهمية الذكر الذي به ــ كما قرأنا ــ سيكون الإنسان حيًّا بمعنى الكلمة وسيكون أيضاً من الذين سيذكرهم الله تبارك وتعالى برحمته ومغفرته ورعايته وعونه .

---

(١) أتشبث : أي : أتمسك به .　　(٢) الورق ، بكسر الراء ، أي الفضة .

بل وبه سيكون القلب ليِّناً لا قاسِياً .. وحسبه أن يفوز بهذا .. حتى يكون من أصحاب القلوب الحية التي بحياتها تحيَا جميع الجوارح وتستنير ... بهذا المعنى الذي خلاصته أنه لن يكون هناك مكان لوسوسة الشياطين فيها .. ولن يكون هناك فيها انشغال بغير الله عز وجل الذي ينبغي ألا تُشغَل إلا به سبحانه .

هذا بالإضافة إلى أن الشيطان لن يقترب من الإنسان ولن يكون قريناً له ، أو مشاركاً له في طعام أو شراب أو أي عمل من الأعمال إلا إذا غفل عن ذكر الله تعالى .. قال تعالى :

● ﴿ **ومن يعش**(١) **عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين** ﴾(٢) .

● وفي رؤيا رآها النبي ﷺ في منامه يقول : « ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فطير الشياطينَ عنه »(٣) .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تكون إن شاء الله تعالى من الذاكرين .

وحسبي أن أذكرك ـــ في ختام هذا العرض السريع ـــ بخبر هذا الرجل الصالح الذي مر عليه أحدهم فرآه في حالة يُرثى لها ـــ لاجتماع الأمراض فيه ـــ فسمعه يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه .. فتعجب الرجل ـــ الذي سمعه ـــ ثم قال له : يا أخي ما الذي عافاك الله منه ؟ لقد رأيتُ جميع المصائب وقد تراكمت عليك !! . **فقال له : إليك عني يا بطال .. فإنه عافاني إذ أطلق لي لساني يوحده وقلباً يعرفه ، وفي كل وقت** يذكره .. ثم قال :

حمدت الله ربي إذ هداني ... إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكـــره لساني كلَّ وقت ... ويعرفـــه فؤادي باللطيـــف

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المعانين منه سبحانه وتعالى : « على ذكره وشكره ، وحسن عبادته » .

حتى نكون بهذا من أهل العافية على الدوام .

والله ولي التوفيق .

---

(١) يعش : أي يعمل .   (٢) الزخرف : الآية ٣٦ .   (٣) من نص حديث صحيح .

الوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ وَالتِّسْعُونَ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى(1) الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا(2) ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ(3) ، وَإِنَّ الْفُجُورَ

يَهْدِى إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ[4] حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا .

رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وصححه ، واللفظ له .

---

(١) أن يجتهد فيه ويلتزمه .

(٢) وهى مرتبة قبل مرتبة النبوة .

(٣) أى إلى الانبعاث فى المعاصى .

(٤) أى يتعمده ويقصده .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي يوصينا فيها صلوات الله وسلامه عليه بأن نكون من الصادقين لا من الكاذبين .

لأن الصدق من متممات الإيمان ، ومكملات الإسلام ...

ولهذا ، فقد أثنى الله تعالى على المتصفين به فقال :

- ﴿ .. **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾(١) ، وقال :
- ﴿ .. **والصادقين والصادقات** .. ﴾(٢) ، وقال :
- ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون** ﴾(٣) .

بل أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله :

- ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾(٤) .

هذا بالإضافة إلى أن للصدق ثمرات طيبة يجنيها الصادقون **وهي :**

١ ــ راحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، لقول الرسول ﷺ : « الصدق طمأنينة »(٥) .

٢ ــ البركة والكسب ، وزيادة الخير ، لقول الرسول ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وَبَيَّنَا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما »(٦) .

٣ ــ الفوز بمنازل الشهداء لقوله عليه الصلاة والسلام : « من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » .

---

(١) الأحزاب : الآية ٢٣ .

(٢) الأحزاب : الآية ٣٥ .

(٣) الزمر : الآية ٣٣ .

(٤) التوبة : ١١٩ .

(٥) رواه الترمذي وصححه بلفظ : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» .

(٦) رواه البخاري .

٤ ــ النجاة من المكروه ، فقد حكى أن هارباً لجأ إلى أحد الصالحين وقال له : أخفني عن طالبي ، فقال له : نَمْ هنا ، وألقى عليه حزمة من خوص ، فلما جاء طالبوه وسألوه عنه قال لهم : هاهو ذا تحت الخوص ، فظنوا أنه يسخر منهم فتركوه ، ونجا ببركة صدق الرجل الصالح .

وحسب الصادق أن يعلم ــ كما أشار النبي ﷺ في نص الوصية ــ أنه بالصدق سيهتدي إلى البر الذي به سيهتدي إلى سُبُلِ الخير التي ستوصله إلى الجنة .. التي هي دار الصادقين .

بل وحسبه أن يعلم أنه إذا تحرى الصدق دائماً وأبداً في كل أقواله وأفعاله كُتِبَ بسبب هذا عند الله من الصديقين .

مع ملاحظة أن الصديقية : مرتبة عظيمة قبل مرتبة النبوة مباشرة .. وقد أشار الله تعالى إلى هذا مرتين في سورة مريم ، فقال :

﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً** ﴾(١) .

﴿ **واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيًّا** ﴾(٢) .

كما أشار الله تعالى إلى هذا في ترتيبٍ تنازلي ، فقال :

﴿ **ومن يطع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** ﴾(٣) .

ومن أجل هذا كان الصدق أساساً في جميع الرسالات ، ومن أهم صفات الرسل أجمعين .. الذين كان خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم مُلَقباً بالصادق الأمين ... وقد شهد له جميع قومه بهذا .. يوم أن وقف ، فقال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟ » عندئذ قالوا له جميعاً بلا استثناء : نعم ماجربنا عليك كذباً فأنت الصادق الأمين ...

---

(١) سورة مريم : الآية ٤١ .

(٢) سورةمريم : الآية ٥٦ .

(٣) سورة النساء : الآية ٦٩ .

فكان هذا الصدق سبباً في انتشار الدعوة بعد هذا .. لأنه جاء بالصدق ..

وأما الكذب : فإنه مستحيل في حقهم عليهم الصلاة والسلام .. قال في **العقد** الثمين : ويستحيل عليهم الكذب ، وإلا لما كانوا أمناء وحيه سبحانه ... فقد علم الله سبحانه منهم الصدق والأمانة فاختارهم لتبليغ رسالته وحفظ أمانته ، وأمرنا بالإقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم .. ومن المعلوم أن علمه تعالى محيط بما لا نهاية له ، فلزم أن تصديقه تعالى لهم لما علمه منهم ، وأن جميع **أقوالهم** وأفعالهم على وفق ما يختاره سبحانه وتعالى ويرضاه ... أهـ .

هذا ، وإذا كان النبي ﷺ ــ في نص الوصية ــ قد رغبنا في الصدق ، فإنه أيضاً قد حذرنا من الكذب .. لأن الكذب كما قال النبي ﷺ : « يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار .. » .

وهو أيضاً : من أهم صفات المنافقين الذين هم : ﴿ .. **في الدرك الأسفل من النار** ... ﴾[1] .

ففي الحديث الصحيح المتفق عليه يقول صلوات الله وسلامه عليه :

● « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

لأن المسلم الحقيقي إذا حدث لا يحدث بغير الحق والصدق ، وإذا أخبر لا يخبر بغير ما هو الواقع في نفس الأمر .

وهناك كلام هام[2] ذكره الإمام النووي في كتابه : « رياض الصالحين » تحت عنوان :

باب بيان ما يجوز من الكذب

يقول فيه ما أرجو أن تلاحظه ، وهو :

---

(١) النساء : الآية ١٤٥ .

(٢) ذكرت به قبل ذلك في حديث : « اضمنوا لي ستاً من أنفسكم ... » وفي الإعادة إفادة ...

إعلم : أن الكذب وإن كان أصله محرماً فيجوز في بعض الأحوال بشروط ـــ قد أوضحتها في كتاب الأذكار ـــ ومُختصر ذلك :

أن الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه ، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب ، ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً وإن كان واجباً كان الكذب واجباً .

فإن اختفى مسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله ، وأخفى ماله ، وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه .. وكذا :

لو كان عنده وديعة وأراد ظالم أخذها وجب الكذب بإخفائها .. والأحوط في هذا كلّه أن يورِّيَ ، ومعنى التورية : أن يقصد بعبارته مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه ، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ وبالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب ، ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام في هذا الحال ، واستدلَّ العلماء بجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً » متفق عليه . زاد مسلم في رواية : قالت أم كلثوم ولم أسمعه يُرخِّصُ في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث يعني الحرب والإصْلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها .

● وإذا كان النبي ﷺ قد قال في ختام الوصية : «وما يزال الرجل[1] يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » :

فإن المعنى أنه إذا تعمد الكذب وقصده ، يحكم له بذلك عند الله ، ويستحل الوصف به .

وحتى لا تكون من هؤلاء الكذابين الذين يتحرون الكذب ـــ والعياذ بالله ـــ فقد رأيت أن أذكرك ونفسي ببعض الأحاديث الشريفة التي منها ، ما ورد :

(١) وفي رواية صحيحة : « ومايزال العبد » .

● عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن العبدُ الإيمانَ كُلَّه(١) حتى يترك الكذبَ في المزاحة(٢) والمراء(٣) وإن كان صادقاً »(٤) رواه أحمد والطبراني .

● وعن صفوان بن سليم ، قال : قيل : يا رسول الله أيكون المؤمن جَبَاناً؟ قال : « نعم » . قيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : « نعم » . قيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : « لا » . رواه مالك هكذا مرسلاً .

● وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنهم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ويل للذي يُحدِّثُ بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ، ويل له(٥) ، ويل له » رواه أبو داود ، والترمذي وحسنه ، والنسائي والبيهقي .

● وعن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة(٦) : الشيخ الزاني ، والإمام الكذاب ، والعائل(٧) المزهو(٨) » رواه البزار بإسناد جيد .

جعلني وإياك من المؤمنين الصادقين الصديقين ، وكفاني وإياك وجميع المسلمين شر الكذب وأهله .. آمين .

---

(١) يعني : لا يكون كامل الإيمان .
(٢) المزاح والمزاحة بضم الميم : الهزل والمداعبة .
(٣) المراء : أي الجدال والمخاصمة .
(٤) يعني وإن كان مُحقاً في مرائه .
(٥) أي هلاك وعذاب ، وقيل : واد في جهنم .. لأنه يضطر إلى الكذب من أجل أن يضحك الناس .
(٦) يعني لا يدخلونها ابتداء أو لا يستحقون دخولها إلا أن يعفو الله عنهم .
(٧) العائل : أي الفقير .
(٨) المزهو : هو المعجب بنفسه المتكبر .



الوصية الرابعة والتسعون

عن أبى ذر رضى الله عنه قال :
قلت يارسول الله أوصنى ، قال :

إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها قال : قلت يارسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : هى أفضل الحسنات.[1]

رواه أحمد عن شمر بن عطية عن بعض أشياخه عنه .

---

(١) أى أكبرها شأناً وأعظمها أثراً فى إزالة الذنوب ، وفى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :
(أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة ، من قال لا إله إلا الله خالصاً مخلصاً من قلبه)

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً مرة أخرى ودائماً وأبداً بهذه الوصية العظيمةالتي ركزنا على موضوعها ـــ هذا ـــ من قبل ، والذي جاء في مضمونه :

أنه من الخير لنا إذا أخطأنا ، أو إذا وقعنا في مخالفة منهيٍّ عنها .. أن نعود سريعاً إلى الله تبارك وتعالى بعمل صالح من الأعمال المرغّب فيها.. حتى نَمحو بهذا العمل الصالح السيئة أو السيئات التي ارتكبناها ... لأن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ .. إن الحسنات يذهبن السيئات .. ﴾ .

وإذا كنا قد شرحنا هذا شرحاً وافياً قبل هذا .. فإنني أرى أن أذكر مرة أخرى بالمعنى المراد من قول الرسول ﷺ ، عن : لا إله إلا الله ، أنها : « أفضل الحسنات » ، أي : أنها أكبرها شأناً وأعظمها أثراً في إزالة الذنوب ، وفي الحديث الذي رواه البخاري .

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة ، من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه » .

● وهي أيضاً بالإضافة إلى هذا ، سبيل الفوز بدخول الجنة والنجاة من النار ، قال الله عز وجل : **﴿ .. فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز .. ﴾**[1] .

● وهي سبيل السعادة في الدارين أي طريقهما لا وصول إليهما إلا بهذه الكلمة ، فهي الكلمة التي أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه ، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار . وفي شأنها تكون الشقاوة والسعادة ، وبها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمال ، ويثقل الميزان أو يخف ، وبها النجاة من

---

(١) آل عمران : الآية ١٨٥ .

النار بعد الورود، وبعدم التزامها البقاء في النار، وبها أخذ الله الميثاق، وعليها الجزاء والمحاسبة، وعنها السؤال يوم التلاق، إذ يقول تعالى: ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون**﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾(٢)، فأما سؤاله تعالى الذين أرسل إليهم يوم القيامة فمنه قوله تعالى: ﴿ **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾(٣)، والآيات قبلها وبعدها وغير ذلك. وأما سؤاله المرسلين فمنه قوله تعالى: ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجبتم، قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾(٤) وغير ذلك من الآيات:

● وهي، أعظم نعمة أنعم الله عز وجل بها على عباده أن هداهم إليها، ولهذا ذكرها في سورة النحل التي هي سورة النعم، فقدمها أولاً قبل كل نعمة، فقال تعالى: ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾(٥).

● وهي، كلمة الشهادة ومفتاح السعادة.

● وهي، أصل الدين وأساسه ورأس أمره، وساق شجرته، وعمود فسطاطه، وبقية أركان الدين متفرعة عَنها، متشعبة منها، مكملات لها، مقيدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها:

● فهي، العروة الوثقى التي قال الله عز وجل مشيراً إليها: ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾(٦)، قاله سعيد بن جبير والضحاك.

● وهي، العهد الذي ذكر الله عز وجل إذ يقول: ﴿ **لا يملكون**

---

(١) الحجر: الآية ٩٢، ٩٣.
(٢) الأعراف: الآية ٦.
(٣) القصص: الآية ٦٥.
(٤) المائدة: الآية ١٠٩.
(٥) النحل: الآية ٢.
(٦) البقرة: ٢٥٦.

الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[1] ، قال ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : هو شهادة أن لا إله إلا الله ، والبراءة من الحول والقوة إلا بالله ، وألا يرجو إلا الله عز وجل .

● وهي ، الحسنى التي قال الله عز وجل : ﴿ **فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى** ﴾[2] ، الآيات ، قاله أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك ورواه عطية عن ابن عباس .

● وهي ، كلمة الحق التي ذكر الله عز وجل ، إذ يقول تعالى : ﴿ .. **إلا مَن شهد بالحق وهم يعلمون** ﴾[3] ، قال ذلك البغوي .

● وهي ، كلمة التقوى التي ذكر الله عز وجل إذ يقول : ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾[4] ، روى ذلك ابن جرير وعبد الله ابن أحمد والترمذي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

● وهي ، القول الثابت الذي ذكر الله عز وجل إذ يقول : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾[5] ، أخرجاه في الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

● وهي ، الكلمة الطيبة المضروبة مثلاً قبل ذلك إذ يقول تعالى : ﴿ .. **ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾[6] ، قاله علي بن طلحة عن ابن عباس ، أصلها ثابت في قلب المؤمن ، وفرعها العمل الصالح في السماء صاعد إلى الله عز وجل ، وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد .

● وهي ، الحسنة التي ذكر الله عز وجل ، إذ يقول : ﴿ **من جاء**

---

(١) مريم : ٨٧ .

(٢) سورة الليل : الآية ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٣) الزخرف : الآية ٨٦ .

(٤) سورة الفتح : الآية ٢٦ .

(٥) سورة إبراهيم : الآية ٢٧ .

(٦) سورة إبراهيم : الآية ٢٤ .

بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾(٢) ، قال ذلك زين العابدين وإبراهيم النخعي .

● وهي ، المثل الأعلى الذي ذكر الله عز وجل إذ يقول : ﴿ **وله المثل الأعلى في السموات والأرض** ... ﴾(٣) ، وقال ذلك قتادة ومحمد بن جرير ، ورواه مالك عن محمد بن المكندر .

● وهي ، سبب النجاة كما في صحيح مسلم أن النبي ﷺ سمع مؤذناً يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله » فقال ﷺ : « خرجت من النار » ، وفيه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » ، وفي حديث الشفاعة ... يقول الله تعالى: « أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » .

● وهي ، سبب دخول الجنة كما في الصحيحين ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله وابن أَمَتِه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق : أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » وفي رواية : « أدخله الله الجنة على ما كان من عمل » .

● وهي ، أفضل ما ذكر الله عز وجل به ، وأثقل شيء في ميزان الله يوم القيامة ، ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ، قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام : يا رب علمني ما أذكرك به ، وأدعوك به . فقال : يا موسى ، قل : لا إله إلا الله . قال موسى عليه الصلاة والسلام : يا رب كل عبادك يقولون هذا . قال : قل : لا إله إلا الله . قال : لا إله

---

(١) الأنعام : الآية ١٦٠ .
(٢) النمل : الآية ٨٩ .
(٣) الروم : ٢٧ .

إلا أنت . إنما أريد شيئاً تخصني به . قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري ، والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، لمالت بهن لا إله إلا الله » أخرجه النسائي وابن حبان .

وفي حديث ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ، قال : « إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فَيَنشرَ له تسعة وتسعين سِجِلاً ، كل سجل مد البصر . فيقول أتنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يا رب فيقول : أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب. فيقول: أفلك عذر أوحسنة؟ فيقول: لايا رب. فيقول الله عز وجل : بلى إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فيقول أحضر وزنك ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لن تظلم ، فتوضع السجلات ، في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات[1] وثقلت البطاقة .. ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء » أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب والبيهقي والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

● وهي ، التي لايحجبها شيء دون الله عز وجل كما في الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : « لا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تصل إلى العرش » .

● وهي ، الأمان من وحشة القبور ، وهول الحشر ، كما في المسند وغيره عن النبي ﷺ ، قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم ، وكأني بأهل لا إله إلا الله وقد قاموا ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » .

●● واعلم أن النصوص الواردة في هذه الشهادة كثيرة لا يحاط بها .. ويكفيك في فضل لا إله إلا الله إخبار النبي ﷺ أنها أعلى جميع شعب الإيمان ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ

---

(١) السجلات : جمع سجل،وهو الكتاب الكبير ، والبطاقة : رقعة صغيرة يثبت فيها ما يحصل . وطاشت ، أي : خفت .

« الإيمان بضع وسبعون ــ أو بضع وستون ــ شعبة فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » الحديث وهذا لفظ مسلم .

● وأن من قالها ، أي قال : لا إله إلا الله حال كونه « معتقداً » أي عالماً ومتيقناً « معناها » الذي دلت عليه نفياً وإثباتاً « وكان » مع ذلك « عاملاً بمقتضاها » على وفق ما علمه منها وتيقنه .. فإن ثمرة العلم العمل به «في القول» أي قول القلب واللسان «والفعل» أي عمل القلب واللسان والجوارح ، قال الله عز وجل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ ، « ومات مؤمناً » أي على ذلك ، وهذا شرط لا بد منه .. فإنما الأعمال بالخواتيم ، قال ﷺ : « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » الحديث في الصحيحين عن أبي ذر بطوله : « يبعث يوم الحشر » أي يوم الجمع « ناج » من النار « آمنا » من فزع يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون**﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾[2] .

وهذا الذي وقفنا عليه ، هو شرح قول أحدهم[3] :

وقد حوته لفظة الشهادة ... فهي سبيل الفوز والسعادة
من قالها معتقداً معناها ... وكان عاملاً بمقتضاها
في القول والفعل ومات مؤمناً ... يُبعثُ يوم الحشرِ ناج آمناً

ثم يقول بعد ذلك كلاماً أرجو أن نفهمه ونؤمن به :

فإن معناها الذي عليه ... دلت يقيناً وهدَت إليه
أن ليس بالحق إله يُعبدُ ... إلا الإله الواحد المتفرد
بالخلق والرزق والتدبير ... جل عن الشريك والنظير

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠١ ، ١٠٣ . (٢) سورة النمل : الآية : ٨٩ .
(٣) كما جاء في كتاب « معارج القبول » للشيخ حافظ بن أحمد حَكمي رحمه الله تعالى .

وأختم هذا الكلام الجامع .. بكلام أحد الموحدين الذي يقول فيه :

فيا عجباً كيف يعصي الإله أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

* * *

تأمل في رياض الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على قُضُب الزَّبرجَد شاهدات بأن الله ليس له شريك

●● فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى تكون من أهل : « لا إله إلا الله » وحتى تكون بسبب هذا إن شاء الله تعالى ــ بالإضافة إلى كل ما وقفت عليه ــ من أهل الجنة :

● فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن بُرَّة من خير . ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن ذَرَّةٍ من خير » أخرجه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه والترمذي ، وقال : حسن صحيح .

وحسبي في الختام ــ كذلك أن أذكرك بهذا الحديث الشريف الذي رواه أحمد بإسناد حسن :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « جددوا إيمانكم قيل : يا رسول الله ، وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول : لا إله إلا الله » .

جعلني الله تعالى وإياك من المكثرين من قول : « لا إله إلا الله » حتى نكون بهذا من المجددين لإيماننا على الدوام ، وحتى نكون من أهل الحسنات ، لا من أهل السيئات .

والله ولي التوفيق .

الوصية الخامسة والتسعون

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ . فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى[1] .

رواه أحمد ورواته ثقات والبزار وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى فى الزهد وغيره ، كلهم من رواية المطلب بن عبد الله ابن حنطب عن أبى موسى . وقال الحاكم : صحيح على شرطهما .

---

(١) أى اختاروا الآخرة الباقية على الدنيا الفانية .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية المحمدية التي ينبغي أن تكون مبادراً بتنفيذها حتى لا تكون من الذين شغلتهم الدنيا عن الآخرة .. فتكون مثلهم من الهالكين الذين آثروا ما يفنى على ما يبقى ... وكان من المفروض عليهم كعقلاء أن يؤثروا الباقية على الفانية .

وصدق الله العظيم ، فهو القائل في كتابه العزيز :

● ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى** ﴾(١) ، وقال :

● ﴿ **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى** ﴾(٢) .

كما أشار الله تبارك وتعالى في آية أخرى إلى ما يجب علينا أن نعرفه عن الآخرة فقال :

﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان(٣) لو كانوا يعلمون** ﴾(٤) .

ومن أجمل ما قرأت توضيحاً لهذا المعنى الذي ينبغي أن لا يغيب أبداً عن قلوبنا :

أن النبي ﷺ ، وقف خطيباً فقال — في وصف الدنيا — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

● « الدنيا دار بلاء ، ومنزلة بُلغةٍ وعناء ، قد نَزَعَتْ عنها نفوس السعداء ، وانتُزِعَتْ بالكره من أيدي الأشقياء . فأسعد الناس بها أرغبهم عنها ، وأشقاهم بها أرغبهم فيها ، فهي الغاشة لمن استنصحها ، والمغوية لمن أطاعها . الفائز من أعرض عنها ، والهالك من هوى فيها . طوبى لعبد اتقى فيها ربه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته من قبل أن تلقيه الدنيا إلى الآخرة ، فيصبح في بطن موحشة غبراء مُدْلَهِمَّة(٥) ، ظلماء لا يستطيع أن يزيد في حسنة

---

(١) سورة الأعلى : ١٦ ، ١٧ . (٢) النازعات : الآية ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) أي لهي الحياة الحقيقية .

(٤) العنكبوت : الآية ٦٤ .

(٥) ادلهم الظلام كثف واسود . ومدلهم : مبالغة .

ولا ينقُص من سيئة ، ثم ينشر فيحشر إما إلى جنة يدوم نعيمها ، أو إلى نار لا ينفد عَذابها » ذكره في الكشكول .

وفي خطبة أخرى قال صلوات الله وسلامه عليه ـــ في التنفير من الدنيا ـــ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

● « أيها الناس إن هذه الدار دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزلة تَرح[1] لا منزل فرح . فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء . ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عِوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتليَ ليجزي ، إنها لسريعة الذهاب ، وشيكة الإنقلاب . فاحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها ، واحذروا لذيذ عاجلها لكريه آجلها ، ولا تسَعوْا في تعمير دار قد قضى الله خرابها ، ولا تواصلوها ـــ فقد أراد الله منكم اجتنابها ـــ فتكونوا لسخطه متعرضين ، ولعقوبته مستحقين » ذكره في الكشكول .

ولهذا ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه في نص حديث صحيح ـــ رواه البخاري ـــ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

● « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول بعد ذلك مشيراً إلى المراد من وصية الرسول ﷺ كما فهمها : « إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » .

نعم ، لقد فهم ابن عمر رضي الله عنهما المراد من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فقال بعد ذلك الخلاصة التي وقفنا عليها ، والتي ينبغي أن نتفق عليها ، ونعمل على تنفيذها قبل فوات الأوان .. وقبل أن نقول كما يقول الله تبارك وتعالى مشيراً إلى هذا في قرآنه :

● **﴿ .. رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾**[2] .

---

(١) الترح : أي الحزن .   (٢) المنافقون : الآية ١٠ ، ١١ .

وذلك لأن الدنيا كما عرفنا ، وكما وصفها علي كرم الله وجهه :

● « أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء » .

سجنت بها وأنت لها محب فكيف تحب ما فيه سُجِنتَا
فلا تلهـــو بدار أنت فيها تفارق منك يوماً ما لهوتا
وتطعمك الطعام وعن قريب ستطعم منك ما منها طعمتا
أتبنـي بنـاء الخالديـــن وإنما مقـامك فيها لو عقلـت قليـل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كان فيها يعتريه رحيل

* * *

ترجو البقاء بدار لا بقاء لها وهل سمعت بظل غير منتقل

* * *

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها
النفس ترغب في الدنيا وقد علمت أن الزهادة فيها ترك ما فيها
فاغرس أصول التقى ما دمتَ مجتهداً واعلم بأنك بعد الموت لاقيها

● وقد حكى أن رجلاً دخل على أبي ذر رضي الله تعالى عنه ، فقـال : يا أبا ذر أين متاعكم؟ فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه متاعنا، فقال: لا بد من متاع ما دمت هاهنا . قال : نعلم أن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

وقال داود الطائي رحمه الله تعالى : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم كل يوم زاداً لما بين يديك فافعل ، واقض ما أنت قاض من أمورك فكأنك بالرحيل وقد بغتك ، فكيف يَركن إلى الدنيا من يومه يهدم شهره ، وشهره يهدم سَنَته ، وسَنَته تهدم عمره ... وقد قال بعضهم :

أيا من له في باطن الأرض حفرة　　أتأنس بالدنيا وأنت غريب
وما الدهر إلا كيوم وليلة　　وما الموت إلا نازل وقريب

ففكر في كل هذا أخا الإسلام واتعظ به حتى لا تحب دنياك فتضر بآخرتك التي إليها معادك .

واعلم أن من أحب الدنيا فقد أحب نفسه ، ومن أحب نفسه انفصل عن أسرته ، ومن انفصل عن أسرته انفصل عن المجتمع ، ومن انفصل عن المجتمع الصالح كان من المحكوم عليهم بالضياع في الدنيا والآخرة .

وتذكر دائماً وأبداً قول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾[1] .

جعلني الله تعالى وإياك من أبناء الآخرة لا من أبناء الدنيا .. لأن كل أمٍّ يتبعها ولدها ... كما جاء في خطبة لرسول الله ﷺ .

والله ولي التوفيق .

***

---

(١) سورة الضحى : الآية ٤ .

الوصية الساسة والتسعون

عَن أم أُنسٍ رضى اللّه عنها أنها قالت : يارسُولَ اللّهِ أوصِنى - قال :

اهجُرِى المعَاصِى[1]، فَإنّهَا أَفضَلُ الهِجرَةِ ، وَحَافِظِى عَلَى الفَرَائِضِ[2]، فَإنّهَا أفضَلُ الجِهَادِ ، وَأكثِرِى مِن ذِكرِ اللّهِ، فَإنّكِ لاتَأتِينَ اللّهَ بِشَيءٍ أحَبّ إليهِ مِن كَثرَةِ ذِكرِهِ[3].

رواه الطبرانى

وفى رواية له عن أم أنس :

وَاذْكُرِى اللَّهَ كَثِيرًا ، فَإِنَّهُ أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَنْ تَلْقِينَهُ بِهِ .

قال الطبرانى : أم أنس هذه - يعنى الثانية - ليست أم أنس بن مالك .

---

(١) أى اجتنبيها وابتعدى عنها .

(٢) أى احرصى على أدائها فى أوقاتها ولا تضيعى منها شيئًا .

(٣) يعنى لا تقدمين على الله يوم القيامة بعمل أحب إليه من ذلك .

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذه الوصية العظيمة التي أوصى بها النبي ﷺ أُمَّ أنسٍ رضي الله عنها .

وذلك لأن تنفيذ هذه الوصية سيكون معناه أننا قد فعلنا أهم شيء ينبغي علينا أن ننفذه .. حتى نكون قد حققنا أهم خير لنا .. ينفعنا في دنيانا وأخرانا .. بل وسيكون سبَباً من أهم أسباب السعادة الحقيقية التى لا يشعر بها إلا كل مؤمن ومؤمنة .. بتلك الصورة التي أشار إليها أحدهم في قوله : « نحن في لذة لو يعلمها الملوك لحاربونا عليها بالسيوف » ، وهي لذة الطاعة لله ورسوله .

ولهذا حسبنا كما أشرت أن ننفذ هذه الوصية الجامعة التي يقول فيها الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لأم أنس رضي الله عنها ـــ بل لكل فرد منا في شخصها ـــ ذكراً كان أم أنثى :

●● « اهجري المعاصي ، فإنها أفضل الهجرة » :

وهذه الأولى هي الأساس في هذا الموضوع .. لأنه بهجرة المعاصي سنؤكد حبنا لله تبارك وتعالى الذي لن نطيعه طاعة حقيقية إلا إذا أحببناه حُبًّا حقيقيًّا مُؤَكَّداً بالبعد عن المعاصي والمخالفات .. وإلى هذا يشير أحدهم في قوله :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وكذلك بالنسبة للحبيب المصطفي صلوات الله وسلامه عليه .. فإننا لن نَصدُق في حبنا لله إلا إذا اتبعناه صلوات الله وسلامه عليه .. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله مخاطباً حبيبه صلوات الله وسلامه عليه :

● **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم .. ﴾**[1] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

وإذا كانت الهجرة الحقيقية إلى الله تبارك وتعالى لا تتحقق إلا بهجر ما نهى الله تعالى عنه .. كما أشار الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إلى هذا في نص حديث صحيح ، قال فيه :

● « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه » :

فإنني أرى أن أذكر هنا بقول الله تبارك وتعالى :

● **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾**(١) .

فإن المراد بالفحشاء في هذه الآية ، أي : الزنى، والمنكر ، أي : الذي تنكره العقول ، والبغي ، أي : الظلم .

وحسبي أن أذكر هنا ببعض الأحاديث الشريفة التي ورد الترهيب فيها من كل هذا المنهي عنه :

● عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ ، أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك » قلت : إن ذلك لعظيم . قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » أخرجه الشيخان وغيرهما .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » رواه البخاري ومسلم ، زاد النسائي في روايته : « فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام(٢) من عنقه » .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى

---

(١) النحل : الآية ٩٠ .

(٢) أي : خرج عن حدوده التي التزمها .

ثلاث[1] : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » رواه البخاري ومسلم .

●● وعن المنكرات الظاهرة :

● روى الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام » وأبو داود : « وكل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » .

● وروى أبو داود : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها[2] وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » رواه ابن ماجة وزاد : « وآكل ثمنها » .

● وروى الحاكم : « من زنى وشرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه » .

● وروى الطبراني : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلايجلس على مائدة يشرب عليها الخمر » .

وروى أحمد بسند رجاله رجال الصحيح : « مدمن الخمر إن مات ــ أي من غير توبة ــ لقي الله كعابد وثن » .

وروى أحمد واللفظ له والنسائي والبزار والحاكم وصححه : « ثلاثة قد حرم الله تباك وتعالى عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذي يقر في أهله الخبث » .

وروى الطبراني وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والبيهقي : « ثلاثة لا يقبل الله لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الآبق[3] حتى يرجع إلى مواليه فيضع يده في أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها

---

(١) لايحل قتله إلاإذا كان ثيباً زانياً ، أو قتل نفساً يقتل بها ، أو فارق دينه وترك الجماعة .
(٢) مشتريها ومعتصرها طالب عصرها .
(٣) الهارب من سيده .

حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو » .

وروى البخاري أنه ﷺ قال : « من قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق » .

قال ابن حجر : فإذا اقتضي مطلق القول طلب الكفارة والصدقة المنبئة عن عظيم ما وجبت أو سُنَّت فيه ، فما ظنك بالفعل والمباشرة ؟ .

● وعن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : « نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومُفتر » .

رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه بسند صحيح .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرِّجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » رواه مسلم والبخاري .

ففي هذا الحديث : بيان لما ينال كل عضو من أسباب الزنى ومقدماته ، وفيه أن العين : إذا نظرت ، والأذن : إذا سمعت ، واللسان : إذا تكلم ، واليد : إذا بطشت ، والرجل : إذا مشت : يعقب ذلك محبة القلب ، وبعد المحبة .. إما أن يزنى الفرج ، وتصدق الجوارح القلب ، وإما أن لا يزني ، ويكون « الحديث » بياناً لسنة الله تعالى في العبد العاصي .. فليعتبر بذلك من يسترسلون في هذا الأسباب الموصلة إلى الفاحشة .

● وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ، ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الموت ، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم القطر » . رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

والفاحشة المشار إليها في هذا الحديث ، هي « اللواط » ، وقد أطلق الله تعالى على اللواط فاحشة ، في قوله تعالى : ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه إنكم**

لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾(١) لأن النفوس السليمة تستفحشه وتراه أقبح من الزنى لقذارة محله ، فضلاً عن إفساده لنفوس الأمة فيتلهى به الأعزب عن الزواج ، وبذلك تتعطل طائفة من النساء عن أن تجد لها زوجاً يعفها ، وإذا كان متزوجاً تلهى به عن زوجته ، فيعرضها للتهاون في عرضها ، ولا تنس ما يتبع ذلك كله من تقليل المواليد في الأمة والذهاب بالشهامة والرجولة من نفس المفعول به ، فلا يستطيع أن يرفع رأساً بعد أن وضع نفسه في ذلك الموضع المهين ، فليتأمل ذلك مَن فسدت طباعهم وتدنست فطرتهم وكادوا يلتحقون بالحيوانات العجم تقودهم الشهوة فيقادون ، وإن جر ذلك عليهم من المعرة والخزي ما لا قبل لهم به .

● وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

● وعنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا ينظر الله عز وجل إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في دبرها » رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه .

● وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ، قال : « من أتى النساء في أعجازهن فقد كفر »(١) رواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات .

ونقل ابن حجر عن الحسن بن ذكوان : لا تجالس أولاد الأغنياء فإن لهم صدراً كصدر العذارى ، وهم أشد فتنة من النساء .

ودخل سفيان الثورى ــ وناهيك به معرفة وعلماً وزهداً وتقدماً ــ الحمام(٢) فدخل عليه صبي حسن الوجه ، فقال : أخرجوه عنى أخرجوه ، فإني أرى مع كل امرأة شيطاناً ، ومل كل صبي بضعة عشر شيطاناً .

---

(١) العنكبوت : ٢٨ .
(٢) أي إن استحل هذا .
(٣) أي الحمام العام .

وجاء رجل إلى الإمام أحمد رضي الله عنه ومعه صبي حسن الوجه ، فقال له الإمام : مَن هذا منك ؟ قال : ابن أختي ، قال : لا تجيء به إلينا مرة أخرى ، ولا تمشِ به في طريق لئلا يظن بك من لا يعرفك ويعرفه . انتهى كلام ابن حجر .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، وابتعد عن كل هذه المعاصي فضلاً عن غيرها .. حتى تكون كما عرفت من أهل الهِجرة الحقيقية .. مع ملاحظة قول أحدهم :

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

وأما عن البغي ، وهو الظلم ، فقد ورد فيه :

● عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

● وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم قِيدَ شِبرٍ من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين » متفق عليه .

● وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يُفلتْهُ ثم قرأ : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد » متفق عليه .

وبهذا ، نكون قد عرفنا المراد من وصية الرسول ﷺ لأم أنس : بأن تهجر المعاصي ، لأنها أفضل الهِجرة ... فلتكن من أجل هذا منفذاً لهذا العنصر بالذات .

●● وأما عن العنصر الثاني في هذه الوصية ، وهو قوله لها : « وحافظي على الفرائض ، فإنها أفضل الجهاد » : فإن المراد به كذلك أن تكون محافظة على ما فرضه الله تعالى عليها وعلى غيرها من أركان الإسلام التي من أهمها .. بل أهمها الصلاة التي هي عماد الدين : « من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها

فقد هدم الدين » .

وقد جاء في نصٍّ حديث رواه الإمام أحمد أن النبي ﷺ ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأُبيّ بن خلف » ، ثم بعد ذلك يقول الإمام أحمد معلقاً على هذا الحديث : من تركها بسبب الرياسة : حشر مع فرعون ، ومن تركها بسبب السياسة ، حشر مع هامان ، ومن تركها بسبب المال : حشر مع قارون ، ومن تركها بسبب الجدال والخصام : حشر مع أُبي بن خلف .

فكن من أجل هذا محافظاً على أداء الصلوات الخمس وفي أوقاتها .. لأنك إن فعلت هذا إن شاء الله .. ستكون تلقائياً وبتوفيق من الله تبارك وتعالى : محافظاً على أداء جميع الفرائض التي فرضها الله عليك — كمسلم — في كتابه وعلى لسان رسوله صلوات الله وسلامه عليه .. مع ملاحظة أنك إن نجحتَ في هذا إن شاء الله ستكون قد فزت بثواب وجزاء « أفضل الجهاد » الذي هو ذروة سنام الإسلام .

وإذا كان النبي ﷺ بعد ذلك قد أوصى أم أنس رضي الله عنها ، في نصٍّ الوصية بقوله :

●● « وأكثري من ذكر الله ، فإنكِ لا تأتين الله بشيءٍ أحبَّ إليه من كثرة ذكره » .

وفي الرواية الأخرى :

« واذكري الله كثيراً ، فإنه أحبُّ الأعمال إلى الله أن تلقيه بها » :

فإن هذا الترغيب المحمدي بهذين التعليلين اللذين ذكرهما النبي ﷺ في هاتين الروايتين : لا بد أن يكون سبباً من أهم الأسباب التي ستجعلك أخا الإسلام مكثراً من ذكر الله تبارك وتعالى ، وحسبك شرفاً إن فعلت هذا ، مع صحبة من إخوانك الذاكرين أن يباهي الله تعالى بك وبهم ملائكته :

● فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : خرج على حلقة في

المسجد فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ، قال : آللّه ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أمَّا إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني ، إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : « ما أجلسكم ؟ » قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومَنَّ به علينا ، قال : « آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ » قالوا : آللهِ ما أجلسنا إلا ذاك » قال : أَمَا إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة » رواه مسلم .

فلتكن دائماً وأبداً أهلاً لهذا الشرف العظيم .

ولتكن كذلك دائماً وأبداً مكثراً من الذكر بجميع أنواعه وصيغه ـــ حتى تكون من المشار إليهم في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ .. والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾(1) .

جعلني الله تعالى وإياك من الموفقين الذاكرين .



---

(1) سورة الأحزاب : الآية ٣٥ .

الوصية السابعة والتسعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قِيلَ: يَارَسُولَ اللَّهِ وَمَارِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: الْمَسَاجِدُ. قِيلَ: وَمَا الرَّتْعُ؟ قَالَ:

سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ

رواه الترمذي، وقال: حديث غريب. قال الحافظ: وهو مع غرابته حسن الإسناد.

فكن أخا الإسلام :

من المؤمنين الحريصين على تعمير المساجد ، وأداء الصلوات الخمس في جماعة مع إخوانك المؤمنين المعتادين مثل هذا .. بالإضافة إلى الإكثار من ذكر الله تعالى فيها .

لأن هذا ، أولاً سيكون تنفيذاً لهذه الوصية العظيمة .. وسيكون ثانياً معناه أنك قد أكدت إيمانك .. الذي نستطيع نحن المؤمنين إن شاء الله أن نشهد لك به ، كما أوصانا النبي ﷺ بهذا في قوله :

● « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله عز وجل : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** .. ﴾ الآية . رواه الترمذي وقال حديث حسن .

وقد ورد الترغيب ، في :

المشي إلى المساجد

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « من غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ الله له في الجنة نُزُلاً كلما غدا أو راح » . متفق عليه .

● وعنه، أن النبي ﷺ ، قال : من تطهر في بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحطُّ خطيئة ، والأخرى ترفع درجة » رواه مسلم .

● وعن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال : كان رجل من الأنصار لا أعلم أحداً أبعدَ من المسجد منه ، وكانت لا تخطئه صلاة ، فقيل له : لو اشتريتَ حماراً لتركبه في الظلماء وفي الرمضاء ؟ قال : ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد ، إني أريد أن يُكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي ، فقال رسول الله ﷺ : « قد جمع الله لك ذلك كلّه » رواه مسلم .

● وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها ممشىً فأبعدهم ، والذي ينتظر الصلاة

حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يُصليها ثم ينام » متفق عليه .

● وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « بشر المشائين في الظُّلم إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة » رواه أبو داود والترمذي .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات . قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط » رواه مسلم .

هذا بالإضافة ، إلى :

فضل صلاة الجماعة

● فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذِّ بسبع وعشرين درجة » متفق عليه .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في جماعةٍ تضعف على صلاته في بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضِعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خُطوة إلا رُفِعت له بها درجة ، وحُطَّت عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يُحدث ، تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » متفق عليه وهذا لفظ البخاري .

وإذا كان النبي ﷺ قد أشار في نص الوصية إلى أن المساجد هي : « رياض الجنة » ، فإنه : ينبغي على الأخ المؤمن أن يشعر بهذا فعلاً .. وأن يعتبر نفسه في روض من رياض الجنة حتى يشعر في المساجد بالراحة الحقيقية التي لا يشعر بها إلا المؤمن الحقيقي الذي لا ينشد سعادته دائماً وأبداً إلا في بيوت الله سبحانه وتعالى التي قال الله تعالى مشيراً إليها في نص حديث قدسي :

● « إن بيوتي في الأرض المساجد ، وزواري فيها عمارها ، فطوبى لم تطهر في بيته ، وزارني في بيتي ، وحق على المزور أن يكرم زائره » .

فلتكن أخا الإسلام من هؤلاء المكرمين . وأما عن الرتع المشار إليه في ختام الوصية ، فهو كما قال الرسول ﷺ ، في نص الوصية : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » :

فلتكن أخا الإسلام مكثراً من هذا الرتع الإيماني — في سِرك حتى لا تشوش على مصل — وأنت في بيوت الله منتظراً الصلاة ، أو معتكفاً اعتكافاً كليًّا في العشر الأواخر من رمضان ، أو جزئياً في غير رمضان كلما دخلت المسجد .. حتى تفوز بسبب كل هذا بثواب الذاكرين المحافظين على صلاة الجماعة في بيوت الله .

والله أسأل أن يجعلني وإياك من المؤمنين المؤكدين دائماً وأبداً لإيمانهم بتنفيذ هذا الخير العظيم .. الذي لا سعادة ولا فلاح إلا به .

والله ولي التوفيق .



الوصية الثامنة والتسعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا [1]:

مَا تَنْتَظِرُونَ [2] إِلاَّ فَقْرًا مُنْسِيًا [3]،

أَوْ غِنىً مُطْغِيًا [4]، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا [5]

أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا [6]، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا [7]،

أَوِ الدَّجَّالَ، فَإِنَّهُ شَرُّ غَائِبٍ

مُنْتَظَرٍ، أَوِ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ

أَدْهَى وَأَمَرُّ [8].

رواه الترمذي وقال: حديث حسن

(١) أى سبع خصال أو أحوال .

(٢) الاستفهام هنا معناه النفى ، أى ماتنتظرون وتتوقعون.

(٣) أى يذهلكم ويشغلكم عن العبادة وينسيكم العمل للآخرة .

(٤) يعنى يحملكم على الطغيان وهو مجاوزة الحد . قال تعالى : (كلاَّ إن الإنسانَ ليطغى أن رآه استغنى) .

(٥) أى يفسد عليكم عملكم ويعجزكم عن القيام بوظائف العبادة وأداء الحقوق .

(٦) أى يوقعكم فى الفَنَد وهو بالفتح الخوف وضعف العقل وفساد الرأى .

(٧) أى قاضيًا قاطعًا .

(٨) أى أشد مرارة .

فكن أخا الإسلام :

متأملاً في هذه الوصية التي تتطلب من كل مؤمن ومؤمنة طول نظر لأنها تشير أو تذكر بأهم ما ينبغي علينا أن نطيل النظر فيه ، وأن نسارع بعد ذلك أو مَع ذلك بتنفيذ المراد منه ، قبل أن نفاجأ في النهاية بفوات الفرصة التي كانت سانحة أمامنا .. لكي نحقق فيها مانحتاج إليه لصالح دنيانا وأخرانا ففي أول هذه الوصية ، يقول الرسول ﷺ :

« بادروا » أي سارعوا « بالأعمال سبعاً » : أي : سبع خصال أو أحوال .

ثم يقول بعد ذلك مستفهماً :

« هل تنظرون » والاستفهام هنا معناه النفي ، أي : ما تنتظرون وتتوقعون .

« إلا فقراً منسيًّا » ، أي : يذهلكم ويشغلكم عن العبادة وينسيكم العمل للآخرة .

« أو غِنَىً مطغيًّا » ، أي : يحملكم على الطغيان وهو مجاوزة الحد ، قال تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ .

« أو مرضاً مُفسداً » ، أي : يفسد عليكم أعمالكم ، ويعجزكم عن القيام بوظائف العبادة وأداء الحقوق .

« أو هِرماً مُفَنِّداً » ، أي: يوقعكم هذا الهرم ــ وهو كبر السن ــ في الفَنَدِ وهو بالفتح الخوف ، وضعف العقل ، وفساد الرأي .

« أو موتاً مجهزاً » ، أي : قاضياً قاطعاً .

« أو الدجالَ ، فشر غائب ينتظر » : وهو من أشراط الساعة الكبرى :

● فعن حذيفة بن أسيد أن النبي ﷺ ، قال : « لن تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدجال ، وعيسى ابن مريم ، والدخان ، وثلاث

خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن من قعر عدن(١) تسوق الناس إلى المحشر » أخرجه السبعة إلا البخاري .

والدجال ، أي الكذاب ، وسمي المسيح ــ بالحاء المهملة على الصحيح ــ لأنه يمسح الأرض ويقطعها في أربعين يوماً ، ولأنه ممسوح العين .

وقد ورد في شأنه عدة أحاديث ، منها :

● عن ابن عمر أن النبي ﷺ ، قال : « ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته الدجال ، وإنه يخرج فيكم . فما خفي عليكم من شأنه ، فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس بأعور ، وأنه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » أخرجه البخاري .

قوله : « وأنه أعور العين اليمنى » وفي رواية اليسرى ، وكلاهما صحيح ، والعور في اللغة العيب ، وعيناه معيبتان : إحداهما طافئة بالهمز أي لا ضوء فيها ، والأخرى طافية بلا همز أي ظاهرة ناتئة . وقوله ﷺ : « إن ربكم ليس بأعور والدجال أعور » بيان لعلامة بينة تدل على كذب الدجال دلالة قطعية يدركها كل أحد ، ولم يقتصر على كونه جسماً وغيره من الدلائل القطعية ، لكون بعض العوام لا يهتدي إليها(٢) .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم عن الدجال حديثاً ما حدثه نبي قومه ؟ إنه أعور ، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار ، فالتي يقول إنها الجنة هي النار ، وإني أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه » أخرجه مسلم .

● وعن حذيفة أن النبي ﷺ قال : « إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً ، فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء عذب ، وأما الذي يرى الناس أنه مَاء فنار تُحرق . فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى أنه نار ، فإنه ماء بارد عذب » أخرجه الشيخان وأبو داود .

---

(١) «ثلاث خسوف» قد وجد الخسف في مواضع لكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف هنا قدراً زائداً على ما وجد أن يكون أعظم مكاناً وقدراً ، وقعر عدن ، أي أقصى أرضها . أنظر تحفة الأحوذي ص٢١٤ ج٣ .
(٢) أنظر ص ٦٠ ج ١٨ نووي مسلم .

وقد دلت السنة وأجمعت الأمة على أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل قرب الساعة ، ويقتل الدجال ، ويحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ ، ويمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث ، ثم يموت ويصلي عليه المسلمون .

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مُقسِطاً[1] فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم قال أبوهريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته[2] ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً** » . رواه أحمد والخمسة إلا النسائي .

وأما عن الساعة ، وهي السابعة المشار إليها في ختام الوصية ، وفي قوله صلوات الله وسلامه عليه : « أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » :

فهي فعلاً ، أدهى وأمر ، أي : أشد مرارة ، وهي يوم القيامة الذي لا يعلم علمه إلا الله تبارك وتعالى :

● فعن بريدة ، قال : سمعت النبي ﷺ ، يقول : خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير** ﴾ أخرجه أحمد بسند صحيح .

وهذا اليوم كما ورد ، أوله من الموت ، لحديث هانيء مولى عثمان بن عفان ، قال :

كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يُبلَّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده

---

(١) مقسطاً : أي عادلاً .. وعند أحمد من حديث عائشة « ويمكث في الأرض أربعين سنة » .
(٢) أي : لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به .
(٣) النساء : ١٥٩ .
(٤) لقمان : الآية ٣

أشد منه » ، وقال ﷺ : « ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه »(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورزين وزاد : قال هانيء : سمعت عثمان ينشد :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجياً

وقيل : أوله من النشر ، أي : « الخروج من القبور» ، وآخره دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار . ولا يعلم وقت مجيئة إلا الله تعالى ، ليكون الإنسان منه على وجل، قال تعالى : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ ، أى : لا يعلم وقت مجيء يوم القيامة إلا الله تعالى ، وقال تعالى :

● ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يُجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾(٢) .

﴿ **أيان مرساها** ﴾ ، أي : متى يكون منتهاها . ﴿ **لا يجليها** ﴾ ، أي : لا يكشفها ولا يظهرها في وقتها إلا الله تعالى ، ﴿ **ثقلت** ﴾ أي : ثقل حملها وخفي أمرها ، ﴿ **كأنك حفي عنها** ﴾ أي : يسألونك كأنك عالم بها ، يقال : أحفيت في المسألة بالغت فيها حتى علمتها .

هذا ، وإذا كان النبي ﷺ في ختام الوصية ، قد قال عن الساعة ، أنها : « أدهى وأمر » :

فقد رأيت حتى تعمل لها ولما بعدها ألف حساب أن أذكرك ونفسي بقول الله تبارك وتعالى :

● ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ ، أي : يا أيها الناس احذروا عقاب الله بطاعته ، فأطيعوه ولا تعصوه ، فإن زلزلة(٣) الأرض يوم القيامة أمر عظيم « **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت** » ، أي : يوم ترون الزلزلة تنسى وتترك كل والدة من ترضعه ، من هول الساعة

---

(١) أفظع منه ، أي : أشد وأشنع . (٢) الأعراف : الآية ١٨٧ .

(٣) الزلزلة : الحركة العنيفة والهزة الشديدة ، ترج الأرض بأهلها رجًا فذلك زلزلة الساعة .

﴿ **وتضع كل ذات حمل حملها** ﴾ ، أي : وتسقط كل حامل حملها ﴿ **وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى** ﴾ ، أي : وترى الناس سُكارى من شدة الفزع ، وما هم بسكارى من شرب الخمر ﴿ **ولكن عذاب الله شديد** ﴾[(١)] ، أي : ولكنهم صاروا سُكارى من كرب ذلك اليوم .

● ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ ، أي : إذا حركت الأرض تحريكاً شديداً ، ورُجَّت رجًا عنيفاً ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ ، أي : وأخرجت الأرض ما في بطنها من الموتى أحياء ﴿ **وقال الإنسان مالها** ﴾ ، أي : وقال الناس حينئذ ما للأرض ؟ وما قصتها ؟ ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها** ﴾ ، أي : يومئذ تبين الأرض أخبارها بالزلزلة والرجة ، وإخراج الموتى من بطونها إلى ظهورها ، بوحي الله إليها ، وإذنه لها بذلك ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً** ﴾ ، أي : يومئذ يصدر الناس فِرقاً ، فآخذ ذات اليمين إلى الجنة ، وآخذ ذات الشمال إلى النار ﴿ **ليُروا أعمالهم** ﴾ أي : ليرى المحسن في الدنيا جزاء عمله ، وما أُعِدَّ له من الكرامة ، ويرى المسيء العاصي جزاء عمله ، وما أُعِدَّ له من الهوان والخزي في جهنم ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾ ، أي : فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثواب هنالك ﴿ **ومَن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره** ﴾[(٢)] ، أي : ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه هنالك .

وفي الحديث الصحيح : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها** ﴾، **فقال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل** يوم كذا وكذا ، **فهذه** أخبارها » .

وحسبي كذلك أن أذكرك ونفسي ببعض الأحاديث المتعلقة بيوم الحشر حتى نعمل له ألف حساب :

● **فعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ ،**

---

(١) سورة الحج : الآية ١ « ما بين القوسين » والشرح من مختصر تفسير الطبري .

(٢) ما بين القوسين سورة الزلزلة ، والشرح من مختصر تفسير الطبري .

يقول : « يحشر الناس حفاة عراة غُرْلاً » قالت عائشة : فقلت : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك». وفي رواية: «من أن ينظر بعضهم إلى بعض» رواه البخاري ومسلم.

● وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال يا رسول الله ، قال الله تعالى : ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم** .. ﴾(١) أيُحشَرُ الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله ﷺ : « أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه في الآخرة » ، قال قتادة حين بلغه : بلى وعزة ربنا . رواه البخاري ومسلم .

● وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ، قال : « مَن نوقش الحساب عُذِّبَ » فقلت : أليس يقول الله : ﴿ **وأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً** ﴾ ؟ فقال : « إنما ذلك العرض(٢) ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » . رواه البخاري .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق(٣) : راغبين وراهبين واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ويحشر مع بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا(٤) ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتُصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا » رواه البخاري ومسلم .

وبهذا أخا الإسلام تكون قد عرفتَ إجمالاً المراد من وصية الرسول ﷺ التي أرجو أن تكون إن شاء الله تعالى منفذاً لها ، بعد أن تطيل النظر فيها ــ كما نبهت عليك في أول شرحها :

والله ولي التوفيق .

---

(١) الفرقان : الآية ٣٤ .

(٢) أي : عرض الأعمال على صاحبها ليطلع عليها .

(٣) طرائق ، أي : أحوال ، ولعل الأول والثاني ما أشار إليه بقوله : راغبين وراهبين ، والثالث : قوله : ويحشر بقيتهم النار .

(٤) تقيل ، أي : تنام .

الوصية التاسعة والتسعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه .
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ ، يُصبِحُ الرَّجلُ مُؤْمِنًا ، وَيُمسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمسِي مُؤْمِنًا وَيُصبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا .

رواه مسلم

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي من الخير لك في دينك ودنياك أن تنفذها .. حتى لا تكون من المفتونين بفتن الدنيا التي كثيراً ما كانت سبباً في فتنة الكثيرين من ضِعاف الإيمان بسبب ما يزينه الشيطان لهم من حطام الدنيَا .. وأعني بهذا ما أشار الله تعالى إليه في قوله :

● ﴿ **زُيِّنَ للناس حب الشهوات من النساء والبنين** ﴾ ، أي : زين للناس محبة ما يشتهون من النساء والبنين ﴿ **والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة** ﴾ ، أي : والمال الكثير الذي لا يُحد قدره من الذهب والفضة ﴿ **والخيل المسومة** ﴾ ، أي : والخيل المعلمة المطهمة الحِسان ، التي تعجب من رآها ﴿ **والأنعام والحرث** ﴾ ، أي : والأنعام جمع نعم ، وهي : « الإبل والبقر والغنم ــ والحرث وهو الزرع ﴿ **ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ ، أي : ذلك المذكور من شهوات الدنيا ، هو ما يستمتع به فيها دون الآخرة ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾[1] ، أي : وعنده حسن المرجع والمنقلب للمتقين .

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه :

● ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم** ﴾ ، أي : قل يا محمد : أأخبركم وأعلمكم بخير وأفضل لكم من شهوات الدنيا ؟! ﴿ **للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ ، أي : للذين خافوا الله فأطاعوه ، بأداء فرائضه واجتناب نواهيه .. لهؤلاء المتقين بساتين تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة ﴿ **خالدين فيها** ﴾ ، أي : ماكثين فيها أبداً ﴿ **وأزواج مطهرة** ﴾ ، أي : وزوجات في الجنة ، مطهرات من كل أذى يلحق نساء أهل الدنيا ، من الحيض ، والبول ، والنفاس وغير ذلك ﴿ **ورضوان من الله** ﴾ ، أي : ورضاً من الله عليهم ، وإنما ذكر ــ الرضوان ــ لأنه أعلى كرامة لأهل الجنة ﴿ **والله بصير بالعباد** ﴾[2] ، أي : ذو بصر بمن يتقيه ومن يعصيه ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

---

(١) ما بين القوسين : الآية ١٤ من سورة آل عمران .
(٢) ما بين القوسين الآية ١٥ من سورة آل عمران .

ففي الآية الأولى يتحدث الله سبحانه وتعالى عن شهوات الدنيا التي زينها الشيطان للناس حتى شغلوا بها عن الآخرة .. فكان هذا الإنشغال أو هذا اللهو سبباً في خسرانهم ، كما يشير إلى هذا رب العزة سبحانه وتعالى في قوله :

● **﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ .**

والآية الثانية يتحدث الله سبحانه وتعالى عن المتاع الأخروي الذي هو خير من متاع الدنيا .. والذي هو المتاع الحقيقي الذي ينبغي أن ينشده كل مؤمن ويعمل من جانبه وبكل ما أوتي من صدق وإخلاص في العبادة على أن يفوز به وإلى هذا يشير سبحانه وتعالى :

● **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلاً . خالدين فيها لا يبغون عنها حِولاً ﴾**[1] .

فبالعمل الصالح وحده يستطيع المؤمن الموفق أن يطرق أبواب الجنة ، وأن يكون من المنعمين فيها بالنعيم السرمدي الذي أعده الله تعالى لمن أطاعه ولو كان عبداً حَبَشِيًّا .. كما أعد النار لمن عصاه ولو كان شريفاً قُرشِيًّا .

قال تعالى :

● **﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا : فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى : فإن الجنة هي المأوى ﴾**[2] :

ولهذا ، فقد قال النبي ﷺ في أول الوصية :

● « بادروا بالأعمال الصالحة » ، أي سارعوا إلى الله تبارك وتعالى بالأعمال الصالحة التي بها ستنجون في دنياكم وأخراكم .. وستكونون بها أهلاً لرحمة الله ومغفرته قبل أن تشغلوا عن كل هذا الخير بما يحدث حولكم أو بينكم من الفتن المتكاثرة والمتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم .. كما يشير إلى هذا قوله صلوات الله وسلامه عليه بعد هذا في نص الوصية :

---

(١) سورة الكهف : الآية رقم ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) سورة النازعات : الآية ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

● « فستكون فتن كقطع الليل المظلم » .

وقد كانت فعلاً بتلك الصورة التي أصبحنا نأسف لها ، ونحن نسأل الله تعالى أن يعافينا منها .. حتى لا نكون كهؤلاء الذين ضرب بهم الرسول ﷺ مثلاً على هذا ، فقال في نص الوصية :

● « يصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً » ، أي : أن تلك الفتن تكون من الشدة بحيث تحمل الإنسان على التقلب من الإيمان إلى الكفر وعكسه في اليوم الواحد .

وهذا الأمر في منتهى الخطورة التي ينبغي علينا أن نتنبه لها حتى لا نقع في هذا المحظور الذي أصبح سبباً فيما أشار إليه الرسول ﷺ بعد ذلك في ختام الوصية :

● « ويُمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا » :

وهذه الجملة الأخيرة وقعت بياناً للجملة التي قبلها ، ومعناها : أن حب الدنيا والرغبة فيها هما اللذان يدفعان الناس إلى ذلك التقلب السريع بين الإيمان والكفر ...

ولهذا ، فإنه ينبغي علينا حتى لا نكون من هؤلاء المذبذبين بين الإيمان والكفر ، والكفر والإيمان .. وحتى نثبت على الإيمان حتى نلقى الله تبارك وتعالى :

أن نُخرج حب الدنيا من قلوبنا .. ونعمل على أن تكون القلوب هذه عامرة بحب الآخرة التي إليها معادنا .. والتي ينبغي أن نسعى إليها دائماً وأبداً بفعل الخيرات وترك المنكرات .

ولهذا ، فإنني أرى ، وفي ختام هذا العرض السريع للمعنى المراد من هذه الوصية العظيمة .. أن أدعو بدعاء جامع دعا به الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .. أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبله منا جميعاً .

وهو :

● « اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك » .

اللهم آمين .

***

الوَصِيّةُ المِائَة

عَن فاطِمة الزهراء رضي الله عَنها

عَن رسُول الله صلّى الله عَليه وَسلّم . قال لها :

إذَا أَخَذْتِ مَضْجَعَكِ فقُولِي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الكَافِي ، سُبْحَانَ

اللَّهِ الأَعْلَى ، حَسْبِي وَكَفَى ،

مَاشَاءَ اللَّهُ قَضَى ، سَمِعَ اللَّهُ

لِمَنْ دَعَا ، لَيْسَ مِنَ اللَّهِ مَلْجَا ،

وَلَا وَرَاءَ اللَّهِ مُلْتَجَا ، تَوَكَّلْتُ

عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ . (مَامِنْ

دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا،
إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ
فِى الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ
مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ؛

ثم قَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَقُولُهَا عِنْدَ
مَنَامِهِ ثُمَّ يَنَامُ وَسَطَ

الشَّيَاطِينِ وَالْهَوَامِّ فَتَضُرُّهُ[1].

أخرجه ابن السنى

---

(۱) وَهذا معناه أن المسلم عند مَا يقرأ هذا الدعَاء عند منامه سَيكون فى حفظ الله تعَالى ، وَمادام فى حفظ الله تعَالى فإنه لو نام وَسط الشياطين من الإنس وَالجن ، وَالهوام وَهى الثعابين والعقارب ومَا إلى ذلك من المؤذيات فإنها لن تضره ..
وكل هَذا يتوقف عَلى صدق الإيمَان بالله ؛

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة ، أو هذا الزاد العظيم الذي زود به الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ابنته الزهراء رضي الله عنها وعن زوجها وأبنائها وأحفادها ـــ آل البيت ـــ إلى يوم الدين .

لقد أراد النبي صلوات الله وسلامه عليه بهذه الوصية التي زودها بها أن يجعلها دائماً وأبداً في حفظ الله تبارك وتعالى وكنفه حتى وهي نائمة .. لأن الله تبارك وتعالى كما قال عن نفسه في القرآن الكريم :

● ﴿ .. فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾[1] .

وحسب الأخ المسلم ذكراً كان أم أنثى إذا أخذ مضجعه أن يقول هذا الدعاء .. لأنه كما قال النبي ﷺ إذا قرأه عند منامه .. سيكون في حفظ الله تعالى .. وما دام في حفظ الله تعالى فإنه لو نام وسط الشياطين من الإنس والجن ، والهوام ، وهي الثعابين والعقارب وما إلى ذلك من المؤذيات فإنها لن تضره ..

مع ملاحظة أن كل هذا يتوقف على صدق الإيمان بالله .. وتفويض الأمر إليه .. مع حسن التوكل عليه سبحانه وتعالى .

إنه إن كان من المؤمنين المتكلين على الله بهذا المعنى الذي وقفنا عليه .. وقرَأ هذا الدعاء أو مثله من الأدعية المحمدية المشابهة لهذا الدعاء .. لن يتخلى الله تعالى عنه .. وسيظل في حفظه سبحانه وتعالى على الدوام .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذه الأدعية المباركة التي هي من بركات الرسول صلوات الله وسلامه عليه ونفحاته .

كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفعنا جميعاً بجميع ما أوصانا به الرسول ﷺ .. وأن يجعله حجة لنا لا علينا .

إنه تعالى على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ... آمين .. آمين .. آمين .

---

(١) سورة يوسف من الآية ٦٤ .

وخِتَاماً

إليك أخا الإسلام بعض الوصايا الغالية النادرة التي رأيت أنه من الخير وفي ختام هذا العرض السريع لوصايا الرسول ﷺ أن أزودك بها حتى تكون ــ بالإضافة إلى كل ما وقفت عليه ــ زاداً لك إلى الله تبارك وتعالى :

وأولى هذه الوصايا ،

« وصية الإمام علي كرم الله وجهه لابنه الحسن عليه رضوان الله »

●● وكذلك إليك هذه الوصية الجامعة التي أوصى بها على كرم الله وجهه ابنه الحسن عليه رضوان الله(١) .

وهي كما سترى من الوصايا الجامعة التي ينبغي على كل مسلم أن يكون منفذاً لها حتى يفوز بخيريْ الدنيا والآخرة .. فإليك :

● « من الوالد الفان ، المقر للزمان(٢) ، المدبر العمر ، المستسلم للدهر ، الذامِّ للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، والظاعن عنها غداً ، إلى المولود المؤمِّل ما لا يُدرَكُ ، السالك سبيل من قد هلك ، غَرضَ الأسقامِ ورهينةِ الأيام ، ورميَّةِ المصائب ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايَا ، وأسير الموت ، وخليف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الأفاتِ ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأموات .

****

(١) وكان قد كتبها إليه بحاضرين ــ وهي اسم بلدة في نواحي صفين ــ منصرفاً من صفين .
(٢) أي المعترف له بالشدة .

أما بعد ، فإن فيما تبينتُ من إدبار الدنيا عني وجُموح الدهر عليَّ ، وإقبال الآخرة إليَّ ، ما يزعني عن ذكر من سواي ، والإهتمام بما ورائي ، غير أني حيث تفرد بي دون هموم الناس هَمُّ نفسي ، فصدقني رأيي ، وصرفني عن هواي ... إلى أن يقول بعد هذه المقدمة :

فإني أوصيك بتقوى الله ، ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأيُّ سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به .

أحْيِي قلبك بالموعظة ، وأمِتْهُ بالزَّهادة ، وَقَوِّه باليقين ، ونوره بالحكمة ، وذَلِّلْهُ بذكر الموت ، وقَرِّرْهُ بالفناء[1] . وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة الدهر ، وفُحشَ تقلب الليالي والأيام ، وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره بما أصاب مَن كان قبلك من الأولين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا ؟ وعما انتقلوا ؟ وأين حَلُّوا ونزلوا ؟ فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة ، وحلُّوا ديار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرتَ كأحدهم ، فأصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، ولا الخطاب فيما لم تُكَلَّف ، وأمسِك عن طريق إذا خفتَ ضلالَته ، فإن الكف عند حيرة الضّلال خير من ركوب الأهوال ، وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين[2] من فعله بجهدك ، وجاهد في الله حق جهاده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، ، خُض الغمراتِ[3] للحق حيث كان ، وتفقه في الدين ، وعوِّد نفسك التصبر على المكروه ، ونعم الخُلق التَّصَبُّر ، وألجيء نفسك في الأمور كلها إلى إلهك ، فإنك تلجئها إلى كهف[4] حريز ، ومانع عزيز ، وأخلص في المسألة ، فإن بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة[5] وتَفهَّم وصيتي ، ولا تذهبنَّ عنها صفحاً ، فإن خير القول ما نفع ، واعلم أنه لا خير في علم لا ينفع ، ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه ....

---

(١) أي اطلب منه الإقرار بالفناء .

(٢) أي باعد وجانب الذي يفعل المنكر .

(٣) أي الشدائد .

(٤) الكهف : الملجأ . والحريز : أي الحافظ .

(٥) أي إحالة الرأي : الأمر قبل فعله لاختيار أفضل وجوهه .

واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة ، وأن الخالق هو المميت ، وأن المغني هو المعيد ، وأن المبتلِي هو المعافِي ، وأن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء ، والجزاء في المعاد أو ما شاء ما لا نعلم ، فإن أشكِل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك به ، فإنك أول ما خلقت جاهلاً ثم علمتَ ، وما أكثر ما تجهل من الأمر ، ويتحير فيه رأيك ، ويضل فيه بصرك ، ثم تبصره بعد ذلك ، فاعتصم بالذي خلقك ورزقك وسواك ، وليكن له تعبدك ، وإليه رغبتك ، ومنه شفقتك(١) .

واعلم : يا بني أن أحداً لم ينبيء عن الله كما أنبأ عنه الرسول ﷺ فارض به رائداً ، وإلى النجاة قائداً ، فإني لم آلك نصيحة(٢) ، وإنك لن تبلغ في النظر لنفسك — وإن اجتهدت — مبلغ نظري لك .

واعلم : يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه ، لا يضاده في ملكه أحد ، ولا يزول أبداً ، ولم يزل أول قبل الأشياء بلا أولية(٣) ، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية ، عظُم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر ، فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره ، وقلة مقدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجته إلى ربه ، في طلب طاعته ، والرهبة من عقوبته ، والشفقة من سخطه ، فإنه لم يأمرك إلا بحسن ، ولم ينهك إلا عن قبيح .

يا بني ... اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم وإن قَلَّ ما تعلم ، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك .

---

(١) شفقتك : أي خوفك .

(٢) أي لم أقصر في نصيحتك .

(٣) أي ابتداء له سبحانه .

واعلم : أن الإعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب ، فاسع في كدحك ولا تكن خازناً لغيرك . وإذا أنت هديتَ لقصدك ، فكن أخشع ما تكون لربك ...

يا بني : أكثر من ذكر الموت ، وذكر ما تصير عليه ، وتفضي بعد الموت إليه ، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك ، وشددت له أزرك ، ولا يأتيك بغتة فيبهرك ، وإياك وأن تغتر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها ، وتكالبهم عليها ، فقد نبّأك الله عنها ، ونعت لك نفسها ، وتكشفت لك عن مساويها ، فإن أهلها كلاب عاوية ، وسباع ضارية ، يِهُرُّ بعضها بعضاً ، ويأكل عزيزها ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها ...

واعلم يا بني ، أن الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك ، فإن أنت لم تأته أتاك ، ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغِنى ، إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، وإن جزعتَ على ما تفلّت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل إليك ، استدل على ما لم يكن بما قد كان ، فإن الأمور أشباه ، ولا تكونَنَّ ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغتَ في إيلامه ، فإن العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب ، اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين ، من ترك القصد جار ، والصاحب مناسب ، والصديق من صدق غيبه ، والهوى شريك العناء ، رُبَّ قريب أبعد من بعيد ، ورُبَّ بعيد أقرب من قريب ، والغريب من لم يكن له حبيب ، من تعدى الحقَّ ضاق مذهبه ، ومن اقتصر على قدره كان أبقى له ، وأوثق سبب أخذت به سَبَبُ سَبَبٍ بينك وبين الله ، ومن لم يبالك فهو عدوك ، قد يكون اليأس إدراكاً إذا كان الطمع هلاكاً ، ليس كل عورة تظهر ، ولا كل فرصة تُصاب ، وربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده . أخِّر الشر فإنك إذا شئتَ تعجلته ، وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل ، من أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه ، ليس كل من رمى أصاب ، وإذا تغير السلطان تغير الزمان ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار ، إياك أن تذكر في الكلام ما يكون مضحكاً ، وإن حكيتَ ذلك عن غيرك ...

أستودع الله دينك ودنياك ... وأسأله خير القضاء لك في العاجلة

والآجلة ، والدنيا والآخرة ، والسلام .

وصية الإمام علي كرم الله وجهه
لولده محمد بن الحنفية رضي الله عنه

●● وهاك أخا الإسلام وصية الإمام علي كرم الله وجهه لولده محمد ابن الحنفية ، وهي كما سترى وصية جامعة لمكارم الأخلاق التي ينبغي على كل مسلم أن يكون متخلقاً بها حتى يكون مسلماً حقًّا .. **فإليك نصها :**

« يا بني : أوصيك بتقوى الله عز وجل في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، والعدل على الصديق والعدو ، والعمل في النشاط والكسل ، والرضا عن الله عز وجل في الشدة والرخاء .

يا بني : ما شر بعده الجنة شر ، ولا خير بعده النار خير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية .

واعلم يا بني : أن من أبصر عيب نفسه شُغِلَ عن عيب غيره ، ومن رضي بقسم الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سَلَّ سيف البغي قُتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عوراتُ بنيه ، ومن نسيَ خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن كابر الأمور عَطِبَ ، ومن اقتحم البحر غرق ، ومَن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زلَّ ، ومن تكبر على الناس ذلَّ ، ومن سفه عليهم شُتِم ، ومن سلك مسالك السوء اتهم ، ومن خالط الأنذال حُقِّر ، ومن جالس العلماء وُقِّر ، ومن مزح استُخِفَّ به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثُر كلامه كَثُرَ خطؤه ، ومن كثُر خطؤه قلَّ حياؤه ، ومن قَلَّ حياؤه قَلَّ ورعُه ، ومن قلَّ ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار .

يا بني : من نظر في عيوب الناس ثم رضيها لنفسه فذاك هو الأحمق بعينه ، ومن تفكر اعتبر ، ومن اعتبر اعتزل ، ومن اعتزل سلم ، ومن ترك الشهوات كان حُرًّا ، ومن ترك الحسد كانت له المحبة عند الناس .

يا بني : عز المؤمن في غناه عن الناس ، والقناعة مال لا ينفد ، ومن أكثر من الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن علم أن كلامه من عمله قلَّ كلامُه إلا فيما يعنيه .. العجب ممن خاف العقاب فلم يكفَّ ، ورجا الثواب فلم يعمل .. الفكر نور ، والغفلة ظلمة ، والجهالة ضلالة ، والسعيد من وُعِظَ بغيره .. الأدب خير ميراث ، وحسن الخلق خير قرين .

يا بني : ليس مع القطيعة نماء، ولا مع الفجور غِنىً .

يا بني : العافية عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى ، وواحد في ترك مجالسة السفهاء ، ومن تزيَّن بمعاصي الله في المجالس أورثه الله ذُلّاً ، ومن طلب العلمَ عَلِمَ .

يا بني : رأس العلم الرفق ، وآفته الخذق .. ومن كنوز الإيمان الصبر على المصائب .. العفاف زينة الفقراء ، والشكر زينة الأغنياء .

يا بني : أغنى الغنى العقل ، وأفقر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العجب ، وأكرم الحسب حسن الخلق .. إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه يقرب إليك البعيد ويبعد عنك القريب ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه .

يا بني : كثرة الزيارة تورث الملال ، والطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم ، وإعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله .

يا بني : كم نظرة جلبت حسرة ، وكم كلمة سلبت نعمة .. لا شرف أعلى من الإسلام ، ولا كرم أعزُّ من الزهد ، ولا معقل أحرز من الورع ، ولا لباس أجمل من العافية ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بُلغة الكفاف تعجل الراحة .

يا بني : الحرص مفتاح التعب ، ومطية النصب ، وداع إلى اقتحام الذنوب .. والشره جامع لمساويء العيوب .. وكفاك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك .. لأخيك عليك مثل الذي لك عليه ، ومن تورط في الأمور من غير

تبصر في الصواب فقد تعرض لقدحات النوائب .. التدبير قبل العمل يؤمنك الندم .. من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ .

يا بني : البخل جلباب المسكنة ، والحرص علامة الفقر .. وَصُول معدم خير من جافٍ مكثر .. لكل شيء قوت وابن آدم قوت الموت .

يا بني : لا تؤيسنّ مذنباً على ذنبه فكم عاكف على ذنبٍ خُتمَ له بالخير .. وكم مقبل على عمله أفسده في آخر عمره فصار إلى النار .

يا بني : في خلاف النفس رشدها .. الساعات تنقص الأعمار » .

****

وصية الإمام علي كرم الله وجهه
لكميل بن زياد رضي الله عنه

وهي كذلك وصية عظيمة جامعة لكثير من الملاحظات الدينية الهامة التي ينبغي على كل مسلم أن يكون محيطاً بها .. يرويها كميل فيقول :

أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، فأخرجني إلى « الجبان » وتنفس الصعداء ، ثم قال :

يا كميل بن زياد ، إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عني ما أقول لك :

الناس ثلاثة ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق .

يا كميل .. العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، وصنيع المال يزول بزواله .

يا كميل بن زياد .. معرفة العلم دين يدان به ، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

يا كميل .. هلك خزان الأموال ، وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر : أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، ها إن ههنا لعلماجَمًّا « وأشار بيده إلى صدره » لو أصبت له حمله ؟ بلى أصبت لقنا غير مأمون عليه ، مستعملاً آلة الدين للدنيا ، ومستظهراً بنعم الله على عباده ، وبحججه على أوليائه ، أو منقاداً لحملة الحق ، لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة ، ألا لاذا ولا ذاك ؟ أو منهوماً باللذة ، سلس القياد للشهوة ، أو مغرماً بالجمع والادخار ، ليسا من رعاة الدين في شيء ، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام !! كذلك يموت العلم بموت حامليه .

اللهم بلى !! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً ، أو خافتاً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم ذا وأين أولئك ؟ أولئك والله الأقلون عدداً ، والأعظمون عند الله قدراً ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته ، حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستبانوا ما استعوره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها مُعلّقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى دينه .. آه آه شوقاً إلى رؤيتهم .

إنصرف يا كُميل إذا شئت » .

●● ومن الوصايا العظيمة التي تُحفظ عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه كان يقول :

« احفظوا عني خمساً ، لو شددتم إليها المطايا لم تظفروا بمثلها :

ألا لا يرجونَّ أحدكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحي أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم ، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، ألا وإن الخامسة الصبر ، فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فمن لا صبر له ، لا إيمان له .

****

وصايا عــامة

ثم إليك أخي المسلم أختي المسلمة هذه الوصايا والآثار والحكم المتفرقة التى أرجوا أن ينفعنا بها جميعاً :

● من كظم غيظاً وهو يقدر على إمَضائه ، أعقبه الله يوم القيامة أمناً وإيماناً يجد طعمه .

● من لم يحسن وصيته عند موته كان نقصاً في مروءته ، ولم يملك الشفاعة .

● أفضل الجهاد من أصبح لا يهم بظلم أحد .

● من خاف الناس لسانه فهو من أهل النار .

● شر الناس من أكرمه الناسُ اتقاء شره .

● شر الناس من باع آخرته بدنياه ، وشر من ذلك من باع آخرته بدنيا غيره .

● إن الله عز وجل أحب الكذب في الصلاح ، وأبغض الصدق في الفساد .

● جعلت الذنوب كلها في بيت وجعل مفتاحها شرب الخمر .

● من لم تنتفع بدين ودنياه فلا خير لك في مجالسته ، ومن لم يوجب لك فلاتوجب له ولا كرامة .

● ينبغي أن يكون في المؤمن ثماني خصال : وقار عند الهزاهز ، وصبر عند البلاء ، وشكر عند الرخاء ، وقنوع بما رزقه الله عز وجل ، ولا يظلم الأعداء ، ولا يتحامل على الأصدقاءِ ، بدنه منه فى تعب ، والناس منه في راحة .

● أربعة لا ترد لهم دعوة : إمام عادل ، ووالد لولده ، والرجل يدعو لأخيه بظهر الغيب ، والمظلوم ، يقول الله عز وجل : « وعزتي وجلالي لأنتصرن لك ولو بعد حين » .

● ثمانية إن أُهينو فلا يلومون إلا أنفسهم : الذاهب إلى مائدة لم يُدع إليها ، والمتأمِّر على رب البيت ، وطالب الخير من أعدائه ، وطالب الفضل من اللئام ، والداخل بين اثنين في سِرٍّ لم يُدخِلاه فيه ، والمستخف بالسلطان ، والجالس في مجلس ليس له بأهل ، والمقبل بالحديث على من لا يَسمع منه .

● حرم الله الجنة على كل فاحش بذيء لا يبالي ما قال ولاما قيل له .

● طوبى لمن طال عمره وحسن عمله .

● لا تمزح فيذهب بهاؤك ، ولا تكذب فيذهب نورك ، وإياك وخصلتين : الضجر والكسل ، فإنك إن ضجرتَ لم تصبر على حق ، وإن كسلتَ لم تُؤد حقًّا .

● لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق ، فإن صاحبه كلما خرج من ذنب دخل في ذنب .

● أربعة أسرع شيء عقوبة : رجل أحسنت إليه فكافأك بالإحسان إساءة ، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك ، ورجل عاهدته على أمر فوفيت له وغدر بك ، ورجل وصل قرابته فقطعوه .

● من استولى عليه الضجر رحلت عنه الراحة .

● اثنتا عشرة ينبغي للرجل المسلم أن يتعلمها على المائدة : أربع منها فريضة ، وأربع منها سنة ، وأربع منها أدب .

فأما الفريضة : فالمعرفة بما يأكل والتسمية ، والشكر ، والرضا .

وأما السنة : فالجلوس على الرجل اليسرى ، والأكل بثلاثة أصابع ، وأن يأكل مما يليه ومص الأصابع .

وأما الأدب : فتصغير اللقمة ، والمضغ الشديد ، وقلة النظر في وجوه الناس ، وغسل اليدين .

● كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة : القَتَّال ، والساحر ، والديوث ، وناكح المرأة حراماً في دبرها ، وناكح البهيمة ، ومن نكح ذات

محرم ، والساعي في الفتنة ، وبائع السلاح من أهل الحرب ، ومانع الزكاة ، ومن وجد سعة فمات ولم يحج .

● لا وليمة إلا في خمس : في عرس ، أو خرس ، أو عذار ، أو وكار ، أو زار ، فالعرس التزويج ، والخرس النفاس بالولد ، والعذار الختان ، والوكار في شراء الدار ، والذكار الرجل يقدم من مكة .

● لا ينبغي للعاقل أن يكون ظاعناً[1] إلا في ثلاث : مرمَّةٍ لمعاش ، أو تزوُّدٍ لمعاد ، أو لذة في غير محرم .

● ثلاثة من مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة : أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل مَن قطعك ، وتحلم عمن جهل عليك .

● آفة الحساب الافتخار .

● من خاف الله عز وجل أخاف منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء .

● أربع من كُنَّ فيه بني الله له بيتاً في الجنة : من آوى اليتيم ، ورحم الضعيف ، وأشفق على والديه ، ورفق بمملوكه .

● ثلاث من لقي الله عز وجل بهن فهو من أفضل الناس : من أوفى الله بما افترض عليه فهو من أعبد الناس ، ومن ورع عن محارم الله فهو من أورع الناس ، ومن قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس .

● ثلاث لا يطيقها أحد من هذه الأمة : المواساة للأخ بماله ، وإنصاف الناس من نفسه ، وذكر الله على كل حال ، وليس هو[2] : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عز وجل عنده وتركه .

● سبعة من كن فيه فقد استكمل حقيقة الإيمان وأبواب الجنة مفتحة

---

(١) المراد به السير أو السفر لطلب الرزق .. إلخ .

(٢) أي ليس الذكر فقط أن يقول العبد : « سبحان الله ... إلخ » .

له : من أسبغ وضوءه ، وأحسن صلاته ، وأدى زكاة ماله ، وكف غضبه ، وسجن لسانه ، واستغفر لذنبه ، وأدى النصيحة لأهل بيته .

● ثلاث يحسن فيهن الكذب : المكيدة في الحرب ، وعدتك زوجتك ، والإصلاح بين الناس .

وثلاثة مجالستهم تميت القلب : مجالسة الأنذال ، ومجالسة الأغنياء ، والحديث مع النساء .

● ثلاث من حقائق الإيمان : الإنفاق مع الإعسار ، وإنصافك الناس من نفسك ، وبذل العلم للمتعلم .

● ثلاث من لم تكن فيه لم يتم عمله : ورع يحجزه عن معاصي الله عز وجل ، وخلق يداري به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل .

● ثلاث مفرحات للمؤمن في الدنيا : لقاء الإخوان ، وتفطير الصائم ، والتهجد من آخر الليل .

● ثلاث خصال مذمومات : الحسد ، والحرص ، والكبر .

● أربع خصال من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وبُعد الأمل ، وحب البقاء .

● سر سنتين بر والديك ، سر سنة صِل رحمك ، سر ميلاً عد مريضاً ، سِر ميلاً شيِّع جنازة ، سر ثلاثة أميالٍ أجب دعوة ، سر أربعةَ أميال زر أخاً في الله ، سر خمسةَ أميالٍ أغِث الملهوفَ ، سر ستةَ أميالٍ انصر المظلوم ، وعليك بالإستغفار .

● للمؤمن ثلاث علامات : الصلاة ، والزكاة ، والصيام . وللمتكلف ثلاثُ علامات : يتملق إذا حضر ، ويغتاب إذا غاب ، ويشمت بالمصيبة . وللظالم ثلاثُ علامات : يقهر مَن دونه بالغلبة ، ومَن فوقه بالمعصية ، ويظاهر الظلمة ــ وللمرائي ثلاث علامات : ينشط إذا كان عند الناس ، ويكسل إذا كان وحده ، ويحب أن يُحمد في جميع أموره . وللمنافق ثلاث علامات : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان .

● والله لو أن المتواضع في قعر بئر لبعث الله عز وجل إليه ريحاً ترفعه فوق الأخيار في دولة الأشرار .

● أوثق الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله .

● من السُّحت : ثمن الميتة ، وثمن الكلب ، وثمن الخمر ، ومهر الزانية ، والرشوة في الحكم ، وأجر الكاهن .

● من تعلم علماً ليماريَ به السفهاء ، أو يجادل به العلماء ، أو ليدعو الناس إلى نفسه .. فهو من أهل النار .

● إذا مات العبد قال الناس : ما خلف ، وقالت الملائكة : ما قدم .

● أنين المؤمن المريض تسبيح ، وصياحه تهليل ، ونومه على الفراش عبادة ، وتقلبه من جنب إلى جنب جهاد في سبيل الله ، فإن عوفي يمشي في الناس وما عليه ذنب .

● النوم أربعة : نوم الأنبياء على أقفيتهم(١) ، ونوم المؤمنين على إيمانهم ، ونوم الكفار والمنافقين على أيسارهم ، ونوم الشياطين على وجوههم .

● في الزنى ست خصال : ثلاث منها في الدنيا ، وثلاث منها في الآخرة . فأما التي في الدنيا : فيذهب بالبهاء ، ويعمل الفناء ، ويقطع الرزق .

وأما التي في الآخرة : فسوء الحساب ، وسخط الرحمن ، والخلود في النار .

● صلة الرحم تزيد في العمر .

● افتح الطعام بالملح واختمه بالملح فإن فيه شفاء من اثنين وسبعين داء .

● من مسح يده على رأس يتيم ترحماً له : أعطاه الله عز وجل بكل شعرة نوراً يوم القيامة .

---

(١) إشارة إلى أنهم ينظرون إلى السماء .. أو يفكرون كثيراً في كل ما يتعلق بدعوتهم من أمور ... دنيوية أخروية .. والله أعلم .

● لا فقر أشد من الجهل ، ولا مال أعون من من العقل ، ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف عن محارم الله وعما لا يليق ، ولا عبادة كحسن الخلق ، ولا عبادة مثل التفكر .

● آفة الحديث الكذب ، وآفة العلم النسيان ، وآفة البادة الفترة ، وآفة الجمال الخيلاء ، وآفة الحلم الحسد .

● **من نسى الصلاة على النبى ﷺ فقد أخطأ طريق الجنة .**

● أعتى الناس على الله القاتل غير قاتله ، والضارب غير ضاربه .

●● ثم إليك أخا الإسلام بعد ذلك وصية لقمانية أرجو كذلك أن تكون خير زاد لك إلى الله تبارك وتعالى ... وهي :

● يا بني : اتخذ تقوى الله تجارة يتأتيك الربح من غير بضاعة .

● يا بني : احضر الجنائز . ولا تحضر العرس ، فإن الجنائز تذكرك الآخرة ، والعرس يشهيك الدنيا .

● يا بني : لا تكن أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك .

● يا بني : لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة .

● يا بني لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله .

● يا بني : اتق الله ولا تر الناس أنك تخشى ليكرموك بذلك وقلبك فاجر .

● يا بني : ما ندمت على الصمت فإن الكلام إذا كان من فضة كان السكوت من ذهب .

● يا بني : اعتزل الشر كيما يعتزلك فإن الشر للشر خلق .

● يا بني : عليك بمجالس العلماء واستمع كلام الحكماء ، فإن الله تعالى يحيى القلب الميت بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل المطر .. فإن كذب ذهب ماء وجهه ، ومن ساء خلقه كثر غمه ، ونقل الصخور من موضعها أيسر من إفهام من لا يفهم .

● يا بني : لا ترسل رسولك جاهلاً ، فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك .

● يا بني : لا تنكح أمة غيرك فتورث بنيك حزناً طويلاً .

● يا بني : يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حلم .

● يا بني : لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر فيه الله عز وجل ، فإنك إن تكن عالماً لا ينفعك علمك وإن تك غبياً يزيدوك غباء ، وإن يطلع الله عليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم .

● يا بني : لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء .

● يا بني : إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيها ناس كثير ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله لعلك تنجو .

● يا بني : إني حملت الجندل والحديد فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء ، وذقت المرارة كلها فلم أذق أشد من الفقر .

● يا بني : إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

● يا بني : لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم .

● يا بني : إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذر .

● يا بني : إنك منذ نزلت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة ، فدار أنت إليها تسير أقرب من دار أنت عنها ترحل .

● يا بني : عود لسانك أن يقول اللهم اغفر لي فإن لله ساعات لا ترد .

● يا بني : إياك والدَّين فإنه ذل النهار وهُمٌّ الليل .

● يا بني : ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته .

● يا بني : إني موصيك بثمانية أمور إن أنت عملت بها في الدنيا كنت سعيداً في الدنيا والآخرة .

احفظ قلبك في الصلاة ، واحفظ نظرك في بيوت الناس ، واحفظ لسانك في مجالس الناس ، واحفظ بطنك من حُلقومك .

واذكر اثنين وانس اثنين :

اذكر الله ، والموت ، وانس إحسانك إلى الناس ، وإساءتهم إليك » .

●● فنفذ أخا الإسم كل هذه النصائح الغالية ، التي أضيف إليها كذلك وصية لعلقمة بن لبيد يوصي بها ولده فيقول :

● « يا بني : إن احتجتَ إلى صحبة الرجال فاصحب من إن صحبتَه زانك ، وإن أصابتك خَصاصة[1] أعانك ، وإن قلت سَدَّدَ قولك ، وإن صلت[2] قوَّى صولتك ، وإن بدت منك ثُلْمةٌ[3] سَدَّهَا ، وإن رأى منك حسنة عَدَّها ، وإن سألته أعطاك ، وإن نزلت بك إحدى المهمات واساك ، من لا تأتيْك منه البوائق[4] ، ولا تختلف عليك منه الطرائق » .

وفي هذا المعنى يقول أحد الحكماء :

إن صديقك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب[5] الزمان صدعك ... شتَّتَ فيك شمله ليجمعك

●● وكذلك إليك هذه النصيحة الجامعة التي هي من درر الإمام الشافعي رضي الله عنه :

إذا شئتَ أن تحيا سليماً من الردى ... ودينك موفور وعرضك صَيِّنُ
فلا ينطقن منك اللسان بسوأة ... فكلك سوءاتٌ وللناس ألسُنُ
وعينك إن أبدت إليك مساوياً ... لقوم فقل يا عينُ للناس أعينُ
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... ودافع ولكن بالتي هي أحسنُ

● وله أيضاً عليه رضوان الله :

صُنِ النفس واحملها على ما يزينها ... تعش سالماً والقول فيك جميل

ولا تولِيَنَّ الناس إلا تجمُّلاً ... نَبَا بِكَ دهر أو جفاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ ... عسى نكبات الدهر[6] عنك تزول
ولا خير في وُدِّ امريء مُتَلَوِّنٍ ... إذا الريح مالت مال حيثُ تميلُ
وما أكثر الإخوان حين تعدم ... ولكنهم في النائبات قليل

---

(١) خصاصة : أي فقر .
(٢) صلتَ : أي وثبت .
(٣) ثلمة : أي الخلل .
(٤) البوائق : جمع بائقة ، وهي الداهية والشر الشديد .
(٥) ريب الزمان : أي أهواله ، وصدعك : أي شققك .
(٦) أي مصائبه .

● و :

يا مبتغي العز والسلامة ‏ ‏ ‏ الزم ثلاثاً تلقَ الكرامة
لا تسأل المرء ما لديه ‏ ‏ ‏ ولا تُرى آكلاً طعامه
ولا ترى ذاكراً بسوء ‏ ‏ ‏ ما عشتَ خلقاً إلى القيامة
وذر لهذي الثلاثة تقوى الإله ‏ ‏ ‏ تكمل لك السلامة

● و :

إن رمتَ في الحشر تنجو ‏ ‏ ‏ من حر نار الجحيم
وتستعزُّ بنصر ‏ ‏ ‏ من العزيز الرحيم
فَصُن لسانك واردد ‏ ‏ ‏ عن عِرض خِلّ كريم
فالله يوفيك أجراً ‏ ‏ ‏ من النعيم المقيم
وذا لَعمرك كافٍ ‏ ‏ ‏ طوبى لقلب سليم

●● رزقني الله وإياك وجميع المسلمين والمسلمات حسن الخاتمة .. آمين .

****

وأخيـــــراً



● « أستغفر الله العظيم لي ولوالداتي(1) ووالِدِيَّ(2) ، والمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات من مَيْتٍ وحَيْ ، والصلاة والسلام علي خير نبي وكلِّ نبيْ ، وعلى آله وآلهم ، وصحبه وصحبهم وكل تَقِيٍّ ووليْ ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله عدد ما خلق الله وما يخلق من شيء » :

وإذا كان لِيَ أن أختم بشيء بعد هذا الإستغفار الذي هو من المأثورات التي أحفظها عن والدي « السيد عبد الله العفيفي »(3) رحمه الله وجعل الجنة مأواه :

فإنه لا يسعني أولاً إلا أن أقدم شكري لرب العزة سبحانه وتعالى الذي وفقني وأعانني على إتمام شرح بقية « وصايا الرسول ﷺ » بتلك الصورة المتواضعة التي أرجو أن تكون مِشعلاً مُضيئاً على طريق الحق تبارك وتعالى إلى يوم الدين .

وأن أقدم ثانياً اعتذاري لصاحب الوصايا صلوات الله وسلامه عليه الذي كنت أتمنى أن أقدم وصاياه بأسلوب أرقى يتناسب مع شموخ بلاغته ، وعلو منزلته صلوات الله وسلامه عليه .. ولكنها الطاقة المحدودة التي وقفت عندها بكل اعتذار وانكسار .

فمعذرة سيدي يا رسول الله .. وصلاة ربي وسلامه عليك .. يا أفضل خلق الله وخاتم رسل الله .. وعلى آلك وأصحابك وأزواجك وذريتك أجمعين .

صلاة وسلاماً أكون بهما أهلاً لقرب منزلتي منك .. وشفاعتك لي في يوم الدين .. آمين .

والحمد لله رب العالمين .

---

(1) أي والداتي إلى حواء .

(2) والدي بكسر الدال أي آبائي إلى آدم .

(3) وهو الواعظ الأول للجمعيات الشرعية .. فعليه رحمة الله . وقد توفي في ٥ ذو الحجة ١٣٦٩ هـ الموافق ١٧ سبتمبر ١٩٥٠ م يوم الأحد .

خادم السنة المطهرة

طه عبد الله العفيفي



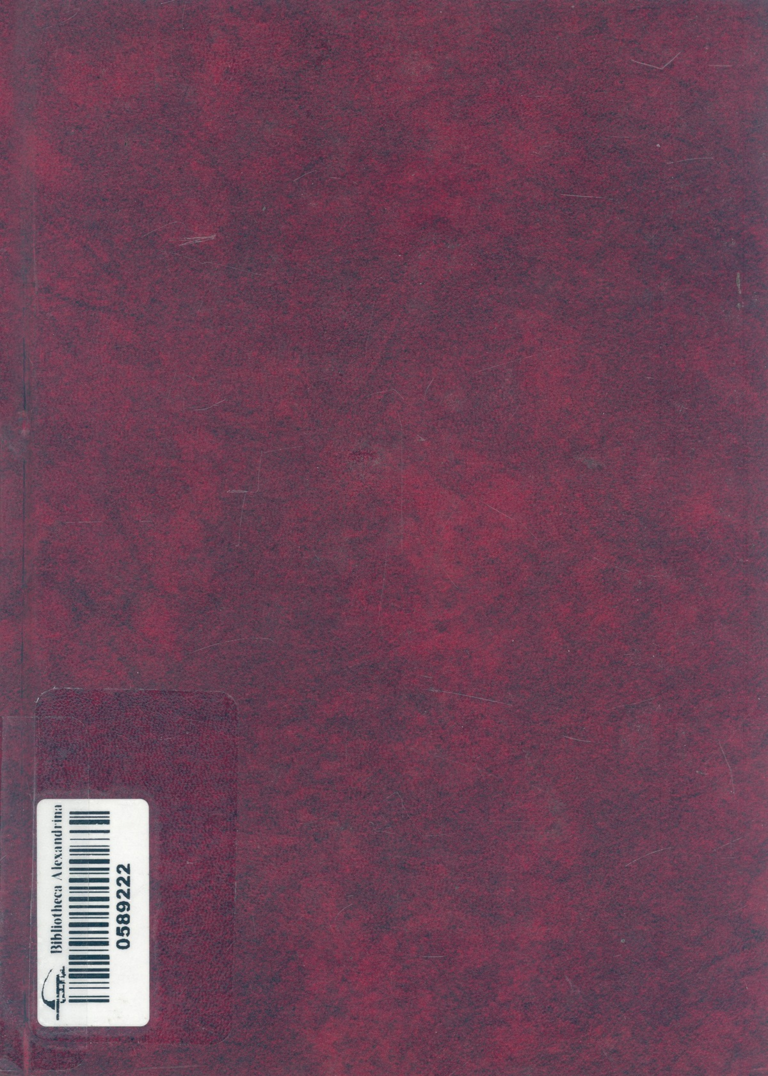
فهرس الكتاب

الوصية الخامسة والتسعون : « من احب دنياه اضر/باخرته .. » ٦١٧

الوصية السادسة والتسعون : « اهجرى المعاصى فإنها .. » ٦٢٣

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١
٦٨٦




Bibliotheca Alexandrina
0589222